المستشرق
إجناس جولد تسيهر

العقيدة والشريعة في الإسلام

تاريخ التطور العقدى والتشريعى فى الدين الإسلامى

نقله إلى العربية وعلق عليه

الدكتور
محمد يوسف موسى
أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة عين شمس بالقاهرة

الدكتور
على حسن عبد القادر
أستاذ بكلية الشريعة بالأزهر ومدير المركز الإسلامى بلندن

الأستاذ
عبد العزيز عبد الحق
مدير المركز الثقافى المصرى بأكرا — غانا

الناشر : دار الكتب الحديثة بمصر
ومكتبة المثنى ببغداد

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

المستشرق

اجناس جولدتسيهر

العقيدة والشريعة في الإسلام

تاريخ التطور العقدى والتشريعى فى الدين الإسلامى

نقله إلى العربية وعلق عليه

الدكتور
محمد يوسف موسى
أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة عين شمس بالقاهرة

الدكتور
على حسن عبد القادر
أستاذ بكلية الشريعة بالأزهر ومدير المركز الإسلامى بلندن

الأستاذ
عبد العزيز عبد الحق
مدير المركز الثقافى المصرى بأكرا — غانا



الطبعة الثانية
بزيادة تعليقات

الناشر : دار الكتب الحديثة بمصر
ومكتبة المثنى ببغداد

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونصلى ونسلّم على سيدنا محمد المرسل بالهدى والدين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونستمده الهداية فيما نحن بسبيله من خدمة الدين والعلم .

وبعد ؛ فهذه كلمات أقدم بها للطبعة الثانية لترجمتنا العربية لكتاب : «محاضرات فى الإسلام » ، أو كما عرف فى فرنسا والشرق : « العقيدة والشريعة فى الإسلام » ، للمستشرق المجرى « جُولْدْتْسِيهر » .

المستشرقون والإسلام :

لقد تناول المستشرقون من علماء أوروبا الإسلام والمسلمين بالدراسة من نواح مختلفة ؛ وكان منهم من ملكه الهوى فأضلّه على جهل أو علم ، ومنهم من اثر أن يكون منصفاً يصدع بالحق متى هُدِى إليه بعد البحث والتنقيب .

ومهما يكن ، فإن الدراسة التى تتميز بالجد والعمق للإسلام لم تبدأ إلا منذ القرن التاسع عشر ، حين ذاعت ثقافة الشرق والإسلام فى أوربا ، وحين أخذ الغرب يبسط سلطانه باسم الاستعمار على الشرق والبلاد الإسلامية ؛ عندئذ نهض كثير من رجال أوربا العلماء لبحث هذا الإسلام وتراثه ورجاله ، محاولين تعرف سر حيويته وبقائه .

وقد كان هؤلاء الباحثون — ولا يزالون — طوائف شتى ، ينتمون إلى أمم عديدة ، وتدفعهم عوامل مختلفة إلى احتمال البحث وعنائه ؛ وإن ألّف بينهم جميعاً العمل على تجلية الإسلام من نواحيه المختلفة ، كلٌّ من الناحية التى تخصص فيها وعلى ما يرى من الأوضاع .

وقد كان اهتمامهم أولا بكتب المغازى والسِّير والتاريخ ، ثم أخذوا فى دراسة القرآن وعلومه ، والفقه وأصوله ، وعلم أصول الدين والفرق الإسلامية ، وما إلى ذلك كله من مظاهر الفكر الإسلامى .

ونستطيع أن نذكر من هؤلاء العلماء : « رنان » Renan الفرنسى المعروف بعصبيته على الشرق والعرب والإسلام ؛ ومواطنه « جُسْتاف ليبون » Gustave Le Bon صاحب كتاب حضارة العرب[1] الذى نُقل هذه الأيام للعربية ؛ و« نولدكه » Th. Nöldeke الألمانى المعروف بكتابه القيم فى القرآن وتاريخه[2] ؛ و« كايتانى » Leone caetani الإيطالى مؤلف الكتاب الضخم : حوليات الإسلام[3] ؛ والأب « لامَنْس » H. Lammens البلجيكى صاحب كتابى معاوية ، والإسلام ، وغيرهما من المؤلفات التى يبين فيها بوضوح ركوبه متن الشطط والهوى كثيراً ؛ و« كارا دى ڤو » Carra de Vaux الفرنسى صاحب : مفكرو الإسلام[4] ، والذى أفرد كُلاًّ من ابن سينا والغزالى بكتاب خاص .

ثم نجد بين هؤلاء الأعلام الأستاذ المحقق « لويس ماسِّنيون » L. Massignon الحجة فى التصوف فى الإسلام ؛ والأستاذ الإنجليزى «نيكلْسون» R. H. Nicholson المشهور بدراساته فى التصوف الإسلامى أيضاً . وأخيراً ، نذكر العلامة « جولد تسيهر» صاحب الكتاب الذى تعتبر هذه الكلمة مقدمة له فى طبعته الثانية باللغة العربية .

المؤلف : حياته ودراساته :

ومؤلف الكتاب هو « اجنتس جولد تسيهر» المجرى الأصل . ولد فى شهر يونيه من شهور عام ١٨٥٠م ، وتوفى فى نوفمبر من عام ١٩٢١ ، أى بعد سبعين عاماً أو تزيد من حياة حفلت بالدرس والبحث والتأليف ، وكانت وفاته بمدينة « بودابست » عاصمة المجر التى كانت مجال نشاطه العلمى فى الشطر الأكبر من عمره .

فقد أمضى فيها السنوات الأولى من دراسته ، ثم ارتقى به الحال حتى صار أستاذاً بجامعتها ، وانتهى به الأمر إلى اتخاذها مستقراً ومقاما دائما للبحث والدرس وإذاعة

(١) *La civilisation des Arabes.*
(٢) *Geschichte des Qorans.*
(٣) *Annali dell'Islam*
(٤) *Les prenseurs de l'Islam.*

بحوثه ومؤلفاته، التى أربت على بضع مئات، كما يذكر الذين عنوا بترجمته وتتبع دراساته.

ولاعجب أن يكون له هذا العدد الضخم من المؤلفات والتعاليق والبحوث والمقالات! فقد اتجه للإنتاج فى ناحية الاستشراق وهو دون العشرين من عمره.

ولسنا الآن بسبيل التعريف بإنتاجه العلمى كله، ولكن يحسن أن نشير إلى أن منه كتابه عن «الظاهرية ومذهبهم وتاريخهم» وقد ظهر عام ١٨٨٤م؛ ثم «دراسات إسلامية»، وقد ظهر فى جزءين بعد سابقه بسنوات؛ ثم كتابنا هذا: «محاضرات فى الإسلام»، أو كما عرف: «العقيدة والشريعة فى الإسلام»؛ ثم أخيراً «مذاهب المسلمين فى تفسير القرآن»، الذى نقل أيضا إلى العربية.

ومما لا ريب فيه أن هذين الكتابين الأخيرين هما أنضج ما كتب المؤلف عن الإسلام، وأشهر ما ترك من تراث قيم كبير.

ومما لا ريب فيه كذلك أنه بهذا التراث الذى خلفه، وبهذين الكتابين بصفة خاصة، يعتبر — فيما نرى — فى المرتبة الأولى من المستشرقين، ومن أعظمهم تناولا للإسلام ومذاهبه وعلومه الأصلية بالدرس والبحث المستفيض؛ كما أنه لذلك أيضا يعد من كبار المستشرقين الذين فهموا — بقدر ما وسعهم — الإسلام وروحه وتعاليمه ومذاهبه والعوامل التى أثرت فى ذلك كله ووجّهته وجهات مختلفة.

الكتاب وعملنا فيه:

والكتاب دراسة تفصيلية للإسلام من جميع نواحيه: من ناحية رسوله، والشريعة ونموّها، والعقيدة وتطورها، والزهد والتصوف ونشأتهما والعوامل التى أثرت فيهما، والفرق الإسلامية المختلفة، ثم الحركات الأخيرة الإصلاحية فى رأى أصحابها.

وقد استند المؤلف فى كل قسم من أقسام الكتاب، وكل بحث من بحوثه، إلى طائفة كبيرة من المراجع الإسلامية الموثوق بها؛ ويسعفه عقله الألمعى وبصيرته النافذة. ومع هذا، فقد انساق إلى أخطاء غير يسيرة، بعوامل قد يكون منها أنه لم يستطع أن ينفذ تماماً إلى روح الإسلام ومبادئه وأصوله، وقد يكون منها كذلك ما هو طبيعى فى كل ذى دين وثقافة خاصة من العصبية لدينه وثقافته.

من أجل ذلك كله، كان الكتاب وهو فى لغته الألمانية، أو فيما نقل إليها من

اللغات الأجنبية ، معينا قويا وذخيرة قيمة لمن يبحث فى الإسلام من أبناء العربيـة وغيرها من اللغات ؛ ومن أجل ذلك أيضا كان نقله إلى العربية فرضا على القادر من أبنائها ، وبخاصة إذا كان ممن تخصص فى الشئون الإسلامية بحكم نشأته ودراسته وعمله

إلا أن نقله للعربية كان يتطلب بلا ريب بصراً بالمصطلحات الـكثيرة المختلفة للعلوم التى تناولها بالبحث والدراسة . وتعقبا للمؤلف فى كل النصوص التى استند إليها وهى كثيرة جداً منبثة فى مراجع عديدة ، ويستلزم قدرة على التعليق والرد على ما أخطأ المؤلف فيه مما لا يتفق والحق وماجاء به الاسلام . وكان نقله للعربية بهذه الشروط ، أو على هذه الأسس ، أمنية الدارسين والباحثين فى الإسلام .

وبقى بعد هذا كله عمل آخر فى الـكتاب ، وهو التعليق والرد على ما أخطأ فيه المؤلف من الآراء ، وعلى ما كان منه من سوء فهم لبعض النصوص أو سوء استدلال بها . وهذا العمل قد اضطلعت به ، وأعاننى فى بعضه الأخ العالم الثبت الأستاذ الشيخ محمد على النجار الأستاذ بكلية اللغة العربية بالأزهر ، وعضو مجمع اللغة العربية ، فكان لى منه العون القيم المشكور من الله ومنا والقراء جميعا .

* * *

على أننا جميعا — نحن الثلاثة — الذين نقلوا هذا الـكتاب إلى العربية مقرون للترجمة فى الـكتاب كله أصله وحواشيه ، ومقرون للتعليقات التى رأينا أنه لابد منها .

وأخيراً ، قد رأينا أن يكون أصل الـكتاب يتلو بعضه بعضا ، وأن تجىء حواشى المؤلف بعد تمام الأصل ، كما هى الحال فى لغة الـكتاب الأجنبية ، وأن تـكون الردود والتعليقات على كل من الأصل والحواشى أسفل الصفحات :

ونرجو بعد هذا كله ، أن نـكون قد قمنا ببعض ما يجب علينا نحو الإسلام والدراسات الإسـلامية ، وإمداد المـكتبة العربية بخير ما كتب الغربيون من هذه الدراسات ؛ والله ولىّ التوفيق .

الروضة { رمضان ١٣٧٨ هـ
مارس عام ١٩٥٩م

محمد يوسف موسى

مقدمة المؤلف

دعتنى اللجنة الأمريكية للمحاضرات فى تاريخ الأديان خلال خريف عام ١٩٠٨ م إلى القيام بإلقاء سلسلة من الدروس فى الإسلام ، وهى سلسلة كان يجب أن تدخل ضمن محاضرات تاريخ الأديان التى عملت هذه اللجنة على تنظيمها . وكنت قد قررت إجابة هذه الدعوة الرقيقة ، ووضعت فعلا نص المحاضرات مخطوطاً ؛ ولـكن ما كدت أتمه ، حتى حالت صحتى السيئة دون السفر الذى كان مقدراً .

ولما لم يكن سهلا علىّ إدخال تعديلات جوهرية على الترتيب الأصلى لهذا العمل ، أو نزع طابع الدروس عنه ، لم أجد بداً من نشره فى المجموعة التى شرعت فى طبعها فى شـكله الحالى ، وذلك لما أبداه بعض الزملاء من كريم النصائح وجميل التشجيع ، وبخاصة وقد كانوا يعرفون هذا العمل من قبل .

ونص المحاضرات الذى كُتِبَ بقصد ترجمته إلى اللغة الإنجليزية ، لم يُدخل عليه إلا القليل من التعديلات اليسيرة وبعض الإضافات التى أريد بها إدخال بعض مواد لم تـكن تحت يدى فى بادىء الأمر ؛ منها طبقات ابن سعد التى ظهرت فى هذه الفترة . أما الهوامش والمراجع التى ضمت إلى الـكتاب تحقيقاً لبعض الرغبات ، فلم تضَف إلا لهذه الطبعة وحدها .

وقد كان مشروع هذه المحاضرات فى أول الأمر لا يشمل إلا دراسة عناصر الإسلام الدينية دون تاريخه السياسى . أما بحثى المنون « فى دين الإسلام » ، الذى تقدم ظهوره قليلا فى (ثقافة العصر الحاضر *Kultur der Gegenwart*) ج ١ قسم ٣ ص ٨٧ ــ ١٣٥) ، فقد قوبل قبولا حسناً من النقاد الأكفاء ، وهم الذين شجعونى على التوسع فى هذه الدراسة .

وقد فـكرت عندئذ فى اعتبار هذه الدراسة الموجزة ملخصاً يصلح أساساً للتوسع عند إلقاء هذه الدروس ، وكان من الضرورى لهذا أن أنقل بعض فقرات هذا البحث من آنٍ لآخر فى هذا الـكتاب . ولا يسعنى إلا أن أشكر ناشر (ثقافة العصر الحاضر

(Kultur der Gegenwart الأستاذ الدكتور پول هنبرج Paul Hinneberg لسماحه بهذا النقل والاقتباس ، وقد أشرت فى الحواشى الى الفقرات التى نقلتها* .

أما وضع الفهارس فأنا مدين به إلى المعاونة القيمة لأحد مستمعى القدماء ، وهو الدكتور برنارد هلر Bernard Heller الأستاذ ببودابست ؟

بودابست فى ٢٢ يونيه سنة ١٩١٠ .

جولد تسيهر

---

* هذه الهوامش حذفت من الطبعة الفرنسية .

١

محمد [صلى الله عليه وسلم] والإسلام

١ — منذ أن أصبح الدين ُيدرس ، على أنه موضوع علم مستقل ، شرع الباحثون يتساءلون عن أصله من الوجهة النفسية ، وتقدموا بإجابات مختلفة عن هذا السؤال .

هذا هو العالم الهولنوى تيليه C. P. Tiele ، أحد مشاهير مؤرخى الأديان ، قد استعرض فى محاضرة له ألقاها بأيدنبورْج سلسلة نموذجية من هذه الإجابات ، ونقدها نقداً علمياً[1] ، وهذه الإجابات هى : إن أصل الدين هو حيناالإدراك الفطرى فى الإنسان الخاص بالسببية ، (وانتهاء الأسباب إلى سبب أخير أو علة نهائية ُعليا) وحيناً هو شعور الإنسان بتبعيته لقوة عليا ؛ وحينا حدس اللانهائى ؛ وحينا الزهد فى العالم واطّراحه ، هذا الزهد الذى نرى فيه تأثيراً يسود المرء ويغلبه على أمره — كل من أولئك ، يمكن أن نتعرّف فيه أصل الدين وجرثومته .

وأعتقد أن هذه الظاهرة ، من ظواهر حياة الإنسان النفسية ذات طبيعة مركبة معقدة تجعل من العسير أن نرجعها إلى سبب واحد . فنحن لا نعرف الدين ، أول ما نعرفه ، مجرداً وخالصاً مما قد يحيط به من ظروف تاريخية محددة معينة ؛ بل إنه ليظهر فى أشكاله العالية العميقة ، قليلا أو كثيراً ، بواسطة ظواهر وضعية تختلف باختلاف الأحوال الاجتماعية .

وفى مختلف الظواهر التى تعمل على ظهور الدين نرى أحد محركات الدوافع الدينية ، السابق ذكرها ، قد يتخذ مركزاً ممتازاً بين الدوافع الأخرى التى تعمل متعاونة معه . فالأديان ، منذ الخطوات الأولى لنموها ، كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقا بالعامل الذى يأخذ فى سيادة العوامل الأخرى ، فى الفترة التى ينمو فيها الدين ؛ بل وفى أثناء حياته التاريخية . وهذا الرأى صحيح حتى فيما يتصل بصور الأديان التى نشأ عنها إلهام فردى .

والدين الذى سنشرع فى درس حياته التاريخية فى هذه الفصول ، قد دل على أساسه الرئيسى وطابعه الذاتى ، وذلك بالاسم الذى أطلق عليه منذ بادئ الأمر ،

والذى لا يزال يحمله وهو يتابع رسالته فى قرنه هذا الرابع عشر ، وهو الإسلام .

فالإسلام معناه الانقياد : انقياد المؤمنين لله ، فهذه الكلمة تركز أكثر من غيرها الوصع الذى وضع فيه محمد [صلى الله عليه وسلم] المؤمنين بالنسبة إلى موضوع عباداتهم [وهو الله] . إنها كلمة مصطبغة ، فوق كل شىء ، بشعور التبعية القوى الذى يحس به الإنسان إحساساً قوياً أمام القدرة غير المحدودة والتى يجب أن يخضع لها وينزل فى سبيل ذلك عن إرادته الخاصة .

هذا هو المبدأ السائد فى هذا الدين ؛ فهو الذى يلهم أو يوحى جميع مظاهره وآرائه وصوره وأخلاقه وعبادته ، بل هو الذى يطبع العقلية التى يريد تثبيتها فى الإنسان . وذلك أكبر مثل للتدليل على صحة نظرية « شيلير ماخر » التى ترى أن أصل الدين هو فى الشعور بالتبعية .

٢ — ومنهاج هذه الدراسة لا يدخل فيه بحث التفاصيل الخاصة المذهبية لهذا الدين ، والذى علينا هو أن نلقى ضوءاً على العوامل التى أسهمت فى تكوينه التاريخى .

ذلك بأن الإسلام ، كما يبدو عند اكتمال نموه ، هو نتيجة تأثيرات مختلفة تكوّن بعضها باعتباره تصورا وفهماً أخلاقياً للعالم ، وباعتباره نظاماً قانونياً وعقيديا ، حتى أخذ شكله السنى النهائى* . وعلينا كذلك أن نتحدث عن التيارات التى أثرت فى اتجاهات نهر الإسلام ، لأن الإسلام ليس مذهباً واحداً ، بل حياته التاريخية تتأكد فيما نشأ فيه من اختلافات .

وهنالك نوعان من التأثيرات التى تحدد الاتجاه الذى يسير فيه أى نظام من

---

* يجعل الإسلام كسائر الأنظمة تطور وتدرج من طريق النقص إلى الكمال فى عقائده وفقهه وغير ذلك . والإسلام كمل فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام بما جاء فيه من مبادئ وأصول وتفريع عليها ؛ وما دخل عليه من دخيل ، من اليونان وغيرهم ، إن لم يوافق مبادئه فإن المسلمين ينبذونه ويهجرونه ، ولا يعد هذا الدخيل فى الإسلام . وليس بصحيح — كما سيذكر فيما بعد — تأثر الفقه بالقانون الرومانى ، وما تأثر به العباسيون فى الأنظمة السياسية من قوانين الفرس مما خالف الحياة الإسلامية كان نقمة وبلاءاً عليهم . ولنقرأ فى كمال الدين فى عصر النبوة قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وراجع فى دحض أسطورة أخذ الفقه الإسلامى عن الفقه الرومانى ، ص ٨٤ — ١٠٣ من كتاب : الفقه الإسلامى ، مدخل لدراسته ونظام المعاملات فيه ، للدكتور محمد يوسف موسى ، ط ٣ بدار الكتاب العربى بالقاهرة سنة ١٩٥٨ .

النظم مهما كان نوعه ولونه. هنالك أولا ما فى النظام نفسه من قوى داخلية ذاتية تعجّل نموه التاريخى ؛ وهناك ثانياً التأثيرات الروحية التى ترد عليه من الخارج ، وتضيف إليه ثروة جديدة وتجعله خصباً ، كما تعمل على أن يسير فى طريق التطور . حقاً ، إن فعل التأثيرات الأولى قد أُحسّ به بلا شك فى الإسلام وتاريخه ، ولكن أثر الضرب الثانى من هذه التأثيرات ، أى التأثيرات الروحية التى جاءته من غيره واستوعبها وتمثّلها ، هو الذى يميز أهم عصوره فى رأى الباحثين . ويبين ذلك إذا عرفنا أن نمو الإسلام مصطبغ نوعاً بالأفكار والآراء الهلينستية ؛ ونظامه الفقهى الدقيق يُشعر بأثر القانون الرومانى ؛ ونظامه السياسى ، كما تكوّن فى عصر الخلفاء العباسيين ، يدل على عمل الأفكار والنظريات السياسية الفارسية ؛ وتصوفه ليس إلا تمثلا لتيارات الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة الفلسفية .

على أن من الحق أن نقرر أن الإسلام فى كل هذه الميادين قد أكد استعداده وقدرته على امتصاص هذه الآراء وتمثّلها ، كما أكد قدرته كذلك على صهر تلك العناصر الأجنبية كلها فى بوتقة واحدة ؛ فأصبحت لا تبدو على حقيقتها إلا إذا حُلِّلت تحليلا عميقاً ، وبُحثت بحثاً نقدياً دقيقاً .

وهذا الطابع العام يحمله الإسلام مطبوعاً على جبهته منذ ولادته . فمحمد [صلى الله عليه وسلم] مؤسسه لم يبشر بجديد من الأفكار ، كما لم يمدّنا أيضاً بجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره وباللانهاية ، لكن هذا وذاك لاينقصان من القيمة النسبية لطرافته الدينية * .

ولكن مؤرخ العادات مثلا ، إذا حاول أن يحكم على ظاهرة من ظواهر التاريخ ، لا يوجه همّه الأول إلى ناحية الطرافة . لذلك ، لكى نقدر عمل محمد [عليه السلام] من الوجهة التاريخية ، ليس من الضرورى أن نتساءل عما إذا كان تبشيره ابتكاراً وطريفاً من كل الوجوه ناشئاً عن روحه ، وعما إذا كان يفتح طريقاً

* يقول إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يبشر بجديد من الأفكار . والرسول عليه الصلاة والسلام قد جاء على فترة من الرسل وغواية وعمى من الأمم ، والناس فى شرك وعبادات باطلة ، فهدى الناس وسن لهم الله على لسانه بما أوحى إليه ما كان فيه شفاء لهم وإخراج لهم من الظلمات إلى النور .

جديداً بحتاً . فتبشير النبى العربى ليس إلا مزيجاً منتخباً[٢] من معارف وآراء دينية ، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها[٣] التى تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتى رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بنى وطنه ؛ وهذه التعاليم التى أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت فى رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة فى الاتجاه الذى تريده الإرادة الإلـهية * .

لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه ، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلـهياً ، فأصبح — بإخلاص — على يقين بأنه أداة لهذا الوحى .

لا نريد أن نتتبع خطوة خطوة المراحل « الباثولوجية » التى نشأ فيها الشعور بهذا الوحى واعتقاده وتثبيته فى نفسه .

ومن أجل هذا علينا أن نذكر كلمة ذات معنى قالها « هارناك » عن « الأمراض التى تصيب الرجال الذين فوق البشر دون سواهم ، والتى يَسْتقون منها حياة جديدة كانت قبل ذلك مجهولة ، كما يتخذون منها قوة تهدم جميع العقبات ، ومن ذلك حمية النبى أو الحوارى[٤] .

ويمكننا أن نلقى نظرة عامة شاملة على الأثر التاريخى القوى الذى قامت به الدعوة إلى الإسلام ، وخاصة أثرها فى الدائرة القريبة التى كان تبشير محمد موجهاً إليها بطريق مباشر قبل غيرها .

حقاً لا جدة أو طرافة فى هذه الدعوة ، ولـكن قد استعيض عنها بأن محمداً

---

* رمى النبى عليه الصلاة والسلام — هنا وفى مواضع أخرى — بأنه استقى معارفه من المصادر اليهودية والمسيحية . وقديماً نطق بهذه الفرية المعاصرون للرسول ورد عليهم القرآن : (ولقد نعلم . . . يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) . وقد علل هنا إيمان النبى بنبوته تعليلا ركب فيه حظه من المعرفة التى لا تسمو عن المادة ، ولا تعدو المحسوس ، وهو بذلك يجانب الإنصاف .

ثم يشير إلى عدم إمكان الوحى ، وأن أمر الأنبياء مسألة نفسية ترجع إلى تشبع المرء بحالة خاصة من فرط استغراقه فيها ؛ والمؤمنون بالرسل على غير هذا . ويلاحظ أن الأوساط الأجنبية التى اتصل بها الرسول لا تعدو فى التاريخ بحيرا الراهب ، ولقد كان ذلك فى جلسة واللقاءة ، فهل تحدث هذا الأثر الذى لم يقو على إحداثه — كما يقول — نبى من الأنبياء قبله ! .

قد بشر بمذهبه للمرة الأولى بحماس لم يفتر ولم تعوزه المثابرة ، وبعقيدة ثابتة بأن هذا المذهب يحقق صالح الجماعة الخاصة ، وقد كان فى ذلك كله مظهراً لإنكار الذات برغم سخرية الجمهور به .

والواقع أنه لم تكن هناك أى نتائج تاريخية ذات بال عما أثاره بعض رجال الأديان قبل محمد من الاحتجاج على ما كان عليه قومهم ، وهو احتجاج كان بالعمل أكثر مما كان بالقول ضد الحياة كما كانت تتصورها أو تدركها الوثنية العربية .

وفضلا عن هذا ، فإننا لا نعلم مثلا ماذا كان نوع تبشير خالد بن سنان ، ذلك النبى الذى ضيعه قومه ، بل كان حظه الاحتقار منهم . الحق إذاً ، أن محمداً كان بلا شك أول مصلح حقيقى فى الشعب العربى من الوجهة التاريخية .

تلك كانت طرافته ، برغم قلة طرافة المادة التى كان يبشر بها .

هذا ، وفى خلال النصف الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكاراً أخذ يجترها فى قرارة نفسه ، وهو منطو فى تأملاته أثناء عزلته . ولميل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة والتى يُلمح فيها أثر حالته المرضية ، نراه ينساق ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه الأقربين والأبعدين . ومن الحق أن نلاحظ أن الجماعة التى تقوم على حياة القبائل العربية وأعرافها وتقاليدها فحسب ، لا يمكن أن يكون لها أخلاق عالية بسبب وثنيتها الغليظة الجوفاء .

لقد كان مسقط رأس محمد [مكة] مركزاً من المراكز الهامة الخطيرة لعبادة الأوثان والأصنام ، كما كان مقراً للكعبة المقدسة والحجر الأسود . ومع هذا كانت المادية ، وكبرياء الجاهلية ، وتحكم الأغنياء فى الفقراء ، هى المميزات السائدة عند أشراف تلك المدينة ؛ الذين كانوا يفيدون من سدانة الكعبة فوائد مادية لهاخطرها ، إلى جانب ما كان فى هذه السدانة من ميزة دينية وشرف قومى .

رأى محمد هذا ، فأخذ يشكو من اضطهاد الفقراء ، وطمع الأغنياء ، وسوء المعاملة ، وعدم المبالاة بالصالح العام وواجبات الحياة الإنسانية والأشياء الفاضلة الباقية التى تقابل هذه الحياة الدنيا الزائلة ومتاعها : « المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثواباً وخيرٌ أملاً » (سورة

الـكهف الآية ٤٦) . وعندئذ قابل بين هذه الأمور التى أثارت نفسه ، والأثر الذى كان باقياً وحيًّا فيه ، وهو الأثر المدين به للتعاليم التى سبق أن تلقاها وتفتحت لها نفسه وأشربها قلبه .

وكان قد بلغ الأربعين من عمره ، وأخذ يقضى وقته على ماتعود فى الخلوة فى الغيران المجاورة للمدينة [يريدمسقط رأسه أى مكة] ، حيث كان نهباً للأحلام القوية والرؤى الدينية ، وتملـكه شعور بأن الله يدعوه بقوة تزداد شيئاً فشيئاً ليذهب إلى قومه منذراً إياهم بما يؤدى بهم ضلالهم من الخسران المبين . وبكلمة واحدة ، أحس بقوة لا يستطيع لها مقاومة تدفعه إلى أن يكون مربياً لشعبه ، أى « منذره ومبشره » .

٣ ـــ وفى بدء رسالته كانت تأملاته تأخذ طريقها إلى الخارج فى شكل أمثال مضروبة للحياة الأخرى eschatologiques ، كانت تفرض نفسها على مخيلته بقوة تزداد يوماً بعد يوم ، وهذه التأملات هى التى كونت الفـكرة الأساسية التى بنى عليها تبشيره . وما سمعه أو عرفه عن يوم الحساب ، الذى سيقع يوماً ما على العالم كالصاعقة ، أخذ يطبقه على الأمور التى يراها حوله ، والتى كانت تملأ نفسه اشمئزازاً .

فنراه يواجه عدم اكتراث سادة مكة وكبرياءهم وجبروتهم بإنذارهم بيوم الحساب القريب منهم ، ويرسم بحروف من نار صورة البعث وصورة الحساب . وتفاصيل كل ذلك كانت تتمثل له فى رؤاه الانجذابية فى أشكال مروعة مخيفة .

فالله رب العالمين ومالك يوم الدين يدعو إلى رحمته ، من أنقاض العالم المتهدم ، المخلوقات الخاضعة التى لم تعارض بالاحتقار والاستهزاء صوت المنذر المـكروب ، ولـكن أنابت إلى نفسها وارتفعت فوق عاطفة العجب والخيلاء ، بما لها من مال ومتاع وسلطان ، إلى عاطفة الإعجاب بتبعيتها لله الواحد اللانهائى رب كل شىء ومالك الأمر كله .

وهكذا أسس محمد دعوته إلى التوبة والندم والخضوع والإسلام على تمثيلات تتعلق باليوم الآخر قبل كل شىء . وحالة الإدراك هذه كان من نتائجها ، لا من أسبابها ، أن نبذ محمد الشرك الذى حطت عقائده من شأن القدرة الإلٰهية التى لا حد لها ، ووزعتها بين آلهة متعددين .

إنه صدر فى تبشيره فى هذه الناحية عن أن من دعوهم شركاء لله لا يمكن أن ينفعوا أو يضروا ، وأنه لا يوجد إلا مالك واحد ليوم الدين ، وليس هناك من يقاسمه شيئاً من سلطانه غير المحدود فى إصدار حكمه النهائى الذى لا مردّ له .

وهذا الشعور بالتبعية المطلقة الذى كان محمد يحس به بقوة ، لا يمكن أن يكون ملهماً إلا من كائن واحد هو الله الواحد الأحد . لـكن صورة اليوم المخيفة ، التى استوحى سماتها أو قرت فى ذهنه بصفة خاصة من الأدب الدينى للمحرفين ، لم يكن هناك أمل يقابلها فى مملـكة تـكون فى المستقبل للسّموات . فمحمد منذر بنهاية العالم ، وبيوم الغضب والحساب * ؛ ولهذا نراه فى نظريته الخاصة بالدار الآخرة يميل إلى جانب التشاؤم ، أما التفاؤل فهو نصيب المصطفين للجنة دون غيرهم ، ومن ثم لم يبق له بريق من الأمل فى هذا العالم الأرضى ** .

إذاً ، ما كان يبشر به خاصاً بالدار الأخرى ليس إلا مجموعة موارد استقاها بصراحة من الخارج يقينا ، وأقام عليها هذا التبشير . لقد أفاد من تاريخ العهد القديم ـ وكان ذلك فى أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء ـ ليذكّر ، على سبيل الإنذار والتمثيل ، بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم ووقفوا فى طريقهم *** ، وبهذا انضم محمد إلى سلسلة أولئك الأنبياء القدماء بوصفه آخرهم عهداً وخاتمهم .

وإلى القارىء أهم ما يشمله أقدم أجزاء هذا الـكتاب الموحى به ، المعروف باسم

---

* « يوم الغضب » هذه بداية ترنيمة تنشد فى الجناز عند المسيحيين الغربيين .

** ذكر — هنا وفيما قبل — أن الرسول فى مكة كان حديثه حديث من استولت عليه الرؤى المشبعة بالدار الآخرة ، ما يكون فيها ، وأنه كان مقصوراً على الإنذار والتخويف . وقد كان أهم ما يشغل الرسول فى تلك الحقبة التوحيد وحجاج المشركين ، وقد كان ينزل فى تلك المدة من الآداب الاجتماعية والأحكام ما يقتضيه الحال ؛ وترى أن سورة الأعراف مكية ، وفيها : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » . وفى سورة الأنعام المـكية كثير من الأحكام : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا » ، وفيها : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .... » الآيات .

*** ذكر أنه استفاد من العهد القديم ومن قصص الأنبياء . فهل برهن على هذا ؟ إن هذا قول بلا دليل أوشبه دليل ، فلا يستحق عناء المناقشة !

القرآن ، والذى هو أيضاً أثر من آثار الأدب العالمى ؛ صور مرسومة بألوان قوية عن نهاية العالم والحساب الأخير ؛ حض على إعداد المرء نفسه لهذا اليوم بترك الكفر ونبذ الحياة الدنسة التى كان يحياها أولا ؛ قصص عن سلوك الأمم القديمة نحو من أرسل إليها من الأنبياء والرسل وعن مصايرها ؛ تدليل ، بخلق العالم وتكوين الإنسان تكويناً عجيباً ، على قدرة الله المطلقة وتبعية المخلوق له ، حتى إن الله يستطيع أن يميته ويبعثه كما يشاء .

والكتاب مكون من مائة وأربع عشرة سورة ، بعضها طويل وبعضها قصير وثلث هذه السور يرجع فى عهده إلى السنوات العشر الأولى وهى الفترة التى كان يعمل بمكة فيها .

٤ — وسوف لا أقص هنا تاريخ نجاحه وفشله . إنما أذكر أن عام ٦٢٢م كان مستهل تاريخ الإسلام . لقد هاجر النبى ، مدفوعا بسخرية قومه ، إلى يثرب ، وهى المدينة الضاربة إلى الشمال ، والتى يظهر أهلها أكثر استعداداً لقبول ما يتعلق بالنظام الدينى من عواطف وإحساسات ، وذلك لأنهم فى أصلهم من جنوب الجزيرة العربية .

وفضلا عن هذا ، فإن الأفكار التى كان يبشر بها كان من الواجب أن تظهر أقل غرابة لديهم ، إن لم تكن مألوفة أكثر لهم ، إذ كان للدين اليهودى ممثلون كثيرون بينهم . وكان من ذلك ، وللعون الذى بذله أهل هذه المدينة للنبى وأصحابه المهاجرين معه أن صارت يثرب « المدينة » أى مدينة الرسول ، وظلت تحمل هذا الاسم حتى الآن . وفى هذه المدينة استمر الرسول يظهر أنه موحى له بواسطة الروح الإلهى كما أن الجانب الأكبر من القرآن نراه يحمل طابع وطنه الجديد .

ولكن إذا كان محمد فى حالته الجديدة قد استمر فى الشعور برسالته وبوجوب تأديتها ، فإن تبشيره قد اتخذ إلى جانب هذا اتجاهاً جديداً ، فلم يصبح حديثه حديث من استولت عليه الرؤى المشبعة بالدار الآخرة وما يكون فيها .

بل إن تلك الحالة الجديدة جعلت منه أيضاً مجاهداً وغازياً ، ورجل دولة ، ومنظم

جماعة جديدة أصبحت تتسع وتنمو شيئاً فشيئاً . عندئذ اتخذ الإسلام باعتباره نظاماً شكله النهائى ، وعندئذ ظهرت البذور الأولى لنظامه الاجتماعى والفقهى والسياسى .

والوحي الذى نشره محمد فى أرض مكة لم يكن ليشير إلى دين جديد*. فقد كان تعاليم واستعدادات دينية تماها فى جماعة صغيرة ، وقوى فى أفراد هذه الجماعة ، فهماً للعالم مؤسساً على الحكم الإلهى ؛ ولكن لم يحدد ، تحديداً دقيقاً حينئذ ، أشكال هذا الحكم أو مذاهبه .

لقد كان يطلب من المسلمين أن يكونوا من المتقين ؛ لكن هذه التقوى كانت تبدو فى شكل شعائر عملية زهدية كما كان الحال كذلك لدى اليهود ولدى المسيحيين ، وفى شكل صلوات ذات ركوع وسجود ، وفى شكل امتناع اختيارى عن الطعام والشراب (الصوم) ، وفى أعمال خيرية لم تحدد كيفيتها وأوقاتها وعددها تحديداً يقوم على قواعد دقيقة . وبالإجمال فإن الحدود الخارجية لمجتمع المؤمنين كانت لم ترسم بعد .

إنه فى المدينة فقط ظهر الإسلام نظاماً له طابع خاص** ، وله فى الوقت نفسه صورة الهيئة المكافحة ؛ إنه فى المدينة قامت طبول الحرب التى تردد صداها فى جميع أزمنة التاريخ ، ووعاها التاريخ فيما وعى . فى المدينة صار الرجل الذى كان بالأمس ضحية صابرة ، والذى كان يدعو [لله ودينه] فى وسط فريق صغير من أتباعه ، والذى شُرِّد عن الوسط الذى يسوده أشراف مكة ، والذى كان خاضعاً مسلِّماً*** .

---

* يقول إن الوحى الذى نشر فى مكة لم يكن ليشير إلى دين جديد ؛ هل صحيح هذا وفى سبيله قاوم رجال مكة وغذب المؤمنون ! كانت فى مكة كل عناصر الدين الجديد : فيها التوحيد ، والصلاة ، والصدقة ، ومراقبة الخالق فى عمل العبد ، وإذا كان من مقومات الدين المقاومة والتضحية ، فقد كان ذلك فى مكة على أتم الوجوه ؛ وكانت فى مكة الهجرة إلى الحبشة وغيرها من مظاهر الثبات والكفاح والإباء . وهو يقول بعد عن التنظيمات الاجتماعية : إنه قد وضعت مبادئ بعضها فى مكة ، فكيف إذن لا يكون فى مكة دين جديد ؟ على أنه يذكر فى موضع آخر أن العقيدة الإسلامية فى خطوطها الأولية ترجع إلى العصر المكى .

** يقول : إن الإسلام ظهر فى المدينة ... والإسلام وليد مكة ، ولقد تربى رجال الإسلام فى مكة على صفات المسلم الحقيق ، ومن ثم كان للمهاجرين الذين كانوا فى مكة من المزايا المكتسبة ما لم يدركهم فيها من أتى بعدهم .

*** ليس بصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى مكة خاضعاً مسلماً . فما خضع قط ، وحديثه مع عمه أبى طالب وقد عرض عليه سادة قريش أن يؤتوه أقصى ما يتمناه من فى وسطه من =

صار هذا الرجل — وتلك كانت حالته — ينظم أعمالا حديثة ، كما ينظم طريقة توزيع الغنائم والأسلاب ، ويضع قوانين لتنظيم الأموال والمواريث ، بعد أن كان زاهداً في المال وجمعه . نعم ، إنه استمر في التحدث عن باطل هذه الحياة وأمورها ومتاعها ، لكنه مع هذا أصبح يملي القوانين ، ويضع الترتيب لأمور الدين العملية وأهم احتياجات الحياة الاجتماعية .

عندئذ أعطيت القواعد التي تنظم السلوك في الحياة شكلا ثابتاً ، وهذه القواعد هي التي اتخذت أساساً للتشريع التالي . على أن بعض هذه النظم كانت قد وضعت في صور أولية في مواعظ مكة ، أي وضعت مبادئها ، ثم نقلت هذه المبادىء مع المهاجرين المكيين إلى مدينة النخل في الجزيرة العربية .

من أجل ذلك لنا أن نقول إنه في المدينة على الأحرى ولد الإسلام ، ففيها رسمت الخطوط الرئيسية لحياته التاريخية . ومن ثم كان كلما تطلب الأمر تجديداً دينياً في الإسلام لا يجدون بُدًّا من اللجوء إلى سنة المدينة ، حيث بدأ محمد مع الصحابة تحقيق حياة مطابقة لما جاء به من دين ومذاهب ، وسنعود فيما بعد إلى هذه النقطة .

فالهجرة إذاً في التاريخ الإسلامي مرحلة هامة ، لا فيما يتعلق فقط بتغيير مصير الأمة الخارجي ، بل هي مرحلة هامة من نواح عديدة مختلفة . وإنها ليست فقط نقطة السير التي قام منها فريق صغير من صحابة النبي الذين وصلوا سالمين إلى المدينة ، بكفاح ضد خصوم النبي ، وبحروب متوالية تُوِّجت عام ٦٣٠م بفتح مكة وإخضاع الجزيرة العربية كلها فيما بعد ؛ إنها مع هذا كله أيضاً ، مرحلة من مراحل تكوين الإسلام الديني .

إن العصر المدني قد أدخل تعديلا جوهرياً حتى في الفكرة التي كونها محمد عن

= مال وجاه معروف غير منكر . وليس بصحيح مايشعر به كلامه أنه عليه السلام في المدينة انقلب محباً للمال جماعاً له ، وقد كان في مكة فيه من الزاهدين . فكم حيزت له أموال في المدينة ففرقها ، وإنما وضع الأنظمة المالية للجماعة الإسلامية ، وأمر الدين وأمر الدنيا مقترنان في الشريعة الإسلامية ، وقد وضع لسير الإنسان في حياته كلها تعاليم وأحكام ، وكلف المؤمن أن يزن كل عمل من أعماله بميزان الشرع ، فالتحدث عن شئون الآخرة لا يبتعد — كما توهمه عبارته — عن شئون الدنيا والنظام الاجتماعي .

طابعه الخاص ؛ ففى مكة كان يشعر أنه نبى يتمم برسالته سلسلة رسل التوراة ، وأن لهذا عليه — مثل أولئك الرسل — أن يقوم بإنذار أمثاله فى الإنسانية وإنقاذهم من الضلال .

أما فى المدينة ، وقد تغيرت الظروف الخارجية ، فقد تغيرت مقاصده وخططه واتجهت اتجاهاً آخر كذلك بحكم تلك الظروف الخارجية * . ولا غرو ! فقد وُجِد فى بيئة تختلف عن بيئة مكة ، فكان هذا مما جعله يرفع إلى المقام الأول مظاهر أخرى من مظاهر رسالته النبوية .

إنه يريد الآن إصلاح دين إبراهيم وإعادته إلى أُصله بعد أن نال منه التغيير والإفساد ، وكان تبشيره مختلطاً ببعض التقاليد القديمة التى تتعلق بإبراهيم [عليه السلام] فالشعائر التى أسّسها قد سبق أن وضع أساسها إبراهيم . لكنها حُرِّفت فى خلال الأزمان والأجيال واتجهت نحو الوثنية . إذاً ، لقد أصبح يريد إقامة دين الله الواحد كما جاء به إبراهيم ، كما أنه بوجه عام كان مصدقاً لما سبق أن أوحاه الله لمن تقدمه من الرسل والأنبياء (٥) .

فتحريف الوحى القديم وغموضه ، اللذان أصبحا مناط شكواه ، صار لهما منذ ذلك الوقت أهمية كبيرة فى تكوين فكرته عن رسالته النبوية وما تتطلب من واجبات .

ذلك بأن بعض الذين مالوا عن دينهم الأول ، والذين كانوا يرغبون فى مرضاته ، قد قوّوا فيه عقيدة أن أنصار الدين القديم كانوا قد حرفوا الكتاب ** ، وأنهم أخفوا

---

* ذكر أن الرسول فى المدينة غير طابعه ومنهاجه عما كان عليه فى مكة ، فقد كان فى مكة يعلن أنه يأتسى بمن سبقه من الأنبياء ، أما فى المدينة فيخرج على هذا المبدأ ، وهذا غير صحيح ؛ فما زال حتى توفاه الله يتفق مع من سبقه من الأنبياء فى الأصول العامة للدين من التوحيد وغيره ، واختلاف الفروع لا يعد خلافاً .

ويذكر المؤلف أنه يدعو إلى إصلاح دين إبراهيم وتطهيره مما حاق به ؛ وهذا حق فى الأصول العامة ، أما فى الفروع فهل يستطيع المؤلف أن يثبت هذا ؟ وهل كيفية العبادات وأنظمتها الإسلام كانت فى عهد إبراهيم ؟ يبدو من المؤلف الاضطراب فى هذه الناحية ؛ فالنبى مرة خارج على الأنبياء ، وهو مع هذا لم يأت بجديد بل أتى بدين إبراهيم !

** ذكر أن الداخلين فى الإسلام من الكتابيين هم الذين قووا عند الرسول عليه الصلاة والسلام عقيدة أن الكتابيين حرفوا فى كتبهم مرضاة للرسول . وماذا كان مع الرسول من أسباب =

البشارات التى جاء بها أنبياء التوراة وأنبياء الإنجيل عن ظهوره فى المستقبل . وهذه الشكوى نرى جرثومتها فى القرآن ، ومن بعده جاءت الكتب الإسلامية وتوسعت فيها توسعاً كبيراً .

والجدل ضد اليهود والمسيحيين شغل مكاناً كبيراً فى الوحى المدنى . لقد كان فيما مضى يعترف بأنّ الصوامع والبِيَعَ والصلوات تعتبر أمكنة عبادة حقيقية (سورة الحج : ٤٠)*، لكن الأمر تغير بعد هذا ؛ كما صار رهبان المسيحيين وأحبار اليهود موضع مهاجمة منه**، وقد كانوا فى الواقع أساتذة له*** لذلك تراه لا يسلم بأنهم حريون بأن يكون لهم على أتباعهم سلطان شبه إلهى (سورة التوبة: ٣١)، لأنهم أناس أنانيّون يضلون الناس ويصدونهم عن سبيل الله (سورة التوبة : ٣٤) .

= السلطان والمرغبات ؟ هذا اتهام من الكاتب لم يبرهن عليه ؛ اتهام للرسول ، واتهام لمن تبعه من المؤمنين ، بلا دليل !

* ذكر أن السورة ٢٢ اعترفت بالصوامع والبيع والصلوات أمكنة حقيقية للعبادة ؛ والآية التى يشير إليها هى قوله تعالى فى سورة الحج : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » ، وهذا فى موضوع الدافع للاذن بقتال المشركين دفعاً لهم عما يبغون من مقاومة الدين ومظاهره . والكتابيون — مهما كانوا — أقرب إلى الإسلام من المشركين ، ومن ثم أقروا على الجزية وكان لهم بالتزامها أحكام المسلمين ، فالمقصود أنه لبقاء مظاهر الدين وشعائره فى كل عهد لا بد من دفع المشركين . وقد كانت الصوامع والبيع والصلوات معابد صالحة فى أزمنتها ، وكان التعبد فيها بما صح من اليهودية والنصرانية مقرباً إلى الله ، وفى الإسلام بطل التعبد فيها . ولكن يقر منها ما التزم أهلوها حكم المسلمين على ماهو مبين فى الفقه ، فيحظر الإسلام فى هذه الحالة أن ينالها أحد من المسلمين بسوء .

ويقول الزمخشرى : « دفع الله بعض الناس ببعض إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة ، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها؛ ولم يتركوا للنصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلوات ، ولا للمسلمين مساجد . أو لغلب المشركون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (يريد أمة الدعوة) على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين فى ذمتهم — لاحظ هذا القيد — وهدموا متعبدات الفريقين » .

** ذكر أنه فى سورة الحج كان الرسول قريباً من أهل الكتاب ، وفى سورة المائدة كان مجافياً لهم . ونرى فى السورة الأخيرة : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » . فترى القرآن يقرر لهم هذه الميزة ، ويلاحظ أن السورتين مدنيتان ، وإن تأخرت الثانية عن الأولى فى النزول .

*** يذكر أن أحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا أساتذة للرسول ؛ فمتى كان ذلك ؟ والرسول عليه الصلاة والسلام لأول حلوله بالمدينة ، مقر اليهود ، نابذ أحبارهم وهم ناصبوه العداء =

إلا أنه فى موضع آخر يعترف صراحة بفضل الرهبان المتقشفين المتواضعين ، ويرى أن ميلهم الطبيعى للمؤمنين يقربهم إليهم أكثر من اليهود الذين رفضوا الإسلام رفضاً باتاً (سورة المائدة : ٨٢) ، كما يلوم أحبار النصارى لما أضافوه إلى الشريعة الإلهية (آل عمران : ٧٥) .

فالسنوات العشر بالمدينة كانت عصر دفاع وهجوم بالسيف واللسان .

٥ — وبديهى أن التغير الذى حدث فى الطابع النبوى لمحمد ، قد أثر فى أسلوب القرآن وشكله الأدبى .

فمنذ أقدم روايات الكتاب قد مُيِّز بحق بين العنصرين ؛ فبين المائة والأربع عشرة سورة التى يشملها الكتاب ميز تميزاً واضحاً بين السور المكية والسور المدنية .

والبحث النقدى والبلاغى للقرآن يبرر هذا التمييز التاريخى بوجه عام . ففى العصر المكى جاءت المواعظ ، التى قدم فيها محمد الصور التى أوحتها إليه حميته الملتهبة ، فى شكل وهمى خيالى حاد تلقائى ذاتى ، وهو فى هذا العصر لا يُسمع صلصلة سيفه ، ولا يتحدث إلى محاربين أو رعايا مسالمين ؛ بل يُظهر لجموع معارضيه ومناقضيه العقيدة السائدة فى نفسه عن قوة الله خالق العالم وربه وسلطانه غير المحدود ، وعن اقتراب يوم الحساب الذى يتمثله ويراه فى الرؤى الوحيية فينتزعه من راحته انتزاعاً ؛ وهو يعلن عقاب الماضين من الطغاة والشعوب الذين قاوموا نذر الله التى جاءتهم بألسن رسلهم وأنبيائهم .

لكن حمية النبوة وحدّتها أخذت فى عظات المدينة والوحى الذى جاء بها تهدأ رويداً رويداً ، حيث أخذت البلاغة فى هذا الوحى تصبح ضعيفة شاحبة ، كما أخذ الوحى نفسه ينزل إلى مستوى أقل بحكم ما كان يعالجه من موضوعات ومسائل ، حتى لقد صار أحياناً فى مستوى النثر العادى* .

وفى هذا العصر نرى النبى يستخدم حنكته المفكرة المنظّمة وروّيته الدقيقة

---

* ذكر أن السور المكية تمتاز فى البلاغة وفنون القول عن السور المدنية . وهذه شنشنة يدأب عليها المستشرقون ، ولا علم لهم بوجوه البلاغة وأساليب الكلام ، وقد جاء كل على حسب مقتضيات الأحوال قرآناً عربياً غير ذى عوج .

وتبصره العالمى ، فى مقاومة خصومه الذين شرعوا فى ممارضة مقاصده وغاياته فى داخل موطنه وخارجه .

كما شرع ينظّم أعوانه ومن دخل تحت لوائه ، ويضع ـ كما أشرنا من قبل ـ قانوناً مدنياً ودينياً لهذه الهيئة الجديدة التى شرعت فى تثبيت أقدامها ، ويبين قواعد لجميع ظروف الحياة العملية . وكان من ذلك أن رأينا حياته الخاصة فى جليل شئونها ودقيقها ، تدخل فى نطاق الوحى الإلـهى الصادر إليه(٦) .

ويجب ألا يفوتنا الإشارة إلى أن القوة الخطابية [فى القرآن] أخذت تفتر حماستها ، برغم استعمال السجع فى أجزاء القرآن التى نزلت بالمدينة ، كما فى الأجزاء الأخرى المكية .

لقد كانت السور الأولى فى النزول على الشكل الذى تعود الكهان القدماء وضع نبوّاتهم فيه ، ولو جاء فى شكل آخر لما رضى أى عربى أن يرى فيه قرآناً موحى من الله ، على أن محمداً قد أكد أن جميع ما جاء به هو من الوحى الإلـهى إلا أنه ما أعظم الفارق بين سجع السور المكية وسجع السور المدنية !

بينما نرى محمداً يسرد فى الأولى رؤاه الكشفية الإلهامية (ses visions) فى فقرات مسجوعة متقطعة وفق صوت ضربات قلبه المحموم ، نرى الوحى فى الثانية يتخذ نفس الشكل السجعى لكنه مجرد من اندفاعه وقوته ، حتى فى الحالات التى أعاد فيها النبى طرق الموضوعات التى تناولها فى السور المكية(٧) .

لقد قرر محمد نفسه أن القرآن عمل معجز لا يمكن الإتيان بمثله ؛ ولذلك ينظر المؤمنون إليه هذه النظرة ولا يرون فرقا بين قيمة العناصر المكوِّنة له(٨) ؛ بل يعتبرونه جميعه معجزة إلـهية حُقِّقت بواسطة النبى ، ويرونها أكبر معجزة تدل على صدق رسالته الإلـهية .

٦ — إذاً ، القرآن هو الأساس الأول للدين الإسلامى ، وهو كتابه المقدس ، ودستوره الموحى به . وهو فى مجموعه مزيج من الطوابع المختلفة اختلافاً جوهرياً ، والتى طبعت كلا من العصرين الأولين من عهد طفولة الإسلام* .

إن العرب لم يكونوا بحكم مزاجهم وطريقة حياتهم ، يقدرون القيم الفوق الأرضية

---

* يذكر أن القرآن فى مجموعة مزيج من طوابع مختلفة اختلافا جوهرياً ، والقرآن وحدة تامة لا تدافع فيه ولا تضارب ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

ولكن النجاح الذى ظفر به النبى وخليفته الأول على معارضى الإسلام قوى عند العرب الاعتقاد فى النبى ورسالته *، وكان لهذا النجاح تأثير تاريخى مباشر .

نعم ! إن هذا النجاح لم يحقق ، على ما نزال نسلم به حتى الآن[٩] ، الوحدة التامة بين القبائل العربية المتفرقة سياسياً ، والمنقسمة على نفسها حتى من الوجهة الدينية بسبب عباداتها المحلية ، وكذلك الأمكنة التى خصصت للعبادات المشتركة لم توحد بين أفراد مستقرين ثابتين ** ، ولكن مما لا ريب فيه أن هذا النجاح أسس رابطة أقوى جمعت بين جزء كبير من هذه العناصر المتخاصمة .

وقد كان النبى قد اقترح مثلا أعلى ، وهو جمع القبائل فى وحدة طائفية أخلاقية ودينية على أساس الدين الذى جاء به ، وأن يكون أساس هذه الوحدة الشعور بالخضوع جميعاً لله الواحد الأحد . (سورة آل عمران : ١٠١ ، ١٠٢) : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مُسلمونَ ؛ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا واذكرُوا نعمةَ الله عليكم إذْ كنتم أعداءً فألَّفَ بينَ قلوبكم فأصبحتم بنعْمته إخواناً » .

فتقوى الله هى التى أصبحت معيار التفوق والكرامة ، لا اعتبارات الحسب والقبيلة . وفكرة هذه الوحدة صارت تتسع شيئاً فشيئاً بعد وفاة النبى ، بفضل الغزوات التى نجحت نجاحاً لم يسبق له مثيل فى تاريخ العالم .

---

* يذكر أن العرب لم يكن فى مزاجهم إدراك قوة الدين والاهتداء إلى الحق ، وإنما عنوا للدين حين رأوا نجاح الرسول عليه الصلاة والسلام ونجاح خلفائه ، ونجاح النبى وخلفائه الذى يريده الكاتب كان بالعرب ؛ على أنه يقصر الكلام فى اتباع الرسول على العرب ، وقد كان منهم غير العرب .

** يذكر أن الإسلام لما يوحد تماماً بين القبائل العربية ، وأنه ما يزال الاختلاف فى العبادات المحلية إلى الآن ، وظاهر هذا أن الاختلاف فى الدين لم ينقطع عن العرب ؛ والعرب اتحد دينهم بالإسلام ، ولم يبق خارج عن الإسلام من مشركيهم أحد ؛ فأما النصارى — وقد كانوا فريقاً من تغلب — فقد ضربت عليهم الجزية فى أيام عزة الإسلام ومنعته ، وقد كانوا فى أطراف الجزيرة ؛ وحرص الخلفاء على ألا يبقى فى صميم جزيرة العرب دين غير دين الإسلام ، ومن ثم أجلى عمر اليهود عن خيبر .

فأما مايشير إليه من الخلاف الباقى إلى الآن ، فهو خلاف فى الفروع مبنى على الاجتهاد فيما لم يأت فيه نص قاطع ، وهذا لا يمس الوحدة الإسلامية فى شيء ، وكذلك الاختلاف فى التوسل وما إليه . ويقول إن الأمكنة المخصصة للعبادات المشتركة عند المسلمين لم توحد . وأمكنة العبادة هى المساجد ، وهى سواء عند عامة المسلمين ، وما عهدنا فريقا من المسلمين اختص بمسجد ؛ فإن أومأ إلى معابد البهائية والقاديانية فأولئك يبرءون من الإسلام والإسلام براء منهم ، وهم بعد ليسوا من العرب .

٧ — ونحن إن كنا نستطيع أن نصف بالطرافة شيئاً مما جاء به النبي من الوجهة الدينية ، فهو الجانب السلبي من وحيه الذي كان يبشر به . هذا الجانب كان من الواجب أن ينقذ شعائر العبادات والمجتمع وحياة القبائل وإدراكهم للعالم وتصورهم له من جميع ضروب الوحشية والفظاعة البربرية التي كانت سائدة في الوثنية العربية ، والتي كان يسميها الجاهلية في مقابل الإسلام .

أما المذاهب والقواعد الوضعية الواقعية فكانت ذات طابع انتخابي كما سبق أوضحناه، وقد أسهم في تكوين عناصر هذه المذاهب والقواعد الدين اليهودي والدين المسيحي على سواء*، وتفاصيل هذا الإسهام أو الاشتراك لا محل للحديث عنه هنا[١٠] . ومن المسلم به من الجميع أن العقائد الإسلامية في صورتها النهائية قامت على خمسة أركان أساسية ، ترجع في خطوطها الأولية — من شعائرية وإنسانية — إلى العصر المكي ، وإن كانت لم تأخذ نظامها الثابت إلا في العصر المدني .

وهذه هي : أولا الاعتقاد بالله الواحد والاعتراف بمحمد رسول الله ؛ ثانياً شعيرة الصلاة التي كانت بصورتها الأولى من قيام وقراءة ، وبما فيهما من ركوع وسجود ، وبما يسبقها من وضوء ، تتصل بالمسيحية الشرقية ؛ وثالثاً الزكاة التي كانت في أول الأمر صدقات اختيارية ، ثم صارت بعد جزءاً معيناً أو ضريبة محددة تنفق في سبيل تدبير حاجات المجموع ؛ ورابعاً الصوم الذي جعل أولا في اليوم العاشر من الشهر الأول ، أي عاشوراء ، محاكاة للصوم اليهودي الأكبر ، ثم نقل بعدئذ إلى شهر رمضان ؛ وخامساً الحج إلى المعبد الوطني العربي القديم في مكة ، أي إلى الكعبة بيت الله[١١] . وهذا الركن الأخير احتفظ به محمد عن الوثنية ، لكنه جعله متفقاً والتوحيد ، وعدّل معناه مسترشداً في ذلك ببعض الأساطير الإبراهيمية** .

---

* يذكر أن الإسلام اقتبس من الديانتين الموسوية والعيسوية في القواعد الوضعية الواقعية . وليت شعري ماذا يريد بهذا الكلام المبهم ؟ فهل يريد أن في الإسلام صلاة كما فيهما صلاة ؟ ولكن ، أفلا يعلم أن الصلاة في الإسلام غيرها فيهما ، وكذلك الصيام والزكاة . وإذ أحس الكاتب مطالبة القارئ له بالبيان يفر من الميدان ، بدعوى أن المقام ليس للافاضة في هذا الحديث ، ولكن المقام كان غنياً عن الرجم بهذه الدعوى والرمي بهذا الفند !

** الأساطير الإبراهيمية . من أدب المؤرخ ألا يضفي على الحوادث عقيدته الخاصة ، وإنما يذكرها كما حدثت ، ويذكر البواعث عليها ، ويدع الحكم فيها . ولكن الكاتب لا يلتزم هذا =

وكذلك بعض عناصر القرآن المسيحية نعرف أنها وصلت إلى محمد عن طريق التقاليد أو الروايات المتواترة المحرفة ، وعن ابتداعات المسيحية الشرقية القديمة * ، كما ينضم إلى هذا وذاك شيء من الغنوصية الشرقية .

ذلك لأن محمداً قد أخذ بجميع ما وجده فى اتصاله السطحى الناشىء عن رحلاته التجارية ، مهما كانت طبيعة هذا الذى وجده ، ثم أفاد من هذا دون أى تنظيم ** .

وفى سبيل التمثيل لذلك نذكر أنه ما أعظم الفرق بين فهمه وتصوره السابق لله ، والكلمة ذات النزعة التصوفية (سورة النور : ٣٥) التى يسميها المسلمون آية النور(١٢) !

فالنزعة التى كانت تسود فى الأوساط الغنوصية *** (المرقونيون وغيرهم) ، والتى كانت ترمى إلى الحط من قيمة شريعة العهد القديم واعتبار هذه الشريعة صادرة من إله شديد بعيد عن الرحمة ، قد نفذت إلى الأفكار التى نشرها النبى بخصوص شريعة اليهود ، وبخاصة فيما يتعلق بما حرمه الله عليهم من المآكل عقاباً لهم على عصيانهم ****

وقد نسخ الله هذه التحريمات إلا أشياء قليلة جداً مستثناة ؛ إن الله لا يحرم على المؤمنين أى شيء طيب ، وأما ما فرضه على اليهود من قوانين فهو قيود والتزامات

= الأدب ؛ فعزو الحج فى أساسه إلى إبراهيم أمر جاء به الإسلام ، فعلى الكاتب أن يدون هذا فحسب ، ولا يعرض لكون هذا أسطورة أو حقاً صراحاً ، فإن عرض لشيء من ذلك فليكن عند يقينه به ووقوفه عليه بالدليل . وترى هذا الأمر — وهو خلع العقيدة الخاصة للكاتب — منبثاً فى أثناء الكتاب فى مواضع متعددة .

* يذكر أن بعض عناصر القرآن المسيحية وصلت إلى الرسول عن طريق التقاليد والروايات المحرفة ، وعن ابتداعات المسيحية الشرقية . وقد كان القرآن حرباً على هذه التقاليد والروايات التى تعتمد على التثليث والصلب وما إليهما ، فكيف تكون عناصر القرآن ؟ .

** يذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يأخذ ما يسمعه من الشئون الدينية فيلقيه بدون تنظيم ولا انسجام ، وضرب لذلك مثلا ما كان يصور به مقام الألوهية وما جاء به فى سورة النور من قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض » . وكأنه يرى أن هذه الآية فيها شيء من التجسيم ؛ والآية جرت على حد التمثيل ، كما يعرف أهل اللسان .

*** الغنوصية نسبة إلى « الغنوص » وهى كلمة يونانية معناها المعرفة ، ثم أخذت بعد معنى اصطلاحياً ، هو محاولة التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف ، أو محاولة تذوق المعارف الإلهية تذوقاً مباشراً بأن تلقى فى النفس إلقاءاً . .

**** يذكر أن الوحى كان فيه نزعة إلى الحط من شريعة العهد القديم ، وعدها صادرة من إله =

(سورة البقرة : ٢٨٦ ، سورة النساء : ١٦٠ ، سورة الاعراف : ١٥٧) . وهذا يشبه كثيراً النظريات المرقونية ، إن لم نقل إنه مطابق لها تماما .

وكذلك التقليد القائل بوجود دين قديم نقى كان يجب على النبى تقويمه ، وأيضا الافتراض القائل بتحريف الكتب المقدسة ـ هذان ، وإن كانا قد طُبعا بطابع أقوى فى الإسلام ، إلا أنه وُجد لهما أصل فى بعض الأفكار التى تتصل اتصالا وثيقا بتعاليم القديس كْليمانْدُس المسيحية* .

وبعد أولئك جميعاً نجد النحلة البارسية الزرادشتية ، التى لاحظ الرسول وجود أنصار لها باسم المجوس إلى جانب اليهود والمسيحيين ، لم تمر دون أن تترك أثراً فى شعور النبى العربى ؛ فقد قابلها بالوثنية ، وبالدين الموسوى والدين المسيحى أيضاً .

وقد اتخذ عن « البارسية » تعليما هاما ، وهو إنكار يوم السبت على أنه يوم ارتاح الله فيه من العمل فصار راحة عامة ، وجعل يوم الجمعة هو يوم الاجتماع الأسبوعى** . ومع تسليمه بأن الله خلق العالم فى ستة أيام ، فإنه رفض عامداً فكرة أن الله استراح اليوم السابع ، ولذلك لم يجعل يوم الجمعة يوم راحة ، بل يوم اجتماع يستأنف العمل فيه بعد الانتهاء من صلاة الجمعة[١٣] .

= بعيد عن الرحمة ، والوحى من دأبه الإشادة بالعهد القديم والعهد الجديد واحترامهما ، والقرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، وإنما ينعى على من حرف فيهما وبدل . وتحريم أشياء على اليهود لم يكن للقسوة عليهم ، وإنما كانوا يستحقون ذلك ؛ وقد عقب الله سبحانه وتعالى ماقص من تحريم ماحرمه عليهم فى سورة الأنعام بقوله : « ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » . وأياما كان الأمر ، فهذه أمور فرعية تتغير بتغير النبوات من غير نكير للمتأخر على المتقدم ، وكل حق واجب اتباعه فى إبانه .

* يذكر أن القول بتحريف الكتب المقدسة قديم . وهذا لا يضير القرآن فى شىء ، فإن زعم أن صاحب الرسالة قلد فى هذا من سبقه فهى دعوى بلا برهان . وهل كان كليماندس يقول بتحريف الكتابين فى التثليث والصلب مثلا ؟ وهل كان كليماندس ينكر هذه الأمور التى هى من مقومات المسيحية فى عهدها المبدل ؟

** إن إنكار يوم السبت فى الإسلام أنه — كما يزعم غيرهم — يوم استراح الله فيه قد انبنى على الإدراك الصحيح لصفات الألوهية ، ولما جاء فى القرآن : « ولقد خلقنا السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » ولايهم الإسلام بعد هذا أن يكون قد أنكر فى الزرادشتية أو غيرها .

٨ — وإذا اعتبرنا الآن عمل النبي فى مجموعه ، وإذا وجب أن نقول كلمة عن قيمته الذاتية ، ناظرين إليه من ناحية عمله الأخلاقى ، نرى من الطبيعى أن نتجنب كل تقريظ أو جدل .

إن بعض المؤلفين ، حتى من المحدثين ، يتركون أنفسهم يندفعون فى عرضهم للإسلام إلى تقدير قيمته الدينية حسب درجات يعتبرونها مقاييس مطلقة ويتبعون الحكم الذى يزونه عليه لما يكون بينه وبين هذا المقياس المطلق من نسبة .

إنهم يجدون فكرة الإسلام عن الله أدنى من فكرة الأديان السابقة عنه ؛ ويقررون أن أخلاقه قاسية خطرة ، لأنها تقوم على مبدأ الطاعة والخضوع الذى يوحى به اسم الإسلام نفسه ؛ كما لو أن الشعور ، القوى جداً عند المسلمين ، بأن يكون المرء خاضعاً لقانون إلهى لايتأثر ولا يلين ، وكما لو أن إيمانه فى سمو الموجود الإلهى — كما لو أن هذا وذاك ، يظهران عقبات أكيدة تمنعه من الاقتراب من الله بالإيمان والفضيلة وصالح العمل ، ومن أن يكون مقبولا فى رحمته (سورة التوبة : ٩٩) !

وأخيراً أيضاً ، كما لو أن النظام الفلسفى للأديان يمكن أن يعدّل أو يغيّر من صفة العبادة الداخلية للذى يعبد الله متقياً ، والذى — وهو مدرك بتواضع وخشوع تبعيته وضعفه وعجزه — يرفع روحه إلى المعين لكل قوة وكمال !

وأولئك الذين يحكمون على أديان غيرهم طبقاً لمقياس ذاتى ، يمكننا أن نذكّرهم بالكلمات العظيمة التى قالها عالم اللاهوت الشهير « لوازى » (١٩٠٦ م) . . . « يمكننا أن نقول عن جميع الأديان إنها ذات قيمة مطلقة بالنسبة إلى إدراك أتباع كل منها ، وقيمة نسبية لدى عقل الفيلسوف والناقد[١٤] » وبتقدير فعل الإسلام أو أثره فى اتباعه ، كثيراً ما تناسينا هذه الحقيقة ، بل كثيراً ما أخطأنا فيما يتعلق بهذا الدين .

إننا اعتبرنا الدين الإسلامى مسئولا عن عيوب أخلاقية ، ومسئولا كذلك عن ركود عقلى ، وكل ذلك من الاستعدادات الجنسية ، ومع هذا فإن هذا الدين منتشر بين شعوب من أجناس مختلفة[١٥] خفّف وطأة همجيتها بدل أن يذكيها كما يُظن .

فالإسلام إذاً ، شأنه فى ذلك شأن سائر الأديان ، ليس شيئاً مجرداً حتى يمكن

عزله عن الظواهر والنتائج التى يبدو بواسطتها ، والتى تختلف باختلاف أدوار تطوره التاريخى ومداه الجغرافى والطابع الجنسى لأتباعه .

وقد حاول بعض الباحثين التدليل على قلة القيمة الدينية والأخلاقية للإسلام ، بالاستناد إلى حجج ترجع إلى اللغة التى ظهرت بها تعاليمه : فقد قالوا مثلا إن الإسلام خال من الفكرة الأخلاقية التى نسميها الضمير ، محاولين أن يسندوا هذا الزعم بأن اللغة العربية نفسها وسائر اللغات الإسلامية خالية من كلمة خاصة للتعبير تعبيراً دقيقاً عما نقصده من كلمة « ضمير »[١٦].

وأمثال هذه الاستنتاجات يمكن أن تقال بسهولة فى غير هذا من الميادين أو الموضوعات ، إلا أنه أصبح من الثابت أن من الأحكام المبتسرة التسليم بأن كلمةً تكون الشاهد الوحيد الجدير بالثقة على وجود فكرة أو عدم وجودها .

« إن النقص أو الثغرة فى اللغة لا يفترض حتماً نفس النقص فى القلب »[١٧] : فلو كان الأمر كذلك ، كان لنا أن ندعى بحق بأن شعراء « الفيدا » كانوا يجهلون عاطفة العرفان بالجميل ، لأن كلمة « شكر » غريبة عن اللغة الفيدية[١٨] .

وفى القرن التاسع فند الجاحظ العلامة العربى ملاحظة أحد أصدقائه من هواة الفنون الجميلة والأدب ، بأن عدم وجود كلمة « الجود » فى لغة الروم يمكن أن يتخذ دليلا على بخل (الروم) المطبوع فيهم ، كما انتقد كذلك الذين أخذوا من فقدان كلمة « نصيحة » فى اللغة الفارسية دليلا أكيداً على الغش الغريزى فى هذا الشعب[١٩] .

من أجل ذلك حرىّ بنا أن نجعل للحِكَم أو المُثُل الأخلاقية والمبادىء التى ينعكس عنها الفهم أو الإدراك الأخلاقى ، كما هو الأمر فى الإسلام ، قوة أعظم من تلك التى نعزوها لكلمة أو تعبير فنى ، وفى كثير من تلك الحكم أو المثل والمبادىء إشارة إلى كلمة « ضمير » .

إن بين الأربعين حديثاً النووية ، التى من المعروف أنها تلخص أهم المعارف الدينية للمسلم الكامل ، الحديث السابع والعشرون الآتى ، وهو مستخلص من أعظم كتب الحديث : « عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : البر حسن الخُلُق ، والإثم ماحاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

وقال وابصة بن معبد : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : جئت تسأل

عن البر ؟ قلت نعم ، قال : استفت قلبك ؛ البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » . يريد : « استفت قلبك ، فالذى يسبب اضطرابه يجب أن تنتهى عنه » .

والرواية الإسلامية تعلِّم بواسطة آدم قبل موته نفس هذه التعاليم إلى أبنائه ، إذ تنتهى هكذا : « عند ما اقتربت من الشجرة المحرمة شعرت باضطراب فى قلبى » ، ومعنى هذا أن ضميرى اضطرب .

إذاً علينا إن أردنا أن نكون عادلين بالنسبة إلى الإسلام ، أن نوافق على أنه يوجد فى تعاليمه قوة فعالة متجهة نحو الخير ، وأن الحياة طبقاً لتعاليم هذه القوة يمكن أن تكون حياة طيبة لا غبار عليها من الوجهة الأخلاقية .

هذه التعاليم تتطلب رحمة جميع خلق الله ، والأمانة فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، والمحبة والإخلاص ، وقمع الغرائز الأثرة ؛ كما تتطلب سائر الفضائل التى أخذها الإسلام عن الأديان السابقة ، والتى يعترف محمد بأنبيائها أساتذة له* . ونتيجة هذا كله أن المسلم الصالح يحيا حياة متفقة مع أدق ما تتطلبه الأخلاق .

ومما لاشك فيه أيضاً أن الإسلام شريعة ، فهو يخضع المؤمنين به لأعمال شعائرية . ومع ذلك فإن هذا ليس من ناحية التعاليم التقليدية التى استند إليها نموه

---

* يذكر أن الإسلام أخذ الفضائل عن الأديان السابقة ، وأن محمداً عليه السلام يعترف بالأنبياء السابقين أساتذة له . وهذه العبارة توهم ما لا يفهم المسلم ؛ فالمسلم يفهم أن الفضائل ومكارم الأخلاق وأصول العقائد تتفق فيها الأديان ، وجميعها من مصدر واحد ، وهو الله العلى الحكيم ، ولم يأخذ دين عن دين ؛ والأنبياء السابقون أمر النبي أن يقتدى بهم فى طريقتهم فى الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع الفرعية؛ وحاصل ذلك أن يقتدى بهم فى المقام على تبليغ ما أمر به والصبر فى هذا السبيل ، لا أن يأخذ عنهم ما أتوا به ، فقد كفل الله ذلك بالوحى .

وترى الكاتب لا يذكر فى هذا المقام ما جاء فى سورة آل عمران : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » ؛ فقد حملها بعض المفسرين على أن الغرض منها التنويه بقدر الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأنه أخذ العهد على كل نبى أن يؤمن بالرسول إن أدركه ، أو على أن كل نبى عليه أن يؤمن بمن يجىء من الأنبياء بعده . وفى هذا دلالة أى دلالة على أن المتأخر من الأنبياء لا يأخذ عن المتقدم . فإن قال قائل : هذه دعوى الدينيين ؟ قلنا : نعم ، هذه دعواهم بما يعلمون ، ويقطعون به ويؤمنون ، ودعوى غيرهم تظنن وتوهم ، فهى فى حيز الرد والإنكار .

وتطوره فحسب ، بل أيضاً من ناحية أن معينها الأول — وهو القرآن — يعتبر صراحة أن الأعمال بالنيات ، ويعدّ النية معياراً للقيمة الدينية ، ويرى أنه إذا لم تقترن دقة احترام الشريعة بأعمال رحمة وخير كانت قليلة القيمة .

ليسَ البرَّ أنْ تولّوا وُجوهَكُمْ قِبلَ المشْرقِ والمغربِ ولكنَّ البرَّ من آمنَ باللهِ واليوْمِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيِّينَ وآتى المالَ على حبِّهِ[٢٠] ذوي القُرْبى واليتامى والمساكينَ وابنَ السّبيلَ والسائلينَ وفي الرِّقاب وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزكاةَ والمُوفونَ بعهْدِهم إذا عاهدُوا والصَّابرينَ في البأْساءِ والضَّراءِ وحينَ الباسِ أُولئكَ الذينَ صدقُوا وأولئكَ همُ المُتقُّون »سورة البقرة : ١٧٧) .

وفيما يتعلق بشعائر الحج التي نظّمها ، أو على الأحرى احتفظ بها من بين تقاليد الوثنية العربية ، استناداً إلى كلمة الله : « ولكلِّ أمةٍ جعلنا منسكاً ليذكرُوا اسمَ اللهِ علَى ما رَزقَهُم » ، جعل محمد أهمية كبرى لنية التقوى التي يجب أن تصحب هذه الشعيرة حين يقول : « لنْ ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ولكنْ ينالُه التقوَى منْكم » (سورة الحج : ٣٤ ، ٣٧) .

والجزاء الأكبر للإخلاص (سورة غافر : ١٤) وتقوى القلوب (سورة الحج : ٣٢) ، و « للقلب السليم » (سورة الشعراء : ٨٩ مما يطابق الكلمة العبرية « لبح شاليم » الواردة عن داود فى المزامير . فهذه هى وجهة النظر التى تسود فى تقدير الفضل الدينى للمؤمنين .

وهذا الاقتناع قد نما مذهبياً فيما بعد ، كما سنرى ، بفضل التعاليم المستخلصة من السُّنة والتى ما لبثت أن شملت جميع نواحى الحياة الدينية ، وبفضل نظرية النية والقصد والروح التى تلهم الأعمال والتى اتخذت معيارا لقيمة للعمل الدينى ؛ فمجرد ظل باعث أثرى أو ريائى يجرد كل عمل طيب من قيمته .

ومن هذا يتبين أنه ليس من قاض عادل يستطيع أن يوافق على هذه الجملة التى نطق بها القسيس البروستانتى « تيسدال » ، وهى : « من البديهى أن طهارة القلب لا يمكن أن تعتبر ضرورية أو مرغوباً فيها ؛ والواقع ، أنه يصعب علينا أن نقول إنها مستحيلة لدى المسلمين »[٢١] .

ما هو إذاً الطريق (ربما يمكن أن نقرب إليه الباب الضيق المؤدى إلى الحياة فى إنجيل مَتّى إصحاح ٧ عدد ١٣) الذى يجتازه أهل اليمين الذين كتبت لهم مُتع الجنة ؟ فى هذا الطريق لا يُكتفى بالحياة فى تقوى غاشة كاذبة ، كلها شعائر تحقق جميع أشكال العبادة الخارجية وصورها .

بل المطلوب هو — فيما يتعلق بعمل الخير — « فَكُّ رقبةٍ ، أَوْ إطعامٌ فى يوم ذى مَسْغبةٍ ، يتيماً ذا مَقْرَبة ، أَوْ مسكيناً ذَا مَتْرَبَة ، ثمّ كان من الذين آمنوا وتَوَاصَوْا بالصبْرِ وتَوَاصَوْا بالمَرْحمَة ، أولئك أصحابُ الميْمنَة » (سورة البلد : ١٣ — ١٧) وهذا تفصيل أو شرح مطول لما جاء به النبى « أشعيا » (إصحاح ٥٨ عدد ٦ — ٩)*

وسنشرح فى القسم المقبل أن تعاليم القرآن تجد تكملتها واستمرارها فى مجموعة من الأحاديث المتواترة ، التى وإن لم ترد من النبى مباشرة ، تعتبر أساسية لتميز روح الإسلام . ولقد أفدنا من بعضها فى الفقرات السابقة .

وبما أننا قد اجتزنا مرحلة القرآن إلى تقدير أخلاق الإسلام من الوجهة التاريخية طبقاً لخطة هذا الدرس ، لانستطيع إلاأن نشير إلى أنالمبادئ الواردة فى القرآن بشكل واضح وصريح نوعاً — وإن كان أوليا — قد توسع فيها ووضحت بعدئذ ، كما قد فصلت بشكل أدق فى عدد كبير من التعاليم والمبادئ التى نُسبت للنبى بعدئذ .

ففى وصية للنبى إلى أبى ذر نجده يقول : « يا أبا ذر ! صلاة فى مسجدى هذا تعدل ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة فى غيره ، وأفضل من هذا كله صلاة يصليها الرجل فى بيته ، حيث لايراه إلاالله عز وجل ، يرجو بها وجه الله» (قارن إنجيل متى إصحاح ٦ عدد٦). وقيل فى موضع آخر عن النبى أيضا : « هل لى أن أقول لك ماهو العمل الأكثر قيمة وفضيلة من جميع الصلوات والصوم والصدقات ؟ هو الإصلاح بين عدوين » . وقال عبد الله بن عمر : « مهما ركعت للصلاة إلى درجة أن يصبح جسمك محنيا

* ذكر أن ما جاء فى سورة البلد تفصيل مطول أو شرح لما جاء فى سفر أشعياء . وهذا كما نرى تخرص على عادته ؛ وما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليعرف من أخبار أشعياء وغيره إلا ما نبأه الله وقصه عليه ، وما رأينا لهؤلاء المتخرصين دليلا على إفكهم فيما يزعمون .

كالسرج ، ومهما صمت حتى تصبح جافاً كوتر القوس ، فإن الله لن يقبل أعمالك حتى تضم إليها التذلل » .

وأجاب النبي عن السؤال : أى الإسلام خير ؟ بأن « أفضل الإسلام هو إطعام الجائع ونشر السلام بين من عرفت ومن لم تعرف » ، أى للعالم كله . وجاء عنه أيضا : « من لم يمتنع عن قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » ، « لن يدخل الجنة من أحدث ضرراً لغيره » .

وعن أبى هريرة أن أحدهم تحدث إلى النبي عن امرأة معروفة بصلواتها وصومها وصدقاتها ، لكن لسانها كان يجرح من حولها ، فحكم النبي عليها قائلا : «إن مصيرها إلى النار » . ثم تحدث الرجل نفسه عن امرأة أخرى سيئة السمعة ، لأنها تهمل الصلاة والصيام ، لكنها اعتادت أن تعطى المعوزين من اللبن وألا تسىء إلى من حولها ، فقال النبي : « إن مصيرها الجنة » .

إن هذه الأحاديث ، وغيرها من النصوص المماثلة لها والتى يسهل علينا جمعها ، لا تمثل مجرد وجهات نظر شخصية خاصة بطبقة سامية أخلاقها فحسب ، بل إنها لتعبر عن الشعور أو العاطفة العامة لفقهاء الإسلام ، وربما كان الغرض منها مقاومة التقوى الكاذبة التى كانت منتشرة حينئذ .

ومن الواضح أن هذه النصوص بعيدة عن الإعلان بأن خلاص الروح وأمنها متوقف فقط على رعاية الشرائع الصورية ؛ « الإيمان بالله والعمل الطيب التقى » أى أعمال الإحسان ، هذا هو لب الحياة المحبوبة عند الله .

على أن الأمر إذا كان متعلقا بصفة خاصة بالجانب الشكلى للسلوك الدينى ، لا نجدما يُذكر أولا إلا الصلاة ، التى تؤدى بحركات دينية مشتركة ويراد بها إظهار الخضوع لقدرة الله التى لاحد ولانهاية لها ، ثم تأتى بعدها الزكاة ، التى يجب أداؤها لصالح المجتمع العام ، ولهذا وضعها المشرع فى المكان الأول ، شعوراً منه بواجب الرعاية للفقراء والمساكين ومن إليهم من الأرامل والأيتام وأبناء السبيل .

ولكن الإسلام ، فى خلال توسعه التالى وبفعل التأثيرات الأجنبية ، ترك مجالا لدقة الفقهاء المفتين وعلماء العقائد ، وكان دخول الحكمة التفكيرية على مبادىء الطاعة والايمان بالله (إيمانا قلبيا) سببا لإفسادها . وسنشهد فى القسمين التاليين

(الثانى والثالث) هذا التطور ، كما سنجد أيضا فيما يلى من هذه الدراسة نزعات كان لها رد فعل ضد هذا الضلال .

٩ — ولننتقل الآن إلى ظلال هذه اللوحة . لو أن الاسلام قد تمسك بشهادة التاريخ الحق تمسكا دقيقا لوجد أنه لايستطيع أن يمد المؤمنين به بفكرة مثالية للحياة الأخلاقية ، وهى فكرة اتخاذ الرسول مثلا أعلى واحتذائه . لكن المؤمنين لم يتركوا أنفسهم يتأثرون بصورة محمد كما رسمها التاريخ الصادق ، بل حلّ محلها منذ أول الأمر الأسطورة المثالية للنبى فى رأيهم .

إن علم الكلام فى الإسلام قد حقق هذا المطلب ، بما رسم للنبى من صورة تمثله بطلا ونموذجاً لأعلى الفضائل ، لامجرد أداة للوحى الإلهى ولنشره بين غير المؤمنين[٢٢] على أنه يبدو أن هذا لم يرده محمد نفسه ؛ فقد قال إن الله أرسله « شاهدا ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » سورة الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) ، أى إنه مرشد لا نموذج ومثل أعلى ، أو على الأقل إنه ليس كذلك (أسوة حسنة) إلا بفضل رجائه فى الله وذكره الله كثيراً (سورة الأحزاب : ٢١)* .

ولقد كان — على ما يبدو — مدركا بإخلاص إدراكا صحيحا ضعفه الإنسانى ، وكان يريد أن يرى فيه المؤمنون رجلا له عيوب الإنسان ، ومن ثم كان عمله أعظم من شخصه . ولم يشعر فى نفسه أنه قديس ، ولم يرد أنه يعتبر كذلك ؛ وسنعود إلى هذا

* الآية « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » أساء المؤلف فهمها ؛ فقوله : لمن كان يرجو الله واليوم الآخر بدل من لكم ، فكأنه قال : لقد كان لمن يرجو الله واليوم الآخر أسوة حسنة فى رسول الله . أفبعد هذا يقال : لم يكن أسوة الخ . ولقد كان الرسول فى حياته مثالا أعلى للمؤمنين قبل أن يخلق علم الكلام ، وكانوا يقتدون به فى كل شىء ، حتى فى العادات ، وائتساء ابن عمر وغيره معروف ؛ وكذلك ما حصل فى قصة الحديبية واقتداؤهم به فى وضوئه وغيره معروف .

وكان الرسول يرى من نفسه التواضع ليقتدى به فى ذلك ويقول : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » ، وهويعرف منزلته عند الله ومكانته من الرسل ، ويقول : « أنا سيد ولد آدم » . فإن كان المؤلف يريد أنه لايشعر بأنه قديس بالمعنى المعروف عند الكتابيين بما يخرجه من صفات البشر فهذا صحيح . وقد كان الرسول يعلم طبعاً أنه صاحب معجزات ، وإلا لم يستسغ لنفسه أن يدعى الرسالة . والمؤلف أخيراً يلمّح بالضعف الإنسانى عند الرسول ، فما آية ذلك ، وما السيئات التى صدرت منه تحت هذا الضعف ؟

الموضوع فيما بعد عند بحث العقيدة وتنزيهها من الأخطاء . بل كان ضعفه البشرى هو ما جعله يأبى أن يكون صاحب معجزات ، على أن الزمان والبيئة قد سهلا له أن تكون له صفة القداسة .

ولا ننسى أن من الواجب علينا أن نوجه النظر إلى الطريقة التى حددت له رسالته وتحقيقها ، خصوصا فى العصر المدنى ، أى فى الأثناء التى حدث فيها أن تحول من المتقشف المستسلم الصابر إلى رئيس الدولة المحارب .

والفضل فى إيضاح الموضوع يرجع إلى العلامة الإيطالى « ليون كاتيانى » فى كتابه القيم «حوليات الإسلام» ؛ فقد استعرض مصادر التاريخ الإسلامى استعراضاً عاما ، ونقدها نقداً دقيقاً عميقاً لم يسبق له مثيل فى الأبحاث التى تقدمته ، فأوضح المظاهر الدنيوية للعصر الأول من عصور تاريخ الإسلام . وكان أن أدى هذا البحث إلى تصحيحات جوهرية فى وجهات النظر التى كان مسلماً بها قبله ، فيما يتعلق بتأثير النبى نفسه .

إنه من الواضح أننا لا نستطيع أن نطبق فى العصر المدنى على عمل محمد المثل القائل : « الكلمة أقوى من السيف » فمنذ تركه مكة تغير الزمن ولم يصر واجبا بعدُ « الإعراض عن المشركين » (سورة الحجر : ٩٤) ، أو دعوتهم كما يقول القرآن : « بالحكمة والموعظة الحسنة » (سورة النحل : ١٢٥) ؛ بل حان الوقت لتتخذ كلمته لهجة أخرى : « فإذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لهُمْ كلَّ مَرْصَدٍ» (سورة التوبة : ٥) « وقاتلوا فى سبيل الله » (سورة البقرة : ٢٤٤) .

وبعد أن كانت الرؤيا تكشف له انهيار هذا العالم السيىء ، انتقل فجأة إلى تصور مملكة فى هذا العالم . وقد أدى هذا الطابع إلى نتائج كانت محتومة بسبب التغير السياسى الذى أثاره فى الجزيرة العربية نجاح تبشيره ، والدور الشخصى الذى قام به وكان له الأثر الكبير فى الدعوة .

فهو الآن يحمل السيف فى العالم ، ولا يكتفى بـ « عصاه التى يضرب بها الأرض » ولا بنفثات شفتيه لإبادة الكفرة ، بل هو نفير الحرب الذى كان ينفخ فيه ؛ وهو

السيف الدامى الذى رفعه لإقامة مملكته *. وفى رواية إسلامية متواترة ، تتبين منها مهمته مركزة فيها ، إنه حمل اللقب الذى ورد فى التوراة وهو : « نبى القتال والحرب » (٢٣) :

إذاً ، البيئة التى شعر أن من واجبه العمل فيها بأمر الله ، لم تكن لتتيح له أن يعلل نفسه براحة مأمونة : « إنَّ اللهَ يُحاربُ مِنْ أجلكَ ، ويمكنك أنْ تسكت » . بل كان عليه أن يقوم بكفاح مادى ، فى الأمة التى بُعث فيها وفى العالم كله ، لضمان ذيوع دعوته ، والاعتراف بسيطرتها وتعاليمها ، وكان هذا الجهاد المادى العالمى هو الوصية التى تركها محمد لخلفائه .

والنتيجة أنه لم يكن عنده أى إيثار للسلام . « يا أيُّها الذينَ آمنُوا أطِيعوا اللهَ وأطِيعُوا الرّسُولَ ولا تُبطلوا أعمالَكم ... فلا تَهنُوا وتدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنتمُ الأعلَوْن واللهُ مَعَكم ولن يَتِرَكُمْ أعمالَكم » (سورة محمد : ٣٣ — ٣٥) . ويجب الجهاد حتى تكون « كلمةُ اللهِ هىَ العليا » .

ومن قعد عن الجهاد من المؤمنين اعتبر كأنه لا يأبه بإرادة الله ، ومسالمة الوثنيين الذين يصدون عن سبيل الله لا يمكن أن تكون فضيلة ؛ « لا يَسْتوِى القاعِدُونَ مِنَ المؤمنينَ غيرُ أُولى الضررَ والمُجاهدُونَ فى سبيلِ اللهِ بأموالهمْ وأنْفُسِهم فضَّلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالهمْ وأنفُسِهِمْ علَى القَاعدِينَ دَرَجةً وَكُلًّا وعَدَ اللهُ الحُسْنى وفَضَّلَ اللهُ المجاهدِينَ عَلى القاعدينَ أجراً عَظيما ، دَرَجاتٍ مِنهُ ومغفرةً ورحمةً » (سورة النساء : ٩٥ ، ٩٦) ** .

١٠ — كذلك انقضت المرحلة الثانية من رسالة محمد ، متعلقة بمصالح هذا العالم ،

* إن الرسول فى المدينة ، وقد تمثل مايفتح على أمته من الممالك ، لم ينس العالم الآخر . ويقول فى أيام الخندق أو غيرها وقد أرى هذه الفتوح مامعناه . إنى أخاف عليكم هذه الفتوح أن تفتنكم عن دينكم ؛ فلم ينقلب فى المدينة ملكا همه الثراء له ولأمته كما يصوره الكاتب ، فالرسول فى مكة هو الرسول فى المدينة ، ولم تزل عيشته بعد الفتوح وما أفاء الله عليه العيشة الأولى .

** كانت مهمة المجاهدين فى الإسلام هداية الكافرين ، وإخضاعهم إن لم يهتدوا حتى لا يستشرى شرهم فينالوا من الإسلام ، فغرضهم دينى أبداً ؛ ولم يطبع الإسلام بالطابع الحربى رغبة فى الحرب ، بل الغرض الأول هو دفع العدوان عن الدين ونشر مبادئه القويمة .

ومتأهبة دائماً لحالة الحرب . وكما أن طابعه الخاص انتقل إلى مناطق الحياة الحاضرة ، كذلك تأثر بسببها ترتيب أفكار دينه العليا .

وهكذا كان من الجهاد والنصر ، المعتبرين وسيلة لرسالته النبوية ، أن غيّرا الفكرة عن الله ، الذى أراد أن يؤكد فى ذلك الحين وما بعده النصر بقوة السلاح * . ومما لا شك فيه أن محمداً تصور الله بصفات مطبوعة بقوة بطابع التوحيد ، الله الذى فى سبيله قاد محاربيه وجعلهم يحملون ماتقتضيه سياسته من جهود .

وكذلك اجتمعت القدرة الإلٓهية المطلقة والسلطان غير المحدود لله مالك يوم الدِّين ، والشدة ضد العصاة قساة القلوب ، برحمة الله وحلمه : فالله غفور للمذنبين ، ورحيم بالنادمين . « كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » (سورة الأنعام : ٥٤) .

وهذا يفسر التعليم المتواتر المعروف وهو أنه لما أتم الله الخليقة كتب فى اللوح المحفوظ إن رحمتى تغلبت على غضبى ** (٢٤) . ولكن عند ما بلغ بعقابه من أراد وسعت رحمته كل شىء (سورة الأعراف : ١٥٦) . ولم ينس محمد صفة المحبة بين الصفات التى يذكرها الله : إن الله ودود محب ، « إن كُنْتُم تُحِبُّونَ الله فاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُم اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » (سورة آل عمران : ٣١) ، ولكن « اللهَ لا يُحِبُّ الكافرين » (سورة آل عمران : ٣٢) .

لكن الله أيضاً إلٓه الجهاد الذى يقاتل أعداءه بواسطة النبى وأتباع النبى ، وهذه الصفة أدت إلى نتيجة حتمية ، وهى أن تمتزج بفكرة الله — كما كان يمثلها محمد — بعض السمات الأسطورية التى تقلل من شأنها ، كما لو أن المحارب ذا القدرة اللانهائية فى حاجة إلى الدفاع عن نفسه ، ضد كيد أعدائه ومقاومتهم بلا انقطاع ، بوسائل تشبه وسائلهم وإن كانت أقوى منها ؛ لأنه ، حسب مثل عربى قديم مأثور ، « الحرب خدعة » ؛ وفى القرآن « إنهم يَكيدُونَ كَيْداً ، وأَكِيدُ كَيْداً » (سورة الطارق : ١٥ ، ١٦) .

---

* لم تتغير فكرة الرسول عن الله ، وحاشاه . أفإذا صبر فى مكة وحارب فى المدينة ، أفيقضى ذلك بتغيير فكرته عن الله !

** عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتى سبقت غضبى . ج ٩ ص ١٢٥ من طبعة مصر بولاق ١٣١٥ هـ .

ويصف الله الطريقة التي يراها لعقاب منكرى وحيه ، باعتبارها كيدا قويا ، فيقول : والذين كذَّبوا بآياتنا سَنَسْتَدْرِجهمْ منْ حيثُ لا يَعْلَمُون ، وأُمْلى لهم إن كَيْدِى مَتِين » (سورة الأعراف : ١٨٣) ، وهذا يساوى ما فى الآية ٤٥ من سورة القلم .

وقد استعملت دائماً كلمة « كيد » للتعبير عن ضرب غير هجومى من الخداع والدس[٢٥] ، ولكن كلمة « مكر » تدل على معنى أخطر من كلمة « كيد » . وقد ترجمها « بالْـمرْ » بالإنجليزية تارة بمعنى craft وتارة بمعنى plot وتارة stratagem ولكنها تشمل أيضاً فكرة تدبير دسائس وكيد ودس ، وفى ذلك يقول فى القرآن : « ويَمْكرونَ ويَمكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين » (سورة الأنفال : ٣٠) * .

وهذا لا ينطبق فقط على أعداء الله وأعداء رسالته من معاصرى محمد الذين أظهروا عداءهم بمحاربته واضطهاده ، بل هذا السلوك قد قيل عن الله فى معاملة الأمم الوثنية القديمة التى سخرت من الأنبياء المرسلين إليها ؛ أمثال ثمود الذين نبذوا صالحاً المرسل إليهم (سورة النمل : ٥١) ؛ ومدين الذين أرسل إليهم شُعيب وهو النبى يثرو المذكور فى التوراة ؛ (سورة الأعراف : ٩٥ — ٩٧) .

وليس من الممكن بطبيعة الحال أن نزعم أن محمداً يتصور الله كأنه يكيد ويمكر حقاً . فما فى هذه الكلمات من تهديد يجب أن يُفهم بمعنى آخر ، وهو أن الله يعامل كُلاًّ حسب سلوكه وعمله[٢٦] ، وأن أى مكر أو كيد لن يجدى شيئاً ضد الله الذى يرد إلى العدم جميع المكايد الكافرة الأثيمة التى يقوم بها أعداؤه ، فيسبق نياتهم السيئة ويجعل المؤمنين بمنجاة من أن يصابوا بالمكايد والخيانة والخداع[٢٧] « إنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الذينَ آمنُوا ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفور » (سورة الحج : ٣٨) .

---

* عمد الكاتب إلى آيات وردت فى جانب الله على سبيل المشاكلة والاستجارة والتوسع فى العبارة ، على سنن العرب فى كلامهم ، فحملها على الحقيقة وبنى عليها نتيجة فاسدة ؛ مثل ويمكرون ويمكر الله ، والعجب أن الكاتب يعود بعد هذا فيقرر أن الرسول لم يكن يفهم هذه الآيات على ظاهرها ، بل يفهمها بمعنى صحيح مناسب . وإذن ففيم هذا الإيهام ، وأين هى السمة الأسطورية التى يزعمها .

هذا ، وإن الطريقة التى اصطنعها محمد ، والأسلوب الذى يعبر به فى وصف الله رب العالم ، وهو يقاوم كيد الكائدين ، يصور سياسة النبى الحقيقية التى انتهجها ليقاوم ما أقيم فى سبيله من عقبات . فعقليته الخاصة . والخطة التى اتخذها ضد أعدائه فى الداخل(٢٨) ، قد انعكست صورتها على الله الذى - كما قال - يضمن لنبيه النصر بأسلحته التى يراها . إنه فى هذا يقول : « وإما تَخافَنَّ منْ قومٍ خِيانَةً فانبِذْ إليهم علَى سَوَاءٍ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الخائنين ، ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفرُوا سبقوا إنهم لا يُعجِزُون » (سورة الأنفال : ٥٨ . ٥٩) .

وعلى كل ، فإن هذه الكلمات التى لها دلالتها الاصطلاحية تدل على عقلية سياسى محنك ، أكثر من دلالتها على عقلية رجل صابر سلاحه المثابرة ، ويجب أن نلح خاصة فى هذه النقطة التى تؤثر فى أخلاق الإسلام والتى تحظر بشدة الغدر حتى بالكافرين(٢٩) .

ومع هذا فهناك ضلال أسطورى فى الطريقة التى يتصور بها محمد الله ، إذ تؤدى إلى أن الله ينزل من عليائه السماوية ليصبح الشريك المعين للنبى فى جهاده الذى أخذ فى الاضطلاع به فى هذا العالم* .

إنه كلما أخذ عمل رسالة محمد يتقدم تقدماً خارجياً ، تم التحول تدريجياً : فبعد أن كانت تحت سلطان الرؤى التى تتعلق بالدار الأخرى ، والتى كانت تملأ نفسه وتؤثر فى تبشيره خلال المرحلة الأولى من نبوته ، نراه انتقل إلى الأمانى الدنيوية القوية التى صار لها التفوق فى خلال مراحل نجاحه . وهذا هو ما طبع الإسلام التاريخى بطابع الدين الحربى المتناقض تناقضاً مطلقا مع مرحلته الأولى ، حيث لم يفكر فى مملكة دائمة فى عالم مصيره إلى الفناء .

والذى فعله فى الوسط الحربى المحيط به مباشرة ، هو أنه أوصى بتحقيق رسالة مستقبلة لأمته ، وهى : جهاد الكافرين ، والتوسع فى نشر الإسلام وفى سيطرته

---

* يقول إن محمداً يتصور أن ينزل الله من عليائه ليعينه فى حروبه ، ومحمد أبعد الناس أن يتصور النزول الحسى لله أو أى شىء فيه يمت للجسدية ، والإعانة بنصره وإقداره لا ضلال فيها .

ـ التى هى سيطرة الله ـ على أوسع نطاق* . ومن ثم ترى أن مهمة المجاهدين فى الإسلام لم تكن هداية الكافرين فحسب ، بل وإخضاعهم إيضاً(٣٠) .

١١ ـ للباحثين آراء متعارضة أثرت عنهم فيما إذا كانت فكرة محمد الأولى قد قُصرت على وطنه العربى ، أو إذا كانت فكرته عن رسالته النبوية قد شملت ميداناً أوسع ؛ وبعبارة أخرى ، هل كان يشعر فى قرارة نفسه أنه نبىّ وطنى أم نبىّ عالمى أرسل للناس كافة ؟(٣١) .

أعتقدُ أننا نستطيع الأخذ بوجهة النظر الثانية(٣٢) ولا يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك أنه ردد أولا دعوة الله التى أحسّها فى قرارة نفسه ، والرهبة التى شملته من أجل مصير العصاة ، فى الوسط المباشر الذى تفتح فيه الشعور برسالته النبوية فأدركها ؛ ويتبين ذلك مما جاء فى القرآن : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِين » (سورة الشعراء : ٢١٤) ، وإنك لمرسل « لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها » (سورة الأنعام : ٩٢) ،

ولكن مما لاشك فيه أن نظرته الداخلية قد امتدت منذ أول رسالة إلى مدى أوسع وأفق أرحب ، برغم أن أفقه الجغرافى المحدود لم يكن ليترك له مجالا للتفكير فى وضع خطة أولية لدين عالمى ، فمنذ بدء الأمر كانت فكرته عن رسالته أنْ الله أرسله « رَحْمةً لِلعالَمين » (سورة الأنبياء : ١٠٧) .

وهناك جملة تكررت كثيراً فى القرآن ، وهى وصف التعاليم الإلهية بأنها ذكر للعالمين . (سورة يوسف : ١٠٤ ؛ سورة الصافات : ٨٧ ؛ سورة القلم : ٥٢ ؛ سورة : التكوير ٢٧) فكلمة «العالمين» لها فى القرآن دائماً معنى عالمى ؛ فالله « رَبُّ العالَمين » ، وقد جعل ما أراده من اختلاف الألسنة والألوان آيات ودروساً للعالمين (سورة

---

* يمضى أيضاً على عادته فى الزعم بتغير حالة الرسول وطمعه فى الدنيا وانتقاله محارباً جباراً . وهذا أبعد شىء فى حياة الرسول ؛ فقد كان إذا عاد من فتح أو غزو يكون هجيراه : « تائبون آيبون ، إلى ربنا عابدون » ؛ فكان المسيطر عليه فى وعلى أعماله النظر إلى الآخرة ، وواجب الدين والتحذير من عذاب الآخرة والتبشير بنعيم الجنة وما فيها ما يزال مبثوثاً فى تضاعيف السور المدنية . وترى فى سورة النساء المدنية قوله تعالى : إن الذين كفر بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » .

الروم : ٢١) إذاً ، المقصود هو الإنسانية بأوسع معانيها وذلك له ما يشبهه فى إنجيل مرقص ١٦ : ١٥ .

كذلك توسع فى رسالته حتى شملت كل المحيط الذى أدركته معلوماته . ويديهى أن مجهوده المباشر اتجه إلى عشيرته وبلاده أولا ، ولكن العلاقات التى أخذ — عند نهاية رسالته — فى عقدها مع الدول الأجنبية ، وكذلك الأعمال والمشاريع التى نظّمها ، هذه وتلك ، تكشف عن جهد تجاوز حدود الجزيرة العربية .

ومما لا حظه « نولدكه » أن خططه كانت ترمى إلى ميادين أوسع ، إذ كان على يقين من الالتقاء بالروم خصوماً له ؛ وكان آخر ما أوصى به المجاهدين متجهاً إلى غزو أو فتح الامبراطورية البيزانطية . وإن الفتوحات الكبرى التى تمت بعد وفاته ، بمعرفة الذين كانوا أكثر أصحابه اطلاعاً على نواياه ومشروعاته ، لهى أحسن تفسير لإرادته الخاصة فى هذا الصدد .

والمتواتر من الأحاديث الإسلامية نفسها يعبر عن إدراك النبى بأن رسالته موجهة إلى الجنس الإنسانى بأسره أو للناس كافة ، ويبين ذلك فيما تواتر من مثل هذه الأحاديث النبوية : « للأحمر والأسود »[٣٣] ، فالطابع العالمى لرسالته يتسع حتى تشمل أوسع الميادين التى يمكن تصورها[٣٤] .

وبحسب هذه الأحاديث نرى النبى قد عبّر عن فكرته فى فتح العالم بأقوال واضحة ، وتنبأ عنها بأعمال رمزية ، وبعض هذه الأحاديث تُرى أن فى القرآن نفسه وعداً بفتح امبراطورية فارس وامبراطورية الروم قريباً ، (سورة الفتح : ١٩ ، ٢٠)[٣٥] .

وبديهى أننا لانستطيع الذهاب إلى هذا المدى البعيد مع رجال الدين المسلمين . ولكن ، حتى إذا أخضعنا مبالغاتهم للنقد ، نستطيع أن نوافق — استناداً إلى وجهات النظر التى عرضناها هنا — على أن محمداً كان يتصور الإسلام بوجه عام قوة تتجاوز بكثير حدود الشعب العربى وتشمل جزءاً كبيراً من الجنس البشرى .

وعلى كل ، فقد تحقق ذلك ؛ إذ أن الإسلام بدأ ،غداة وفاة مؤسسه ، سيره المنتصر فى آسيا وإفريقية .

١٢ — ومن الخطأ الخطير أن ننسب للقرآن أكبر القيم فى بيان طابع الإسلام بوجه عام ، كما أننا من باب أولى لا نستطيع أن نؤسس حكمنا على الإسلام مستندين إلى هذا الكتاب وحده المقدس لدى الأمة الإسلامية . والواقع أن هذا الكتاب لم يحكم الإسلام إلا فى خلال العشرين سنة الأولى من نموّه .

ففى خلال حياة الإسلام التاريخية كلها ظل القرآن فى رأى أتباع دين محمد عملاً أساسياً محترماً باعتباره موحى به ، كما ظل كذلك موضع إعجاب عظيم إلى حد لم يظفر به أى عمل من الأعمال الأدبية العالمية(٣٦)

ولكن بالرغم من أن الإسلام فى أطوار نموه التالية قد اتخذ القرآن أساساً — وهو أمر طبيعى — ، وبالرغم من أنه كان يوزن به جميع منتجات العصور المتأخرة ، وبالرغم من أن كل شىء قد تُصوِّر أنه متفق معه أو حُووِل تصور ذلك — بالرغم من هذا كله ، فإننا لا يمكن لنا أن نتناسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن يكفى وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية .

إن الرسول نفسه قد اضطر بسبب تطوره الداخلى الخاص ، وبحكم الظروف التى أحاطت به ، إلى تجاوز بعض الوحى القرآنى إلى وحى جديد فى الحقيقة ، وإلى أن يعترف أنه ينسخ بأمر الله ماسبق أن أوحاه الله إليه .

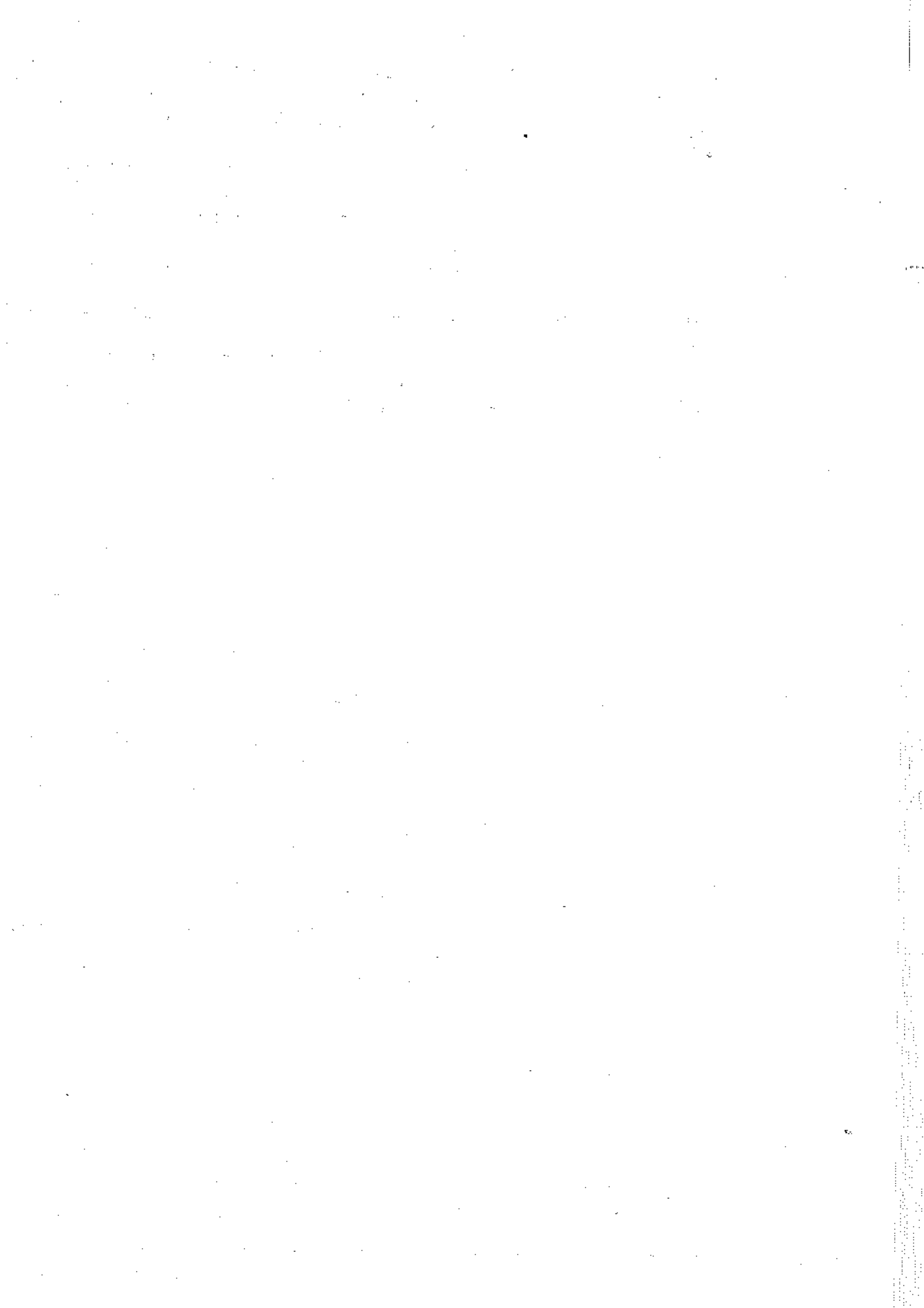
فإذا كان الأمر كذلك فى عصر النبى ، فمن الأولى أن يكون كذلك — بل أكثر من ذلك — عندما تجاوز الإسلام حدود البلاد العربية وتأهب لكى يصير قوة دولية.

إننا لا نفهم الإسلام بلا قرآن ، لكن القرآن وحده بعيد عن أن يكفى لمواجهة العقلية الإسلامية التامة فى سيرها التاريخى* .

وسندرس عن كثب ، فى الأقسام المقبلة ، أطوار نموه التى تجاوزت حدود القرآن .

---

* الكتاب والسنة وما فيهما من أصول ومبادىء يواجهان الحياة العامة للاسلام فى كل عصوره ، وما كان من نسخ فى حياة الرسول كان لأن الوحى لم يكمل ، فأما بعد وفاته فقد كمل الوحى وأقفل باب النسخ . ويفزع المسلمون فى أمورهم دائماً إلى الكتاب والسنة ، فإن خرج بعضهم على قواعد الدين فقد ظلم نفسه ، وبان الخسران فى عمله . ويشهد الكاتب أن القرآن كان دستور المسلمين فى العصر الأول ، وقد كان المسلمون أولى قوة وأولى بأس وذوى مدنية راقية. أفلم يكن هذا دليلا كافياً لكفاية الكتاب والسنة .



٢

تطور الفقه

١ — أتاح « أناتول فرانس » فى قصته Sur la pierre blanche لجماعة مثقّفة تهتم بأحوال العالم القديم ، فرصة تبادل الآراء والأفكار فى حديث ذهب مذاهب مختلفة ، فيما يتعلق بمسائل التاريخ الدينى .

وقد أجرى على لسان أحدهم ، وقد تشعّب الحديث ، هذه الحكمة : « إن من يؤسس ديناً لايدرى ماذا يفعل » ، أى « إنه من النادر أن يدرك مؤسس الدين مدى أثر عمله على تاريخ العالم » . وهذه الكلمة تنطبق أفضل انطباق على محمد [صلى الله عليه وسلم] * .

وإنه ليصح لنا أن نضيف أيضاً إلى ذلك ، أنه بعد هذه الانتصارات الحربية التى لم يشاهدها الرسول ، وُجدت أمام أعيننا رقعة فسيحة كبيرة للإسلام جاوزت حدود الوطن وقد فُتحت بقوة السيف .

وأنه من ناحية أخرى لم تكن النظم التى وضعها فى حياته لتكفى للعلاقات الكبيرة التى واجهها الإسلام الفاتح منذ الأيام الأولى ؛ فقد كان تفكير الرسول متجهاً فقط ودائماً إلى تلك الأوضاع الضرورية أولا وبالذات ** .

وقد خطت الأمة الإسلامية تحت سلطان خلفائه المباشرين قُدُماً فى الطريق ، سواء فى ذلك ما يتعلق بالتمكينات الداخلية ، أو فيما يتعلق بأمور البلاد المفتوحة ،

---

* إن النبى صلى الله عليه وسلم قد كان يعلم ما يصيبه الإسلام من الانتشار وتمكين السلطان ، وقد بشر أصحابه بالفتوح التى تمت فى عهد خلفائه . وفى سورة النور : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم » .

** النظم التى جاءت فى الكتاب كفت وتكفى ما جد ويجد من العلاقات ، بتفصيلها أو إجمالها وبما فيها من مبادئ وأصول . ولم يكن التشريع مقصوراً على الضرورى فى زمن البعثة ؛ فالجزية وأمثالها وضعت نظاماً ينفذه من يأتى بعده .

وصارت بذلك — بعد أن كانت أمة دينية بمكة ارتقت فى المدينة إلى صورة سياسية ساذجة — دولة سياسية عالمية * .

وسواء فى البلاد العربية نفسها ، أو البلاد المفتوحة ، كانت تجدّ علاقات تحتاج إلى التقنين ، وأسُسٌ للدولة يلزم تمكينها وتثبيتها ؛ كما أن الأفكار التى جاء بها القرآن كانت مبادىء وأصولاً ، يجب أن تتطور بسبب اتساع دائرة الأفكار المستنتجة .

كما أنه فى الحوادث الكبيرة التى لمس الإسلام بواسطتها دائرة الأفكار الأخرى ، فتح المسلمون المفكرون باب التفكير فى المسائل الدينية ، التى كانت مقفلة إلى ذلك الحين فى بلاد العرب ؛ وكذلك كانت فى الوقت نفسه تُقَنَّن مسائل الحياة العملية ، وأشكال العبادات فى أصول ضرورية ، تقنيناً متأرجحاً غير ثابت ** .

وكانت تطورات التفكير الإسلامى ، ووضع الأشكال العملية ، وتأسيس النظم — كل ذلك كان نتيجة لعمل الخلف التالين ، ولم يتم كل هذا بدون كفاح داخلى وتوفيقات . وهكذا يظهر غير صحيح ما يُقال من أن الإسلام ، فى كل العلاقات ، « جاء إلى العالم طريقة كاملة[1] » ، بل على العكس فإن الإسلام والقرآن لم يُتمّا كل شىء ، وكان الإكمال نتيجة لعمل الأجيال اللاحقة *** .

ونريد الآن أول كل شىء أن نستعرض أمام نظرنا بعض المطالب العملية للحياة الظاهرة ؛ فقد اهتم محمد [صلى الله عليه وسلم] وأصحابه بالأمور الضرورية المباشرة ، ويجب أن نصدق الرواية التى ذكرت أن النبى كان قد وضع تعريفاً للضريبة

---

* الأمة الإسلامية فى مكة والمدينة أمة دينية سياسية على السواء ، وإن كانت السياسة فى المدينة غيرها فى مكة ، والسياسة والدين فى الإسلام ممتزجان .

** الأسس التى يحتويها الكتاب مبادىء وأصول عمل بها الفقهاء فى التقنين لما جد ، على أن يفرعوا منها النظريات الفقهية ولا يخرجوا عليها ، وليس لهم أن ينتقلوا بها فيعدلوها ويطوروها بحسب الأحوال المستحدثة ، وأشكال العبادات الأصلية لا اجتهاد فيها . إنما الاجتهاد فى أشياء تتعلق بها سكت عنها وتجاذبتها أصول مختلفة فى الدين ، فالفقهاء عملهم الاجتهاد والترجيح ، وقد تعبدهم الله وتعبد أتباعهم بما يفضى إليه اجتهادهم بعد أن يبلوا فى النظر .

*** جاء الإسلام فى كل العلاقات بطريقة كاملة فى المبادىء والأصول ، وهذا ما ينتظر من القانون والنظام : أن يحتوى الكليات وتترك الجزئيات والتفاصيل للقائم بالفهم والتنفيذ ؛ وقد يكون فى ذلك مجال للاختلاف ، وهذا لا بأس به متى كان رائد الجميع فهم النصوص وتعليق الحوادث بمبلغ الاجتهاد والبعد عن الهوى .

أو الزكاة[٢] ، إلا أن الحالة فى أيامه دعت إلى أن يخطو بهذه الزكاة من حالتها البسيطة كصدقة شعبية إلى ضريبة حكومية مفروضة ولها قواعد ثابتة .

هذه القواعد قد أصبحت بعد موته ، نظراً للضرورات الداخلية ، فى مقدمة الأمور على الدوام ؛ وهؤلاء المجاهدون المنتشرون فى أقاصى البلاد ، وعلى الأخص هؤلاء الذين لم يصدروا عن المدينة التى كان تأثير النبى فيها قائماً ، هؤلاء لم يتعلموا فروع الأعمال الدينية ؛ إذ كانت الحاجات السياسية هى كل شىء ، وفى مقدمة الأمر عندهم .

ثم هذه الحروب المتوالية ، بما كان فيها من الفتوح الجديدة كانت تتطلب وضع قواعد لحقوق المحاربين ، وزيادة على هذا ، وضع الأنظمة لشعوب البلاد المفتوحة ؛ سواء فى ذلك الوضع السياسى لهؤلاء الخاضعين ، أو الوضع الاقتصادى لتلك الشعوب . وكان عمر ، على وجه أخص ، الخليفة المتحمس الذى أسس الدولة الإسلامية على الحقيقة ، وقد ساعدت فتوحه فى الشام وفلسطين ومصر فى وضع الأحكام الأولى لتلك العلاقات السياسية والاقتصادية .

٢ — ولسنا هنا بصدد الاشتغال بفروع هذه الأحكام ؛ فإن أهم أغراضنا هو فقط معرفة هذه الحقيقة : وهى أنه بناءاً على الحاجة الضرورية فى الحياة العامة بدأ تطوّر الفقه الإسلامى مباشرة بعد وفاة النبى .

ولكن مسألة واحدة من هذه المسائل الفرعية يجب علىّ أن أذكرها ، لأهميتها من ناحية معرفة الروح العامة لهذا الصدر الأول ؛ ذلك أنه مما لا يمكن إنكاره أن الأوامر القديمة التى وُضعت للمسلمين الفاتحين إزاء أهل الكتاب الخاضعين لهم ، أثناء هذه المرحلة الأولى من التطور الفقهى ، كانت قائمة على روح « التسامح »[٣] وعدم التعصب .

وأن ما يشاهد اليوم مما يشبه أن يكون تسامحاً دينياً فى علاقات الحكومات الإسلامية ، ونجد ظواهر هذا التشريع فى الإسلام فى كتب الرحالة فى القرن الثامن عشر ، يرجع إلى ما كان فى النصف الأول من القرن السابع من مبادىء الحرية الدينية ، التى مُنحت لأهل الكتاب فى مباشرة أعمالهم الدينية .

وروح التسامح فى الإسلام قديماً ، تلك الروح التى اعترف بهـا المسيحيون المعاصرون أيضاً ، كان لها أصلها فى القرآن (سورة البقرة : ٢٥٦) « لا إِكْرَاهَ فى الدِّين »[٤] . وقد اعتُمد على هذه الآية فى بعض الوقائع فى العصور المتأخرة لرد العقوبة الصارمة عن بعض هؤلاء الذين كانوا أُكرِهوا على الإسلام ، ثم عادوا إلى الـكفر ، وعُدُّوا مرتدين عن الإسلام[٥] .

وقد جاءت الأخبار عن السنين العشر الأولى للإسلام بمُثُلٍ للتسامح الدينى للخلفاء ، إزاء أهل الأديان القديمة ، وكثيراً ما كانوا يوصون فى وصاياهم للفاتحين بالتعاليم الحـكيمة . ومن المُثُل لذلك عهد النبى مع نصارى نجران ، الذى حوى احترام منشآت النصارى[٦] ، ثم هذه القواعد التى أعطاها لمعاذ بن جبل عند ذهابه إلى اليمن « لا يُزعج يهودى فى يهوديته »[٧] .

وفى هذه الدائرة العالية كانت أيضاً عهود الصلح التى أعطيت للنصارى الخاضعين للدولة البيزنطية التى اندمجت فى الإسلام[٨] ، وبموجبها كانوا ـ فى مقابل دفع الجزية ـ يستطيعون مباشرة شئونهم الدينية من غير إزعاج لهم ، وإن يكن من الحق أنه قد وضعت بعض الحدود للشعائر الدينية الظاهرة .

على أن النقد التاريخى للمراجع يدلّ على أن بعض التحديد والتقييد فى هذا العصر الأول أتى فى العصور المتأخرة[٩] لأول مرة بالتعصب الذى يتفق مع هذه العصور[١٠] ؛ فقد جاء مثلا بتحريم إنشاء الـكنائس ، أو إصلاح ما تهدم منها ، وقد حصل هذا على ما يظهر أول مرة من عمر بن عبد العزيز ، الذى اتخذ هذه التدابير ، ثم تابعه فيها بعد ذلك المتوكل العباسى الذى كان على سننه .

وقد أخذ هؤلاء الحـكام أنفسهم بهذه السياسة ضد معابد أهل الـكتاب ، التى كان قد أُذن لهم فيها منذ إخضاعهم ، وفى هذا نفسه دليل على أن إقامة هذه المعابد قبل ذلك لم يقف فى طريقها مانع من الموانع .

وكما أن مبدأ التسامح كان جارياً فى الأعمال الدينية ، كذلك من جهة أخرى كان يراعى فقهياً ، فيما يتعلق بالمعاملات المدنية والاقتصادية بالنسبة لأهل الـكتاب ،

مبدأ الرعاية والتساهل ؛ فظلم أهل الذمة ، وهم أولئك المحتمون بحمى الإسلام من غير المسلمين ، كان يحكم عليه بالمعصية وتعدّى الشريعة[١١] .

ففى بعض المرات عامل حاكم إقليم لبنان الشعب بقسوة ، عند ما ثار ضد ظلم أحد عمال الضرائب ، فحكم عليه بما قاله الرسول : « من ظلم معاهداً ، وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة»[١٢] . وفى عصر حديث من هذا ما رواه بورتر Porter فى كتابه « خمس سنين فى دمشق » ، من أنه رأى بالقرب من بُصرى « بيت اليهود » ، وحكى أنه كان فى هذا الموضع مسجد هدمه عمر ، لأن الحاكم قد اغتصبه من يهودى ليبنى عليه هذا المسجد[١٣] .

٣ — وفى الوقت الذى كانت توضع فيه النظم الأساسية الجديدة ، بالنسبة للنظريات القانونية ، فى علاقة الإسلام الفاتح بالشعوب المفتوحة كأمر أولى ، كانت من جهة أخرى تقعّد أيضاً الحياة القانونية والمسائل المدنية الداخلية فى مختلف الفروع .

فهؤلاء المحاربون المنتشرون فى أنحاء الدولة البعيدة ، والمعتبرون فى هذه الجهات إخواناً فى الدين ، ولم يُجزم بعدُ فيما يتعلق بالأمور الخاصة بالدين عندهم ـ هؤلاء كان يجب أن يوضع لهم إمام ومثال للأعمال الواجبة يقيدون به ، كما كان يجب أن يلزموا بقواعد جازمة فى حل مسائلهم الناشئة فى الأمور الفقهية ، التى لم يكن يعرفها تماماً جزء كبير من هؤلاء العرب الفاتحين المجندين .

وفى بلاد الشام ، ومصر وفارس ، كان الناس يوفقون بين تقاليد وعادات هذه البلاد ذات الثقافات المختلفة ، وبين هذه القوانين الجديدة . وبالجملة ، فإن الحياة الفقهية الإسلامية ، سواء فى ذلك ما يتعلق بالدين أو الدنيا ، أصبحت خاضعة للتقنين .

والقرآن نفسه لم يمط من الأحكام إلا القليل ، ولا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة كلها مما جاء من الفتوح ، فقد كان مقصوراً على

حالات العرب الساذجة ، ومعنياً بها ، بحيث لا يكفى لهذا الوضع الجديد

وهؤلاء الحاكمون المتجهون إلى الدنيا ، والذين رفعوا من شأن الدولة الجديدة ، لم يكونوا ليُعنَوْا كثيراً بهذه الحاجات ، وإن لم يُولّوا وجوههم عنها ، إلا أنهم كانوا أكثر اهتماماً بالأنظمة القانونية الدينية التى تقوى من شأن الدولة ، والتى تدعو إلى الاستيلاء على ما فتحوه بالسيف من أجل الجنس العربى .

أما فى الأمور الدينية الخاصة بالحياة اليومية فقد اكتفوا فى ذلك بعادات قانونية ، وأخذوا فى الوقائع المتنازع فيها بما يوحيه إليهم الذكاء . وأستطيع أن أقول بأنهم أخذوا فى ذلك بمقتضى ما يريدون ، وزيادة على هذا فإنهم لم يأخذوا ـ بدقة ـ بتلك القواعد التى كانت وضعت فى عهد الخلفاء الراشدين .

ولم يرض هذا الأسلوب هؤلاء الأتقياء الذين كانوا يسعون وراء حياة جديدة توافق إرادة الله ، وتوافق ما قصد إليه الرسول من فقه دينى ؛ ويرون أنه يجب أن يبحث عن قصد الرسول فى كل المسائل ، سواء أكانت دينية أم دنيوية ، وأن يراعى ذلك كمثال يحتذى . وكان أحسن المصادر لذلك « الصحابة » ؛ أعنى أولئك الذين عاشروا الرسول ، ورأوا ما يعمل ، وسمعوا منه الأحكام .

وما دام الإنسان قريباً من هؤلاء الأصحاب فإنه يستطيع أن يستنتج من أخبارهم ما يطلب من الأعمال الصالحة وأمور الفقه . وبعد ذهاب هذا العصر كان يكتفى بالأخبار التى حفظها التابعون الذين كانوا على صلة بهم ، وحفظوا منهم المسائل التى حكموا فيها ، وهكذا من تابع إلى تابع إلى العصور المتأخرة .

وكان العمل أو الحكم يعدّ سليماً عندما يمكن إثبات أنه متصل ، فى سلسلة ، بمرجع أخير من الصحابة شهد ذلك وسمعه من الرسول . وبهذه الأحاديث صارت التقاليد سواء فى العبادة أو القانون محلا للتقديس ، بعد أن بحثت قيمتها ،

---

* يذكر أن القرآن لم يعط إلا أحكاما قليلة . وهنا نشير إلى ما تقدم من أن الكتاب والسنة احتويا مبادىء وأصولا تكفل معرفة مايجد من الأحوال والأقضية ، فليس بصحيح اقتصار الكتاب والسنة على أحكام الحياة البدوية الساذجة .

كأنها قد استعملت تحت عين الرسول ووافق عليها — بماله من الحق فى ذلك — هو والمؤمنون الأولون[١٤] .

هذه هى « السُّنة » ، العادة المقدسة والأمر الأول ، والشكل الذى وصلت به إلينا هو « الحديث » ، فهما ليسا بمعنى واحد ، وإنما السُّنة دليل الحديث* ؛ فهو عبارة عن سلسلة من المحدثين الذين يوصلون إلينا هذه الأخبار والأعمال المشار إليها طبقة بعد طبقة ، مما ثبت عند الصحابة على أنه قد حاز موافقة الرسول فى أمور الدين أو الدنيا ، وما ثبت أيضاً حسب هذا المعنى من المثل التى تحتذى كل يوم ؛ وهنا يرى أنه ، حتى فى الإسلام ، أخذت هذه الفكرة مكاناً أيضا ، أعنى اتخاذ قانون مقدس وراء القرآن مكتوباً أو مسموعاً كما هو الحال عند اليهود[١٥] .

والسُّنة هى جوهر العادات وتفكير الأمة الإسلامية قديماً[١٦] وتعتبر شرحاً لألفاظ القرآن الغامضة التى جعلتها أمراً عملياً حياً .

ولبيان قيمة السُّنة نورد هذا المثال الهام ، فقد روى عن على أنه لما أرسل بن عباس ليحاجّ بعض الخوارج أوصاه بألا يعارضهم بالقرآن لأنه حمّال ذو وجوه ويحتمل معانى مختلفة ، وبأن يكون عماده السنة فلا يجدوا منها مخرجاً[١٧] وإن كان لا يمكن الجزم بأن علياً قال ذلك . على أن هذا على كل حال يرجع إلى العصر الأول ، ويمكن أن يعطينا صورة عن نوع الفكرة القائمة فى الإسلام وقتئذ .

ولا نستطيع أن نعزو الأحاديث الموضوعة للأجيال المتأخرة وحدها ، بل هناك أحاديث عليها طابع القدم ، وهذه إما قالها الرسول أو هى من عمل رجال الإسلام القدامى ؛ ولكن من ناحية أخرى فإنه ليس من السهل تبين هذا الخطر المتجدد

---

* يقول إن السنة دليل الحديث . الأشبه العكس على حسب تعريفه ؛ أى أن الحديث دليل السنة وطريق وصولها إلينا ؛ وقد عرف الحديث بأنه سلسلة من المحدثين الخ . وهذا تعريف سند الحديث . فأما الحديث فهو ماأضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقى أو خلقى ؛ والسنة هى الطريقة الشرعية التى جرى عمل المسلمون عليها ، وقد تكون حديثاً ، وقد تكون ثابتة بعمل الصحابة أو الإجماع عليها . وتعورفت كتب السنن فيما يتعلق بأحكام الأعمال التكليفية كسنن الدارقطنى وابن ماجه .

وليس بصحيح أن مافى الأحاديث والسنن مخالف لما فى القرآن حتى يصبح التمثيل بما عند اليهود ، فالسنة مبينة للكتاب شارحة له . ويقول الكاتب ، بعد هذا ؛ عن السنة إنها شرح لألفاظ القرآن الغامضة ، وإذن نقول له : ليست شرعاً وراء القرآن .

عن بعد الزمان والمكان من المنبع الأصلي ؛ بأن يخترع أصحاب المذاهب النظرية والعملية أحاديث لا يرى عليها شائبة فى ظاهرها ، ويرجع بها إلى الرسول وأصحابه .

فالحق أن كل فكرة ، وكل حزب ، وكل صاحب مذهب ، يستطيع دعم رأيه بهذا الشكل ، وأن المخالف له فى الرأى يسلك أيضاً هذا الطريق ؛ ومن ذلك لا يوجد فى دائرة العبادات أو العقائد أو القوانين الفقهية أو السياسية مذهب أو مدرسة لا تعزز رأيها بحديث أو بجملة من الأحاديث ظاهرها لا تشوبه أية شائبة .

ولم يستطع المسلمون أنفسهم أن يخفوا هذا الخطر ، ومن أجل هذا وضع العلماء علماً خاصاً له قيمته ؛ وهو علم نقد الحديث ؛ لكي يفرقوا بين الصحيح وغير الصحيح من الأحاديث ، إذا أعوزهم التوفيق بين الأقوال المتناقضة .

ومن السهل أن يفهم أن وجهات نظرهم فى النقد ليست كوجهات النظر عندنا ، تلك التى تجد لها مجالا كبيراً فى النظر فى تلك الأحاديث التى اعتبرها النقد الإسلامى صحيحة غير مشكوك فيها ، ووقف حيالها لا يحرك ساكناً .

ولقد كان من نتائج هذه الأعمال النقدية الاعتراف بالكتب الستة أصولا ، وكان ذلك فى القرن السابع الهجرى ؛ فقد جمع فيها علماء من رجال القرن الثالث الهجرى أنواعاً من الأحاديث كانت مبعثرة ، رأوها أحاديث صحيحة .

وقد أصبحت هذه الكتب مراجع مجزوماً بها لسنة النبى ، ويعتبر فى المقام الأول منها الصحيحان : صحيح البخارى (توفى فى سنة ٢٥٦ هـ سنة ٨٧٠ م) ، وصحيح مسلم (توفى سنة ٢٦١ هـ سنة ٨٧٥ م) ، وهما المرجعان الصحيحان لسنة الرسول . وقد ضم إليهما أيضاً كمراجع معتبرة سنن أبى داود (توفى سنة ٢٧٥ هـ سنة ٨٨٨ م) ، وسنن النسائى (توفى سنة ٣٠٣ هـ سنة ٩١٥ م) ، والترمذى (توفى سنة ٢٧٩ هـ سنة ٨٩٢ م) ، وابن ماجه (توفى سنة ٢٧٣ هـ سنة ٨٨٦ م) ، وإن تكن قد لاقت فى ذلك بعض الاعتراضات ، وكانت كتب مالك بن أنس التى بها عادات المدينة — وطن السُّنة — معتبرة ، ولكن ذلك ليس من وجهة الحديث .

وهكذا قام بجانب القرآن مراجع أخرى ، وكانت لها أهمية كبرى فى المعرفة وفى الحياة الإسلامية .

٤ — ومن ناحية التطور الديني الذي نعنى به هنا لا يهمنا « الحديث » من ناحية شكله النقدي ، وإنما يهمنا من ناحية التطور ؛ كما أن مسألة صحته وقدمه تجيء متأخرة عن معرفة أن « الحديث » تتجلى فيه جهود الأمة الإسلامية في عملها الشخصي الخالص ؛ ونرى ذلك كله من الأمثلة الكثيرة للأغراض التي لم تكن موجودة في القرآن .

ذلك بأنه لم تندمج في الحديث أمور القانون والعادات والعقائد والأفكار السياسية ، بل قد لفّ فيه كل ما يملكه الإسلام من محصوله الشخصي ، وكذلك الأمور الغريبة عنه ، وقد غُير هذا الغريب المستعار تغييراً أبعده عن أصله المأخوذ منه ، وضمّ ذلك كله إلى الإسلام .

فهناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد ، وأقوال للربانيين أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة ، وتعاليم من الفلسفة اليونانية ، وأقوال من حكم الفرس والهنود — كل ذلك أخذ مكانه في الإسلام عن طريق « الحديث » ، حتى لفظ (أبونا) لم يعدم مكانه في الحديث المعترف به ؛ وبهذا أصبحت ملكاً خالصاً للإسلام بطريق مباشر أو غير مباشر تلك الأشياء البعيدة عنه* .

والمثل الحسن لذلك هو هذا المثل المعروف في الأدب العالمي[١٨] للأعمى الذي كان يحمل كسيحاً يسرق فاكهة الأشجار ، وهو مثال للمسئولية المشتركة بين الجسم والروح .

وهذا ما يظهر في الإسلام متمثلا في الحديث وسنده المتصل : أبو بكر بن عياش عن سعيد البقال ، عن عكرمة ، عن ابن عباس[١٩] وهذه المقارنة وتطبيقها نعرفهما كذلك عند الربانيين ، فقد جاءت في التلمود على لسان الرباني « يهوذا هاناسي » ، تطبيقاً لخاطر الملك الروماني وتسكيناً لسلوكه وقلبه[٢٠] .

وعن هذا الطريق دخل الإسلام ، وتسرب إليه ، كنز كبير من القصص الدينية ؛ حتى إذا ما نظرنا إلى المواد المدونة في الحديث ، ونظرنا إلى الأدب الديني

---

* ذكر أن الأحاديث دخلها كثير من الآداب اليهودية والحكم الفلسفية ، وهو بهذا يخلط بالحديث مايؤثر عن مثل كعب الأحبار وغيره من الإسرائيليين . نعم في الحديث الصحيح شيء مما يوافق الإسرائيليات وبعض الأمثال العامة ، وهذه مصدرها الرسول كما هو مصدر غيرها ، ولا شيء في هذا .

اليهودى ، فإننا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الدينى الإسلامى من هذه المصادر اليهودية .

والسعى للاختيار والانتخاب والتوفيق الذى ظهر فى الإسلام عند نشأته ، قد تطور فى هذا الوقت وصار كثيراً . وإنه لموضوع جذاب للباحثين الذين يهتمون بهذا النوع من الآداب الدينية ، ليثبتوا ويحققوا هذه المواد المختلفة ذات الأصول المتفرعة إلى فروع كثيرة ، ويكتشفوا هذه الأغراض .

وهكذا صار « الحديث » إطاراً للأفكار الدينية والخلقية فى الإسلام وتطوراته القديمة ، وفيه ظهر تطور المبادىء الأخلاقية التى وُجدت أسسها فى القرآن ؛ ففيه نرى هذه الحركات الخلقية السهلة اللطيفة التى لم يكن الإسلام فى العصر الأول مستعداً لها بعد .

وفى الحديث أودعت هذه المبادىء ذات التقوى العالية الخالية من الظواهر وحدها ، والتى سنرى الآن بعض مثل لها ، وأصبحت تدور حول الرحمة سواء فى ذلك الرحمة عند الله أو عند الإنسان : « جعلَ اللهُ الرحمة مائة جزء ، فأمسك تسعة وتسعين جزءاً ، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، ومن هذا الجزء تتراحمُ الخلقُ حتى ترفعُ الفرسُ حافرها عنْ ولدِها خشية أنْ تصيبهُ ؛ »[٢١] ويقول الله « إذا رَجوتم رَحمتى فكونوا رُحماء بمخلوقاتى » ؛ « السّاعِى عَلى الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله وكالذى يصوم النهار ويقوم الليل »[٢٢] .

ونجد فى الحديث فيما يتعلق بهذا المعنى وصايا وصى بها الرسول أفراداً من الصحابة ليعنوا بالفضائل والأخلاق الطيبة ، على أن ذلك جوهر الدين الصحيح . ولا يستحق التقدير عندى من هذه الوصايا الكثيرة شىء مثل الوصايا التى أوصى بها أبا ذرٍّ الغفارى ، الذى كان قبل أن يسلم مشركاً فاجراً ، ثم كان فى أيام الفتنة الأولى مثالاً يلفت النظر للأتقياء ، إذ يقول : « علمنى حبيبى سبعة أشياء : فقال : أحبَّ المساكين وكن قريباً منهم ... »[٢٣] .

وقد بلغت الأعمال الدينية نفسها مبلغاً من الرقى بهذه الطلبات التى جاءت فى الحديث ، فقيمة العمل تقدر بالنية التى دفعت إلى عمله ، وهذه هى أحد المبادىء العالية للحياة الدينية فى الإسلام ، والذى يدل على أهميتها أنها كتبت على الباب

الكبير للأزهر ، هـذا المكان الرئيسى للعلوم الدينية فى الإسلام والذى يزوره الكثيرون ، حتى تذكر الداخلين فى هـذا المكان أن يوجبوا على أنفسهم تحصيل العلم وحده أو التقوى والنسك : « إنَّمَا الأعمالُ بالنِّيَّاتِ » .

وقد ارتفع شأن هذا الحديث إلى أن صار فكرة تسيطر على كل الأعمال الدينية ، يقول الله « لا تَقُونى بنيّاتِكم ولا تُلاقُونى بأعمالكم »[٢٤] ، وهو حديث متأخر ظهر كصدى لاقتناع المؤمنين بذلك وعلامة على قيمة أعمالهم الدينية * .

كما أن التأثير الأدبى للتعاليم الاعتقادية ترقى بتطور « الحديث » وسأذكر هنا مثالاً واحداً له أهميته لتقدير الأفكار الدينية فى الإسلام ، فحسب مذهب القرآن فى التوحيد يعدّ الشرك أكبر الذنوب ولا يغفره الله تعالى (سورة لقمان آية ١٣ ، سورة النساء آية ١١٦) .

وفى تطور هذا التصور الاعتقادى الأوّلى كما يظهر فى الحديث ، نرى أنه لا يدل على الشرك وتشويه عقيدة التوحيد فقط بل كذلك كل ضرب من العبادة يشتم منها أن تمجيد الله غير مقصود لذاته .

وكذلك أضيفت إلى هذه الدوائر جملة من النقائص والمعاصى ؛ مثلا الرياء فى الأعمال الدينية ، بأن يقصد بها كسب إعجاب الناس ، نوع من الشرك ، لأنه وضع فيها بإزاء التفكير فى الله التفكير فى مراعاة الناس[٢٥] فالرياء لا يتفق مع التوحيد ؛ وكذلك الكبيرة نوع من الشرك ، وعلى هذا الأساس أمكن أن يكون فى الخلقية الإسلامية طبقة من الشرك الأصغر ، أو الشرك الخفى الكامن فى أعماق النفس ، وأن يتسع هذا المعنى لدائرة واسعة .

وهكذا ، وضعت غاية الحياة الدينية أيضاً وضعاً أرقى مما كانت عليه فى الإسلام الأول ، وقد سمعنا هنا أقوالا لا يمكن إدراجها فى الصوفية المتأخرة ، متفقة مع هذا عام الاتفاق .

---

* يقول إن حديث (إنما الأعمال بالنيات) حديث متأخر ، وهذه دعوى باطلة ، فهذا الحديث خطب به عمر الناس وأسنده إلى الرسول ، وصدق عليه السامعون ، وهم جمهور كبير من صحابة رسول الله .

وهو يذكر تطور الحديث ، وهو اتهام باطل ؛ ويذكر التطور فى العقائد ، وهو كما ترى . ولإذا قيل إن الرياء نوع من الشرك ، فالغرض من ذلك التنفير والتبعيد من هذه الحالة ، ولا يراد الشرك الحقيقى حتى يقال إن ذلك تطور فى العقائد .

وليس هذا فيما يظهر موضوعاً بل إنه متفق عليه من كبار العلماء حيث يوجد فى الأربعين حديثا ، وذلك هو الحديث القدسى [٢٦] : «لايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبهُ ؛ فإذا أحببته كنتُ سمعهُ الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التي يمشى عليها ... »

وكل هذه الأحاديث ، سواء فى ذلك مايتعلق بالأحكام الفقهية أو الأمور الخلقية والتهذيبية ، يرجعها أصحابها إلى الرسول بواسطة سلسلة متصلة إلى الصحابى الذى سمع هذه الأقوال من النبى ورآه يعمل بهذه العادات .

والنقدة المسلمون أنفسهم لم يحتاجوا إلى استعمال كثير من الذكاء لكى يستشفوا أساس هذه الاختلافات التى لاتتفق وظروف الزمان الموجودة فى تلك الأخبار ، أو تلك الحالات التى تستدعى النظر والتفكير ، أو تلك التهم الموجهة إلى صحة قسم كبير من الحديث عند مقارنة هذه الأخبار المختلفة [٢٧] .

وقد سميت أسماء بعض هؤلاء الرجال الذين كانت لهم نية صالحة فى وضع هذه الأحاديث النافعة ونشرها بين الناس . كما اعترف كثير من الأتقياء ، عند وفاتهم بلا تردد ، عمَّا لهم من فضل فى وضع أحاديث كثيرة ، وربما كانوا لايرون فى هذا أمراً لايتفق والاستقامة متى كان الواضع يقصد إلى غايات طيبة .

وقد يكون الراوى متهما فى روايته ، ومع ذلك يبقى رجلا شريفا لايحط ذلك من شرفه وكرامته الشخصية أو احترامه الدينى ، إذ كانوا قديما لايرون من غضاضة فى التصريح بأن فى الحديث قسما غير صحيح : « كأن يقال عن النبى فى حياته كذبا كما كذب عليه بعد موته » .

وحينما يروون من ناحية أن النبى أوعد المكذب بالنار ، فإنهم من ناحية أخرى

---

* يذكر أيضاً التطور فى الحديث . ويرمى الأحاديث الصحيحة كأحاديث الأربعين النووية ، ومنها : « ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل » بالشك والارتياب ، وسنده فى ذلك أن موضوع الحديث السابق لا يناسب الزمن الأول للإسلام . والحديث يمثل المطيع الذى دأبه التقوى وخلقه الدين بما نال من حواسه يصرفها الله ، فهى دائماً فى طاعة لا تحيد عن الشريعة قيد شعرة ، فكأنما يسمع بسمع الله ويبصر ببصره . وهذا جار على سنن العرب فى التشبيه والتمثيل توكيداً للمعنى المراد وتثبيتاً منه ؛ والمعنى الذى ينزع إليه ضلال المتصوفة من وحدة الوجود ، وما إلى ذلك ، بعيد عن الحديث كل البعد أولا وآخراً ، منفى عن النص .

يقررون مثل هذا الحديث : « سيكثر التحديث عنى كما حدثوا عن الأنبياء ، فما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فإن وافق كتاب الله فأنا قلته ، وإن خالف كتاب الله فلم أقله » ؛ وماروى عنه من أنه « ماقيل من قول حسن فأنا قلته » * .

وهكذا لعب وُضَّاع الحديث دورهم أمام الناس ، وقد اعترف أنس بن مالك ، الذى صاحب الرسول عن قرب عشر سنوات ، عندما سئل عما يحدث عن النبى هل حدثه به فعلا ، فقال «ليس كل ماحدثنا به سمعناه عن النبى ولكننا لانكذب بعضنا» .

فمنى « أن الرسول قال » أنه صحيح لاغبار عليه فى الدين ، أو أنه أمر مرغوب فيه وكان يمكن أن يوافق عليه الرسول . ويذكرنا هذا بما جاء فى التلمود ، من أن كل مايقوله أحد التلامذة فى العصور المتأخرة موافق لما أخبر به موسى فى سينا[٢٨] .

٥ — وقد وجدت مفتريات الورع فى وضع الحديث تساهلا عاما عندما تتناول الأحاديث الخلقية ، أو المتعلقة بفضائل الأعمال ، ولكن علماء الدين الأقوياء كانوا يقابلون ذلك بمين الجد حينما يبنى حكم شرعى على مثل هذه الأحاديث ، ولقد كان هذا على الأكثر مما يصبو إليه أصحاب الآراء المختلفة الذين يأتون بأحاديث مختلفة متعارضة فيما بينها ، فليس من الممكن مطلقا أن يكون هذا أساسا تُبنى عليه أحكام العبادات والفقه والعمل .

وقد أدى هذا الشك والارتياب إلى ظهور طريقة ، سادت منذ بدء الفقه، كان أصحابها يستعملون بجانب الأحاديث الصحيحة عندهم وسائل ثابتة لاستنتاج القواعد الدينية ، ثم هذه العلاقات المتجددة كان يرى من الخير أن تقنّن باستعمال القياس

---

* العلماء عنوا بنقد الحديث ، وبيان المقبول والمردود ، ودرجات كل من المقبول والمردود . فكان ينبغى بعد هذا ألا يشك فى صحة ما صححوه ، ونبذ ما زيفوه ، أو مناقشة قواعدهم وأصولهم فى هذا الباب ؛ وحديث من كذب على متعمداً حديث صحيح ؛ والحديث الآخر الذى يتضمن عرض الحديث على القرآن فيه مقال ومطعن يستوجبان رده وإنكاره ، وقد كان ذلك قولا لبعض أهل الزندقة ومن لا خلاق لهم ، يبغون به هدم الشريعة وتعطيل كتاب الله إذ كان بيانه وتفصيله فى السنة . وقد أفرد السيوطى تأليفاً فى هذا المعنى سماه « مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة » وقد طبع فى مصر ، وعرض فيه لهذا الحديث وذكر قولا عن الشافعى والبيهقى أنه منقطع ، وأن فى سنده خالد بن أبى كريمة وهو مجهول . انظر ص ٤٠ من كتاب السيوطى .

والاستنتاج والرأى الشخصى أيضا ، ولايُترك الحديث عندما يقوم على أساس ثابت ولكن الاستنتاج الحر يأخذ مكانه بجانبه كطريقة صحيحة للفقه ومطلوبة أيضا .

وليس غريباً أن تكون هذه التعاليم الفقهية والتفصيلات المستعملة قد تأثرت كذلك بثقافات أجنبية ، كما أن المعارف الفقهية الإسلامية تحمل على سبيل المثال ـ كما حقق ذلك البحث الحديث تحقيقاً ثابتاً ـ آثاراً غير منكورة من الفقه الرومانى ، سواء فى ذلك من ناحية الطريقة ، أو من ناحية الأحكام الفرعية* .

ومهما يكن ، فهذه الأعمال الفقهية العلمية التى ازدهرت فى أثناء القرن الثانى الهجرى أضافت إلى الثقافة العقلية الإسلامية مادة جديدة هى « علم الفقه » ، ذلك القانون الدينى الذى انحط بعد ذلك بالتفصيلات الكثيرة فى طريقة الحياة الدينية والمعرفة الدينية انحطاطاً سيئاً ، وكان للتغيير السياسى أثر كبير فى تطوره ، إذ حاد بالروح الإسلامية إلى طريق جديد ، ونعنى بذلك سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

ولقد كانت لى ، فى محاولاتى السابقة ، فرصة بحث القوى المحركة التى وجدت فى كلا الدولتين ، وفى إظهار المؤثرات ، مع غض النظر عن الأفكار الملكية التى أثرت فى تلك التغييرات التيوقراطية التى كساها العصر العباسى بطابعه الخاص ، مخالفاً فى ذلك أسلافه .

وأريد الآن أن أشير إشارة قصيرة إلى أن الانقلاب الذى جاء بالعباسيين إلى مركز الخلافة لم يكن انقلابا سياسياً فحسب ، وتغيير مُلك بملك ، ولكنه فى الوقت نفسه أظهر تغييراً عميقاً فى العلاقات الدينية ، فبدلا من الأمويين الذين حكم عليهم الأتقياء بأنهم أهل دنيا ، والذين اهتموا فى بلاطهم ، بدمشق وفى قصورهم فى الصحراء ، بالتقاليد والمثل العربية القديمة ـ بدل هؤلاء جاءت سلطة « كهنوتية » ذات أفكار « كنسية » .

---

* يذكر أن الفقه الإسلامى تأثر بالقانون الرومانى وغيره ، وهى نزعة للمستشرقين ولم يقيموا عليها دليلا ، وإنما يبغون انتقاص مقومات الإسلام والحط منها بداعى الهوى والعصبية ، ومصادر الفقه الإسلامى معروفة ليس منها هذا الرأى الذى يهرفون به . ومع هذا ، حسبنا أن نشير إلى بحث الأستاذ الكبير صليب سامى باشا — أحد الوزراء السابقين — الذى نشر بالأهرام ومجلة الشبان المسلمين بعددها المؤرخ ٨ يونية عام ١٩٤٥ ، ففيه دحض هذا الرأى من المستشرقين .

فكما أسس العباسيون حقهم فى السلطان على أنهم من نسل النبى ، كذلك ادّعوا أنهم يؤسسون حكومتهم ، الموافقة لسُنة النبى وما يتطلبه الدين ، على أنقاض حكومة معروفة عند الأتقياء بأنها ذات سمة غير دينية (٢٩).

وقد اجتهدوا فى الاحتفاظ بهذا المظهر لأن حقهم يقوم عليه ، وعلى هذا لم يقبلوا فقط أن يكونوا ملوكا ، بل أرادوا أولا وبالذات أن يُحسبوا أنهم أمراء دينيون ، وأن تفهم حكومتهم على أنها حكومة دينية .

وفى حكومتهم ـ مخالفين فى ذلك حكومة الأمويين ـ كان القانون الدينى هو السبيل الوحيد الذى يجب السير عليه ، وحاولوا خلافا للأمويين أيضا أن يكون هذا الادعاء حقاً فى الظاهر لعباً منهم بالحق الماثلى الذى توصلوا به إلى الحكم . وأفاضوا فى الكلام المدهون فى تقديس الذكريات النبوية ، وفى كلام ظاهره الصلاح ، مريدين بهذا وذاك أن يظهروا مخالفتهم لأسلافهم .

وقد تجنب الأمويون هذا النفاق ، ولو أنهم كانوا ممتلئين بحب العقيدة الإسلامية فإنهم لم يراءوا فى وظيفتهم بالرجوع إلى الناحية الدينية ، وسنرجع لهذا مرة أخرى .

وفى إبان حكم هذا البيت كان عمر الثانى وحده، وهو أحد الأمراء الذين تربوا فى بيئة صالحة والذى ساعد جهله بالأمور السياسية على سقوط بيته* ، هو الذى يمكن أن نسمع عنه أنه رفض إتمام التأسيسات الحكومية اللازمة للدولة ؛ وهو وحده الذى يمكن أن تصدر عنه هذه الكلمة التى قالها لبعض عماله ، عندما أخبره بحالة بلده السيئة واحتياجها إلى نفقة خاصة لعمارتها ، فرد عليه بقوله « حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم (٣٠) » ، وهى كلمة لا يمكن أن تصدر عن الأمويين .

وهكذا كان القول التقى والجمل الخاشعة شعار العباسيين ، أولئك الذين كانوا محاطين بالمظاهر الخارجية التى كانت عند ملوك الفرس من آل ساسان ، كما أن المثل

---

* ذكر أن عمر بن عبد العزيز أعان جهله بالأمور السياسية على سقوط بيته . ولو كان الأمويون كعمر لثبت ملكهم ولم ينتقض أمرهم ؛ وإنما يرجع سقوط ملكهم لما كان عليه بعض خلفائهم من الظلم ، ويقظة الهاشميين وتدبير المكايد لهم وغفلة الحاكمين عنهم ، كما هو مبين فى التاريخ .

الأعلى للحكومة الفارسية من تآخي الدين والدولة[31] كان المنهج الظاهر للدولة العباسية، فليس الدين هو مصلحة الدولة فقط ، ولكنه مصلحتها ومهمتها العالية .

فمن ثم يستطيع الإنسان أن يتصور بسهولة مقدار الارتقاء الذى صادفه رجال الدين فى البلاط وعند الحكومة ، فإذا لزم الأمر تنظيم الحكومة أو قانونها على الفكرة الدينية ، كان هؤلاء المتمنون بالسُّنَّة وعلومها المستنبطون للفقه هم المقدمين للقيام بذلك ، ومن أجل هذا كان عصر هذا البيت هو الوقت المناسب لازدهار الفقه الإسلامى بعد أن بدأ قليلا متواضعاً .

ولم يكن النظر فى الحديث النبوى والبحث عنه وروايته مجرد عمل نظرى من أعمال التقوى ، ولكنه كان ذا أهمية عملية كبيرة ؛ ذلك بأنه لم تكن تؤسس أمور الفقه والعبادات على ذلك فقط ، بل كذلك شكل الدولة ثم القضاء فى كل الأمور العملية ؛ فضلا عن وجوب توافق النظم الوطنية الأولية وطلبات الفقه الدينى .

وذلك كله كان من الواجب استنباطه والقيام به بغاية الدقة والكمال ، وكان من هذا تطور الفقه ووضعه ، وأن جاء وقت الفقه والفقهاء ، وأن صار الرجل العظيم هو القاضى .

ولم تكن المدينة ، منشأ الإسلام الحقيق وموطن السُّنة ومركز التقوى ، هى وحدها التى كانت تهتم للآن بروح الفقه الدينى ، بل كذلك وسط الدولة الجديد فيما بين النهرين ، ومن هنا اتسمت فى أجزاء الدولة البعيدة شرقا وغربا وتطورت فى ظلال الخلفاء دراية علم الفقه ، وحمل الناس الحديث هنا وهناك ، وأخذ الناس يستنتجون مما هو عندهم مبادىء وأحكاما جديدة .

لكن هذه الإستنتاجات لم تكن دائماً متفقة بعضها مع البعض ، بل كانت هناك أيضاً وجهات للنظر وطرائق مختلفة ؛ فمن هؤلاء من يعطى الحديث الأهمية الأولى ، ولكن الأحاديث المتعارضة قد تعطى أجوبة مختلفة على نفس السؤال الواحد ، فهنا يجب التمييز والترجيح ؛ وآخرون لم يقفوا عند الأحاديث الموجودة نظراً للتهمة فى شكل الأحاديث ، فهم يريدون الحرية فى قياسهم ، كما أن العادات المؤسسة فى الجهات والأقاليم والحقوق العرفية لا يمكن بسهولة إزالتها مرة واحدة .

وقد أوجد الفرق بين هذين المذهبين ، المتخالفين فى عرضهما ، أحزاباً عملية ، ومدارس ابتعدت عن بعضها فى تفصيلات الأحكام غالباً وفى الطريقة كذلك ، وتسمى هذه مذاهب ولا تسمى فرقاً .

وقد اقتنع هؤلاء الرجال العمليون من أول الأمر بأنهم جميعاً على الحق ، وأنهم يخدمون مبدءاً واحداً ، وعلى هذا الأساس كانوا يتبادلون الاحترام الواجب(٣٢) . وفى النادر أن يقع بين هؤلاء المغلوبين المبالغين فى الغيرة لهذه المذاهب أحكام قاسية ، ولم يظهر التعصب المذهبى إلا عند ما ازداد العجب عند الفقهاء ، الأمر الذى كان موضع لوم أهل الجد منهم(٣٣) .

وعلى العموم فقد طبع بالتسامح بين الجميع هذا الحديث : « اختلاف أمتى رحمة » وبيدنا من الأدلة ما يؤيد أن هذا المبدأ إنما يمثل وجهة التوفيق ضد الهجمات ، التى وجهها العدو فى الداخل والخارج ، لهذه الأعمال الفقهية المختلفة فى أشكالها غير القاطعة(٣٤) .

وقد بقى إلى يومنا هذا الاعتقاد السائد بأن الأعمال المتخالفة للمذاهب الفقهية يجب الاعتراف بأنها كلها مستحقة التصديق على التساوى ما دامت ترجع إلى تعاليم الأئمة وأعمالهم ، أولئك الذين أجمع المسلمون على الاعتراف بإمامتهم وحدها ؛ حتى كان الانتقال من مذهب إلى آخر فى سبيل أغراض تراعى أمراً سهل الحصول ، ولا يستدعى تغييراً فى الأعمال الدينية ، ولا يرتبط بشكل معين من الأشكال ، وقد جمع عبد الوهاب الشعرانى فى ميزانه الذى ترجمه « برون » أقوالا بالموافقة على هذا .

حقاً ، لم ينج هؤلاء الذين يغيرون من وقت لآخر مذهبهم ، جريا وراء الطمع فى المناصب ، من سخرية معاصريهم . فمن أمثلة ذلك قاضى دمشق الشافعى شمس الدين الصلتى (١٤٠٩م) الذى كان مرة حنفياً ومرة مالكياً ، ولم يكن الانتقال فى نفسه هو سبب السخرية ، ولكن الباعث عليه هو الذى كان مدعاة الهزء .

يغمز حديث (اختلاف أمتى رحمة) ويجعله رداً من المسلمين على مهاجمة أعدائهم لهم ، وما عرفت هذه المهاجمة الظالمة إلا فى العصور المتأخرة ، ومن هؤلاء المستشرقين أنفسهم .

ويستطيع أن يتمذهب الشخص فى نفس الوقت بمذاهب مختلفة ، وكان محمد بن خلف أحد علماء القرن الخامس الهجرى (١١٣٥م) يلقب بلقب (حنفش) لأنه غير مذهبه ثلاث مرات فى وقت قصير ، فكان حنبليا ثم حنفيا ثم شافعيا ، وقد اختصرت فى لقبه أسماء هؤلاء الأئمة[٣٥] . ونجد فى العائلة الواحدة أن الأب وأبناءه يتمذهبون بمذاهب مختلفة ؛ فكان حد الأخوين فى مدينة القاهرة شيخ الحنفية والآخر شيخ الشافعية فى نفس الوقت ، والأول هو أحمد الشنبرى (١٠٦٧ ــ ١٦٥٦) وكان يسمى بالشافعى الصغير .

ونجد غير هذا فى العصور المتأخرة ، أن أحد الأتقياء فى دمشق دعا الله أن يرزقه بأربعة أولاد ، ليجعل كل واحد منهم على مذهب من المذاهب الأربعة ، وتزيد مصادرنا فى ذلك ن الله استجاب له[٣٦] . ولا يعد غريبا مايروى عن علماء مشهورين من أنهم يبنون كثير من فتاواهم على مذهبين متخالفين فى الظاهر[٣٧] .

وهذه النواحى الفقهية المختلفة لم تكن موجودة فقط فى العصور الأولى عند ازدهار العلوم ، بل كانت كذلك فى العصور المتأخرة عند المتأخرين ؛ فقد لقب بالمذاهبى أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى (١١٩٢ م) الذى كان معروفاً فى علوم أخرى مختلفة النواحى ، (لقد كتب فى علم وظائف الأعضاء وفى علم النجوم والطلاسم و ا كتشاف عيون الماء وغيرها) ، وقد كانت فتاواه على المذاهب الأربعة ، وقد كتب على بعض كتبه (كشف العيون) الحنفى المالكى الشافعى الحنبلى ، ولم يجد أحد أن فى ذلك غضاضة ، أو أنه مخالف للقواعد و وجه الصواب .

وقد بقيت من هذه المذاهب المتباينة المختلفة فى أمور قليلة فى العبادات والمعاملات ، أربعة مذاهب تتقاسم العالم الإسلامى فى هذه الأيام . وكثرة أتباع مذهب دون آخر فى بلد من البلاد الإسلامية يرجع فى بدء الأمر غالباً إلى حالات شخصية كان لها تأثير فى ذلك ، كدخول تعاليم أحد هذه المذاهب بواسطة أتباع ذوى مكانة استطاعوا تكوين المدرسة .

وبواسطة هذه التأثيرات ثبت المذهب الشافعى ٢٠٤ هـ — ٨٢٠ م فى بعض أجزاء مصر ، وفى شرق أفريقية ، وفى جنوب بلاد العرب ، ومن هناك امتدّ إلى

العالم الهندى . وفى أجزاء أخرى من مصر وفى شمال أفريقية كله وفى أسبانيا قبل ، وأخيراً فى غرب أفريقية ، دخل مذهب إمام المدينة مالك بن أنس (١٧٩ هـ — ٧٩٥م). وقد بعثت أحياناً الشئون الاستعمارية لأوربا بواعثُ لأجل تبيين العلاقات الفقهية للشعوب الإسلامية الخاضعة لها .

ومما يجب التنويه به الكتاب الكبير الذى أخرجه « أجاريو جويدى وسنتلانا » بناء على توصية من وزارة المستعمرات الإيطالية ، وهو ترجمة لكتاب الفقه المالكى « المختصر لخليل بن إسحاق » مع ملاحظات ومقارنات ، ويحتوى على مجلدين كبيرين (١٩١٩ م) فى العبادات والمعاملات ؛ وكذلك كتاب « مبادىء الفقه الإسلامى الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى ١٩١٣ » ، الذى صور به مؤلفه الهندى المسلم عبد الرحيم فقه المذاهب الأربعة .

وبجانب هذا اختارت البلاد التركية سواء فى ذلك آسيا الوسطى أو الغربية ، وكذلك الهنود المسلمون ، مذهب أبى حنيفة (حول ١٥٠ هـ ٧٦٧ م) الإمام المعتبر المؤسس الأول لمجموعة فقهية لمدرسة الرأى . وأخيراً انتشرت هذه الأيام تعاليم الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ ٨٥٥ م) وهى تمثل الجناح الظاهر للثقافة المتمسكة بالسنة ، وكانت قبل ذلك حوالى القرن الخامس عشر موجودة بقوة بين سكان ما بين النهرين وسوريا وفلسطين .

وبقيام العثمانيين ، كأصحاب السلطان فى العالم الإسلامى ، انكمشت فى دائرة حكمهم تعاليم المذهب الحنبلى غير المتسامح شيئاً فشيئاً ، فى الوقت الذى قوى فيه نفوذ المذهب الحنفى . وستكون لنا فرصة فى هذه المحاضرات للكلام على هذه الولادة الثانية للمذهب الحنبلى فى القرن السابع عشر . ومسلمو الولايات المتحدة ، ومعهم الفيليبيون يقلدون المذهب الشافعى .

٦ — وهنا محل للكلام على أصل كبير يمثل فكرة تطور الفقه الإسلامى أكثر من غيره ، ويصور العنصر الموفِّق للانقسامات الظاهرة فى التّطور والفقهى المذهبى الخاص ، وهو الإجماع .

فى أثناء عدم الاستقرار النظرى فى الأعمال اعتبر فى دائرة العلماء المسلمين أصلاً

ومبدأ ، وبقى على الدوام معتبرا مع استعمالات مختلفة ، وقد جاء هذا الأصل من قول الرسول « لا تجتمع أمتى على ضلالة » ، ومن قوله فى حديث ذى نظام متدرج « أجاركم الله من ثلاث : أن يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا ، وأن ينصر أهل الباطل منكم على أهل الحق ، وأن تجتمعوا على ضلالة[٣٨] » .

هنا نعم ، سنتكلم على أصل « الإجماع » الذى ثبت نظريات أهل السُّنة المسلمين[٣٩] . واللفظ العربى « إجماع » يثبت هذه الفكرة الأساسية فى المذهب السنى فى الإسلام ، نعنى أن الإجماع لا يكون على ضلال مطلقاً . وسنذكر فى أثناء عرضنا لهذا البحث تطبيقات كثيرة لهذا الأصل وهو الإجماع ، الذى يعطينا المفتاح لفهم تاريخ تطور الإسلام فى علاقاته السياسية والاعتقادية والفقهية ؛ فما تقبلته الأمة الإسلامية صحيحاً صادقاً يلزم أن يكون صحيحاً صادقاً ، وترك الإجماع ترك للسنة السمحة .

أما أن هذا المبدأ ظهر فى الإسلام فقط فى مجرى تطوره ، فيدل على ذلك أن الإنسان لم يستطع بسهولة أن يستدل عليه ويثبته بالقرآن ، وقد حكى أن الإمام الشافعى ، الذى اعترف بأصل الإجماع استناداً إلى قول النبى على أنه موجب لصواب الأمور الفقهية ، لزم داره ثلاثة أيام مفكراً حينما سئل عما يستند إليه هذا المبدأ من القرآن ، وبعد انقضاء هذا الوقت خرج فى حالة من الضعف والإجهاد ، بوجه منتفخ ويدين متورمتين ، من جراء إجهاده لنفسه فى البحث عن الآية التى يمكن أن يعتمد عليها ، وهى قوله تعالى : « وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسولَ مِنْ بَعدِ ما تَبيَّنَ له الهدى وَيَتَّبِعْ غيرَ سَبيلِ المؤمنينَ نُوَلِّه ما تولَّى وَنُصْلِه جهنَّمَ[٤٠] وساءتْ مَصيراً[٤١] » ، وهذا عدا الأحاديث الكثيرة التى يعتمد عليها هذا المبدأ[٤٢] .

وحينئذ يكون كل ما أجمع عليه جماعة المسلمين صواباً ويستحق الاعتراف الواجب ، ويكون صحيحاً فقط فى الشكل الذى أعطاه له الإجماع ، ولا يكون صحيحاً من تفسير القرآن سوى ما اعتبره الإجماع صحيحاً ، من إقرار لنسخ القرآن بالسُّنة ، وبهذا المعنى يملك الإجماع حق الإذن بالتفسير .

وهذه الأشكال الاعتقادية وحدها تكون موافقة للدين عندما يكون الإجماع — وفى الغالب يكون ذلك بعد كفاح قاس — قد هدأ فى النهاية من حدتها . وتلك

الأشكال من العبادة والفقه التى وافق عليها الإجماع تكون خالية من النقص الدينى ؛ وهؤلاء الرجال وتلك الكتب تعتبر لتعاليمها السيادة عندما يعترف إجماع الأمة بذلك ، ولم يجىء هذا عن اجتماعات منظمة ، ولكن جاء من صوت الشعب المجهول الذى لايتطرق إليه الخطأ .

وسنعرف كيف أن استعمال هذا الأصل كعلامة على حقية التصديق امتد إلى مدى أبعد ، وكيف أنه بواسطة سلطانه الدائم على الحياة الإسلامية يستطيع أن يطبع بالصحة والإيمان الأفكار الدينية التى كانت تمنع منها الأفكار النظرية وتعدها مخالفة للإسلام فكانت تقرر وتثبت بواسطة الإجماع ، وينتهى الأمر بالموافقة عليها من أجل ذلك ، بدون اعتبار لهذه الأفكار النظرية التى تخالفها بشدة وأحياناً تكون واجبة الاعتقاد .

وكانت دائرة الإجماع فى مبدأ الأمر أقرب إلى الإحساس الجمعى منها إلى المعنى الدينى المحدد ، وقد حاولوا عبثاً تحديده بالزمان والمكان ، وبيان أنه هو إجماع الصحابة أو أهل المدينة القدامى ، وهو تحديد لا يمكن الوصول إليه بإزاء التطورات الأخيرة . ولكن من جهة أخرى لا يكفى ، بالنسبة للأنظمة الدينية أيضاً ، أن يترك الإجماع حراً متروكا للإحساس الغريزى للجماعة .

وأخيراً وجدت قاعدة تبين أن الإجماع عبارة عن التعاليم والأفكار المجمع عليها من أهل الحل والعقد فى زمن معين ، فهم الذين لهم الحق فى بيان الفقه والعلم واستنتاج ذلك ، وهم يحكمون بصحة استعمالها .

وسنلاحظ حقاً أن هذا المبدأ بالنسبة للإسلام يحتوى على بذور التحرر للحركات الإسلامية الحرة ، والتطورات المستطاعة ؛ فهو يقدم ، ضد ديكتاتورية الجمود وقتل الشخصية ، قوة للتعادل ، وقد حقق على الأقل فى الماضى كعامل مهم مطابقة الإسلام للعصر وقتئذ ، فماذا عسى يمكن أن يكون باستعماله فى المستقبل ؟ وفى الحق إن هذا المبدأ المتبع ملحوظ عند مجددى الإسلام فى عصرنا ، فهو الباب الذى يجب بواسطته أن تنفذ إلى بناية الإسلام عوامل القوى الشابة .

٧ — ومن مبدأ الإجماع نريد أن نعيد النظر فى الاختلافات الظاهرة فى تطور

الفقه ، وليست هناك سوى مسائل قليلة اختلفت فيها المذاهب المذكورة آنفاً ، ويفهم تماماً منها أنها ليست اختلافات تبعث على افتراقهم فرقاً مختلفة .

وكثير من الاختلافات الشكلية توجد على سبيل المثال ، فى أعمال الصلاة وهل يُسَرّ أو يُجهَر فيها ، وإلى أى حد يرفع المصلى يديه عند بدء الصلاة وعند قوله فى بدايتها : الله أكبر ؛ وكذلك فى بعض أشكال قليلة عند السجود والركوع ، وهل يترك يديه (كما عندمالك) أو يضع واحدة فوق الأخرى ، وهل يضعهما كذلك فوق السرة أو تحتها . وتوجد اختلافات كثيرة فى مسألة صحة الصلاة عند صلاة المرأة بجانب المصلى ، أو إذا ما أخذت مكانها بين المصلين ، وهنا يتجلى موقف أبى حنيفة فى عداوة المرأة إزاء بقية المذاهب الأخرى* .

ومن بين هذه الاختلافات ماله خطر كبير من الناحية الدينية ؛ فلغة العبادة فى الإسلام هى العربية ، وكل الأشكال العبادية تقال بلغة القرآن ؛ فإذا لم يمكن الشخص النطق بالعربية ، فهل يسمح له أن يقرأ الفاتحة وغيرها من القرآن بلغته الأصلية ؟ وكان أبو حنيفة وحده ، الذى كان من أصل فارسى ، هو الذى أجاز ذلك لأن القرآن قد نزل فى الكتب السابقة : « وإنه لفى زُبُر الأولينَ » ، وهذه كانت بغير العربية ، ومن هذا يمكن لغير العرب أن يؤمنوا به كقرآن ، وقد اتهمه خصومه بميله إلى المجوسية ، إذ فكر أول الأمر فى اللغة الفارسية .

وكذلك وجدت اختلافات فى أمور أخرى من الحياة التعبدية فى غالب الأحيان ، مرتبطة بأفكار مبنية على قواعد ، وهنا يجىء على الأخص الخلاف بين المذاهب بالنسبة للقضاء والكفارة .

فبينما نرى أبا حنيفة متسامحاً إزاء المفطر عن سهو ، يرى مالك وابن حنبل أن صيام هذا اليوم لا ينفع لما فيه من جرح للقانون ويوجبون قضاء هذا اليوم ، وكذلك يطلبون القضاء للفطر عند وجود عذر المرض حيث يكون الصوم غير واجب .

---

* يتهم أبا حنيفة بعداوة المرأة ويعتمد فى هذا الاتهام على مسألة فى الصلاة تتعلق بها ؛ وكان أخلق به أن يدرس المسألة فى كتب الحنفية ويدرس أدلتها ليكون حكمه عن بينة واستبصار . ولكن هؤلاء المستشرقين يحلو لهم أن يربطوا كل مسألة فى الإسلام بداع شخصى نيلا من المسلمين وحطاً من قدرهم . ومن هذا الباب تعليقه على تجويز أبى حنيفة قراءة القرآن بالفارسية .

وزيادة على هذا فإن المرتد الذى تاب ورجع للإسلام يجب عليه قضاء الأيام التى أفطرها أثناء ارتداده ، وقد أهمل أبو حنيفة والشافعى مثل هذه الملاحظات فى قضاء الصوم* .

وبحث أنظمة الأطعمة فى الروايات القديمة ، التى يظهر أن النبى قد مال فيها إلى شىء من التسامح ، يعطينا فى هذا القسم فرصة لبيان الاختلاف فى الرأى . والنظر فيما جاء فى القرآن من تحليل طعام لحم الحيوانات ، قد بعث على الاختلاف فى الرأى ، والأهم فى ذلك هو اختلافهم فى لحم الخيل الذى اعتبر حلالاً فى بعض المذاهب وحراماً فى البعض الآخر(٤٣) . حقاً ، إن هذه الاختلافات فى كثير من هذه الأمور كانت ذات طبيعة من نوع تفصيل الوقائع وعدّها فرداً فرداً(٤٤) ، وإن الكلام فى الغالب موجه إلى حيوانات لاتستخدم أصلا فى الطعام(٤٥) ؛ ولكى نسوق هنا مثالا على الأقل ، وهو أن مالكا ــ مخالفاً للمذاهب الأخرى ــ لا يحرم طعام لحم الحيوانات المفترسة ، وإن كان الخلاف عنده عملياً ، لأنه إذا لم تكن محرمة فهى مكروهة** .

وإنى ألاحظ عند هــذه المناسبة أن قسما كبيراً من الخلاف يدور حول الأنواع المختلفة للأحكام من درجة الإباحة أو الكراهة ، ودرجة الوجوب والاستحباب ، بالنسبة لعمل مخصوص أو تركه(٤٦) . كما وجدت اختلافات صغيرة بين المذاهب بالنسبة لأحكام الطهارة ، فى هذا يجيز المالكية أعمالا مخالفين لقواعد المذاهب الأخرى .

والحياة فى الفقه ليست مقصورة على أمور العبادات وحدها ، فالفقه الإسلامى ضم فروع الحياة والحقوق المدنية والسياسية والعقوبات . ولا يفلت فصل من فصول الفقه من أن يدخل تحت قاعدة مبنية على أساس دينى ، وكل الأمور المتعلقة بالحياة الشخصية أو العامة داخلة فى الواجبات الدينية ، وبواسطة هذا يعتقد الفقهاء أن كل حياة المؤمنين موافقة لطلبات الدين .

---

* تراجع أحكام المذاهب فى المرتد إذا عاد إلى الإسلام ، وقد كان أظله زمن الصيام فى أثناء الردة فالمعروف عند الشافعية مثلا أن عليه قضاء هذا الصيام ، وعبارته تفيد غير ذلك .

** يذكر أن مالكا ، وقد قال بحل الحيوانات المفترسة ، لايفترق عملياً عن الجمهور ، إذ كان يقول بالكراهة . وهذا غير صحيح ففرق كبير بين الكراهة والحرمة ، ويراجع هذا عند المالكية .

ولا يكاد يوجد جزء مهم من تعاليم الفقه لم تحصل فيه اختلافات فى الآراء بين المدارس الإسلامية ، وليس ذلك فى الأمور الثانوية دائماً ، بل أحياناً حول مسائل تتناول الحياة العائلية ، ونذكر من ذلك اختصاص ولى المرأة فى عقد الزواج ؛ ولقد اختلفت المذاهب فى حالة الولى إذا عارض فى عقد الزواج ، ومدى الحد الذى يكون فيه رضا الولى مطلوباً فى صحة العقد ؛ وكذلك فى الميراث توجد فروق فى تفصيلات المذاهب ، ونذكر من ذلك حق ميراث ابن الابن بعد البنت من تركة الجد .

وبالنسبة للنزاع الفقهى فإن لأبى حنيفة ، وبعض فقهاء آخرين ، موقفاً خاصاً كثر فيه النزاع قديماً فى مسألة هامة فى القضاء ، فهم يرفضون العمل المؤسس على كثير من الأحاديث بأنه فى النزاع فى الأموال عند عدم وجود شاهدين لتقوية الدعوى فى المال تكفى يمين المدعى* ، ويطلبون بناء على ما جاء فى القرآن (سورة البقرة : ٢٨٢) للشهادة رجلين أورجلا وامرأتين بينة للمدعى ؛ ولم يوافقوا على استبدال الشهادة القولية بوسيلة أخرى[٤٧] .

ومعرفة الأقوال المتفرعة الكثيرة فى دائرة الفقه الإسلامى ، من الأدلة التى يسوقها أصحاب المذهب لتأييد مذاهبهم عند الاختلاف فى الرأى أو العمل فى مذهب آخر ، وكذلك نقد هذه الأدلة فى وجهة نظر المذهب نفسه — كل ذلك يصور لنا فرعاً عاليا من الفقه فى الإسلام ، ويقدم فرصة دائمة لمعرفة الذكاء العلمى فى هذه الدائرة التى هى للإسلام فى أوطانه ذات فائدة وأهمية خاصة . ،نظراً لأهمية هذه الأبحاث ، فى هذه الدائرة ، قد ظهرت فيها منذ العصور القديمة للمدارس الفقهية كتب كثيرة[٤٨] ،

٨ — وأهم فى نظرنا من تفصيل هذه الاختلافات المذهبية فيما يظهر لنا ، تعرف الميول العامة التى سادت الفقه فى تطوراته ، ويجب علينا أن نبين فى هذه النقطة ، لهؤلاء الذين يريدون أن يتعرفوا الإسلام ، بعض ما يفيدهم فى مسألة تفسير الكتب .

فالأديان التى تؤخذ عقائدها وأشكال أعمالها من مراجع مقدسة محدودة ، تجىء تطوراتها الفقهية والاعتقادية من أعمال الشرح والتفسير التى تفسر بها الكتب المقدسة ، وتاريخ الأديان فى مثل هذه الدائرة يساوى تاريخ التفسير المكتوب ،

---

* يذكر أن الفقهاء المخالفين للحنفية يكتفون فى النزاع المالى بيمين المدعى . والمعروف أن موضع النزاع الاكتفاء بشاهد ويمين المدعى .

ويتفق فيها إلى حد كبير جداً مع الإسلام الذى يتراءى تاريخه الداخلى فى الطرق التى شرحت كتبه المقدسة .

ولتبيين الطريقة العامة للجهود الفقهية الموضوعة آنفاً ، يمكن أن نسوق أولا هذه الحقيقة ؛ وهى أنه لم يكن غرض الفقه أن يجعل حياة المسلم مرة واحدة محصورة بسد من التحديدات الفقهية .

فمن أول الأمر وضعوا وزنا لهذه الآيات : « وَما جَعَلَ عَلَيْكُم فى الدين مِنْ حَرَج » (سورة الحج : ٧٨) ، « يُريدُ الله بكُمُ اليُسرَ وَلا يُريد بكُمُ العُسر » (سورة البقرة ، ١٨٥) ، « يُريد الله أَنْ يُخَفِّفَ عنكم وَخُلِق الإنسانُ ضعيفاً » (سورة النساء ، ٢٨) ؛ ولهذه الأحاديث . « إن هذا الدين يسر » أى خال من الصعوبات ، « أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة » [٤٩] ، « يسروا ولا تعسروا » [٥٠] .

ولقد مدح أعمال الصحابة القدماء لأنها « كانت سهلة قليلة الحرج » . ومن هؤلاء السادة فى الإسلام عبد الله ابن مسعود (٣٢ هـ / ٦٣٥ م) الذى شرح مبدأ تطور الفقه بقوله : « من حرَّم حلالا فهو كمن أحل حراماً » [٥١] .

ولقد كان علماء الفقه أوفياء لهذا المبدأ الذى زادوه قوة بما تضمنته نصوص الأحاديث النبوية ، وقد قال سفيان الثورى (١٦١ هـ / ٧٧٨ م) : « إن العلم هو أن تحلل الأمر أخذاً من الأصول ، فإن التضييق سهل لكل أحد » [٥٢] .

وقد انقاد العلماء الأذكياء فى العصور المتأخرة إلى هذه المبادىء أيضاً ، ومما يبين هذا قانون الأطعمة الآتى : « متى تردد الشىء بين الإباحة والتحريم غلبت الإباحة لأنها هى الأصل » ؛ يعنى بذلك أن كل شىء مباح ، وأن التحريم أمر طارىء ، وعند التشكك يرجع إلى الأصل [٥٣] .

ومن هذه الفكرة حركوا ذكاءهم ليجدوا مخرجاً من المواضع الصعبة التى تمليها على المسلمين نصوص الأحكام القرآنية ؛ فبعض الأمور الثقيلة كانت تخفف أو تطرح بواسطة التوسع فى شرح النصوص ، وبواسطة التفسير يرجّح الوجوب أو المنع فى

الفقه ، وعبارة الأمر أو المنع تستخدم للتعبير عن الرغبة والاستحباب[٥٤] أو الـكراهة ، وارتـكاب ما أمر به فى النصوص أو نهى عنه لا يعاقب عليه ولا يعد تخطياً للقانون .

وقد اتبع إبراهيم النخعى (٩٦ هـ / ٦١٤ م) ، أحد أعلام فقهاء المسلمين فى القرن الأول ، هذا المبدأ ؛ فلا يقول عن شىء إنه حرام مطلقاً أو حلال مطلقا ، ولـكن يقول : إن هذا يتـكرهونه ، أى الصحابة ، وذاك يستحسنونه[٥٥] . كما أن عبدالله ابن شبرمة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) ، من التابعين ، كان لا يحكم بالتأكيد إلا على الحلال ويرى أنه ليس من سبيل إلى التأكيد فى الحرام ، ماعدا ما هو ثابت فى الأحاديث الصحيحة[٥٦] . ومن هذا المبدأ الفقهى السائد نستطيع أن نسوق أمثلة كثيرة زيادة على ذلك ، ونـكتفى بمثال واحد لتلك الطريقة الفكرية لعلماء الإسلام فى ناحية الفقة والتشريع .

فقد جاء فى القرآن (سورة الأنعام : ١٢١) « ولا تـأكلوا مِمّا لَمْ يُذكر اسمُ اللهِ عَلَيه وإنَّهُ لفسقٌ » ، فمن ينظر إلى هذا الحـكم نظر المفسر للأشياء ، لا يستطيع أن يجد فيه شيئاً آخر سوى التحريم الصارم لأكل الحيوانات التى لم يذكر اسم الله عند ذبحها[٥٧] . وكل ما يمكن أن يحيط هذا التحريم يشهد بأنه يوجد تحت (ذكر الله) فعل شرعى محدود ، وليس فقط مجرد تفكير فى الله ونعمه ، « فكلوا ممّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عَليه » ، « وَمَا لـكمْ ألاَّ تأْكلوا ممَّا ذُكرَ اسمُ اللهِ عَليه وَقدْ فَصَّل لـكمْ ما حُرِّم عليكمْ » ؛ فحذر هؤلاء الذين يمتنعون — بدافع من التقوى أو لأنهم يتمسكون بخرافات الجاهلية (وقد كانت فى الجاهلية محرمات فى الأكل) — عما قال النبى إن الامتناع عنه باطل .

ولـكن طعام هذه الحيوانات المسموح بها يجب أن يسبقه ذكر الله كشرط لذلك[٥٨] ، ويحتمل أن يكون هذا مستنداً إلى عادة اليهود بالزام بـ (berakha) قبل الذبح وقبل الأكل . ويعد ترك هذا فسقاً ، وبهذا يتقوى بشكل مزدوج ما يجب فى فى هذه الحالة ، ويكون مالا يذكر اسم الله عليه قبل الذبح لا يصح أكله .

وهكذا فهم شراح الفقه المحافظون — وعلى الأخص مذهب أبى حنيفة من بين المذاهب الأربعة — فى شرحهم النظرى وعملهم العادى ، ويتمسك المسلمون الذين يهتمون بالتمسك بالشرع فى حياتهم بذلك إلى اليوم . وعند الصيد كذلك (سورة المائدة : ٤) يجب ذكر اسم الله عند إرسال الطير أو كلب الصيد ، ولا يصح تناول الصيد إلا بهذا الشرط(٥٩) .

لكن هذه الصعوبات لتنفيذ هذا الحكم الصارم بالنسبة للتحريم أخذت تسهل فى مجرى الحياة سهولة واضحة ، وفى هذا وجد علماء الفقه فى أكثر المذاهب أن نصوص الأمر والنهى فى القرآن التى لبسها الفقه لا توجد حرفياً ، وأن منها ما كانت الرغبة فى استحبابه ، وليس المقصود منه الوجوب القطعى ، وبناء على هذا لا يكون حكما يجب الأخذ به(٦٠) .

وعند ما يكون اتباع الحكم الشرعى ، أو بعبارة أصح اتباع المطلوب ، قد ترك عن خطأ أو لمانع آخر ، فإن هذا الترك لما يبيح إطعام الطعام لا ضرر فيه .

ويمكن الإنسان بواسطة هذه التسهيلات ذات الدرجات أن يصل أخيراً إلى هذا المبدأ : « إنه عند ذبح المسلم يجوز الأكل فى كل الحالات ، سواء ذكر اسم الله ظاهراً أم لا ؛ ذلك أن الله مستحضر دائماً فى هذه الحالة سواء نطق به أم لا » . وما دام الأمر وصل إلى الاقتناع بهذا ، فليس من الصعب وجود ما يصدق هذا بحديث راجع إلى الرسول يستدل بواسطته على هذا المبدأ * .

وقد كان للنحو العربى طبعاً جانب من المساهمة فى هذا الشأن . فإن ترك الأخذ بصيغة الأمر ليس معصية مثل قول الله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ

---

* الفقهاء ينقادون فى أحكامهم لأصولهم الصحيحة ، والتأويل فى آية الأكل من المذبوح الذى لم يذكر اسم الله عليه كان من أول الأمر كالقول بعدم التأويل ، وما كان هذا التأويل ناشئاً من الشعور بثقل حمل النص على ظاهره حتى يكون الدافع إليه أمراً غير أصول الفقهاء ، وإنما الدافع إليه عند هؤلاء قوله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » ، وأهل الكتاب لا يلتزمون ذكر اسم الله على ذبائحهم فأولى بالحل ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها ، ومن لا يرى التأويل يطرد هذا الحكم فى طعام أهل الكتاب فلا يحل من ذبائحهم ما لم يذكروا اسم الله عليه .

النساء » (سورة النساء : ٣) ، وبهذا استدل الفقهاء على أن النكاح ليس واجباً ، وإنما هو أمر مرغوب فيه ؛ على أنه لا يمكن إلا أن نشير إلى وجود كثير من الشراح الأذكياء لكلام الله الذين يرون أن صيغة الأمر هنا للوجوب ، وأنه يجب النكاح على كل مسلم ؛ فمعنى (انكحوا) أي يجب عليكم ذلك ، وليس أمراً مستحباً فحسب .

٩ — والمثال المهم للحرية ، التي قابلت بها المدارس المفسرة للنصوص التمسك الشديد بالفقه ، هو موقفهم إزاء حكم شرعي طبع الحياة العملية بطابع معين ، ونعني بذلك « تحريم الخمر »[٦١] .

فقد اعتبر شرب الخمر في الإسلام « رجساً » ولكن الذي نعرفه هو مقدار المخالفة لهذا التحريم الشرعي في بدء الإسلام ، حيث كانت الحرية العربية تود ألا تتخلص من الخمر من أجل هذا الحد الشرعي[٦٢] .

أما الحقيقة التي نود أن ننوه بها هنا فهي أن الشعر الخمري في الإسلام[٦٣] ، وكذلك الدور الذي لعبه شرب الخمر في لهو الخلفاء الذين كانوا أمراء للمؤمنين وملوك الدولة ، كل ذلك لا يصور لنا الجماعة التي كان يطبع شريعتها الدينية ما جاء « من أن الخمر أم الخبائث » ، فكل هذا يدخل في باب الحرية وسهولة التخطي لأحكام الشريعة المعترف بها .

فمن وقت مبكر اعتبرت في هذه المسألة وجهتان للنظر مختلفتان متناقضتان ؛ فقد استدل أحد أشراف الصحابة وهو أبو جندل بآية من القرآن على تخطيه ، وهي قوله تعالى (سورة المائدة : ٩٣) « لَيس على الذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصالِحاتِ جُناحٌ فِيماَ طَعِمُوا إذاَ مَا اتَّقوا وَآمنوا . . . »[٦٤] ، ولم يقبل عمر بن الخطاب هذا التفسير الحر ، وجلده .

وهناك وجهة نظر أخرى جاءت بهذه الظاهرة ، وهي أن الفقهاء في المشرق أعملوا ذكاءهم ليحدُّوا من دائرة هذا المنع الذي يتسع لأشربة أخرى ، وذلك بواسطة التفسير .

فمن جهة سعوا أن يستنتجوا أنه فيما عدا خمر العنب لا تحرم الأشربة الأخرى في نفسها ، بل فقط عند ما يحصل منها الإسكار[٦٥] ، ووضعوا لذلك أحاديث مثل حديث

عائشة[٦٦] : « اشربوا ولا تسكروا » ، وتحت حماية هذا الدليل لم يقتصر حتى بعض الأتقياء على الماء القراح*، وسعى المتشددون للتدليل على « أن ما أسكر كثيره فقليله حرام » .

ثم انتشرت مدرسة فقهية تمسكت بحرفية النص وأن خمر العنب وحده هو المحرم، وأن ما عداه ليس إلا « شراباً » فقط أو « نبيذاً »[٦٧] وليس خمراً ؛ وبهذا يمكن أن يشرب نبيذ التفاح والتمر وأمثالها ، ويكون بهذا باب الشرب مفتوحاً على مصراعيه للمؤمنين بناء على هذا الإذن المبنى على المعنى اللغوى ، وطبعاً بدون أن يصل ذلك إلى حد السكر[٦٨] .

وقد صرح الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز نفسه بجواز النبيذ[٦٩] ، وجاء أن بعض الخلفاء العباسيين الذى لم يرد أن يتخطى الحكم الشرعى سأل بعض القضاة عما يعنى بالنبيذ[٧٠] .

ونظراً لأنه لا يمكن أن تفقد هذه الأشربة فى مجال الأنس ، فقد كان بحث الخلفاء فى مسألة الخمر مما تهتم به الجماعات المثقفة ، من أجل ارتباطها المباشر بالناحية اللغوية والأدبية ؛ فى قصر الخليفة المعتصم ، حيث كان الاهتمام بالذوق السليم بادياً ، كانت المسألة المحبوبة لدى هذا المجتمع الرفيع هى معالجة الأصول التى قام عليها ترادف الخمر فى اللغة ، وعلاقة منع الخمر بهذا الترادف[٧١] .

ولا يخدعنا الغرض من التشدد فى الفهم عند هذه العلاقة ، الأمر الذى كان يسود الأدباء البغداديين ، فقد صاحب هذا الرأى المعارضةُ الحرةُ ضد التحديدات الدينية ، حتى وصل الأمر إلى تحقير هؤلاء الأتقياء الذين تمسكوا بالحق فى ذلك . ولذى الرمة الشاعر المعروف قول فى ذلك : « هم اللصوص وهم يدعون قراء »[٧٢] ؛ وكذلك قول الآخر :

من ذا يحرم ماء المزن خالطه ... فى جوف آنيــة ماء العناقيد
إنى لأكره تشديد الرواة لنا ... فيها ويعجبنى قول ابن مسعود[٧٣]

---

* يتهم الفقهاء أيضا بوضع أحاديث فى النبيذ والخمر مثل حديث عائشة ، وهذا ليس من شأن الباحث المنصف الذى لايتكلم إلا عن بينة ودليل .

وقد جاءت تدقيقات الفقهاء الكوفيين فى القرن الثانى بهذه النظرية من رأى ابن مسعود؛ وأنه إذا لم يكن التحلل من ماء العنب ممكناً، فقد حاولوا إيجاد تسهيلات كثيرة للإنسان، تطميناً لضميره الدينى، حتى يستطيع ذوو النفوس الطيبة أن ينالوا منها[٧٤].

وليس من النادر أن نجد فى التراجم مثل هذه القصة: وهى أن وكيع ابن الجراح أحد الفقهاء الكوفيين المشهورين بالزهد (١٢٩ — ١٩٧ ﻫ) كان يداوم على شرب نبيذ الكوفيين، وأنه طرد عن نفسه ما قد يوسوس له به الشيطان من أنه بذلك قد شرب الخمر[٧٥].

وهذا خلف بن هشام أحد قراء الكوفة المشهورين (٢٢٩ ﻫ — ٨٤٤ م) كان يشرب الشراب، وإن لم يسمه باسمه الحقيقى (على التأويل)، وأضافت الترجمة إلى ذلك أنه فى آخر حياته أعاد الصلاة عن أربعين سنة؛ لأنه لم يترك فيها شرب النبيذ، وصلاة شارب النبيذ غير مقبولة، ويجب قضاؤها[٧٦].

وشريك قاضى الكوفة فى عصر الخليفة المهدى كان يحدث بحديث الرسول ويشم من فمه رائحة النبيذ[٧٧]، كما أن أحد الوعاظ المشهورين فى القرن السادس، وهو أبو منصور قطب الدين الأمير الذى كان أرسله الخليفة المكتفى إلى السلطان السلجوقى سنجر ملكشاه، هذا الرجل التقى الذى دفن بعد موته بجوار الزاهد الصالح الجنيد، كان قد ألف رسالة فى إباحة شرب النبيذ[٧٨].

وبطبيعة الحال ثارت ضد تلك المظاهر والجهود فى دائرة الفقه معارضات المتشددين الذين تمسكوا بالماء القراح واللبن والعسل[٧٩]، على خلاف هؤلاء المتحررين وما أحدثوا من مخالفات للسنة. وجاءوا بالأحاديث لبيان هذه الحالة، كما هو دأبهم فى مجرى التاريخ الإسلامى، لوقف التيارات التى تنحو نحو التسهيل: « ستشرب أمتى الخمر — هكذا حدثوا — وستسميها بغير اسمها، وسيحميهم أمراؤهم[٨٠]، وأن الله سيبدلهم قردة وخنازير كما فعلت الأمم السابقة »[٨١].

وعلى كل حال، يمكن أن يرينا الطريق الذى سلكه الكوفيون فى هذه المسألة، أنهم قد فكروا فى التدقيق الفقهى المتطور، وأخذوا بتسهيلات ألانوا بها شدة النصوص.

وعلى هذا المنوال من الاختلاف فى الإباحة التى استعملت فيها هذه المهارة الفنية ، تبعاً لمقدار هذا وكيفيته ، قام قسم كبير من تعاليم الاختلاف بين المدارس الفقهية التى تنازعت العالم الإسلامى .

ويكفى هنا من ناحية النظرية التاريخية للإسلام أن نُثبت أن الأكثرية الغالبة لتلك المدارس ، فى كثير من الوقائع ، قد اعتبرت مبدأ التأويل للتوفيق بين الحياة فى نظر الفقه ، والحالات الواقعية الاجتماعية ، والسعى للمطابقة بين القانون الضيق لمكة والمدينة والظروف الجديدة المغايرة الواسعة ؛ الأمر الذى دعت إليه الفتوحات للبلاد الأجنبية ، والاتصال المباشر بأشكال الحياة المختلفة اختلافاً أصلياً .

هذه هى وحدها وجهة النظر ، والفكرة التى يجب أن يهتم بها مؤرخو الثقافة والدين بخصوص هذه الناحية من التعاليم الفقهية للإسلام ، بدل ما كان من اهتمام بالأشياء والتفاصيل الصغيرة التى لا غناء فيها . ومن أجل هذا أجزت لنفسى أن آتى بتفاسير لهذه الأمور العديمة النفع بالنسبة للخلقية الدينية ، وهى تفاسير تُعدّنا لما سيجىء — فى القسم الأخير — عند الكلام على مطابقة الإسلام للعلاقات الجديدة .

١٠ — وهنا فى الختام سنتكلم على نتيجتين كانتا ضارتين ، وكانتا أثرين لتربية العقلية الفقهية على هذا التوفيق الشديد : فأما إحداها فتتصل بتلك الجهود التى أدت إلى هذه الطريقة العقلية العامة ، وأما الأخرى فتتصل بتقويم الحياة الدينية التى أضرت بالناحية الدينية الداخلية .

أما عن النتيجة الأولى ، فإنه تبعاً لهذه الجهود ، الموصوفة المبالغ فيها ، سادت فى العراق روح التدقيق والتفصيل[٨٢] ، وضاع فى هذا التدقيق الممل والشروح المقفرة وتخيل إمكانات لا تحصل ، والعناية بإيجاد مسائل من الحيل مع الخيال الجرىء والتدقيق المبالغ فيه — ضاع فى ذلك شرح كلام الله ، وتقنين الحياة حسب ذلك . فمن أمثلة ذلك هذا السؤال الذى سئله أبو حنيفة : كيف يبدأ صيام رمضان إذا طلع فجر هذا اليوم وسط الليل ؟ وما كان من أبى حنيفة إلا أن رد على ذلك رداً خشناً .

وقد تنازعوا فى وقائع بعيدة متخيلة لا تتفق أصلاً مع الحقائق * ، مثل تنازعهم فى حق إرث الجد فى الطبقة الخامسة من حفيد مات ولا ولد له (٨٣) ، ويعتبر هذا المثال بالنسبة لغيره مألوفاً ، فالميراث بإمكاناته المختلفة كان قبلُ حلبة مناسبة على الأخص ومحبوبة ، عند هذه الروح المدرسية (٨٤) .

وقد أعطت الخرافات الشعبية للفقهاء مادة لمثل هذه الأعمال ؛ فمثلا لما كان تحول الإنسان إلى حيوان أمراً يحصل فى الطبيعة فى عقيدة الشعب ، أصبحت العلاقات الشرعية لمثل هؤلاء المسحورين ومسئولياتهم الشرعية مطروقة بجد (٨٥) .

ولما كان من ناحية أخرى يتشكل الجن بأشكال الإنس ، صارت النتائج الفقهية لهذا التشكل موضوعاً للتفكير ، وأخذوا يتكلمون مثلا — بجد بالغ — نفياً وإثباتاً ، عن جواز عدّ هؤلاء فى نصاب الجماعة يوم الجمعة (٨٦) ، وأن ذلك أمر يجب بحثه فقهياً ، وأن توضح الحالة الناتجة عما هو قارّ فى اعتقاد الشعب كأمر ممكن من تزوج الإنسان بالجن المتشكل بالإنس ، وما ينشأ من هذا الزواج من الخلف ، ونتائج مثل هذا الزواج من حقوق عائلية .

فمن الحق أن مسألة التزوج بالجن (٨٧) ، فى هذه الحلقات ، كانت من المسائل التى تبحث باهتمام كأى أمر آخر من القوانين والفقه (٨٨) . وقد عدّ المدافعون عن مثل هذا الاختلاط والتزاوج — ومنهم أبو الحسن البصرى — أمثلة لبعض أهل السنة ارتبطوا بمثل هذا الزواج . وأدخل الدميرى ، صاحب كتاب حياة الحيوان ، فى الفصل الذى ساقه عن الجن مثل هذه الأشياء ، وتكلم عن تجاربه الشخصية مع شيخ عاش مع أربع نساء من الجن بمثل هذه العلاقة الزوجية .

وقد اخترعت التدقيقات الفقهية علاوة على ذلك مسألة (الحيل) التى تخلص من يقع فى حالة معينة إلى ما فيه مصلحته ؛ فهى فتاوى فقهية ، تصور جزءاً ضرورياً

---

* عاب على الفقهاء توسعهم فى الافتراض واحتمال الصور الممكنة . وقد كانوا يبغون بهذا التوسع تطبيق الأحكام ، وتربية الملكة وشحذ الذهن فى هذا . وقد أبان الزمن أن ما هو مستحيل اليوم قد يتحقق غداً ، فمن شأن صاحب العلم أن يوسع فروضه وأن يعد لما يحدث عدته . وتجد اليوم أحوال يود الباحث فى تطبيقها بجدع الأنف لو يجد من تكلم عنها فيمن سلف ، حتى يستأنس بذلك ولا يضل السبيل .

فى الفقه ، وتستخدم بكثرة فى الأيمان ، لكى تكون منها طمأنينة للضمير ، فيسأل الفقيه عن رأيه فى (المخرج) .

ولا يمكن مدح هذه الناحية من عمل المفتى على أن الباعث عليها أمر أخلاقى فى الحياة الاجتماعية ؛ فالمنصور العباسى الذى كان أعطى لزوجته ميثاقاً بصيغة شرعية واجبة النفاذ على ألا يتزوج عليها ، وأن يبقى معها وحدها ، التجأ بعد ذلك إلى فقيه بعد فقيه فى الحجاز والعراق ، طالباً لفتوى تخول له ، مع هذا الالتزام الثقيل ، أن يتزوج زواجاً آخر ويتسرى ، وقد عاكست زوجه طبعاً هذا الغرض بما كانت تهديه من الهدايا للفقيه المسئول حتى يوافق رغباتها . وقد قال أحد شعراء بنى أمية « إنه لا خير فى يمين لا مخرج منها . »[٨٩] وقد ساعدت هذه الحاجات الدراسة الفقهية ونشَّطتها .

وإنه وإن كانت المذاهب الأخرى لم تتأخر فى هذا المضمار ، إلا أن المذهب الحنفى كان أكثرها فى هذا السبيل ، وقد كان موطنه العراق ، وارتفع شأنه بتأسيس هذه (الحيل)[٩٠] ، وقد كان زعيم هذه المدرسة يسير فى هذا الطريق .

وقد أتى المفسر الكبير والفيلسوف الدينى فخر الدين الرازى بتفصيل كبير فى تفسيره عن فضل الإمام أبى حنيفة ، وساق الأدلة الراجحة العالية لبيان تعمقه الفقهى الذى كان يدور حول حَلِّه للمسائل الصعبة فى الأيمان ؛ كما اهتم الأدباء الكتاب بإثبات دقة الفقهاء وجمعوا نكات من اختراعاتهم فى المسائل الفقهية الصعبة ، استدلوا بها على مهارتهم فى حلها[٩١] .

ويجب أن نعتقد ونقر بأنه ليست وحدها الأفكار الصالحة هى التى عارضت وأبت أن تربط هذه الأشياء بالدين وحكم الله الذى جاء عن أهل الدين أصحاب السلطان ، بل كان ذلك أيضاً مجالا للاستهزاء والسخرية من الناس لهذه الأعمال المبنية على العجب والكبرياء من هؤلاء العلماء المخرفين .

ونجد مثل هذا الرفض فى مثل كامل فى القرن الرابع ؛ لقد كان أبو يوسف ، من أهل الكوفة وتلميذ أبى حنيفة (١٨٢ هـ ٧٩٥ م) وقاضى الخليفة المهدى والرشيد ، مكاناً لنكات الشعب المضحكة ، الأمر الذى نجد التعبير عنه فى حكايات

ألف ليلة وليلة ، والذى يدل على عدم الاحترام الممزوج بالشعور البارد لتدقيقات هؤلاء الفقهاء .

وثانياً : فلنفحص هذا الأثر الضار لأسلوب الحياة الدينية . فإن رجحان الجهود ذات البحث الفقهى ، والعمل التفصيلى لمسائله فى العلوم الفقهية ، قد أعطيا — كما سنتناول ذلك بعد — تعاليم الإسلام الطابع الفقهى تدريجياً .

وتحت تأثير هذه الطريقة أصبحت الحياة الدينية نفسها موضوعة تحت النظرة الفقهية ، التى لا يمكن بالطبع أن تكون نافعة لتقوية التقوى الصحيحة والمعرفة الإلهية . والمؤمن الوفىّ يقف بناء على ذلك ، حتى فى إحساسه الشخصى ، تحت طائلة كلام هؤلاء الناس ، كما يقف تحت طائلة كلام الله الذى لا يقعّد من عاداته فى الحياة إلا قسما صغيراً هو مسألة التهذيب التى تبقى أمراً ثانوياً .

واعتبر كعلماء الدين هؤلاء الذين يبحثون أنواع الأعمال القانونية بالطريقة الفقهية ، ويفرعون بدقة ما يبحثونه بهذا الشكل ، ويؤيدون بالدقة والضبط ما يكشفونه . وعليهم وحدهم ، لا على الفلاسفة الدينيين أو الأخلاقيين ، وبوجه خاص أهل العلوم الدنيوية ، يطلق هذا الحديث : « عُلماء أمّتى كأنبياء بنى إسرائيل » .

هذا ، وقد بينا قبلُ أنه لم يعدم وجود علماء أقوياء جادِّين ، رفعوا أصواتهم لكى يحكموا بشدة على هذا البعد عن المبدأ الدينى الذى أظهره الإسلام عند نشأته الأولى . وقد كان لهذا أثره ، وأنقذت الحياة الدينية الداخلية من هذه المناقشات اللفظية الفقهية ، ووجدوا لذلك حديثاً صحيحاً إلى جانبهم كما رأينا . ولكن قبل أن نتعرف هؤلاء ، نسلك طريقنا لتطور العقائد فى الإسلام .

٣

نموّ العقيدة وتطورها

١ — ليس الأنبياء من رجال علم الكلام . فالرسالة التى يأتون بها بدافع إدراكهم المباشر ، وكذلك المعارف الدينية التى يوقظونها ، لا تتمثل كهيكل مذهب مبنىّ طبقاً لخطة رُوِّىَ فيها مقدماً ، بل كثيراً ما تتحدى كل محاولة للتنسيق المذهبى * .

يجب إذاً ، الانتظار إلى أن تأتى الأجيال التالية ، حيث تؤدى الثقافة المشتركة للأفكار المستقاة من الأنصار والأوائل ، إلى تكوين طائفة محددة ؛ عندئذ تتخذ تلك الأفكار شكلا مجسما ، عن طريق وسائل داخلية فى الطائفة نفسها أو بفعل تأثيرات البيئة المحيطة ، وهذه الأفكار تتقدم بواسطة من يشعرون أنهم مختارون ليكونوا المفسرين لما أتى به النبى (١) .

بذلك يسدُّون ما يكون فى التعاليم النبوية من ثغرات ، ويشرحونها فى أغلب الحالات شرحاً غير واف ؛ أى أنهم يفسرونها مفترضين اشتمالها على ما لم يخطر على بال واضعها من أفكار ، ويقيمون إجابات عن أسئلة لم يفكر فيها المؤسس ، ويوفقون بين متناقضات لم يضطرب لها ، ويتصورون صيغاً شديدة [جافة جامدة] ، ويقيمون سوراً من التفكير والبرهان يظنون أنه يحمى هذه الصيغ من الهجمات الداخلية

---

* عقيدة المؤلف كغيره من المستشرقين أن ما يأتى به الرسول من عنده ، ومن ثم فكلامه عرضة للتناقض والاضطراب ، وأن ما جاء به لا يقوى أن يكون مذهباً قويماً منسجماً من أول الأمر ، شأن كل عمل يصدر عن البشر . والمؤمنون — ويؤازرهم كثير من المستشرقين المنصفين — يؤمنون بأن ما جاء به الرسول وحى من الله لا يعتريه خلف ولا بطلان ، والقرآن مشحون بتثبيت هذه العقيدة . وفى نصوص الوحى ما يحتمل وجودها من المعا ، وما هو مصروف عن ظاهره بما نصب من القرائن والملابسات ، وفيها نصوص مجملة تحتاج إلى الفحص عن المراد منها ، والتماس ما يوافق السياق ؛ وقد وكل هذا كله إلى العلماء والفقهاء فى الدين والفاهمين عن الرسول عليه الصلاة والسلام ومن حذا حذوهم . وكان من آثار ذلك أن اتسعت مدارك الفقهاء وتربى المجتهدون والمستنبطون ، وكان العلماء مفزع الأمة فى الاختلاف ، بما عرفوا من الشريعة وهدوا إليه من الدين .

والخارجية ، ثم يستخلصون من أقوال النبي – متخذين إياها غالباً بالمعنى الحرفي – مجموعة قضاياهم فى نظام لا يعوزه التنسيق .

واستناداً إلى هذا الأصل ، ينشرونها على أنها التعاليم التى كان يقصدها النبى منذ بدء الأمر ، ويتناقشون فيها فيما بينهم ، ويقيمون الحجج البارعة الدقيقة العالية ضد الذين يتخذون نفس هذه الوسائل للوصول إلى نتائج أخرى من حاديث النبى الحية .

ومثل هذه الجهود تفترض أن هناك مجموعة للقوانين الشرعية ، كما تفترض تحديداً صريحاً للتبشيرات النبوية فى نصوص مقدسة ، وتنضم إلى هذه النصوص تفسيرات عقيدية ، وهذه التفسيرات تمد النصوص عن الروح النافذة فى عنصرها الحقيقى . إنهم يدللون أكثر مما يشرحون ، وإنهم بمثابة الينبوع الذى لا ينضب والذى يسيل منه التفكير للذين يقيمون النظم والمذاهب .

ولقد دخل الإسلام فى طور تطور كلامى من هذا النوع بعد ظهوره بزمن قليل . وفى نفس الوقت ، وفى نفس الحين الذى نشأت فيه الظواهر التى كانت موضوع القسم الثانى ، أصبحت عقائد الإسلام أيضاً موضوع تفكير . وبذلك نما ، بجانب النظر فى العبادات ، علم كلام عقيدى فى الإسلام .

ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحّداً متجانساً وخالياً من التناقضات* . ولم يصلنا من المعارف الدينية ، الأكثر أهمية وخطراً ، إلا آثار عامة نجد فيها ، إذا بحثناها فى تفاصيلها ، أحياناً تعاليم متناقضة .

---

* ذكر أن من العسير أن نستخلص من القرآن مذهباً عقيدياً . العقيدة وتصحيحها من أهم ما عنى به القرآن ، والآيات فى التوحيد ووصف الله بما ينبغى له وتنزيهه عما لا يليق مستفيضة فى الكتاب العزيز لا تكاد تخلو منها سورة . والكاتب يعنى ما عنى به المتأخرون من توافه المسائل الكلامية ؛ ككون الصفة عين الذات أو غير الذات ، وهذه المسائل يتعبد الله المسلمين بها ، وكانوا فى غنى عنها وعن الخوض فيها بما عندهم من صحيح العقائد .

وما دخل هذا على المسلمين إلا من اختلاطهم بأمم ذوى ثقافات مضطربة غير مستقرة على دعائم قوية من العقل والدين ، وكان قدماء العلماء ينهون عن هذه الأبحاث حفظاً على الحنيفية السمحة التى لا تعقد فيها ولا اختلاف ، وحال مالك بن أنس وكراهته للسؤال عن كيفية الاستواء على العرش مما لا يجهله أحد . وقد حبذ المتأخرون البحث فى هذه الأمور لدفع الضلالات الناجمة منها ، لا لتكميل البناء الكلامى .

ورسالة النبي الدينية تنعكس فى روحه بألوان مختلفة باختلاف الاستعدادات السائدة فى نفسه . إذاً ، كان لزاما على علم الكلام المنسّق أن يتولى منذ أول الأمر حل الصعوبات النظرية الناشئة عن مثل هذه التناقضات .

ويبدو فضلاً عن ذلك أنه ، فيما يتعلق بمحمد نفسه ، شُرع منذ القدم فى البحث عن تناقض فيما بشر به . ولا غرو ! فقد كان وحى النبى ، حتى فى حياته ، معرضاً لحكم النقاد الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص ، وكان عدم الاستقرار والطابع المتناقض البادى فى تعاليمه موضع ملاحظات ساخرة * .

ولهذا ، فبالرغم من إصراره على القول بأن الله أوحى « قُرْآناً عَربياً غيرْ ذِى عِوَجٍ » (سورة الزمر : ٢٨ . ويراجع أيضاً سورة الكهف : ١ ، سورة فصلت : ٢) فقد اضطر إلى الاعتراف فى الوحى المدنى بأن القرآن « منهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتشابِهاتٌ فأَمَّا الذينَ فى قُلوبِهِمْ زَيْغٌ فيتَّبِعُونَ ما تشابَه مِنْهُ ابتِغاءَ الفِتنةِ وابْتِغاءَ تَأْوِيلِه وما يَعْلمُ تأْوِيلَهُ إلاّ اللهُ والرّاسِخُونَ فى العِلمِ يقولون آمنّا به كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا » (سورة آل عمران : ٧) .

ومثل هذا النقد للقرآن كان صواباً خلال الجيل الأول التالى لظهوره ، إلى درجة أن لم يُكتفَ بأن يهتم خصوم الإسلام بكشف مواطن الضعف فيه فقط ، بل ذهب الأمر إلى درجة أن البحث فى التناقضات الظاهرة فى القرآن أصبح موضع حديث بين المؤمنين أنفسهم . وسنرى فيما بعد ، فى مثال بشأن تعليم أساسى فى الدين وهو مسألة الجبر والاختيار ، كيف أن الأدلة للرأى وضده قد استقيت من القرآن نفسه .

والحديث ، شأنه فى ذلك شأن جميع نقط التاريخ الداخلى للإسلام ، يقدم لنا صورة الحركة الفكرية التى قامت فى هذا الصدد فى الطائفة [الأمة] الإسلامية ** .

---

* يقول إن الوحى كان معرضاً لحكم النقاد الذين كانوا يبحثون عما فيه من نقص ، وكانوا يسخرون منه . وهذا صحيح أن فريقاً من عمى البصائر كانوا فى سخرية منه ، وقد عنى القرآن بالرد عليهم ، وأنهم كانوا كهذا الكاتب لا ينقدون بحجة وبرهان . وقد ذكر حديث الآيات المحكمة والآيات المتشابهة . وقد علمنا حكمة نزول المتشابه فى القرآن ، وهو تعليم الأمة الاجتهاد والنظر بالقدر الصالح فى حدود الدين والعقل . والمسلمون لم يدعوا مجالا للبحث إلا سلكوه فى حرية واطمئنان ، ولم يعترضهم يوماً ما يريبهم فى دينهم ، ولا ما يثنيهم عن يقينهم .

** يقول : إن الحديث يمثل الحركة الفكرية التى قامت فى الإسلام . وهو يرمى إلى الوضع فى الحديث ، والعلماء قد ميزوا الموضوع من غيره ، والموضوع منفى عن الحديث غير معترف به .

نعم ، إن هذه الحركة ترجع إلى عهد النبى ، وإن الحديث يحاول التخفيف من حدتها ، ولكن الواقع أن هذه الحركة لم تقم بمعناها الحقيقى إلا فى العصر الذى نبت فيه التفكير الإسلامى .

ومن الحديث نفهم أن تلك المناقشات كانت تثير غضب النبى ، وأنه كان يقع فى ضيق عند ما كان المؤمنون يشيرون إلى تناقض عقيدى فى القرآن . ومن كلامه فى هذا الصدد : « أى قوم ! بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، ولكنه يصدق بعضه بعضاً ؛ إن هذا القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكنه يصدق بعضه بعضا ؛ فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه عليكم فآمنوا به »[٢]

فشعور المؤمن الساذج قد تحول إلى كلام من كلام النبى ، وتلك هى طريقة الحديث.

٢ — وفى الأيام التى تلت ، كان من نتائج الأحوال السياسية ، والفعل المحرك الشديد للاحتكاكات الخارجية ، أن أنصار الإسلام الأوائل اضطروا ، بحكم عدم ميلهم إلى التدقيقات العقيدية ، إلى أن يتخذوا منذ بادىء الأمر موقفاً فى المسائل التى لم يعطنا القرآن عنها جواباً محدداً مؤكداً .

والملاحظة التى سنذكرها بعد يمكن أن تؤكد لنا أن النظام السياسى الداخلى قد أثار خلافا وجدلا عقيدياً ، وكان الانقلاب الأموى أول الفرص التى سنحت فى الإسلام لإثارة مسائل كلامية إلى جانب الحالة السياسية والدستورية الجديدة ، وللحكم على الأنظمة الجديدة ، مع رعاية وجهة نظر المطالب الدينية .

ويجب أن نعود هنا إلى موضوع خاص بتاريخ الإسلام القديم ، وهو ما ذكرناه بإيجاز فى الجزء السابق ، وهو تقدير الطابع الدينى للسيادة الأموية .

إن من الممكن لنا أن نعتبر أن الفكرة ، التى كانت سائدة فيما مضى عن علاقة الأمويين بالدين الإسلامى ، فكرة ملفقة مختلفة . فطبقا للتقاليد والروايات الإسلامية كان الأمويون وروح حكمهم فى تعارض شديد مُحسٍّ مع مطالب الإسلام الدينية ، وكان خلفاء هذه الأسرة وحكامها وعمالها يصوّرون جميعاً كأنهم خلفاء ورثة لأعداء

الإسلام وهو فى مهده ، وكان المعتقد أن الروح القرشية القديمة وعداءها للإسلام — أو على الأقل عدم مبالاتها إياه — قد عادت وحييت فى صور جديدة عندهم * .

ومما لاريب فيه أن بنى أمية لم يكونوا متمدينين ولا متظاهرين بالتقوى . وكانت حياتهم فى بلاطهم وبين حاشيتهم لا تحقق من كل الوجوه ما كان ينتظره الأتقياء من رؤساء الدولة الإسلامية من كبت النفس والهوى والابتعاد عن متع هذه الحياة وزينتها ، هذه الخلال التى نشرت تفاصيلها فى الحديث باعتبارها من القوانين والأصول الصادرة عن النبى .

ولقد وصلنا بعض البيانات الدقيقة فى شأن الميول التقية لبعض هؤلاء الخلفاء(٣) ولكنها لم تكن لترضى الزهاد الورعين من الذين كانوا يتخذون حكومة المدينة ، فى عهد أبى بكر وعمر ، مثلا أعلى للحكم .

ومع ذلك لا يمكننا أن ننكر أنهم باعتبارهم خلفاء أو أئمة ، كانوا يدركون مركزهم على رأس دولة مؤسسة على ثورة دينية ، كما أنهم كانوا يدركون أنهم من أنصار الإسلام الخلصاء(٤) .

وبديهى أن هناك فرقاً كبيراً بين الطريقة التى كانوا يفهمونها عن حكومة الأمة الإسلامية وما كان ينتظره منهم الزهاد الورعون ؛ لذلك كان هؤلاء يلاحقونهم بغضبهم ، برغم عدم مقدرتهم على عمل أى شىء .

وبطبيعة الحال نرى أن أناساً من أمثال أصحاب هذه العقلية هم الذين ندين لهم بالقسم الأكبر مما وصل إلينا من تاريخ الأمويين ، فمن وجهة نظر قراء القرآن ، أو فى رأيهم ، كان الأمويون لا يفهمون حق الفهم واجبهم نحو الإسلام .

ومما لا شك فيه أن الأمويين كانوا يدركون الطرق الجديدة التى جرُّوا فيها

---

* أسرف فى رمى الأمويين ونبزهم بمعاداتهم للدين . والأمويون كانت سياستهم سياسة دينية وإن كان فى بعضهم عوج فى سلوكه الشخصى ، إذا صح ما روى عنهم ولم يكن من عمل أعدائهم ومنافسيهم فى الحكم ، وقد كانت لهم يد على الإسلام فى توسيع رقعة الإسلام ، وفى صبغ كثير من وجوه العمل فى الدولة بالصبغة الإسلامية كسك النقود وحساب الخراج ، والمؤلف مع ذلك يعترف بهذا للأمويين .

الإسلام ، وأن أحد عمالهم الأقوياء ، وهو الحجاج بن يوسف السيء السيرة ، عبر عن رغبتهم عند ما ألقى بجوار سرير ابن عمر ملاحظة كلها سخرية عن النظام القديم للحكم(٥)

ولا ريب فى أن ظهور الأمويين كان فاتحة نظام حكم جديد . ذلك بأنهم نظروا بحسن نية إلى الإسلام « من وجهة السياسة التى جمعت شتات العرب وسارت بهم فى طريق سيادة العالم »(٦) . والرضا أو السرور الذى وجدوه فى الإسلام كان من أسسه الهامة أنهم أدركوا بالإسلام شرفاً ، وغلبوا الأمم وحووا مراتبهم ومواريثهم(٧)

وقد كانت المحافظة على قوة الإسلام ومضاعفتها فى الداخل والخارج هو ما اعتبره الأمويون أهم واجبات الخلفاء ، وكان فى ظنهم أنهم بذلك يخدمون قضية الدين .

لذلك ، كان كل من حاول الوقوف فى طريقهم يعامل معاملة الثائر على لإسلام ، كما كان يفعل الملك الإسرائيلى آخاب حينما قال عن النبى الغيور « أو خيرْ إسرائيل » أى مثير شعب إسرائيل (سفر الملوك الأول إصحاح ١٨ عدد ١٧) * .

وكان الأمويون إذا ما حاربوا العصاة المتمردين والثائرين ، الذين كانوا يثورون لأسباب دينية فى رأيهم ، كانوا يعتقدون يقيناً أنهم من أعداء الإسلام ، وأنه من الواجب أو من صالح عظمة الإسلام وبقائه أن يؤدبوهم بالسيف(٨) .

وإذا ما ساروا ضد الأمكنة المقدسة ، وإذا ما اتجهوا ضد الكعبة (وهو الأمر الذى اتهمهم به أعداؤهم المتدينون وظلوا يعتبرونه انتهاكا لحرمتها لأجيال طويلة) ، فإنهم كانوا يعتقدون فى قرارة أنفسهم أن عقاب أعداء الإسلام صالح الإسلام يجب ألا يُتردّد فيه طالما كانت مصالح الدولة تقضى بذلك ، وأن هذا العقاب يجب أن يحلّ كلما قامت ثوره وهُدِّدت وحدة الإسلام وقوته الداخلية(٩) . ما أعداء الإسلام فى نظرهم فهم جميع الذين يحاولون ، لأية حجة كانت ، تهديد وحدة الدولة التى قوّوْها بإدراكهم السياسى .

وبالرغم من جميع مظاهر الاحترام التى يظهرونها نحو آل النبى ، وهى المظاهر

---

* نص من التوراة هكذا : (فلما رأى آخاب إيليا الغيور قال له آخاب : أأنت إيليا مقلق بنى إسرائيل ؟) .

التي جمع أخيراً حججها « لامانس » فى كتابه عن « معاوية »[١٠] ، فإنهم حاربوا المطالبين بالعرش من العلويين الذين كانوا يهددون دولتهم ؛ وهم لا ينحرفون عن الطريق الذى ساروا فيه يوم كربلاء ، وهو اليوم ذو التاريخ الدامى ، الذى يذكره حتى الآن مؤرخو الاستشهاد الشيعى الذين يلعنون الأمويين .

لقد كان فى رأيهم [الأمويين] أنه لا يجوز الفصل بين صالح الإسلام وصالح الدولة ، كما كان الحصول على السلطان فى نظرهم نجاحاً دينياً ، ومن ثم كان أنصارهم المخلصون لهم يدركون أنهم فى أعمالهم مخلصون للإسلام .

أما شعراؤهم فكانوا يذكرونهم فى مدائحهم بأنهم حماة الإسلام ، بل إن بعض أنصارهم وأوليائهم كانوا يرون فى أشخاصهم نفس القداسة الدينية التى كان أبطال أنصار حقوق آل النبى يعزونها إلى العلويين المطالبين بالخلافة والمقدسين لأصلهم النبوى [الكريم][١١] .

وأما الأتقياء من المسلمين فإنهم لم يروق لهم ما أحدثه الأمويون من تغيير . ذلك لأنهم كانوا يحلمون بمملكة ليست فى هذا العالم* ، وكانوا يعارضون الأسرة الأموية متذرعين بمختلف التعلات والأسباب ؛ كما كانوا يقاومون الروح التى تسيرها فى حكمها .

وفى رأى الغالبية من هؤلاء الأتقياء المتذمرين كانت السيادة ، التى أقامتها تلك الأسرة على أساس من النظام الوراثى المعيب ، قد وُلدت فى الإثم . بل كان نظام الحكم الجديد غير شرعى ولا يتفق والدين فى نظر هؤلاء الحالمين ؛ إذ أنه لم يكن ليحقق مثلهم الأعلى الذى يقوم على دعامة من الحكم الإلهى ، كما كان يعدّ عقبة فى سبيل تأسيس مملكة مَرْضية عند الله ، وهى المملكة التى كانوا يتمنونها .

ولا عجب ؛ فقد كان نظام هذا الحكم الأموى قد تجاهل منذ بدء الأمر حقوق آل البيت النبوى ، ثم ثبت فى نشاطه السياسى دون رعاية لما هو مقدس فى الإسلام .

---

* يقول إن الأتقياء من المسلمين كانوا يحلمون بمملكة ليست فى هذا العالم : والأتقياء من المسلمين يرومون أن تسير الدولة فى حدود ماسن الله ولا تتعدى حدوده ، وقد كانت هذه الدولة فى عهد الخلفاء الراشدين على خير مايكون ، وليست دولة الإسلام بالمعنى الصحيح خيالية بحتة كما يريد أن يصورها الكاتب فيلحقها بجمهورية أفلاطون .

ولنضف إلى هذا أنه كان مما يلاحظون على رجال هذا النظام وممثليه أنهم كانوا لا يبالون كثيراً باحترام قواعد الاسلام وأصوله فى سلوكهم الشخصى ، وهى القواعد التى كان يحلم بها المتدينون ، وفى هذا نسب إلى الحسين حفيد النبى وأول العلويين المطالبين بالخلافة ، أنه قال فى الأمويين : « ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء[١٢] ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله »[١٣] . ويتركون السُّنة المقدسة ، ويتخذون قرارات تعسفية متعارضة والفكرة الدينية[١٤] .

وكان من واجب الحزب الدينى المتمسك برأيه أن يحارب إلى النهاية أمثال هؤلاء الناس ، أو على الأقل أن يتخذ بإزائهم موقفاً سلبياً ، وأن يمتنع عن أى مظهر من مظاهر الاعتراف بسيادتهم وسلطانهم . على أن هذا مما يسهل القول به نظرياً ، ولكن من العسير تحقيقه عملياً .

وذلك لأن خير الدولة وصالح الأمة كلها كان من الحق أن يوضع فوق كل اعتبار آخر ؛ فكان يتعين تحمل الحكومة القائمة بحكم الضرورة ، وتجنب الاحتكاك أو الاصطدام بها .

على أنه قد تبين أن الاحتكام إلى الله ، أو ترك الأمر لله ، الذى كان يتمثل فى اللعنات التى كان يصبها الأتقياء المتذمرون على الأمويين[١٥] ، كان من الأسلحة التى لا تجدى فتيلا . على أنه مهما يكن ، فقد كانوا يرون أن ما أذن به الله أن يكون لا يمكن أن يعترض عليه الانسان* ، وإذاً فلا يسع المرء إلا أن يضع رجاءه فى الله الذى سيحكم يوماً ما هذا العالم الملىء بالظلم والآثام .

---

* يقول إن مما بعث المؤمنين على الرضا بحكم الأمويين على جورهم اعتقادهم أن ما أذن الله به أن يكون ، لا يمكن أن يعترض عليه الإنسان ؛ وأن الذى بعث المسلمين على الرضا بجور الحكام هو الخوف من شق العصا وتفريق الجماعة . وأما ما يريد الكاتب أن يلمز به الإسلام فقد كثر من هؤلاء الباحثين ، والإسلام مما يرمونه براء ، فإن من أهم ما يدعو إليه الدين إنكار المنكر والأمر بالمعروف حتى يتربى فى الإسلام رأى عام مهتد بعيد عن الضلالة . ويقول الله تعالى فى شأن الأمة الإسلامية منبها لها إلى أهم خصائصها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، وقد نعى على قوم إهمالهم لهذا الأمر فقال : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه .

وتلك هى الآمال الصامتة التى خرجت منها فكرة المهدى ، التى وفّقت بين الواقع والمثل الأعلى ، وبدا على أثرها الاعتقاد الراسخ فى ظهور حاكم إلٰهى يوجهه الله توجيهاً حسناً * . وهذا ما سنتحدث عنه فيما بعد ، (القسم الخامس نبذة ١٢) .

ومن المظاهر الخارجية لقوة الإسلام المسيطرة ، وظيفة الإمام التى كان لصاحبها حق رياسة الصلوات ، وهى وظيفة قائمة على الطابع الإلٰهى للأمير الذى كان له أو لمن يقوم مقامه أن يؤم المؤمنين . وكان مما اضطر المؤمنون الورعون أن يقبلوه فى ألم ، إمامة الصلوات من جانب أولئك الناس الذين كانوا فى رأيهم ملحدين ، أو على الأقل غير متقين ، وأن يروهم أهلا للإمامة وهم سكارى ** . لكن ما روى ، من أنه يجوز لصالح سلامة الدولة « أداء الصلاة خلف البر والفاجر » ، هو الذى برّر تسامح هؤلاء الورعين .

على أنهم جميعاً لم يقفوا هذا الموقف السلبى . إذ كان يتعين تسوية الأمر من حيث المبدأ ؛ فتجارب الحياة اليومية ، وشعور الحزب الدينى المستمسك بحقوقه ، قد جعلا لزاماً البحث فى هذه المشكلة : هل يجوز ، بوجه عام ، اعتبار مخالفى الشريعة كفاراً حتماً ، وأن يعتبر المسلمون أنفسهم كأنهم مخضعون للقوة ؟ لكن الحق أن أولئك الناس كانوا مسلمين يؤمنون بلسانهم وقلوبهم بالله وأنبيائه ورسله ؛ نعم إنهم كانوا يجترحون مخالفات للشريعة تسمى عصيانا وثورة على الدين، لكنهم برغم هذا مؤمنون .

وهذه المشكلة نرى فريقاً كبيراً من المسلمين الورعين قد اكتفى بالاستسلام السلبى

= والكاتب يشير إلى قول المسلمين : ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وما تقرر فى علم الكلام أنه لايقع إلا ماأراد الله . ولكن الإرادة غير الإذن والرضا ؛ فالله لايرضى لعباده الكفر والمعاصى، ولكنه يريدها على ماهو الحق ، على أن هذه المسألة طويلة الذيل فى علم الكلام .

* فكرة المهدى نشأت فى ظروف غير ما ذكر المؤلف ، فقد كانت فى مبدئها دعوة إلى محمد بن الحنفية ، رغبة من الشيعة فى إسناد الأمر إلى بيت على رضى الله عنه ؛ والكلام فى هذا المقام عن الدعوة إلى شخص معين والنداء به مهدياً ؛ أما فكرة المهدى فى آخر الزمان فترجع إلى أحاديث فى الصحاح ، ويرى بعض الباحثين فى الحديث تواترها تواتراً معنوياً . راجع ابن خلدون فى المقدمة، وابن سعد فى الطبقات فى ترجمة محمد ابن الحنفية .

** يقول إن المؤمنين كانوا يرون الأئمة من الأمويين أهلا للإمامة فى الصلاة وغيرها ، وهم (أى الأئمة سكارى) . ولايرى هذا مؤمن قط . نعم فى بعض القصص أن الوليد بن عقبة صلى وهو سكران ، ولكنه لقى من التنكير الشىء الكثير وعزله الخليفة . وفى أقاصيص الوليد بن يزيد نحو هذا ، وكان ذلك أيضاً موضعاً للإنكار ، على أن الظن فى أقاصيص الوليد أنها وضعت عليه ما

وحلّها حلاً أكثر ملاءمة لضرورات الواقع . وهذا الفريق كان يسند النظرية الآتية : كل شيء متوقف على الإيمان ؛ فإذا كان الإيمان قائماً لم يضر العمل ، وإذا كان المرء غير مؤمن لم ينفعه العمل . ولهذا يمكن أن نعتبر الأمويين مسلمين حقيقيين ، وأنهم من أهل القبلة ، وتكون شكوك الورعين لاتستند إذاً إلى أساس متين .

والفرقة التى كانت ستنند على هذا المذهب المتسامح ، كانت تسمى المرجئة[١٦] . ومعنى هذا الذين لايحكمون على مصير الناس فى المستقبل فى الدار الأخرى ، بل يتركون الأمر لله يصدر عليهم حكمه ويقرر ما يراه فى شأنهم[١٧] . وفى علاقاتهم وصلاتهم بهم ، فى هذا العالم الأرضى ، يكفى أن يعتبروهم من طائفة المؤمنين[١٨] .

وعقلية هؤلاء الناس يمكن أن ترتبط برأى معتدل ظهر فى عصر أقدم وهو عصر الحروب الداخلية ؛ نريد عقلية أولئك الذين لم يشتركوا فى النقاش العنيف الذى قام فيما مضى حول مسألة وجوب اعتبار على أو عثمان مؤمناً أو آثماً ، وفى هذه الحالة يكون غير جدير بالخلافة . إنهم لم يشتركوا فى هذا الخلاف ، وتركوا لله أمر الحكم فيه[١٩] .

وبديهى أن هذه الأفكار المعتدلة لم تكن لتتفق وعاطفة أولئك الورعين الذين كانوا لا يرون فى سياسة وصول الأمويين للحكم ، وفى رجالاتهم وعمالهم ، إلا عدم تقوى ، بل كفراً . وكان إدراك المرجئة المتساهل أو المتسامح يتعارض تعارضاً مباشراً مع إدراك أولئك الذين يؤيدون مطالب العلويين ، الذين كان أنصارهم يحلمون بدولة ذات حكم إلهى مؤسسة على الشريعة الإلهية ومحكومة بآل النبى . إذاً ، فقد كان هنالك تناقض تام بين المرجئة وغيرهم من شيعة العلويين[٢٠] .

وهذا التناقض يبدو لنا أشد حدة بظهور حركة ثورية أخرى . ذلك بأن النجاح المطرد الذى ناله الأمويون ، والخلاف أو المعارضة التى تزداد عنفاً بين الطوائف الأخرى المعارضة ، كان — حقاً — فرصة للمرجئة لاتهام مبادئهم ، والتقدم خطوة إلى الأمام فى التعبير عن تلك المبادىء ، والامتناع عن النظر إلى الحكومة كحكومة خارجة ضالة .

وكان مما حملهم على هذا ، أكثر من أى عامل آخر ، أن الخوارج وهم ألد الأعداء السياسيين للنظام القائم — وسنتكلم عنهم فيما بعد (قسم ٥ نبذة ٢) —

كانوا يحدثون اضطرابات فى الدولة ؛ إذ كانوا يعلنون أن الإيمان بوجه عام لا يكفى ، وأن مرتكب الكبيرة لا يعدّ من المؤمنين . فما يكون إذاً مصير الأمويين البؤساء ، الذين كانوا فى رأيهم أشد الخارقين للشريعة(٢١) ؟

وأصل هذا الخلاف ، الذى يرجع عهده إلى بدء الإسلام ، وإن كنا لا نستطيع تحديد تاريخه على وجه التحقيق ، أنهم كانوا يبحثون فى خصوصيات الحالة السياسية ، وفى العلاقة القائمة بين تلك الحالة ومختلف طبقات الشعب الإسلامى . ولم تكن الحاجة العقيدية هى التى دفعت إلى المناقشة فى الدور الذى يجب أن ينسب إلى العمل فى تحديد المسلم(٢٢) .

ثم جاء عصر قلت فيه أهمية حل هذه المسألة للدولة ، وعندئذ أصبحت موضوع مناقشات ذات أهمية علمية نظرية (أكاديمية) ، مع شىء من الارتباط بنقط دقيقة تختص بالعقيدة . ومما أورده المعارضون هنا أنه إذا كانت الأعمال ليست عنصراً ضرورياً فى تعريف الإيمان الحرفى ، فإن أى مرجىء ذكى يستطيع أن يستنتج أنه لا يمكن وصف من يسجد أمام الشمس بالكفر ؛ لأن هذا العمل ومثله علامة على الكفر ، وليس كفراً بذاته(٢٣) .

وهنالك بصفة خاصة مسألة عقيدية عامة لم يكف المسلمون عن بحثها والتدقيق فيها ، وهى أيضاً ناشئة عن أفكار المرجئة ، وهذه المسألة هى : هل يمكن أن نرى فى الإيمان الصحيح درجات مختلفة ؟ إنه لا يمكن بالطبيعة أن يسلم بهذا أولئك الذين لا يعتبرون العمل عنصراً مكوِّناً لصفة المسلم ؛ لأن الأمر ليس أمر كمّ ، ولا يمكن قياس مدى الإيمان بالذراع أو وزنه بالدرهم .

وعلى النقيض من ذلك نرى الذين يرون العمل عنصراً ضرورياً للمسلم الكامل إلى جانب العقيدة يسلمون بإمكان حساب الإيمان وبيان الدرجات له . فضلا عن أن القرآن نفسه يتكلم عن «زيادة الإيمان» سورة آل عمران : ١٦٧ ، سورة الأنفال : ٢ ، سورة التوبة : ١٢٤ الخ ، كما يتكلم أيضاً عن « الهداية » (سورة محمد : ١٧) . فالزيادة أو النقص فى العمل يحدد زيادة أو نقصاً فى مدى الإيمان .

لكن علم الكلام الحرفى فى الإسلام لم يبد رأياً إجماعياً فى هذه المسألة من

الوجهة النظرية . فإلى جانب المتـكلمين الذين لا يقبلون الـكلام فى زيادة الإيمان أو نقصه ، نجد آخرين يتمسكون بهذه الصيغة : « الإيمان عقيدة وعمل ، فهو إذاً يزيد وينقص[٢٤] » . والمسألة تتبع الوجهة التى يضع الإنسان فيها نفسه داخل المذهب الحرفى .

وهكذا ، إلى هذه الدقة ، أدت مناقشة مسألة وُلدت فى بادىء الأمر فى الميدان السياسى[٢٥] .

٣ — لـكن البذرة الأولى الخطيرة حقاً ، ظهرت فى نفس الوقت تقريباً حول مسألة أخرى . إنهم لا يتجادلون حول ما إذا كان هذا أو ذاك من الناس يمـكن أن يعتبر مؤمناً بوجه عام ، بل يتخذون موقفاً واضحاً جلياً ، مع فـكرة عميقة عن الإيمان ، فيما يتعلق بالإيمان الشعبى التقليدى الساذج الخالى من كل تفـكير .

فأول رجّة فى الإيمان الساذج فى الإسلام لم تدخل فى نفس الوقت الذى دخل فيه النظر العلمى ، ولم تـكن نتيجة له ؛ أى أنها ليست نتيجة المذهب العقلى الذى وُلد فى الإسلام . بل يمكن التسليم بأنها نشأت من جراء التعمق فى التصور الدينى ؛ أى نشأت عن التقوى ، لا عن حرية الفـكر .

إن فـكرة الخضوع المطلق لله كانت قد أنتجت أفهاماً غليظة عن الألوهية ؛ فالله حاكم غير محدود الإرادة « لا يُسأل عما يفعل » (سورة الأنبياء : ٢٣) ؛ والناس جميعاً لا إرادة لهم بين يديه ؛ ويجب أن نـكون على يقين من أن إرادته لا يمـكن أن تقاس بالإرادة الإنسانية المحدودة بحدود متنوعة ؛ والقدرة الإنسانية تصبح لا شىء أمام الإرادة الإلهية المطلقة وقدرته التى لا عنان لها ، حتى إن هذه تتسع إلى درجة تحـديد إرادة الإنسان . فالإنسـان لا يستطيع أن يريد شيئاً إلا فى الاتجاه الذى يعينه الله لإرادته ، حتى فى سلوكه الأخلاقى ، فإرادته فى هذه الناحية محددة بالقدر الأزلى .

ولـكن كان يجب على المؤمن [وهذا هو الواقع] أن يتأكد من أن الله لا يظلم الناس شيئاً ، وأن يستبعد هذه الفـكرة عن سلطانه ؛ إذ أن مثل هذه الفـكرة

تجرده حتى من الصورة التى يجب أن يكون عليها الملك من بنى الإنسان ، أى يجب استبعاد أن يكون الله طاغياً أو ظالماً .

وفيما يختص بالثواب والعقاب نرى القرآن يكرر ، وفى تحديد ، أن الله لا يظلم أحداً مثقال ذرة ، أو أن الناس لا يظلمون نقيراً ، وأن الله هو كما يقول عن نفسه : « ولا نُكلفُ نفساً إلا وُسعَها ولَدَينا كِتابٌ ينطقُ بالحقِّ وهُمْ لا يُظْلَمُون » ، (سورة المؤمنون : ٦٢) « وخَلَقَ اللهُ السَّموَاتِ والأرضَ بِالحقِّ ولتُجْزى كلُّ نفسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون » (سورة الجاثية : ٢٢) .

لكن النفس الورعة التقية لها أن تتساءل : هل يمكن أن يتصور المرء ظلماً أفدح من الجزاء على أعمال تتم بإرادة محددة ليست تحت القدرة الإنسانية ! وهل يصح أن يحرم الله الناس من كل حرية واستقلال فى أعمالهم ، وأن يحدد سلوكهم حتى فى أدنى التفاصيل ! وأن يحرم الخاطىء أو الآثم من إمكان فعل الخير ، وأنه كما يقول « ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » (سورة البقرة ٧) وأنه مع هذا كله يعاقبهم إذا ما عصوا ويقذف بهم إلى العذاب الخالد* ! .

* عرض لمسألة الجبر والاختيار ؛ وهى مسألة كان المسلمون الأول فى غنى عنها ، وكانوا على الجادة التى لا عوج فيها ولا انحراف ، وكانوا لا يعنون بهذا التدقيق ، ويقبلون الدين الصافى ويقبلون على شأنهم فى معاشهم ومعادهم ؛ وبذلك اتسع سلطانهم ، وعزت كلمتهم . فلما فكروا فى هذه الأمور عرضت لهم مشا كلها فكانت سبب الخلاف بينهم ! وقد حلها المؤمنون بما هو هدى وحق ، ووفقوا بين النصوص وفهموا الفهم الصحيح ، فالثواب والعقاب منوطان بإرادة الإنسان واختياره ، واختيار الإنسان من البديهيات التى لا ينكرها عاقل . وقد منح الله الإنسان وسائل الفعل وآلاته ، وركب فيه العقل الذى يدبر ويختار مصيره ، وطالبه بإيثار الخير والرغبة عن الشر . والإنسان لا يحس بقاسر ولا مكره له فى هذه الحياة

وقد جاء مع هذا فى الدين — وثبت عقلا — أن أعمال الناس معلومة لله فى الأزل ، وأن إرادة الله تعلقت بما يوجد من هذه الأعمال ، وأن الله يوجدها على أيدى العباد ، وذلك هو القضاء والقدر . ولكن الله أراد للناس أعمالهم على حسب استعدادهم وإرادتهم التى لا يشعرون بأى دافع يدفعهم إليها ، والقدر محجب عن الإنسان ، ولو أن أحداً علم ما قضى الله به عليه ثم فعله امتثالا لكان له الحجة على الله . وبذلك نفهم نحو قوله تعالى فى الكفار : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم غشاوة » ، فإنما هو أن هؤلاء آثروا الكفر اختياراً منهم فأراد الله لهم ما اختاروا ، والكلام فى مثل هذا على التمثيل . وليس بصحيح أن إرادة العبد تحدد بإرادة الله ، فكثيراً ما يريد العبد الشىء ولا يقع ، وذلك دليل على أن الله لم يرده . وليعلم فى هذا المقام أن إرادة الله ليست من صفات التأثير حتى تدفع العبد إلى إرادة الأشياء ؛ وكان حريا بالباحث أن يراجع جيداً قول علماء الكلام فى هذا المبحث .

هكذا كان كثير من أتقياء المسلمين المخلصين لله يرون واجباً أن يتصوروا الله إلهاً مستبداً ، وذلك مبالغة منهم فى الشعور بالخضوع له الذى يرون الكتاب يؤيده فى أكثر من موضع تأييداً قوياً ؛ من الحق أن القرآن يشمل كثيراً مما يقرب لنا قساوة قلب فرعون ، كما يشمل طائفة من الأحكام العامة التى تؤدى ـ بتعابير مختلفة ـ إلى فكرة مؤداها أن الله إذا أراد هداية أحد وسّع صدره للإسلام ، وأنه من يرد أن يُضله يجعل صدره ضيقاً كأنما يريد أن يصّعد فى السماء (سورة الأنعام : ١٢٥) ، [كما نجد فى موضع آخر] « وما كان لِنَفْس أَنْ تمُوت إلاَّ بإذْنِ اللهِ [ويجْعلُ الرِّجْسَ على الذينَ لايَعْقِلُون] » (سورة يونس : ١٠٠) .

وليس فى الإسلام على مارجح مسألة مذهبية يمكن أن نستخلص بشأنها من القرآن تعاليم متناقضة كتلك التى نبحثها الآن .

فالعبارات الجبرية العديدة يمكن أن تعارض بعبارات للنبى تدل على أن الله ليس هو الذى يُضل النفوس ، بل هو الشيطان الرجيم العدو الغرور (سورة الحج : ٤ ، سورة فاطر : ٥ ، سورة فصلت : ٣٦ ، سورة الزخرف ، ٣٧ سورة المجادلة : ١٩) منذ عهد آدم (سورة البقرة : ٣٦ سورة ص : ٨٢ وما يليها) .

أما الذين كانوا يريدون أن يسندوا نظرية أو مذهب حرية الإنسان التامة البعيدة عن تأثير الشيطان الرجيم ، فكانوا كذلك يستطيعون أن يجدوا عدداً كبيراً من الآيات الواضحة التى يمكن أن يؤخذ منها دليل لرأيهم المعارض للجبر . فالحسنات والسيئات التى يأتى بها الإنسان قد سميت « بالكسب » ، فهى لهذا أعمال تمت بحرية كاملة (مثال ذلك سورة آل عمران : ٢٥ وغيرها) « كلاَّ بَلْ رَانْ على قُلوبِهِم مَا كانُوا يَكسِبون » (سورة المطففين : ١٤) .

وحتى عند الكلام عن ختم القلوب لا يوجد مايحول دون القول بأن هؤلاء الذين ختم الله على قلوبهم « اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهم » (سورة محمد : ١٤ ، ١٦) « ولاتتَّبع الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عنْ سبيلِ اللهِ » (سورة ص : ٢٦) إن الله ليس هو الذى يُقسِّى قلوب الآثمين ، ولكن صارت بما أتت من سىء الأعمال قاسية « فهِيَ كالحِجارةِ

أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » (البقرة ٧٤) . والشيطان نفسه يبعد عن نفسه تهمة الإضلال ، لأن الإنسان من نفسه فى ضلال مبين (سورة ق : ٢٧) .

وفى أنباء الأمم الماضية التى قصها القرآن ما يؤكد فكرة الحرية هذه . مثلا ، نجد الله يقول : « وأمّا ثمودُ فهديناهم فاستحبُّوا العمى على الْهُدَى فأَخَذَتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجيّنا الذين آمنوا وكانوا يتقّون » (سورة فصلت : ١٧ و ١٨) . وإذاً ، فاللهُ قد هدى قوم صالح لكنهم لم يتبعوه ، وفعلوا الشر بمحض إرادتهم وانحرفوا عن سُبل الله ، فكان هذا كسبا لهم عن حرية واختيار . فالله يهدى الناس سواء السبيل ، لكن الناس بإرادتهم وحدها منهم من يسير خاضعاً فى هذا الطريق ، ومنهم من يتنكبه بعناد (سورة الإنسان : ٣) .

وفى هذا جاء القرآن : « قلْ كلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ » (سورة الإسراء : ٨٤) ، « وقُل الحقُّ منْ ربِّكم فمنْ شاءَ فليؤْمنْ ومنْ شاءَ فليكفُرْ » (سورة الكهف ٢٩) « إن هذه تذكِرةٌ فمَن شاءَ اتخذ إلى ربهِ سبيلا » (سورة الإنسان : ٢٩) .

والحق أن الله لا يسدّ الطريق على العصاة ، بل إنه ليعطيهم القوة والقدرة على فعل الشرّ ، كما يعطى الصالحين القدرة على فعل الخير : « فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسرَى » « فَسَنُيَسِّرُهُ للعُسْرَى » (سورة الليل : ٧ ، ١٠) .

وأريد أن أهتبل هذه الفرصة السانحة لى هنا لإبداء ملاحظة لها خطورتها فيما يتعلق بفهم مسألة حرية الاختيار فى القرآن . فهناك جزء كبير من أقوال يزعمون عادة أنهم يأخذون منها أن الله هو الذى يقدّر على المرء أن يكون مذنباً ضالاً ، ولكنها تبدو على شكل مختلف تماماً إذا تعمقنا فى فهم المعنى الذى يُراد أو يؤدى عادة بكلمة : « أضل » .

إذا كان فى القرآن آيات عديدة [تعرضت للضلال وأضل وما يتصل بذلك] ، ومنها : « فإنَّ اللهَ يُضلُّ مَنْ يَشاءُ ويَهْدِى مَنْ يَشاءُ » فهذه الأحكام لا تعنى أن الله يضع أهل الضلال فى طريق السوء والشر مباشرة ؛ لأن معنى كلمة « أضلّ » لا يمكن أن يكون « جعْل الإنسان يضل ، بل تركه يضل » ، أى عدم الاكتراث به والاهتمام بأمره ، كما قال : «ونَذَرُهمْ فى طُغْيانِهم يَعْمَهون » (سورة الأنعام : ١١٠) .

ويمكننا أن نتصور حالة سائح وحيد فى الصحراء ، وهى الفكرة التى نشأت عنها طريقة تعبير القرآن عن الهدى والضلال ؛ فالسائح يضل فى فراغ لا حدود له ولا آخر يعرفه ، وهو ينشد الطريق السوى للوصول إلى مقصده ، وكذلك الإنسان فى رحلة الحياة .

أما الذى يكون حريًّا برحمة الله ، بفضل إيمانه وعمله ، فإن الله يكافئه بالهداية . وبالعكس ، هو يحرم الشخص الأثيم السيء العمل من رحمته ، ولا يمد له اليد التى تقوده ، وإن كان على كل حال لم يضعه فى الطريق السيء بمعنى الكلمة الصحيح .

ومثل هذا كان استعمال صورة العمى والتخبط فى الكلام عن الآثمين ؛ فهم لا يرون ، وعليهم أيضاً أن يسيروا ولا مقصد لهم ولا هدى يهتدون به ؛ وبما أنهم لا مرشد لهم ، فهم يسرعون حتماً إلى الضلال : « قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا » (سورة الأنعام : ١٠٤) . على أن الضال لماذا لم يفد من النور الذى قدّم له ! « إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » (سورة الزمر : ٤١) .

فترك الإنسان لنفسه ومنع الرحمة الإلهية منه ، هى الفكرة السائدة فى القرآن بشأن الذين يصيرون غير جديرين برحمته بسبب ما كان لهم من سلوك وعمل . وإذا قال الله إنه نسى الكفرة لأنهم نسوه (سورة الأعراف: ٥١ ، سورة التوبة ٦٧ ، سورة الجاثية : ٣٤) ، فإنه يكون قد جاء بالنتيجة لهذه الفكرة [التى تعتبر مقدمة وسبباً لها] .

إن الله ينسى الآثمين ، أى إنه لا يفكر فى أمرهم وأمر نجاتهم وهدايتهم ؛ لأن الهداية هى المكافأة التى يتفضل بها على الصالحين ، «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (سورة التوبة : ١٠٩) ، أى يتركهم يضلون دون مقصد أو إرشاد . فالكفر إذاً ، ليس عاقبة الضلال ونتيجته ، بل هو سببه [*] (سورة محمد : ٨ . وانظر بصفة خاصة سورة الصف : ٥) .

---

[*] يذكر أن الكفر ليس عاقبة الضلال ونتيجته ، بل هو سببه ، ويجعل ذلك مأخوذاً من آيات القرآن . والضلال ضد الاهتداء ، والإضلال ضد الهداية ، والمعقول أن من هداه الله اهتدى وآمن ، ومن أضله ضل وكفر ، فالضلال سبب الكفر . والمثل الذى ساقه ، وهو تشبيه المكلف بالسالك فى الصحراء مثل صحيح ، فمن سار على الجادة نجا ، ومن ضل فى ثنيات الطريق هلك ، وهو يقضى بأن الضلال سبب لسلوك الوعر والوقوع فى المكروه ، ويقابله هنا الكفر والآثام .

نعم ! جاء فى القرآن : « ومَن يُضْلِل اللهُ فما لَهُ منْ سَبِيل » (سورة الشورى : ٤٦) ، ومنْ يُضْلِل اللهُ فما لهُ منْ هادٍ » (سورة غافر : ٣٣) ، وهؤلاء هم الخاسرون (سورة الأعراف : ١٧٨) .

ولـكن العقاب فى كل ما تقدم هو الحرمان من فضل الهداية ، لا التوجيه فى اتجاه سيئ يكون سبباً للـكفر ، وهذا ما أدركه وشعر به المسلمون القدماء الذين كانوا أقرب للأفهام الأولى .

لقد جاء فى الحديث أن : من ترك تهاوناً ثلاثة اجتماعات من أيام الجمعة ختم الله على قلبه[٢٦] ، ومعنى « ختم قلبه » إيجاده فى حالة تجعله يسقط من جراء إهماله واجباته الدينية . وهناك دعاء قديم مأثور ، علّمه النبي إلى الحصين ، وهو حديث عهد بالإسلام ، جاء فيه : اللهم علِّمنى هدايتى واحفظنى من شر نفسى »[٢٧] ؛ أى لا تتركنى لنفسى ، ومُدّ لى يداً لهدايتى .

أى ليس الأمر هداية ضال ، بل الأمر على النقيض من ذلك ؛ فإن الشعور بأنّ الله تركه لنفسه هو أشد عقاب إلهى ، قد اتخذ صيغة إسلامية قديمة يقسم بها ، فقد جاء : « إنه برىء من حول الله وقوته ، ودخل فى حول نفسه وقوّته ، إن كان كذا وكذا »[٢٨] ؛ أى ينفض يده منى ، فأضطر للبحث عن طريق للخروج من الضيق دون هدايته ومساعدته ، [وهيهات] هذا هو المعنى الذى يجب أن يُفهم من عبارة أن الله يترك الأئمة يضلون ، لـكنه لا يُضلهم[٢٩] .

لقد أمكن لنا أن نثبت أن القرآن يمكن أن يتخذ سنداً لأشد وجهات النظر تعارضاً فى مسألة من أهم المسائل الأساسية فى الأخلاق الدينية . وكان من حسن الحظ أن الأستاذ « هوبرت جريمه Hubert Grimme » ، الذى تعمق كثيراً — فى جدّ — فى تحليل علم الـكلام القرآنى ، قد وجد إيضاحاً منيراً يمكن أن يخرجنا من هذه الحيرة والتيه . لقد رأى أن المذاهب المتعارضة والمتضادة التى عرضها محمد فى مسألة حرية الإرادة والقدرة ، ترجع إلى أزمان مختلفة من نشـاطه النبوى ، وتتفق والتأثيرات التى أوحتها إليه الظروف والأحوال المختلفة فى كل فترة من الفترات .

ففى الأزمان الأولى للعصر المكى كان يقبل تماماً حرية الاختيار والمسئولية ، ولكن فى المدينة أخذ يتوغل شيئاً فشيئاً فى مذهب الجبر * ، والتعاليم الأكثر جبرية ترجع إلى الفترة الأخيرة (٣٠).

وقد يكون هذا على كل حال ، إذا فرضنا أن « la chronologie » قام بطريقة مؤكدة وكاملة ، دليلاً هادياً للقادرين على الملاحظة التاريخية . غير أن هذا مالا يمكن أن ننتظره من المسلمين القدامى ؛ هؤلاء المسلمون الذين يرون أنفسهم مرتبكين حيارى بين هذه المذاهب المتعارضة ، فينحازون إلى هذا المذهب أو ذاك ، ويرون من الواجب أن يعملوا على اتفاق ما اختاروه وأكثر المذاهب تعارضاً ، وذلك ليصلوا إلى اتفاق الجميع وانسجامهم .

إلا أن عاطفة أو شعور التبعية وعدم الاستقلال ، الذى يسود فى كل ميادين الوجدان الإسلامى ، كان بلا ريب فى صالح انتصار مذهب نفى حرية الإرادة والاختيار . وكان من ذلك أن كانوا يرون أن الفضيلة والرذيلة ، والثواب والعقاب ، تتعلق تعلقاً مطلقاً برحمة الله ، وإرادة الإنسان ليس لها تقدير أو اعتبار فى هذه الناحية .

ولكن من وقت مبكر جداً (نحن يمكننا أن نتتبع الحركة حتى نهاية القرن السابع تقريباً) نرى أن هذا الفهم أو التصور لقدر الله قد أزعج النفوس التقية ، التى كانت لا تستطيع أن ترتاح إلى الإله المطلق السلطان الذى تتضمنه الفكرة الشعبية السائدة . وقد ساهمت التأثيرات الخارجية أيضاً فى هذه الوساوس التقية ، وفى تأييدها وتثبيتها شيئاً فشيئاً .

أما أقدم احتجاج على القدر الأزلى المطلق ، فقد أتى من الإسلام فى سوريا ، وقد عُلِّل ظهوره أحسن تعليل حسب ما يراه « كريمر Kremer » (٣١) ، بأن العلماء المسلمين القدامى تلقوا من علماء الكلام أو اللاهوت المسيحيين ما حملهم على الشك فى القدر الأزلى المطلق .

---

* يذكر أن النصوص فى حرية الإرادة كانت فى العصر المكى ، وضدها كان فى العصر المدنى . وهذا جرى وراء الظن والوهم على عادة هؤلاء ، وفى آخر سورة الدهر المكية : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » وهذه متمسك لأهل الجبر .

وذلك أنه بالتدقيق كان الجدل والمشاحة فى هذه النقطة من المذهب [من علم الكلام أو اللاهوت] يشغل عقول اللاهوتيين فى الكنيسة الشرقية ، فدمشق ، المركز العقلى للإسلام فى عصر الخلافة الأموية ، كانت فى الوقت نفسه مركز التفكير النظرى فى القدر ، وفى المذهب الجبرى أيضاً ، ومن هناك انتشر هذا التفكير سريعاً فى ميدان أكثر اتساعاً .

إن هذه الأفكار التقية قد أدت بالعلماء إلى الاعتقاد بأن الإنسان ، فى نشاطه الشرعى والأخلاقى ، لايمكن أن يكون عبداً لقدر لايتغير : بل الأولى به أن يخلق بنفسه أفعاله ، ليكون هو نفسه علة خلاصه وسلامه أو شقائه وهلاكه .

وهكذا ، عُرفت فيما بعد نظرية هذا الفريق بنظرية خلق الأفعال ، كما — من باب تسمية الضد بضده — وصف هذا الفريق بالقدرية لأنهم يضيِّقون القدر ، بينما وصفوا خصومهم « أنصار الإكراه الأعمى » أى الجبر ، بالجبرية . وهذا كان أقدم افتراق أو خلاف عقيدى فى صدر الإسلام القديم .

وإذا كان القرآن يمكن أن يمدّنا بحجج للفرقتين أو الطائفتين ، فإن رواية أسطورية كانت قد نمت فى الإسلام ، كنوع من تفسير التوراة ، من زمن سابق جداً أو فى أثناء هذه المناقشات — لأنه لا أحد يستطيع أن يجىء فى هذا بتواريخ دقيقة — تعتبر مناسبة للذين يذهبون مذهب تحديد الأفعال وتعيينها أزلا .

وبحسب هذه الرواية يكون الله قد أخرج ، فور خلق آدم ، من جوهره الجثمانى الجسيم الضخم جميع ذريته فى صورة مجموعات صغيرة من النمل ، ويكون من هذه اللحظة قد عين طوائف الناجين والهالكين ، هذه الطوائف التى جعلها تستقر فى الناحية اليمنى والناحية اليسرى من جسم أول مخلوق وكل جنين من هذه الذرية له إذاً قدره الحيوى ، يكتب بوساطة ملك خاص يعين لهذا العمل « منقوش على الجبهة » (وهى فكرة مأخوذة عن الهند[٣٢]) ؛ أى قُدّر له ما يكون من السلامة أو الهلاك ، كما قدر له ما سيكون منه وله من الأمور الأخرى .

وهكذا ، نرى أيضاً هذه الرواية المتعلقة بعلم الآخرة تصدر منطقياً من

تصورات أو أفهام قدرية . فالله يرسل — كما يريد — المذنبين الآثمين الساكين إلى النار ولا يبالى ، (ويجعل آخرين للجنة ولا يبالى) ، وإن كان حق الشفاعة وحده المعترف به للأنبياء يتمثل هنا كعنصر مخفِّف (لهذا القدر المطلق) .

وكان التمثيل أو التمثيلات représentations التى تعتبر أساساً لهذه الأفهام أو الإدراكات (الخاصة بالله وقدرته وإرادته المطلقة الشاملة) ، متأصلة تأصلا عميقاً (فى نفس الشعب وعقليته) ، إلى حد لايسمح للمذهب القدرى المعارض ، الذى يؤكد حرية الاختيار والمسئولية الواسعة ، أن يجد جماعة كبيرة من الأنصار ، لهذا كان من الواجب أن يدافع القدرية عن أنفسهم بشدة ضد خصومهم الذين كانوا يهاجمونهم ، هؤلاء الخصوم الذين يستغلون فى صالحهم الشرح القديم المألوف للنصوص المقدسة والأساطير الشعبية التى تعزى إلى عهد بعيد .

والحركة القدرية [مع هذا كانت واستمرت] ذات أهمية كبيرة فى تاريخ الإسلام بسبب أنها الخطوة الأولى والعمل الأقدم فى سبيل التحرر من الأفهام التقليدية السائدة ، هذه الخطوة كانت حقاً حادثاً فى الناحية التى تتطلبها التقوى ، لا فى ناحية التفكير الحر .

إنه من فم القدرية لم نسمع صوت احتجاج العقل ضد العقيدة الجامدة ، ولكن ارتفع صوت الضمير أو الشعور الدينى ضد تمثيل أو تصور غير جدير بالكائن الإلهى فى ذاته وفى علاقاته بالاستحثاث الدينى لعباده .

أما بأى تعارض اصطدمت هذه النزعات ، وبأية عاطفة ليس فيها من الميل لها إلا القليل ، استُقبل رأى القدرية ، فهذا الذى يشهد به أيضاً مجموعة من الأقوال المتواترة التى وضعت لخفض هذا الرأى أو تلك النزعات .

وكما فى حالات أخرى جعلوا النبى نفسه يعبر عن العاطفة العامة الحزبية أو النصية المعارضة لطائفة القدرية .

إنهم مجوس الطائفة الإسلامية ، لأنه ، كما أن أتباع زرادشت يعارضون خالق الخير بمبدأ ثان هو علة الشر ، كذلك هم يخرجون أعمال الإنسان السيئة من دائرة le domaine خلق الله : إنه ليس الله هو الذى خلق المعصية ، بل إرادة الإنسان المستقلة . لهذا ، قد حُكم بواسطة محمد وعلىّ على جهود القدرية لتبرير رسالتهم بطريق الجدل والمناظرة ، وتجرعوا من ذلك كل مسبة وسخرية (٣٢)

ولكن ثمة ظهرت أيضاً هنا ظاهرة تستحق أن تكون ملحوظة . فخلفاء دمشق أنفسهم ، وهم قوم لايظهرون للمسائل الاعتقادية تذوقاً إلا قليلا جداً ، وجدوا من المضايقات هذه الحركة القدرية التى انتشرت بين مسلمى الشام ، فاتخذوا أحيانا موقفا شديداً إزاء أنصار حرية الإرادة (٣٣)

وهذه الكراهة لمذهب القدرية ، التى ظهرت مراراً فى الأوساط التى كان إليها إدارة الدولة ، ليس سببها الوحيد القوى ما يجدون من الضيق من المناقشات الكلامية المنيفة بين الرجال الذين يشغلهم أكبر عمل ، وهو إقامة الدولة الناشئة

إن الرجال الذين ينفقون جهودهم فى الإنشاءات الواسعة السياسية ، والذين عليهم أن يقاتلوا أعداء أسرتهم المالكة عن يمين وعن شمال ، ليجدون حقا أن من المؤلم أن يروا الجمهور مهتاجاً لهذه المناقشات الدقيقة فى حرية الإرادة والجبر المستبد المطلق .

كما أن الشخصيات صاحبة الرأى والسلطان ، لم تجد فى العادة أى لذة أو سرور فى أن يفكر الجمهور تفكيراً عقلياً . ولكن كان يوجد مع ذلك كله ، باعث أكثر عمقاً جعل الأمويين يلمحون فى ترك عقيدة الجبر خطراً ، ليس على الإيمان ، بل على سياستهم الخاصة .

إنهم كانوا يعلمون تماماً أن أسرتهم أو (دولتهم) كانت غير محتملة من الزهاد ، أى من هؤلاء الذين يملكون قلوب العامة بسبب طهارة قلوبهم . وأنهم لم يكونوا يجهلون أنهم فى رأى كثير من رعاياهم مختلسون وصلوا إلى السلطان بوسائل قهرية شديدة ، وأعداء لآل النبى ، وقتلة لأشخاص مقدسين ، ومنتهكون للأماكن المقدسة الطاهرة

إذاً ، لو أن عقيدة عملت تماماً لإمساك الأمة بالعنان وصرفها عن الثورة عليهم وعلى ممثليهم ، لكانت عقيدة الجبر . هذه العقيدة التى ترى (أو توحى إلى الناس) أن الله قد حكم أزلا أن تصل هذه الأسرة إلى الحكم ، وأن ما يعملون ليس إلا أثراً أو نتيجة لقدر إلهى محكم

من أجل ذلك كان حسناً جداً لهم ولديهم أن تتأصل هذه الأفكار فى الشعب ، حتى كانوا يسمعون راضين شعراءهم يمجدونهم بنعوت تجعل سيادتهم وسلطانهم قدراً مقدوراً من

الله أو لقضاء أزلى لا محيد عنه ؛ ومن أجل ذلك كان لا يمكن أن يثور المؤمن ضدهم ، وكان شعراء الأمويين يعظمون أمراءهم كخلفاء « كانت سيادتهم مرسومة مقدماً فى قضاء الله الأزلى[٣٤] .

وكما أن هـــذه الفــكرة أو هذا المذهب استخدم لتبرير الأسرة الأموية على العموم ، قد استخدم أيضاً بطيبة خاطر ورضا فى تهدئة الشعب حينما كان يُبتلى أو يُغرى بأن يرى فى أعمال الحـكام أو العمال الظلم والطغيان ؛ فعقلية الرعية الهادئة المطيعة يجب أن تعتبر « أمير المؤمنين وما يجىء عنه من آلام قدراً من الله ، فليس يمكن لأحد أن يتهم مايصدر عنه أو يشــكومنه[٣٥] » . وهذه الـكلمات مقتبسة من قصيدة نظمها صاحبها على أثر قسوة كانت من أمير أموى ، وكان لها صدى وأثر .

إذاً ، كان يجب أن تتأصل العقيدة بأن كل ما اقترفه الخلفاء والأمراء كان يجب أن يحصل ، وأنه قُدِّر أزلا من الله ، وأنه ليس فى مقدور أية إرادة إنسانية تجنبه . وفى الزراية بهذا يقول قدرى : إن الملوك يسفــكون دماء المسلمين ، ويأخذون الأموال ، ويفعلون ، ويقولون إنما تجرى أعمالنا على قدر الله *[٣٦] :

وحينما كان من عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموى الذى اضطلع بكفاح مؤلم لتقوية سلطانه ، أن اجتذب إلى قصره أحد نظرائه وخصومه وذبحه باستحسان صاحب مشورته ، أمر برمى رأسه إلى جمهور المخلصين له الذين كانوا ينتظرون أمام القصر عودته ، كما أمر بإعلامهم أن « أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ ... » .

هكذا رؤى هذا الحادث الجلل ؛ وكان من الطبيعى ألا يرى أحـــد أن يثور ضد القضاء الإلهى الذى لم يكن الخليفة إلا أداته ، فشمل السكون الجميع وأقسموا يمين الطاعة والإخلاص لقاتل من كانوا مخلصين له بالأمس . وهذه القصة إن لم تــكن من التاريخ الصحيح قطعاً ، فإنها يمكن مع هذا أن تعتبر شاهداً على الصلة التى كانت توجد بين أعمال الحـكومة والقدر الذى لا يمكن تجنبه .

---

* الأصل هذا : فــكان عطاء بن يسار قاصاً ويرى القدر ، وكان لسانه يلحن ، فكان يأتى الحسن هو ومعبد الجهنى فيسألانه ويقولان يا أبا سعيد « إن هؤلاء الملوك ... على قدر الله » . فقال كذب أعداء الله .

على أنه لا يمكننى أن أكتم أن اللجوء إلى قضاء الله وحكمه فى هذه المسألة ، كان حقا مصحوباً بقدر كثير من الدراهم ألقى للجمهور مع رأس عمرو بن سعيد ، فكان لها وقع خفف من بشاعة الحادثة* (٣٧) .

فالحركة القدرية فى عصر الدولة الأموية كانت إذاً المرحلة الأولى فى طريق زلزلة المذهب السنى فى العالم الإسلامى ، ومن ثم قيمتها التاريخية وإن لم تكن مرادة لذاتها وأهمية هذه الحركة تبرر المكان الكبير الذى خصصناه لها فى نطاق هذا العرض .

لكن هذه الثغرة فى العقائد الساذجة الشعبية المنتشرة فى كل مكان ، كان من الواجب أن تتسع بسبب نزعات بسطت نقد الصور والأشكال المعتادة للعقيدة فى الحد الذى صار فيه الأفق العقلى أكثر اتساعا .

٥ — وفى هذه الفترة من الزمن كانت الفلسفة الأرسطية قد كشفت للعالم الإسلامى ، وأحس عدد كبير من الناس المثقفين بأثرها حتى فى أفكارهم الدينية . وكان من هذا خطر كبير على الإسلام ، برغم كل ما عملوه من جهود للتوفيق بين التقاليد الفكرية الدينية والحقائق الفلسفية التى كسبوها حديثاً .

ففى بعض النقاط ظهر أنه من المستحيل أن نرسى مَعْبراً بين أرسطو ، حتى فى ثوبه الجديد الأفلاطونى الحديث، وبين مسلّمات العقيدة الإسلامية . إنهم رأوا أن الاعتقاد

---

* الحادثة هى أنه لما قتل عبد الملك عمراً بن سعيد وأدرجه فى بساط ثم أدخله تحت السرير دخل عليه قبيصة بن ذؤيب الخزاعى ، وكان أحد الفقهاء ورضيع عبد الملك بن مروان وصاحب خاتمه ومشورته ، فقال له عبد الملك : كيف رأيك فى عمرو بن سعيد ، فأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير ، فقال : اضرب عنقه يا أمير المؤمنين ، فقال له عبد الملك : جزاك الله خيراً فما علمتك إلا ناصحاً أميناً موافقاً ، قال له : فما ترى فى هؤلاء الذين أحدقوا بنا (يريد أربعة آلاف من رجال عمرو بن سعيد أحضرهم معه لما استدعاه عبد الملك لزيارته متسلحين فأحدقوا بخضراء دمشق وفيها عبد الملك بن مروان) وأحاطوا بقصرنا ؟ قال قبيصة : اطرح رأسه إليهم يا أمير المؤمنين ثم اطرح عليهم الدنانير والدراهم يتشاغلون بها ، قال : فأمر عبد الملك برأس عمرو أن تطرح إليهم من أعلى القصر ، فطرحت إليهم وطرحت الدنانير ونثرت الدراهم ، ثم هتف عليهم الهاتف ينادى : « إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ » . وكان على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه أن يحمل راجلكم ويكسو عاريكم ويغنى فقيركم فيبلغكم إلى أكمل ما يكون من العطاء والرزق ويبلغكم إلى المائتين فى الديوان ، فاعترضوا على ديوانكم واقبلوا أمره واسكنوا إلى عهده يسلم لكم دينكم ودنياكم ، قال فصاحوا : نعم نعم سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين .

بحدوث العالم فى الزمان ، والعناية الإلهية بالعالم فى جزئياته الشخصية ، والمعجزات لا يمكن أن تتفق وأرسطوطاليس .

ولـكن مذهباً جديداً قُدِّر له أن يكون أداة فى المحافظة على الاسـلام وتقاليده الفـكرية فى عالم العقول المستنيرة ، وهذا المذهب أو النظام هو ما عرف فى تاريخ الفلسفة باسم « علم الـكلام » ، كما عرف رجاله باسم « المتـكلمون » .

وفى أول الأمر كان اسم « المتـكلمون » يدل على من يجعل من مسألة مختلف فيها ، من مسائل الاعتقاد أو العقيدة ، موضوع برهنة جدلية ، مجتلباً براهين نظرية لسند القضية التى يعرضها . كلمة « متكلمون » ترجع فى الأصل إذاً إلى المسألة الخاصة التى يكون عليها التدريب على التفـكير النظرى اللاهوتى ؛ فيقال مثلا هذا من المتـكلمين فى الإرجاء ، أى من هؤلاء الذين يعالجون المسألة التى أثارها المرجئة[٣٨] .

وسريعاً أخذ الاصطلاح يتسع ويستعمل للدلالة على « هؤلاء الذين يعملون من القضايا المأخوذة ، بسبب الدين ، كمبادىء لا تقبل المناقشة ، موضوع برهنة ؛ فيتكلمون فى تلك القضايا أو المبادىء ويعالجونها ثم ينتهون بتركيز هذه المبادىء فى صيغ يرون من الواجب أن تـكون مقبولة حتى من الأدمغة المفـكرة » . هذا النشاط الفـكرى الذى وُجِّه هذا التوجيه [وسار فى هذه الناحية الدينية] ، أخذ اسم «علم الـكلام » .

ولما كان القصد من هذا العلم أن يستخدم سنداً للمذاهب الدينية ، فقد قام على فروض ضد الفروض الأرسطية ، وكان فى المعنى الحق للـكلمة فلسفة الدين ، وأقدم أنصاره هم الذين عُرفوا باسم « المعتزلة » .

والـكلمة معناها الذين يعتزلون . ولن أكرر الحـكاية أو الأسطورة التى يقصّونها عادة لتفسير هذا اللقب أو هذه التسمية ، وأحب أن أقبل — كتفسير حقيقى — أن تـكون بذرة هذا الحزب ولدت أيضاً من نزعات ورعة :

إنه كان من هؤلاء الجماعة الأتقياء الورعين ، المعتزلة ، أى الزهاد الذين يعتزلون الناس[٣٩] أولئك الذين دفعوا هذه الحركة أولا إلى الأمام ؛ هذه الحركة التى جمعت

الأوساط العقلية ، والتى دخلت لهذا فى تعارض - كان يزيد ويتضح شيئاً فشيئاً - مع الآراء الدينية السائدة حينذاك .

وإنه فى نهاية تطور هذه الحركة فقط أن استحق أنصارها اسم « المفكرون الأحرار فى الإسلام » ، هذا الاسم الذى يعرضهم تحته الأستاذ الزيوريخى « هنْريش شْتَيْنَر Zurichois Heinrich Steiner » ، الذى كتب قبل غيره (١٨٦٥ م) دراسة تاريخية خاصة monographie عن هذه المدرسة[٤٠] .

هذا ، ولظهور المعتزلة أسباب وبواعث دينية ، كتلك التى أدت إلى ظهور أسلافهم القدرية . وبدايات هذا المذهب الاعتزالى تدلنا على الأقل على نزعة التحرر من القيود الثقيلة المتعبة ، وعلى القضاء على الفهم السنى الصارم للحياة . على أن بحثهم مسألة صاحب الكبيرة ، وأنه يعتبر كافراً كمن لم يؤمن - على الضد من رأى المرجئة - ويحكم عليه لهذا بالهلاك الأبدى * ؛ بحث هذه المسألة ومسائل أخرى ، لا يظهر أنه كان على أثر دفعة من الفكر العقلى الحر ، ولكنهم قد أدخلوا كذلك فى العقائد فكرة المنزلة بين المنزلتين ، أى منزلة الإيمان ومنزلة الكفر ، وذلك دقة عجيبة لا تتبينها إلا العقول الفلسفية .

والرجل الذى يجعله تاريخ العقائد فى الإسلام مؤسس المذهب الاعتزالى ، وهو واصل بن عطاء ، جعلته السير زاهداً من الزهاد أمكن أن يقال فى رثائه : « إنه لم يقبض فى حياته ديناراً أو درهماً »[٤١] . وكذلك وصف رفيقه عمرو ابن عُبيد بأنه زاهد ؛ لقد كان يمضى ليالى فى الصلاة ، وحج مكة أربعين حجة ماشياً ، وكان يظهر دائماً كاسف البال حزيناً مهموماً « كمن عاد من دفن نفر من أقربائه » .

وقد وصلنا من آثاره عظة ورعة زهدية موجهة إلى الخليفة المنصور ؛ وهى وإن كان من الواجب أن نقر بأنها محكمة ، لا نرى فيها ما يدلنا على نزعة للمذهب العقلى[٤٢] . ولو أننا نفحص بالتفصيل طبقات المعتزلة ، نجد أنه ، حتى فى العصور التى هى أحدث من غيرها[٤٣] ، تأخذ حياة الزهد مكاناً فائقاً له خطره بين ما يفتخر به المعتزلة من خلال عظيمة ماجدة .

---

* يذكر عن المعتزلة أنهم يعدون مرتكب الكبيرة كافراً كمن لا يؤمن ، وهم يعدونه فى منزلة بين المنزلتين كما هو معروف .

ومع هذا ، فإنه يوجد بين المقاصد الدينية التى أعلت مذهبهم (التلطيف لمذهب الجبر الأكبر لصالح فكرة العدل) ، بعض بذور المعارضة للمذهب السنى الحرفى المألوف حينذاك ، بعض العناصر التى يمكن أن تؤدى بسهولة لأن يعتنقها الزنديق غير المؤمن .

وكان بعد ذلك أن صبغ اتصال المعتزلة بعلم الكلام أفكارهم بطابع عقلى ، ودفعهم هذا شيئاً فشيئاً إلى أن تظهر منهم ميول عقلية انتهت بهم أخيراً إلى معارضة واضحة للمذهب السنى المعروف .

وسيكون من الواجب علينا فى حكمنا الأخير على المعتزلة أن نثقل عليهم بكثير من السمات البغيضة ، ومع هذا فقد بقى لهم فضل غير منقوص . لقد كانوا الأوائل الذين وسعوا معين المعرفة الدينية ، بأن أدخلوا فيها عنصراً آخر قيّماً وهو العقل الذى كان ، حتى ذلك الحين ، مُبعداً بشدة عن هذه الناحية * .

وقد ذهبت بعض رجالاتهم وممثليهم الأكثر شهرة إلى القول بأن « الشرط الأول للمعرفة هو الشك »[٤٤] ، وأن « خمسين شكا خير من يقين واحد »[٤٥] ، وهكذا . ومن الممكن أن ننسب إليهم هذه الفكرة التى ترى ، حسب مذهبهم ، أنه يوجد حاسة سادسة غير الحواس الخمس ، وهى المعروفة بالعقل[٤٦] .

إنهم رفعوا العقل إلى مرتبة القياس والدليل فى أمر العقيدة والإيمان ؛ وإن واحداً من قدامى ممثليهم ، وهو بشر بن المعتمر من بغداد ، مدح العقل مدحاً كبيراً فى قصيدة تعليمية فى التاريخ الطبيعى حفظها الجاحظ (فى بعض مؤلفاته) وفسرها ، إذ يقول :

لله در العقـــل من رائد	وصاحب فى العسر واليسر
وحاكم يقضى عـــلى غائب	قضـــية الشاهد للأمر
وإن شيئاً بعض أفعاله	أن يفصل الخير من الشر
لذو قوًى قد خصه ربه	بخالص التقديس والطهر[٤٧]

---

* ذكر أن العقل لم يكن له سلطان فى الدين قبل المعتزلة . والقرآن مشحون بتنبيه الناس على التعقل والتفكر . وكان الفكر قبل المعتزلة سديداً مستقيما فصار معقداً كثيراً .

وبعض من بينهم ، الذين دفعوا المذهب الشكى إلى الغاية القصوى ، وضعوا تجربة الحواس فى الصف الأخير من أدلة المعرفة[48] . وعلى كل حال ، لقد كانوا أول من حفظ حقوق العقل فى علم الـكلام الإسلامى ، ولـكنهم حينئذ ابتعدوا أصلا عن مبدأ سيرهم . ففى أوج نموهم عرفوا بنقد لا يرحم ، لعناصر الاعتقاد الشعبى ، التى كانت تعتبر منذ زمن طويل جزءاً جوهرياً مكملا للإيمان السنى أو الحرفى .

إنهم كانوا يعارضون استحالة البلوغ إلى الـكمال الأدبى لأسلوب القرآن ، وصحة الحديث ـ بصفة قاطعة ـ الذى يتركز فيه أسانيد هذا الاعتقاد الشعبى . وكان إنـكارهم يقصد على الأخص إلى العناصر الأسطورية المتعلقة بالدار الآخرة .

لقد أنـكروا الصراط ، الذى يجب أن نمر عليه أو نجتازه قبل الدخول فيما وراء هذه الدار ، والذى هو فى دقة الشعرة وحدة السيف ، والذى يمر عليه الأخيار إلى الجنة فى سرعة البرق ، بينما من قدر عليهم أزلا الهلاك الأبدى يترنحون فى مشيهم ويسرعون إلى أسفل فى الهاوية ؛ والميزان الذى به توزن أعمال الناس ؛ هذا وذاك ؛ وعقائد أو أفهام وتصورات أخرى من هذا الضرب ، قد أنـكروها واستبعدوها من أساس الاعتقاد الضرورى ، وفسروها تفسيراً رمزيا مجازيا .

وكانت وجهة النظر التى غلبت عليهم وقادتهم فى فلسفتهم الخاصة بالدين ، هى تنقية فـكرة التوحيد من كل لبس وإظلام وتشويه فى الاعتقاد الشعبى المأثور ، وهذا على الأخص فى ناحيتين : الأخلاق وما بعد الطبيعة .

لقد رأوا واجبا عليهم أن يبعدوا عن « الله » كل الأفهام أو التصورات التى تنافى الاعتقاد بعدله ، وأن يطهروا فـكرة الله من كل الأفهام التى قد تفسد بطبيعتها وحدته وتفرده وعدم تغيره المطلق . وفضلا عن ذلك ؛ فهم يتمكسون فى ثبات وقوة بفـكرة الله الخالق ، العامل ، المعنىّ بالعالم ، ويحتجون على الأفهام الأرسطية فى فـكرة الله.

إن المذهب الأرسطى ، فى أزلية العالم والاعتراف بعدم خرق القوانين الطبيعية وإنـكار العناية الإلهية التى تشمل الأشخاص ، كان سداً يفصل بين المتـكلمين العقليين فى الإسلام وبين تلاميذ الاستاجيرى ، برغم ما كان للمتـكلمين هؤلاء من حرية فى التفـكير .

وقد كان عدم كفاية حججهم وأدلتهم التى يستندون إليها سبباً فى سخرية الفلاسفة بهم ونقدهم لهم نقداً كله هزؤ وازدراء . هؤلاء الفلاسفة الذين استكبروا عن أن يعترفوا بهم خصوماً أنداداً لهم ، وأن يعترفوا بطريقتهم كطريقة جديرة بالبحث والتمحيص (٤٩)

لقد كان من الممكن أن يعترض بحق على منهجهم فى البحث بأن فقدان الأوهام والاستقلال الفلسفى كانا غريبين مطلقا لديهم ؛ ذلك بأنهم كانوا خاضعين لدين محدد تماما ، فكان همهم أن يعملوا فقط على تنقيته وتطهيره مما لصق به بوسائل أو طرق عقلية .

وعمل التنقية هذا ، كما أظهرناه ، كان متوجهاً بصفة خاصة إلى مسألتين : العدل ، والتوحيد . لذلك نرى كل كتاب من كتب المعتزلة يقوم على جزءين : أحدهما يشمل أبواب العدل ، والآخر أبواب التوحيد .

وهذه التجزئة الثنائية تحدد ترتيب كل الأدب الكلامى للمعتزلة ، وبسبب اتجاه ميولهم أو النزعات الدينية والفلسفية هذا الاتجاه ، نجدهم سمو أنفسهم «أصحاب العدل والتوحيد ».

ومن جهة الترتيب التاريخى الذى وُضعت فيه هذه المسائل ، نرى المسائل الخاصة بالعدل هى الأولى ، وهذه المسائل تتصل مباشرة بنظريات القدرية التى نماها المعتزلة ومشوا بها إلى أقصى النتائج التى تحتملها . إنهم بدأوا السير من هذا المبدأ ؛ وهو أن الإنسان له حرية غير محدودة فى اختيار جميع أفعاله ، وأنه وحده خالق هذه الأفعال ، وإلا كان الله غير عادل يجعل العبد مسئولا عما يفعل [وهو مجبر غير حر فيما يفعل] .

إلا أنهم — أى المعتزلة — ساروا خطوة أكثر من القدرية ، كما أشرنا ، فى النتائج التى استخلصوها من هذه الفكرة الأساسية التى تقدمت فصارت فى قوة المبدأ . إنهم وقد اعتنقوا مذهب حرية الإنسان فى تحديد أعماله بنفسه ورفضوا مذهب الجبر الإلهى انتهوا ــ بسبب هذه الفكرة الأخيرة ــ إلى أن يدخلوا فكرة أخرى فى تصورهم وفهمهم لله : الله يجب أن يكون عادلا ، وفكرة العدل لا يمكن أن تنفصل عن فكرة الله ، ولا يمكن فهم أى عمل من أعمال الإرادة الإلهية لا يتفق مع شرط هذه العدالة .

وقدرة الله محدودة فيما تتطلبه العدالة التي لايمكن اطراحها أوالتخلص منها ، كما لايمكن إزالتها أو إبطالها .

ومن السهل أن نرى أن هذه الصيغة قد أدخلت فى فهمنا أو إدرا كنا لله عنصراً غير متجانس مطلقاً مع سابق فهمنا أو إدرا كنا لله فى الإسلام الأول القديم ، وهذا العنصر هو الوجوب . حقاً إنه توجد أشياء تعتبر واجبة حتى بالنسبة إلى الله نفسه ، ولكن القول بأن الله يجب عليه . . . يعتبر قضية كان يجب أن تُعد فى نظر الإسلام القديم سخافة صارخة « وتجديفا » فى حق الله تعالى .

إن المعتزلة يرون « بفكرة الوجوب » أن الله بما أنه خلق الإنسان ليسعد ، يجب عليه أن يرسل له رسلا لتعريفه طريقها ووسائلها ، وهذا لايكون أثراً أو فعلا لإرادته السائدة ، ولاتكرماً يستطيع ـ لاستقلال إرادته المطلقة ـ أن يحرم منه خلقه ، بل إن هذا عمل ضرورى ، وهو اللطف الإلهى الواجب .

الله لا يمكن أن يتصور أو يُفهم على أنه كائن أسمى ، كل مايصدر عنه من فعل هو خير ، إذا كان لم يبين الطريق للإنسان ، إنه يجب عليه أن يكشف عن نفسه للإنسان بواسطة الأنبياء ، وهو ذاته قد اعترف بهذا الواجب فى القرآن إذ يقول : « وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ » (سورة النحل : ٩) ، أى على الله أن يقود الناس إلى الطريق المستقيم . هكذا شرحت المعتزلة الآية التاسعة من السورة السادسة عشرة[٥٠]

وبجانب فكرة اللطف الواجب ، توجدأيضا فكرة أخرى مرتبطة ارتباطا وثيقا بها ، قد أدخلوها فى تصور الله وفهمه ، وهى فكرة الأصلح . إنهم يقولون إن جميع ما يكون من الله من تصرفات إلهية يكون بقصد سلام الإنسان وخيره وسعادته ، وإن المرء يستطيع أن يتبع أو يتنكب بمنزلة سواء هذا التعليم الذى كشف له لخيره ، لكن الله العادل يجب عليه أيضا «من أجل هذا» أن يثيب الأخيار ويعاقب الأشرار

وهكذا نرى أن اختيار الله المطلق « الذى لايسأل عنه» ، والذى على حسب الأفكار السنية الحرفية يجعله يعمر الجنة والنار كما يشاء وبمن يشاء حسب ما يرى ،

* يرى جميع المسلمين أن قدرة الله مطلقة غير محدودة ، وللمعتزلة كلام طويل فى التوفيق بين هذا وبين العدالة الإلهية ؛ ويجب الرجوع إلى كتب علم الكلام .

وكذلك ما فى هذا من ظلم يتمثل فى أن الخضوع لله والفضيلة لا يؤكدان أى ضمان للعادل الفاضل الصالح فى أن يثاب فيما بعد هذه الحياة ، هكذا نرى أن هذا كله يختفى ويزول ، ليترك مكانا لعدل أو عدالة ؛ يجب أن يلزم الله بسببه نفسه بأن تكون أعماله متفقة معه .

وفى هذا الضرب من الأفكار أو التفكير سار المعتزلة أيضاً خطوات أبعد . لقد قبلوا قانون العوض ، وهو تضييق جديد لحرية الله واختياره كما مثله علم الكلام السنى أو الحرفى . فكل ماينال المرء العادل من متاعب وآلام — لايستحقها — فى هذه الحياة ، بل عاناها لأن الله يراها أصلح له فى ظرف خاص ، يجب عليه أن يعوضه عنها فى الدار الأخرى .

على أنه ليس فى هذا بصفة خاصة شىء مميز من خواص أو خصوصيات مذهب المعتزلة ، فإنه بتخفيف هذه الكلمة الدقيقة : يجب ، يكون من الممكن أن يتفق هذا مع مبدأ بديهى من مسلمات المذهب السنى .

ولكن فريقاً كبيراً من المعتزلة يتوسع فى هذا المبدأ المسلم به ، فيطبقه ، لا على العدول الفضلاء من الناس أو الأطفال الأبرياء فحسب الذين يقاسون فى هذه الحياة آلاماً لا يستحقونها ، بل على الحيوانات أيضاً ؛ أى أن الحيوان يجب أن يعوض فى وجود آخر عن الآلام التى يفرضها عليه الإنسان بأنانيته وقسوته ، وإلا لا يكون الله عدلا . ويمكن أن يقال إن هذا هو حماية الحيوانات فى صورة سامية .

هكذا نرى بأى منطق ينمى المعتزلة عقيدة العدل الإلهى ، وكيف إنهم أخيراً يقابلون بالإنسان الحر المختار إلـهاً لم يعد مستقلا تمام الاستقلال فى أفعاله .

ويتصل أو يتعلق بهذا المبدأ أيضاً فهم أساسى فى ناحية الأخلاق ؛ وهذا الفهم خاص ببيان ما هو الخير والشر من وجهة نظر علم الأخلاق الدينى ، أو ببيان الحسن والقبيح حسب اصطلاح المتكلمين .

أما أهل السُّنة الحرفيون فيرون الخير والحسن ما أمر الله به ، والشر والقبيح ما نهى عنه . أى أن الإرادة الإلـهية — غير المسئولة — وأوامرها هى مقياس الخير

والشر ، ولا يوجد شيء خير أو شر من ناحية العقل* ؛ فالقتل شر لأن الله حرّمه ولو أن الله لم يصفه هكذا لما كان شراً .

وليس الأمر كذلك عند المعتزلة الذين يرون أن هناك شراً مطلقاً ، وأن العقل هو مقياس هذا كله فهو الأول أو السابق [الذى نعرف به الخير والشر] . وليس الإرادة الإلـهية ؛ أى ليس الشيء حسناً لأن الله أمر به ؛ بل إن الله أمر به لأنه حسن . ألا يرجع هذا ، أو ليس معنى هذا ، لو أردنا وضع تعاريف متكلمى البصرة وبغداد فى تعابير حديثة ، ان الله مقيد فى قوانينه التى يصدرها بالأمر القطعى ؟

٦ — لقد عرضنا فيما مضى طائفة من الأفكار والمبادئ التى ترينا أن مقابلة المعتزلة للفهم السنى الساذج للعقيدة لا تكون فى المسائل الميتافيزيقية وحدها ، ولكن نتائجها نفذت بعمق إلى أفكار أساسية فى الأخلاق ، وأنه كان لهذه النتائج مدى بعيد من ناحية مبدأ التشريع الإلـهى .

إلا أن المعتزلة كان عليهم أيضا أن يجدوا ويعملوا فى الناحية الأخرى ، التى تكوّن موضوع فلسفتهم العقلية للدين ، أى فى ناحية فكرة التوحيد . فها هنا ، كان من الواجب عليهم أولا أن يجتثوا مالا خير فيه من النباتات الطفيلية التى عرض هجومها نقاء فكرة التوحيد للخطر .

كان واجبا عليهم أولا أن يستأصلوا مالا يتفق وسمو الله من الأفهام أو التصورات التجسيمية التى توجد فى المذهب السنى التقليدى ، هذا المذهب الذى كان لا يقبل شيئا آخر غير التصديق الحرفى للتعابير [أو النصوص] المجسمة والمشبهة** التى جاءت فى القرآن والحديث والنصوص المتواترة .

فالله البصير ، السميع ، الغضوب ، الضاحك ، والذى يجلس ويقف ، وكذلك

---

* فى مسألة الخير والشر ذكر أن أهل السنة لايجعلون للعقل دخلا فى إدراكهما ؛ إذ كانوا لايقولون بالحسن والقبح العقليين . وكلام أهل السنة فى الحسن والقبيح بمعنى المثاب عليه والمعاقب من أجل فعله ، وهما اللذان تعلق بهما حكم شرعى ؛ إذ كان من أصولهم أن الحكم لايتلقى إلا من الوحى ؛ فأما الخير بمعنى الكامل الذى له مزايا ، فإدراكه عقلى عندهم وكذلك الشر ، ولا يخالف فى هذا عاقل .

** الكلمة التى استعملها المؤلف **Anthropopathiques** تجعلنا نقول إن المراد هنا الذين يضيفون إلى الله تعالى الانفعالات الإنسانية من الغضب والسرور ونحوها .

يداه وقدماه وأذناه ، مما كان غالبا جداً موضع حديث فى القرآن والحديث والنصوص الأخرى ـ كل ذلك يجب فى رأى أهل السنة أن يفسر حرفيا وأن يؤخذ على ظاهره . والمدرسة الحنبلية بصفة خاصة قاتلت انتصاراً لهذا الفهم أو التصور الخشن لله ، وكانت تلتزمه لأنه السنة فى رأيها .

إن هؤلاء المؤمنين القدامى كانوا على الأكثر يقبلون أن يسلموا بالعجز عن تحديد كيف يمكن تصور حقيقة هذا التمثيل ، (أو تحديد المراد بالنص) ، مع تطلبهم فى الوقت نفسه تفسير هذه النصوص تفسيراً حرفياً . إنهم يطلبون الإيمان الأعمى بحرفية النص « بلا كيف » ، ومن هنا كان اسم « بلكفة » الذى سميت به هذه الفكرة *.

وتحديد الكيف الذى يكون أكثر دقة يتجاوز الإدراك الإنسانى ، وليس لنا ـ كما يقولون ـ أن نتدخل فى الأمور التى ليست خاضعة للتفكير الإنسانى .

إنهم يعرفون بأسمائهم هؤلاء المفسرون القدامى الذين يجيزون هذه القضية التى ترى أن الله له لحم ودم وله أعضاء ، ويقنعون بإضافة أن هذه الأعضاء لا يمكن بحال أن تُفهم أو تُتصور كأعضاء الإنسان ، نزولا على ما جاء فى القرآن من أنه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البصيرُ » (سورة الشورى : ١١) . ذلك لأنه (فى رأيهم) لا يمكن تصور كائن موجود حقيقة ولا يكون مادة ولا جوهراً ، ولأن تمثيل الله كعقل خالص يساوى عندهم الزندقة والكفر .

والمشبهة أو المجسمة المسلمون طبقوا هذا الفهم أو التصور على نحو فظ لا يصدق . وإنى لأذكر هنا عامداً وقائع ، ذات تاريخ حديث نسبيا ، لتفهم بأية طريقة جامحة جعلت هذه الأفكار لنفسها مجرى فى زمن لم تتدخل أية معارضة روحية لتخفيفها . ويمكن أن يعطينا متكلم أندلسى فكرة عما أمكن أن يكون فى هذه الناحية من إفراط ، وهو متكلم من ميورقة بلغ من الشهرة مرتبة كبيرة ومات فى بغداد نحو عام ٥٢٤هـ — ١١٣٠ م . هذا المتكلم وهو محمد بن سمدون ، والمعروف أكثر

* فسر البلكفة بالإيمان الحرفى : نص بلا كيف . والبلكفة يراد بها رؤية المؤمنين بلا كيف ، وقد نبز بها الزمخشرى أهل السنة فى شعر له معروف .

بأبى عامر القرشى ، ذهب إلى أن كان يقول : « إن المبتدعة الزنادقة يحتجون أو يتعللون بآية « ليس كمثله شىء » ، لكن هذا معناه فقط أنه لا يمكن أن يقاربه أحد فى الألوهية ، أما فيما يتعلق بهيئته أو صورته فهو مثلك ومثلى » .

وهذا تفسير لتلك الآية قريب إلى حدما من التفسير الذى قد يُراد للآية التى يخاطب بها الله نساء النبى إذ يقول : يانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ » (سورة الأحزاب : ٣٢) ؛ بأن المعنى أن النساء الأخريات فى مكانة أدنى من مكانتهن ، ولكنهن يشبهنهن تماماً من ناحية الصورة . ويجب أن نقر أنه لا يوجد أى انتقاص لله فى هذا التأويل أو التفسير السنى .

والمحرك أو الدافع لهذه الفكرة لا يقف أو يحجم أمام أقصى النتائج تطرفاً . ففى ذات يوم كان — يريد أبا عامر — يقرأ الآية (سورة القلم : ٤٢) التى يقول الله فيها عن يوم الجزاء الأخروى : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إلى السُّجود » ، فأراد أن يدفع بحمية بالغة التفسير المجازى فضرب على ساقه وقال : « ساق حقيقية شبيهة تماماً بهذه[٥١] » .

وكذلك الشيخ الشهير الحنبلى تقى الدين بن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ — ١٣٢٨ م ، روى أنه ذكر فى عظة من عظاته نصاً يتعلق بنزول الله ، فعمل على نفى أن يكون النص من المتشابه وعلى أن يشهر عيانا فهمه لنزول الله ، فنزل بعض درجات المنبر قائلا : « كنزولى هذا » .

إنه إذاً ، ضد أشياع مذهب التجسيم أو التشبيه القديم هذا ، كان على المعتزلة أولا وقبل كل شىء أن يقاتلوا فى الميدان الدينى كل هذه الآيات والأحاديث والنصوص المقدسة ، التى تنسب لله [بظواهرها] الصورة الإنسانية ، وأن يجعلوها لاتدل إلا على معان روحية ، وذلك بتآويل استعارية أو مجازية مؤسسة على ما نعرف لله من نقاء وطهارة ومكانة .

وقد أنتجت هذه النزعات الاعتزالية طريقة جديدة لتفسير القرآن ، وهى الطريقة التى يطلق عليها التسمية القديمة للتأويل ، والتى تتجه للتآويل المجازية ، والتى أنكرها الحنابلة فى كل عصر[٥٢] .

أما فيما يختص بالحديث ، فإن المعتزلة كانوا يملكون تحت تصرفهم الوسيلة لرفض الأحاديث التى يلوح منها مالا يصح أن يقبل من تجسيم أو تشبيه ، أو التى تجعل لمثل هذا مكانا ، وهذه الوسيلة هى الطعن فيها بعدم الصحة . وبذلك يتحرر الإسلام من مجموعة كبيرة من الأقاصيص التى تراكمت ، بمساعدة الاعتقاد الشعبى الشره إلى الأساطير ، بصفة خاصة فيما يتصل بالدار الأخرى وما فيها ، والتى أيدتها دينياً صيغة الحديث .

ومن جهة النظر العقيدية ، لم يعمل بواسطة المذهب السنى أى تصوير مثل التصوير الذى يعتمد على القرآن (سورة القيامة : ٢٣) ، وذلك أن الصالحين يرون الله جسمياً فى الدار الأخرى ، وهذا مالا يمكن أن يقبله المعتزلة الذين لم يتركوا أنفسهم يفرض عليها مثل هذا الفهم بتحديد أدق ، هو التحديد الخالى من كل تأويل ، أى التحديد الذى أعطى إلى رؤية الله والتأمل فيه كما جاء فى الحديث : « كما تَرونَ القمر ليلة البَدْر » (٥٣)

وهكذا نجد رؤية الله المادية النظرية ، التى تخلص منها المعتزلة ، بتفسير روحى بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ، تظل بذرة حقيقية للشقاق بينهم ، بين هؤلاء الذين قوُوا بغيرهم من المتكلمين الذين كسبوهم بفضل دقتهم ووسوستهم الدينية ، وببعض أهل السنة متبعى التقاليد القديمة ، وبغير هؤلاء وأولئك من الذين انضموا إليهم فى هذه المسائل من العقليين المتوسطين الذين سنعرفهم عما قليل .

٧ — وفى المسائل المتعلقة بالتوحيد ، عقيدة الوحدانية ، التى عالجها المعتزلة ، نراهم يرتفعون إلى وجهة نظر عامة أكثر علواً ، متعمقين بطريقة مبسوطة فى مسألة الصفات الإلهية . إنهم يتساءلون : هل من الممكن أن تسلم لله بصفات ولا تفسد العقيدة فى وحدته التى لا تنقسم ولا تتغير ؟

ولأجل الإجابة عن هذا السؤال نراهم يتعبون أو يستخدمون كثيراً من الجدل الدقيق ؛ سواء من ناحية المدارس المختلفة للمعتزلة أنفسهم ، لأنهم فى مختلف تجديدات مذاهبهم لا يتماثلون فيما بينهم تجانساً كاملاً ، أو من ناحية المدارس التى كانت تعمل على التوفيق بين وجهة نظرهم ووجهة نظر أهل السُّنة .

وذلك لأنه يجب أن نشير هنا إلى ما سنعود سريعاً إليه ، وهو ظهور نزعات

متوسطة منذ ابتداء القرن العاشر عملت على استخلاص قليل من المذهب العقلى من كلام أو تراث أهل السنة ، وغايتهم إنجاء الصيغ القديمة من ثوران الملاحظات العقلية .

وتعابير العقيدة السنية ، الملطفة بشىء قليل تزدان به من المذهب العقلى ، التى يشير سيرها إلى الرجوع إلى المذهب العقلى السنى ، ترتبط باسم أبى الحسن الأشعرى المتوفى ببغداد عام ٣٢٤ هـ ـ ٩٣٥ م واسم أبى منصور الماتريدى المتوفى بسمرقند عام ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م .

وبين هذين المذهبين لا توجد فروق جوهرية ، وإن كان الأول كان يسود فى الأقاليم المتوسطة من العالم الإسلامى ، بينما كان الثانى مزدهراً فى الأقاليم الشرقية وفى آسيا الوسطى . إن الأمر يتعلق أغلب الزمن بالمجادلات الدقيقة [فى بعض المسائل ، ومنها] مثلا مسألة ما إذا كان للمسلم أن يقول : « أنا مؤمن إن شاء الله » ، وهى مسألة بتّ الحكم فيها تلاميذ الأشعرى وتلاميذ الماتريدى بطريقة متعارضة متضادة ، والكل يستند إلى طائفة من الحجج الكلامية .

وعلى العموم ، فإن آراء الماتريدية أكثر حرية و « عقلية » من آراء زملائهم الأشاعرة ، فأولئك أدنى إلى المعتزلة من هؤلاء . ولنذكر مثالا واحداً يقدمه لنا خلافهم [جميعاً : المعتزلة والأشاعرة والماتريدية] فى الجواب عن هذه المسألة : ماهو أساس وجوب الإيمان بالله ؟ فالمعتزلة يرون أنه العقل ؛ والأشاعرة يرون أن هذا يكون لأنه واجب علينا شرعاً أن نؤمن بالله ؛ أما الماتريدية فيقولون إن واجب الإيمان بالله أساسه الأمر الإلهى [أى كما يرى الأشاعرة] ، ولكن هذا الأمر يدركه العقل ، أى أن العقل وإن لم يكن المرجع للإيمان بالله ، فإنه الأداة فى ذلك .

هذا المثال يمكن أن نفهم منه كل المنهج المدرسى Scolastique للخلاف العقيدى فى الإسلام . ونحن إذا خضنا فى دقة التعاريف أو التحديدات حول مسألة صفات الله ، فإننا نكون قد عدنا إلى المناقشات اللفظية والحرفية عند اللاهوتيين البيزانطيين.

مثلا ، هل يمكن أن ننسب لله صفات ؟ هذا يكون جلباً للانقسام فى وحدة ذاته . وحتى حينما نتصور أن هذه الصفات — وهذا مالا يمكن أن نعمله على وجه آخر

بالنسبة لله ـ صفات متميزة عن ذاته وليست مضافة إليه ، ولكن متحدة بالذات أزلا ، نصل إلى التسليم بوجود كائنات أزلية مع الله الكائن الأزلى .

نصل حتماً إلى التسليم بهذا بمجرد وضع مثل هذه الكائنات الأزلية التى تكوّن كيان الله ، حتى ولو كانت مرتبطة بالذات الإلهية بلا فكاك ، لكن هذا يكون شركا بالله .

وإذاً ، سيكون مبدأ التوحيد البديهى رفضاً لصفات الله ، مهما كانت أزلية ومتحدة به ، أو أضيفت إلى ذاته . وهذا الاعتبار كان واجباً حقاً أن يؤدى إلى نفى الصفات ، فالله ليس كلى المعرفة بعلم ، وكامل القدرة بقدرة ، وحيًّا بصفة هى الحياة .

إنه ليس فى الله (أو لله) صفة هى العلم ، ولا صفة هى القدرة ، ولا صفة هى الحياة منفصلة عنه ، ولكن كل ما يظهر لنا ، كصفة من الصفات ، هو واحد بلا تجزؤ وليس متميزاً عن الله نفسه . « الله عالم » ليس شيئاً آخر غير « الله قادر » و « الله حى » ، ولو ضاعفنا هذه التعابير إلى غير نهاية لن نصل إلى أن نقول شيئاً غير : الله موجود .

ولا يمكن أن ننفى أن هذه الاعتبارات تؤدى إلى أن تشع الفكرة الواحدية فى الإسلام فى نقاء أكثر مما تتمثل تحت تشويه الاعتقادات الشعبية الخاضعة لحرفية النصوص ، ولكن هذه التنقية كان يجب أن تكون فى رأى السنيين أو الحرفيين تعطيلا وتجريداً وفراغاً حقاً فى فكرتنا عن الله .

ولذلك تجد سنياً قديماً يصف بكل بساطة وسذاجة فى بدء هذا الجدل العقيدى نظرية هؤلاء الخصوم العقليين بقوله إن كلام هؤلاء الناس ينتهى بالإجمال إلى القول بأنه لا يوجد إله فى السماء .

إن المطلق لا ينال ولا يُدرك ، ولو أن الله متحد تماماً بصفاته — ومنها صفة الحياة — يكون من الممكن إذاً أن يدعو المرء هكذا : « أيها العلم كن بى رحيماً ! » وأيضاً نفى الصفات يصطدم فى كل خطوة بآيات كثيرة فى القرآن تدور على علم الله

وقدرته إلى آخر صفاته . إذاً [في رأى أهل السنة] يمكن بل يجب الاعتراف بالصفات ، ونفيها خطأ واضح وإلحاد وزندقة .

ومن أجل هذا كان من واجب المصلحين المتوسطين أن يوفقوا بين النفى البات للعقليين والفهم القديم للصفات ، وذلك بواسطة صيغ تُقبل من الجميع .

وهؤلاء المصلحون الذين كانوا يذهبون إلى الطريق الوسطى [التى ذهب إليها الأشعرى] ، اخترعوا لهذه الغاية الصيغة الآتية فى مسألة الصفات : الله يعلم بعلم ليس متميزاً عن ذاته [أى ليس غير الذات ولا عينها] . وهذا الشرط الذى أضيف كان واجباً أن ينجى الإمكان العقيدى للصفات ، لكنه بعيد عنا أن نرى هذا الخلاف انتهى بهذه الصيغة المموهة بما يشبه الحق .

والماتريدية ، هم أيضاً ، اجتهدوا فى أن يضعوا معبراً بين أهل السنة والمعتزلة ، إذ أنهم قنعوا بصفة عامة بالصيغة الغنوصية . توجد صفات فى الله (لأنها ثابتة بالقرآن ، ولكن لا يمكن أن يقال إنها متحدة ممتزجة به ، كما لا يتصور أو يفهم أنها متميزة عن ذاته .

وفضلاً عن هذا ، فإن الفهم الأشعرى ، وهو الاعتراف بصفات ، كان يظهر فى رأى كثير منهم صيغة لا تليق بالألوهية . الله يعلم بعلم أزلى « ب » ، ألا يوجد فى هذا تمثيلٌ ما آلى ؟ والعلم والقدرة والحياة ، كل هذه القوى الإلهية التى تكوّن الكمال غير النهائى لذاته ، ألا تظهر مباشرة وتعلن عن نفسها ، ومعرفة هذا الطابع المميز المباشر السريع ، ألا يزول بهذا المقطع الصغير ، وهو حرف « الباء » الذى يؤدى فى اللغة وظيفة أداة ؟ أما شيوخ سمرقند ، فخشية من أن يحطوا من عظمة الله لغوياً ، فقد لجأوا إلى حيلة بارعة فى رأيهم ، وهى أن يتخذوا صيغة متوسطة هى : الله عالم وعلك علماً عُزى إليه أزلياً ، إلى آخره .

ونعتقد أن هذا الذى تقدم يسمح لنا أن نتحقق أن المتكلمين المسلمين لم يوجدوا عفواً ، فى سوريا وبلاد ما بين النهرين ، فى جوار الجدليين من أبناء الأمم المغلوبة .

٨ — وفكرة كلام الله كونت موضوعاً من الموضوعات الهامة الجدية جداً فى

الجدل العقيدى . كيف يمكن أن تفهم أن الله له صفة الكلام ، وكيف يُفسر إبانة أو إظهار هذه الصفة بالوحى المادى فى الكتب المقدسة ؟

وهذه المسائل ولو أنها تتعلق بمجموع مذهب الصفات ، إلا أنها مع هذا قد جُرِّدت وعولجت كمادة مستقلة عن التفكير العقيدى ، كما أنها كونت منذ عصر مبكر جداً موضوع مجادلات خارج هذا المجموع .

إن أهل السُّنة الحرفيون يجيبون عنها قائلين : الكلام صفة أزلية لله ، وليس لها مثله بدء ولا نهاية مطلقاً ، وليست أكثر من العلم والقدرة والصفات الأخرى لذاته اللانهائية .

وإذاً ، هذا الذى يُعترف به كإبانة عن الله المتكلم ، وهو الوحى — وهذا هو القرآن الذى يهم الإسلام فى الدرجة الأولى — لا يظهر فى الزمان عن إرادة حرة خالقة خاصة بالله ، ولكنه وُجد فى الأزل تماماً ، ومن ثم كانت عقيدة أهل السُّنة حتى اليوم هى أن القرآن غير مخلوق .

وحسب هذا الذى تقدم ، يمكن بلا ريب أن نقطع بأن المعتزلة شعروا هنا بتصدع فى وحدة الله الخالصة ؛ إذ لم يروا فى صفة الكلام التى تشعر بالتشبيه المسلم بها [من جانب أهل السنة] لله ، وفى التسليم بكيان أزلى بجانب الله ، شيئاً أقل من حذف أو إلغاء وحدة الذات الإلهية .

وفى هذه الحالة كان التعارض على حبل ذراع الجميع ، ما دام الأمر لا يتعلق بعدُ بالتجريد أو التعطيل فقط ، كما فى مسألة الصفات بصفة عامة ، بل يتعلق بشىء محس تماماً يأخذ المكان الأول فى هذا التفكير النظرى .

وهذه المسألة ، التى ترجع فى أصلها إلى مسألة الصفات وإن جُرِّدت منها وصارت لها مكانة خاصة فى الجدل الكلامى ، نجد مركز خطرها فى هذه الصيغة ، وهى : « هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق ؟ » وهذا استفهام كان من الواجب أن يثير اهتمام أقل المسلمين [اكتراثاً بعلم الكلام] ، ولو أن الإجابة عنه تؤدى إلى سلسلة من الاعتبارات التى تتركه غير مكترث بذلك قطعياً .

والمعتزلة ، ليفسروا « الله متكلم » ، قد اخترعوا نظرية عجيبة حيليّة ، فوقعوا بها من سيء إلى أسوأ* إنه [— فى رأيهم —] لا يمكن أن يكون صوت الله هو الذى يظهر أو يُسمع للنبى حينما يحس الوحى من الله يؤثر فيه بعضو السمع ، بل إنه صوت مخلوق .

فحينما يريد الله أن يظهر بالسمع ، يحوِّل بعمل خالق خاص الـكلام إلى حامل مادى [كالشجرة مثلا فى حادث موسى عليه السلام] ، وهذا هو الـكلمة أو الـكلام الذى يسمعه النبى . إن ذلك كلمة الله المباشرة بلا واسطة ؛ ولـكنها الـكلمة المخلوقة لله ، والتى تبين بطريق غير مباشر والتى فحواها أو مضمونها هو ما يعبر عن إرادة الله . وهذا الفهم أوحى إليهم بالصيغة التى أثرت عنهم فى نظرية خلق القرآن ، التى بها يعارضون العقيدة السنية لـكلام الله الأزلى غير المخلوق .

إنه ليس هناك بدعة معتزلية كان عنها جدل عنيف حاد ، وجاوز أثرها الأوساط المدرسية إلى الحياة العامة ، مثل هذه البدعة . فالخليفة المأمون انضم إلى صف القائلين بها ، وباعتباره سلطاناً مطلقاً أمر بالتسليم وقبول عقيدة خلق القرآن متوعداً بالعقاب الشديد من لا يقول بها ، وقد خلفه فى هذه النزعة الاعتزالية المعتصم أخوه . والمتـكلمون السنيون ، وغيرهم من الذين لم يريدوا الإذعان لها ، خضعوا لعذاب شديد .

وعُهد إلى بعض القضاة وغيرهم من رجال الدين ، الذين رضوا أن يضطلعوا بدور رجال التفتيش ، بالتنقيب عن أشياع المذهب السنى وامتحانهم واضطهادهم ، وكذلك بامتحان أولئك الذين لم يرضوا أن يصرحوا بوضوح كاف بخلق القرآن ، إذ لم يكن خلاص وسلام إلا بهذا التصريح والإقرار .

وقد صور عام ١٨٩٧ م عالم أمريكى ، وهو ولتر پاتون Walter M. Patton فى مؤلف قيم ، سير هذه الحركة التفتيشية العقلية فيما يختص بأحد ضحاياها الشهيرين ، واضعاً فى دراسة معتمدة على الوثائق القيمة الاضطهادات التى قاساها الرجل الذى صار اسمه شعار الارتباط أو التعلق القوى بالإيمان الإسلامى الشديد ، وهو الإمام أحمد ابن حنبل[٥٤] .

---

* فى الأصل : فر من زوبعة إلى صخرة .

وقد قلت فى موضع آخر ، ويمكن أن أكرر هنا ، : « إن مفتشى المذهب الحر كانوا – إذا صح هذا – أكثر فظاعة وقساوة من زملائهم الحرفيين التقليديين ، وإنه على كل حال كان تعصبهم أكثر مقتاً وكراهية من تعصب ضحاياهم الذين عاملوهم معاملة سيئة » (٥٥)

وإنه فقط فى عهد الخليفة المتوكل ، وهو الشخصية المتنورة قليلا والمحبوبة كذلك قليلا ، والذى عرف جيداً أن يجمع بين مذهب أهل السُّنة فى العقيدة والسكر والحب للأدب الفاحش القبيح – إنه فى عهد هذا الخليفة ، نجد أنصار العقيدة القديمة يستطيعون رفع رءوسهم بحرية . لقد صاروا مضطهِدين بعد أن كانوا مضطَهدين ، واتفقوا على أن يضعوا موضع التنفيذ عملياً تمجيداً لله هذا المبدأ القديم ، وهو : « ويل للمغلوب ».

وقد كان هذا العصر أيضاً عصر الانحطاط السياسى ، أى من الفترات المناسبة للرجعيين الذين يقفون فى سبيل الفكر ، فأخذ نفوذ القول بعدم خلق القرآن يمتد شيئاً فشيئاً ، ولم يقنع أنصار هذا القول بصياغة العقيدة بطريقة عامة ومرنة فى غموضها ، وبالنداء بأن القرآن أزلى وغير مخلوق .

وما معنى القرآن غير مخلوق ؟ هل المراد كلامه النفسى ، إرادته المبينة فى هذا الكتاب ؟ هل المراد به النص المحدد المعروف الذى أوحاه الله إلى النبى « فى لسان عربى مبين غير ذى عوج »؟ لا .

[ليس المراد بأنه غير مخلوق هذا وحده] ، لقد صار السنيون جشعين مع الزمن : هذا الذى بين دفتى المصحف هو كلام الله ، وإذاً فكرة عدم الخلق تشمل أيضاً النسخة المكتوبة من القرآن بالحروف المرسومة بالحبر فوق الورق ؛ بل ، هو « المقروء للصلاة » ، والمتلوّ الخارج من حناجر المؤمنين ، لا يتميز ذلك كله من كلام الله الأزلى غير المخلوق .

على أن الأحزاب المتوسطة من الأشاعرة والماتريدية كان لها فى هذه الناحية شىء من التسامح يرضاه العقل ، فالأشعرى وضع فى المسألة الرئيسية هذه النظرية : كلام

الله أزلى ، ولكن هذا لا ينطبق إلا على الكلام النفسى ، أى الصفة الأزلية لله التى ليس لها بدء ولم تنقطع مطلقة .

وعلى الضد من هذا الوحى إلى الأنبياء ، وكذلك أيضاً سائر مظاهر الكلام الإلهى ، كل هذه دلالات على كلام الله الأزلى المستمر دائماً[٥٦] . وهذا الفهم يطبق على كل مظهر محس أو مجسم للوحى .

ولنسمع ما يقوله الماتريدى فيما يختص برأى هذا الفريق المتوسط فى هذه المسألة : « إذا تساءلنا ما هو المكتوب فى نُسخ القرآن ؟ نقول هو كلام الله ؛ والذى يتلونه فى المساجد والذى يتلفظونه من الحناجر هو أيضاً كلام الله ؛ ولكن الحروف المكتوبة والأصوات والترتيل ، كل ذلك مخلوق ؛ هؤلاء شيوخ سمرقند يعرضون هذا التضييق .

أما الأشاعرة فيقولون : « هذا الذى يظهر مكتوباً فى نسخة القرآن ليس كلام الله ، ولكنه فقط تبليغ من كلام الله ورواية عما يكون » ؛ إنه لهذا يرون مباحاً حرق أجزاء منفصلة من المصحف ، بما أن هذا ليس فى نفسه كلام الله ، وإنهم ليعتمدون فى ذلك على أن كلمة الله هى صفته ، وصفته لا تظهر منفصلة عنه .

وهكذا ، هذا الذى يظهر فى شكل منعزل ، مثلما تحتويه ورقة من المصحف ، لا يمكن أن ينظر إليه على أنه كلام الله . ولكن الماتريدية يقولون عن ذلك : زعم أو تأكيد الأشاعرة هذا ، هو أيضاً أدخل فى البطلان من زعم المعتزلة .

من هذا يمكن أن نرى أن المتوسطين لم يستطيعوا أن يكونوا متحدين فيما بينهم . أهل السُّنة يسيرون ، بناء على هذا : موسعين فى غير اعتدال الدائرة التى تنحصر فيها فكرة كلام الله غير المخلوق ، وصيغة « لفظى بالقرآن مخلوق » تعتبر فى رأيهم زندقة .

ورجل تقى ورع مثل البخارى ، الذى يعتبر صحيحه فى الحديث أصح كتاب بعد القرآن فى نظر المؤمنين الحقيقين ، كان نفسه فريسة لكثير من الإعنات ، لأنه رأى هذه الصيغة وأمثالها من الجائز[٥٧] .

والأشعرى نفسه، الذى أعطى لتلاميذه — كما رأينا من قبل — تحديداً عن نزعته فى كلام الله أكثر تحرراً شيئاً قليلا، لم يقنع بعد هذا بصيغته العقلية. لهذا نراه فى عرضه الأخير النهائى لمذهبه يبين عن رأيه هكذا: «القرآن فى كتاب الله المحفوظ؛ وإنه فى صدور هؤلاء الذين وُهب لهم العلم وتقاسموه؟ وإنه المقروء بالألسن؛ وإنه المسموع منا كما هو مكتوب؛ ولو أن مشركا طلب حمايته تمنح له بشرط أن يسمع كلام الله (سورة التوبة: ٦) كان ما تقوله له هو كلام الله نفسه.

وهذا معناه أن كل ذلك هو كلام الله غير المخلوق الموجود فى اللوح السماوى فى الأزلى، فى الحقيقة وليس بالمعنى المجازى على نوع ما، وليس معناه أن كل هذا ليس لا صورة و نقلا أو تبليغاً من الأصل السماوى، كل ماهو حق عنه، هو كذلك حق فى مظاهره فى الزمان والمكان التى تصدر فى الظاهر عن الناس»(٥٨).

٩ ـ كل ماتحققناه هنا عن طبيعة حركة المعتزلة، يجعل لهؤلاء الفلاسفة الدينيين الحق فى أن يروا أنفسهم عقليّين، ونحن لن نمارى فى هذا اللقب. إن لهم الفضل فى أن كانوا الأوائل فى الإسلام الذين رفعوا العقل إلى مرتبة أن يكون مصدراً لمعرفته الدينية، بل هم أول من اعترف صراحة بقيمة الشك كباعث أول على المعرفة.

ولكن هل لنا من أجل ذلك أن نسميهم أحراراً؟ يجب علينا أن نأبى عليهم هذه التسمية. نعم، إنهم بما أحدثوه من الصيغ المعارضة للفهم السنى كانوا الأوائل الذين أسسوا المذهب العقيدى فى الإسلام، فمن يريد الخلاص نفسه يجب ألا يؤمن إلا بهذه الصيغ الصلبة الجامدة دون سواها.

ولا شك أنهم قصدوا بهذه التعاريف التوفيق بين الدين والعقل، ولكنها كانت صيغاً جامدة ضيقة قصدوا بها أن يعارضوا المذهب السنى غير المحدد للمؤمنين القدمى؛ دافعو عنها بشدة فى مناقشاتهم التى لم يكن لها نهاية. وكانوا أيضاً مفرطين فى التعصب، ونزعة التعصب لا تنفصل عن المذهب العقيدى بطبيعته.

فحينما كان للمعتزلة الحظ فى أن يكون مذهبهم هو المذهب الرسمى فى عهد ثلاثة من خلفاء العباسيين، فُرض هذا المذهب على الناس بقسوة التفتيش والتحقيق والإرهاب، حتى جاء ـ بعد ذلك بقليل ـ الوقت الذى رفع فيه رد الفعل رأسه»

وأمكن أن يتنفس بحرية أولئك الذين كانوا يعتقدون أن لهم فى الدين مجموعة من التقاليد التقية وليست ثمرة النظريات العقلية المشكوك فيها .

وإنه مما يفيدنا فى تفهم ما أشر به متكلموهم من ورح التعصب أن نورد بعض أقوالهم فى هذه الناحية ، هذه الأقوال منها : « من لم يكن معتزلياً لا يصح أن يسمى مؤمناً » ، فهكذا يقول بوضوح واحد من أساتذتهم المعروفين .

وهذا ليس إلا نتيجة من نتائج مذهبهم العام الذى بحسبه لا يمكن أن يسمى مؤمناً من لم يعرف الله بطريق التفكير النظرى . وإذاً ، فأغلب الشعب ذوو العقائد الساذجة لا يعدون من المسلمين ، لأنه بدون عمل العقل لا يوجد إيمان .

ومن أجل ذلك كانت مسألة تكفير العوام مما عالجه المعتزلة فى هذا العلم الدينى ، وكذلك لم يفتهم أن يقولوا بأن الصلاة لا تصح وراء أحد من هؤلاء السذج المؤمنين غير العقليين . وواحد من مشاهير ممثلى هذه المدرسة ، وهو معمَّر بن عباد صرح بتكفير من لايقاسمه طريقة نظره فى الصفات وخلق الإنسان لأفعاله .

ثم هناك معتزلى آخر ، وهو أبو موسى المُرْدار ، الذى يمكن أن نذكره مثالا لأوائل الزهاد فى هذه المدرسة ، نادى متمشياً مع وجهة النظر هذه السالفة بأن نظرياته أو آراءه هى التى وحدها تؤدى إلى النجاة من النار . هكذا ذهب ونادى ، حتى أمكن أن يرد عليه بأنه ، تبعاً لرأيه الخاص أو الشخصى ، لن يدخل الجنة من بين المؤمنين إلا هو وحده واثنان أو ثلاثة على الأكثر معه من تلاميذه[٥٩] .

ولقد كان سعادة حقة للإسلام أن الدعاية السياسية التى مُنحت لمثل هذا الفهم كانت محدودة بثلاثة من الخلفاء فقط ، لأنه إلى أى حد كان يصل المعتزلة لو مُد لهم زمناً طويلا فى العون الرسمى من الخلفاء ذوى السلطان ؟ .

إن مذهب هشام الفوطى مثلا ، وهو أحد الذين رفضوا رفضاً تاما أن يقبلوا الصفات الإلهية وتحديد القدر ، يرينا كيف كان بعض هؤلاء يتصور أو يتمثل الأشياء ، « إنه يقرر أن من المباح قتل خصوم مذهبهم غيلة وخفية ، والاستيلاء على كل أموالهم بالخداع أو القوة ، كما يقرر أنهم كفرة ، وإذاً حياتهم وأموالهم خارجة عن الشريعة[٦٠] » .

وإن هذه النظريات ليست كما هو معلوم إلا نظريات المجامع أو الجماعات ، ولكنها دفعت إلى أبعد لتصل إلى فكرة أن الأرض التى لا يسود فيها الاقرار بالإيمان كما يراه المعتزلة يجب أن تعتبر كبلاد حرب . ذلك بأن علم تقويم البلدان الإسلامى يقدم لنا ، فضلا عن تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم ، تقسيما آخر قاطعاً أكثر من الأول : هو دار الإسلام ودار الحرب (٦١) .

ويجعل فى الطائفة الثانية كل البلاد التى يسود فيها الكفر بين السكان ، وذلك برغم أن الدعوة إلى الإسلام وصلت إليهم ، وواجب أمراء الإسلام أن يحاصروا أو يحيطوا بهذه البلاد وأمثالها ، وهذا هو الجهاد — الحرب المقدسة ـ المأمور به فى القرآن ، هو آمن الوسائل للاستشهاد .

وكثير من المعتزلة كانوا يودون لو قدروا أن يسووا بدار الحرب البلاد التى لا يسود فيها فهم المعتزلة فى العقائد ، فقد كان من الواجب فى رأيهم أن يقاتلوا بالسيف فيها كما يقاتلون فى بلاد الكفرة والوثنيين (٦٢) .

إن هذا فى الحقيقة مذهب عقلى قوى ونشيط جداً ، ولكننا لا نستطيع أن نحتفل بهم ونعلى من شأنهم كرجال أنظار حرة ومتسامحة ، هؤلاء الذين تعتبر مذاهبهم مبدأ السير ومادة الغذاء لمثل هذا التعصب .

وللأسف ، هذا مالا نفكر فيه عندما نقدر تاريخيا المذهب الاعتزالى ، وفى كثير من الأوصاف الخيالية التفصيلية عن التطور الممكن للإسلام ما يرسم لنا لوحة ترينا كم كان نافعاً لنمو الإسلام أن يصل المعتزلة إلى السيادة الروحية . إنه قلّ أن نؤمن لهذا بعد ذلك الذى سمعناه عنهم منذ قليل .

ونحن لا نستطيع نكران أنه كان لنشاط المعتزلة نتيجة نافعة ، فقد ساعدوا فى جعل العقل ذا قيمة حتى فى مسألة الإيمان ، وهذا هو الفضل الذى لا يُجحد والذى له اعتباره وقيمته ، والذى جعل لهم مكاناً فى تاريخ الدين والثقافة الإسلامية ، ثم إنه برغم كل الصعوبات التى أثارها مذهبهم ، وكل ما أنكروه على خصومهم ، فإن حق العقل قد انتصر على أثر كفاحهم بنسبة صغيرة أو كبيرة حتى فى الإسلام السنى ، ولم يكن هيّناً بعد هذا إبعاده تماماً .

۱۰ — لقد ذكرنا بعد هذا مراراً اسمى إمامين ، هما أبو الحسن الأشعرى وأبو منصور الماتريدى ، اللذان كان أولهما فى مركز الخلافة وكان الثانى فى آسيا الوسطى ، واللذان عملا على تخفيف حدة الجدل والخلاف العقيدى بصيغ متوسطة أصبحت الآن معترفاً بها كمواد من الإيمان السنى . ولا يستحق العناء الدخول فى تفاصيل الاختلافات الدقيقة التى تفصل بين هذين المذهبين ، على اتصالهما ببعض اتصالاً وثيقاً .

وقد كسب الأول أهمية كبيرة تاريخية . ومؤسسه نفسه كان تلميذاً للمعتزلة وانفصل فجأة عن مدرستهم — وهناك أسطورة تتكلم عن رؤيا ظهر النبى فيها له وحدد له هذا التغير — وعاد جهاراً إلى احتضان مذهب أهل السُّنة ، الذى أمده بنفسه كما أمده أكثر منه تلاميذه بصيغ متوسطة لها طابع سنى قليلاً أو كثيراً ، ومع هذا فلم يستطيعوا أن يجيبوا ذوق المحافظين القدماء ، ففى أثناء زمن طويل لم يكن من المستطاع لهم أن يخاطروا بتعليم علم الكلام علناً .

وإنه حينما أنشأ الوزير الشهير للسلاجقة نظام الملك ، فى منتصف القرن الحادى عشر ، فى المدارس الكبيرة التى أسسها فى نيسابور وبغداد كراسى عامة لهذا المذهب الكلامى الجديد ، أمكن لمذهب الأشعرى أن يُعلّم رسمياً وأن يصير مقبولاً لدى أهل السُّنة ، وأمكن لممثلى هذا المذهب الكبار أن يكونوا أصحاب كراس فى المؤسسات النظامية . فى هذا الحين إذاً تقرر انتصار المدرسة الأشعرية فى كفاحها ضد المذهب المعتزلى من ناحية ، وضد المذهب السنى الذى لا يتساهل من ناحية أخرى .

والعصر الذى ازدهرت فيه هذه المؤسسات هو إذاً عصر هام ، لا فى تاريخ التعليم فحسب ، بل أيضاً فى تاريخ العقيدة الإسلامية ، ومن أجل ذلك علينا أن نفحص عن قرب هذه الحركة .

حينما يدعون الأشعرى رجلاً ذا مذهب متوسط معتدل ، يجب ألا نعمم هذا الحكم المميز لكل نزعاته الكلامية ، بتوسيعه حتى يضم كل مسائل المذهب التى نشب الكفاح من أجلها فى العالم الإسلامى ، فى القرنين الثامن والتاسع ، بين الآراء المتعارضة والمتناقضة .

إنه بلا ريب عرض صيغاً موفّقة ، حتى فى مسائل حرية الإرادة وطبيعة القرآن ، ولكن الذى يجب أن يُنظر إليه كطابع مميز له أحسن تمييز هو موقفه الكلامى : هو الوضع الذى اتخذه فى مسألة تداخلت بعمق أكثر من كل الإفهام أو التصورات الدينية فى قلوب الجمهور والعامة ، أعنى بها تحديد الفكرة عن الله فى مقابلة الفرقة المجسمة .

ولا يمكن فى الحقيقة أن تصف وضعه الذى اتخذه فى هذه المسألة بأنه وضع وسط . ونحن فى أيدينا عن هذا الإمام ، الذى يعتبر أكبر حجة عقيدية فى الإسلام السنى ، مختصر عقيدى عرض فيه مذهبه فى صورة نهائية ، وجادل فيه بحنق تعصبى الأفكار والآراء المعتزلية المعارضة .

هذا المختصر هو رسالة هامة(٦٣) ، كانت تعتبر فيما مضى مفقودة وغير معروف لنا منها إلا قطع بواسطة نقول مختلفة ، ولكنها صارت الآن فى متناولنا فى طبعة كاملة نشرت فى حيدر آباد ، وهى وثيقة أساسية لمن يريد أن يعنى على نحو ما بتاريخ العقائد الإسلامية .

ومن مقدمة هذه الرسالة [وهى الإبانة] نرى أن علاقة الأشعرى بالمذهب العقلى تتضح مشكوكاً فيها . هذه المقدمة التى يعلن فيها أن : « قولنا الذى نقول به وديانتنا التى ندين بها ، التمسك بكتاب ربنا عز وجل وبسنة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، وما رُوى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث . ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل — نضّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته — قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل ، الذى أبان الله به الحق ، ورفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين . فرحمة الله عليه من إمام مقدم ، وخليل معظم مفخم* » .

وإذاً ، الأشعرى منذ بدء قانونه الإيمانى ، يعلن نفسه حنبلياً ، وهذا ما لا يجعلنا نفترض استعداده للتوسط . حقيقة ، حينما جاء إلى الكلام عن نزعات المجسمة ، نراه يصب سيلا من السخرية والاستهزاء على العقليين الذين يبحثون عن تفسيرات مجازية

* عن الأصل ، طبعة إدارة الطباعة المنيرية ، عام ١٣٤٨ هـ ، ص ٨ — ٩ .

للتعابير المادية فى النصوص المقدسة . ولما لم يقنع بإظهار شدة العقيدة السنية ، لجأ إلى العلماء باللغات .

إنه يرى أن الله يذكر أنه أوحى القرآن « بلسانٍ عربىٍّ مُبين » ؛ فلا يمكن، إذاً أن نفهمه إلا فى المعنى الأصلى الجارى فى لسان العرب .

إذاً أين نجد عربياً استعمل كلمة « اليد » فى معنى « النعمة » ، إلى آخر أمثال هذه الكلمات والتعابير ، أو استعمل من هذه الحيل اللغوية التى يريد العقليون أن يكتشفوها فى النص المبين الواضح ليجردوا فكرة الألوهية من كل ذاتية أو جوهرية ؟ ثم يقول الأشعرى أيضاً : « بالله نستهدى ، وإياه نستكفى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والله المستعان .

أما بعد ! فمن سألنا فقال أتقولون إن لله سبحانه وجهاً ؟ قيل له نقول ذلك خلافاً لما قاله المبتدعون ، وقد دل على ذلك قوله عز وجل « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (سورة الرحمن : ٢٧) .

فإن سئلنا أتقولون إن لله يدين ؟ قيل نقول ذلك ؟ وقد دل عليه قوله عز وجل « يدُ الله فوق أيديهم[٥٠] (سورة الفتح : ١٠) ، وقوله : « لما خلقْتُ بِيَدَىَّ » (سورة ص : ٧٥) ؛ وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذريته » ؛ وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم «أن الله خلق آدم بيده ، وخلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده » ؛ وقال عز وجل « بل يداه مبسوطتان » ؛ وجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كلتا يديه يمين » . وإذاً ، فالمقصود هنا المعنى الحرفى دون سواه .

ولأجل أن يفر من التجسيم الغليظ ، تراه يضيف حقاً إلى قانونه هذا الاستدراك ، وهو أن لا يصح أن نعنى بالوجه والقدمين وأمثال ذلك مشابهة لأعضاء الجسم الإنسانى ، وأن كل هذا يجب أن يُفهم بلا كيف (انظر ما تقدم) .

ولكنه لا يوجد فى هذا أى توفيق ، فإن توسط المذهب السنى القديم كان يفهم

---

[٥٠] ذكر المؤلف « أيديكم » وهو خطأ طبعاً .

ذلك تماماً على هذا النحو . ليس هذا مسالمة أو توفيقاً بين ابن حنبل والمعتزلة ، ولكن — كما رأينا فى الإبانة الأولى للأشعرى — تسليم بلا شرط من المرتد المعتزلى الذى يتجه إلى فكرة إمام التقليديّين الصلب الذى لا ينثنى ، وفكرة خلفائه من بعده .

وقد حرم الأشعرى ، بسبب ما كان منه من سعة صدره للاعتقاد الشعبى ، الشعب أو الأمة الإسلامية من الثمار الهامة للمذهب الاعتزالى (٦٤) . ولقد بقى سليما بحسب وجهة نظره الإيمان بالرقى والسحر ، فضلاً عن كرامات الأولياء أيضاً ، بينما محاالمعتزلة كل هذا تماماً .

١١ — إن المسالمة أو التوفيق الذى يُعدّ عنصراً هاماً فى تاريخ العقائد الإسلامية ، والذى يمكن أن تعتبر نتيجته اتجاهاً هاماً أقره الإجماع ، لا يرتبط باسم الأشعرى نفسه ، ولكن يرتبط بالمدرسة التى تحمل اسمه .

لم يكن مستطاعاً أكثر ، حتى إذا مِلْنا إلى ناحية المذهب السنى ، أن نحذف العقل كمعين للمعرفة الدينية . وقد عرفنا منذ قليل ، من عقيدة الإقرار بالإيمان كما جاء عن الأشعرى ، الاتجاه الذى كشف عن رأيه فى مصادر المعرفة الدينية بجد واحتفال ، فهنا لا نسمع شيئاً عن حق العقل ـ ولو كوسيلة مساعدة ـ فى معرفة الحقيقة ، وقد كان الحال غير هذا تماماً فى مدرسته .

هذه المدرسة ، ولو أنها فى تشددها فى هذه الناحية أقل من المعتزلة ، تتطلب أيضاً من الجميع النظر والتفكير النظرى فى معرفة الله ، وتحكم على التقليد الذى لا أثر للتفكير فيه ، وفضلا عن هذا المطلب العام ، فكثير من رؤساء المدرسة الأشعرية التزموا فى كثير من النقط طريق المعتزلة ، وبقوا أمناء لمنهجهم ؛ هذا المنهج الذى لم يكتف إمامهم كما بينت آنفاً بملاحقته بهجمات اعتقادية ، بل نال منه وفتح فيه ثغرات بسهام مستعارة من الكنانة اللغوية .

والمتكلمون الأشاعرة لم يكترثوا كلية باحتجاجات أستاذهم ، بل ثابروا واستمروا على التوسع فى استعمال طريقة التأويل (انظر نحو هذا فيما تقدم) . وبغير هذا كان لا يمكن الفرار من التجسيم ، لأن إرادة توحيد الآراء الحنبلية والآراء الأشعرية كان طلب المستحيل . ولكن ماذا قال الأشعرى عن الطريقة التى انتصرت فيما بعد فى

سبيل الاستخدام السنى للتأويل ؟ كل الحيل لتفسير مُـكرَه [متعسف فيه] كانت موضع تفكيره [وانتفاعه] ، لإبعاد ما فى القرآن والحديث من التعابير المجسمة [عن الدلالة على التجسيم أو التشبيه] .

أما بالنسبة للقرآن فإن المعتزلة قد كانوا أتموا فى ذلك الزمن إتماماً كافياً العمل الضرورى فى هذه الناحية ، وأما الحديث فقد كان اهتمامهم من أجله أقل ؛ إذ كان لديهم هنا الوسيلة السهلة الميسورة ، وهى أن يعلنوا ببساطة عدم صحة الأحاديث التى توجد فيها تعابير شائكة ، وبذلك لا يشغلون أنفسهم بعد هذا بشىء من التفسير و التأويل العقلى .

ولكن المتكلم السنى لم يستطع اصطناع هذه الطريقة ، ولهذا نجد خطر فنه التفسيرى [أو التأويلى] يستند — عن تفضيل — إلى النصوص المتواترة . وكم كان قد امتد التجسيم ، وبصفة خاصة فى الحديث ، الذى نما بطريقة غير محدودة ! .

لنسمع ، مثلا ، نموذجاً استخرجناه من مسند أحمد بن حنبل « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم ذات غداة ، وهو طيب النفس مسفر الوجه أو مشرق الوجه » ، ولمّا سئل عن السبب قال « وما يمنعنى ؟ وأتانى ربى عز وجل فى أحسن صورة ، قال يا محمد ! قلت : لبيك ربى وسعديك ! قال فيم يختصم الملأ الأعلى[56] ؟ قلت لا أدرى أى رب . . . قال : فوضع كفيه بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى حتى تجلى لى ما فى السموات ومافى الأرض[66] » . وبعد هذا جاءت إشارات عن المحادثات فى الملأ الأعلى .

وقد كان يكون عملا عابثاً محاولة تجنب هذا التجسيم الغليظ بواسطة التأويل أو التفسير ، والمتكلمون العقليون لم يشعروا مطلقاً بانعطاف أو ميل للنصوص التى لم تقبل فى كتب الحديث المعترف بها ، وذلك كتلك النصوص التى ذكرناها آنفاً .

ومسئوليتهم تكون أكبر بإزاء النصوص التى توجد فى كتب الحديث المعتبرة والمعترف بها من أهل السُّنة جميعاً ؛ مثلا ، جاء فى موطأ مالك بن أنس « أن ربنا ينزل كل ليلة إلى السماء الأولى قبل الثلث الأخير من الليل ، ويقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من له حاجة فأقضيها له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ »[67] .

وقد استؤصل التجسيم من هنا بمساعدة التعمّل اللغوى الذى أمدتهم به خاصية الكتابة العربية القديمة التى لا تُرسم فيها الحروف المتحركة بالكتابة فى الكلمات ، فبدلا من « يَنزل »(٦٨) . يمكن أن يقرأ « يُنزِل » أى يُنزل الله الملائكة ، فيزول المكان المنسوب لله فى النص ؟ إذ يصير المعنى أن الله ليس هو الذى ينزل ، بل إنه يُنزل الملائكة الذين يقذفون بهذه النداءات باسمه [تعالى] .

ومثال آخر : الحديث الإسلامى أخذ من سفر التكوين (١ : ٢٧) هذه العبارة : « خلق الله آدم على صورته » [فكان تأويله أن] الله ليس له صورة ، وإذاً فالضمير يجب أن يعود إلى آدم ، فيكون المعنى أن الله خلق آدم على الصورة التى تلقاها آدم(٦٩) . وهذه الأمثلة [وسواها كثير] ، ترينا الطريقة أو المنهاج المستعمل كثيراً لحل الصعوبات أو المشاكل العقيدية ، بواسطة النقل والتبديل اللغوى النحوى .

وهكذا غالباً نراهم لجأوا إلى حيل من اللغة واشتقاقها ومعانيها المختلفة ، هذه الحيل التى تضاعف معانى الكلمات العربية ؛ مثلا : « الجحيم سوف لا ترضى حتى يضع الجبار قدمه فيها ، وحينئذ تقول حسبى حسبى ! »(٧٠) فجاء التفنن المتنوع الذى استخدمه [أهل السنة] فى هذا النص ، المضايق للفهم أو التصور المنزه لله ، يرينا معرضاً كاملا للحيل التفسيرية فى صالح المدرسة الأشعرية .

إنهم أولا اعتقدوا أنهم يجدون وسيلة خارجية تماماً تخرجهم من هذا المأزق ، فوضعوا فى متن الحديث ضميراً بدل الفاعل الظاهر [فى النص المتقدم] ، فصار النص : « الجحيم لن تكون ممتلئة حتى يضع قدمه فيها » ؛ ولكن من الذى يضع قدمه فيها ؟ هذا تُرك خافياً ، إلا أنه على الأقل ليس فى النص على هذه الصورة ما يُلزم أن يكون الفاعل الذى يعود عليه الضمير هو الله ، ولكن هذا كان خداعاً ولم يفيدوا منه شيئاً .

وآخرون أرادوا التخلص من ذلك الضيق مع اعترافهم أن الفاعل هو الجبار ، ولكنهم لا يجعلونه الله . إنه فى رأيهم يمكنهم بيسر أن يدللوا ، بحجج مأخوذة من لغة القرآن والحديث ، على أن هذه الكلمة يُعنى بها هنا العاصى المتمرد العنيد ،

فيكون الجبار الذى يضع قدمه فى جهنم ليس الله ، بل إنه شخص قوى قادر ، أى مجرم مُرسل إلى النار ، يضع تداخله الشديد القوى نهاية لتعمير جهنم .

لكن هذه الوسيلة تتكشف كذلك عن صعوبة عسرة عند امتحان عميق ، فإن معنى هذه الكلمة «الجبار» وإرادة الله بها ثابت من أحاديث مختلفة ، جاء فى بعضها بدلها « الله أو رب العزة » ، وإذاً يكون الفاعل هو الله بلا ريب ، وإذاً لم يخرج الأشاعرة من الضيق والحرج !

ولكن ما الذى لا يحاوله المفسر العقيدى ؟ اليأس يجعله أكثر تفنناً أيضاً ! فنه قد أخفق أمام الفاعل ، واللوم فى هذا هو المفعول ، [فلنتوجه إليه بالتأويل !] الفاعل بلا شك هو الله ، فهو الذى يضع قدمه ، ولكن كلمة « قدمه » لا يعنى بها الرجل حتماً ، فمن بين معانيها الكثيرة أنها تدل على « جماعة من الناس تُرسل إلى الأمام ، وإذاً فالله يضع هؤلاء القوم فى النار [لتقول حسبى حسبى] . غير أنه بكل أسف نجد حديثاً آخر ، أو رواية أخرى ، جاء فيه كلمة « رجل » بدل كلمة « قدم » ، فكيف يعمل الأشاعرة ؟ هل كلمة « رجل » تعنى بلا شك « القدم » أى العضو الخاص المعروف ؟

لا ، ليس فى الأمر شىء من هذا بالمرة ؛ فإنه لا يوجد « بلا شك » فى قاموس اللغة العربية ، كلمة واحدة يمكن أن يراد بها كثير من الأشياء ! كلمة « رجل » إذاً يمكن أن يراد بها أيضاً جماعة من الناس ، فيكون المعنى أن الله يضع جماعة من الآثمين طبعاً على باب جهنم ، وأنهم هم الذين يصيحون : كفى ، كفى !

إنه ـ فى الحق ـ قد تكلمت عن معرض من القوة التأويلية بخصوص هذه الجملة التى كانت موضوعاً لتآويل مختلفة ، ولكن الذين أرونا هذا المعرض ليسوا هم المعتزلة ، إنهم من الأشاعرة الخلّص . وكم صب مؤسس هذا المذهب نفسه على تلاميذه سيلا من حنقه وسخطه على فقه اللغة !

١٢ — على أن هذه الحركة العقلية للمدرسة الأشعرية إذا كانت استقبلت استقبالا طيباً كوسيلة للفرار من التجسيم الذى يراه الجميع شنيعاً ، فقد استقبحها المخلصون للحديث أى السنيون حقاً ، وهذه الحالة كانت مرتبطة بظرف آخر أو حالة أخرى .

طريقة الأشاعرة آلت القدامى من المؤمنين المتكلمين [أهل السلف] ، بسبب ما تربطها بمذهب المعتزلة من وشائج وصلات وثيقة العرى ، ونعنى بهذا المبدأ المشترك بين المعتزلة والأشاعرة ، وهو « أن البرهان المؤسس على العناصر النقلية لا يعطينا أى يقين » .

إن المعرفة التى لا تستند إلا إلى المصادر النقلية هى معرفة مشكوك فيها ، لأنها تتعلق بعوامل لا يمكن أن يكون لها إلا قيم نسبية لإثبات ما يراد من وقائع وحقائق متعددة ؛ تتعلق مثلا بالتأويل الذاتى ، وبالمعنى المرتبط بخصائص الصور البلاغية من مجاز واستعارة ونحوها .

وإنه لهذا لا يمكن أن تنسب قيمة مطلقة لمصادر مثل هذه المعرفة إلا فى مسائل العمل الشرعى ، وحتى فى هذه المسائل نراها تترك مكاناً لآراء مختلفة فى النتائج التى يمكن أن تستخرج منها ، وأما فى مسألة العقيدة فليس لها إلا قيمة ثانوية . فى هذه الناحية يجب أن يكون السير من الأدلة العقلية ، إنها فقط هى التى تسمح لنا بالوصول إلى اليقين(٧١) .

وفى هذا الاتجاه نجد ـ فى هذا الزمن الحديث جداً ـ المفتى المصرى المتوفى منذ قليل يتمكن من أن يضع فى الإسلام مبدأ هاماً جداً ؛ هو « أنه إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دل عليه العقل » . وهو « مبدأ ـ كما يقول ـ لايعارض فيه إلا قليل من الناس ، من هؤلاء الذين ليسوا محل الاعتبار(٧٢) » .

هذا ولو أن الأشاعرة سندوا فى العادة العقيدة السنية بأدلتهم العقلية ، وأنهم ـ مخلصين وأمناء لمبدأ أستاذهم ـ قد اجتنبوا أو احترسوا أن ينتهوا بأقيستهم إلى صيغ تخرج عن المذهب السنى المضبوط ، فإنه مع هذا كان الامتياز الذى منحوه للعقل على النقل فى التدليل للعقائد ممقوتاً فى رأى المدرسة القديمة التى لا تتساهل فى شىء فى هذه الناحية .

وماذا يجب أن يكون هذا إذاً فى رأى المجسمين عبيد الألفاظ والحروف ، الذين لم يكونوا يطيقون أن يسمعوا كلمة بخصوص الصفات المنسوبة لله فى الكتاب ؛ لا بطريق المجاز والاستعارة ، ولا وسيلة تفسيرية أخرى تقدمها لنا علوم البلاغة !

في رأى رجال المدرسة القديمة النقلية أو السلفية لم يكن إذاً فرق بين المعتزلة والأشاعرة . علم الكلام في ذاته ، في مبدئه ، هو العدو ؛ سواء أقاد إلى نتائج سنية أو بدعية[٧٣] وشعارهم هو « فرّ من الكلام ، في أى صورة يكون ، كما تفر من الأسد » .

وعاطفتهم يعبر عنها حديث أو قول حانق ينسبونه للشافعى ، وهو . « حكمى على رجال علم الكلام أنهم يجب أن يضربوا بالسياط والنعال ، وأن يطاف بهم مُشَهَّرين في المجامع والقبائل ، وينادى عليهم : هذا جزاء من ينبذ علم القرآن والسُّنة في ناحية وينكبّ على علم الكلام[٧٤] » . الكلام علم « إن أصاب المرء فيه لم يؤجر ، وإن أخطأ فيه كفر »[٧٥] .

المؤمن الحق لا يصح أن ينحنى أمام العقل ، وأنه ليس هناك حاجة للعقل في معرفة الحقيقة الدينية ، فهى محتواة في القرآن والسنة[٧٦] . ليس من فرق بين علم الكلام وفلسفة أرسطوطاليس ، فكلاهما يؤدى إلى الإلحاد والزندقة .

رجال الكلام لم يكونوا يستطيعون أن يستمدوا شيئاً من هذا القبيل من العقل ، الذى قصاراه تعقل حقائق الدين وقضاياه ، [أو جعل هذه الحقائق معقولة] . الإيمان والعقيدة مرتبطان بالمنقول وحده ، أما العقل فلا يستطيع أن يخاطر في هذه الناحية .

هكذا من الممكن أن يقال عن المذهب الأشعرى ، الذى أريد به المسالمة والتوفيق ، إنه أُخذ بين نارين ، وهذا هو نصيب كل نزعة تعمل على التوفيق والحكم بين غايتين أو طرفين . الفلاسفة والمعتزلة على خصومة مع الأشاعرة كما هو الحال مع الرجعيين ، وذوى العقول المضطربة ، والسطحيين ذوى العقليات التى لا تدع سبيلا للدخول معهم في نقاش أو جدل جدىّ .

إن نقد أو رقابة الأشاعرة للمعتزلة والفلاسفة لم يعفهم من لعنات المؤمنين القدامى ، وإن كان قتالهم لفلسفة أرسطوطاليس في صالح الدين قد شُكِروا من أجله قليلا .

١٣ ـ وفيما خلا علم الكلام الأشعرى بمعناه الخاص ، فإن الفلسفة الطبيعية للأشاعرة تستحق منا كذلك التفاتاً خاصاً .

من الممكن أن يقال عن هذه الفلسفة إنها تتكون من تصور الطبيعة الذى

يسود الإسلام السنى . فلسفة الكلام لا تعتبر مطلقاً كمذهب أو نظام محدد، ولو أنه يمكن القول بصفة عامة أن إدراكها أو فهمها الفلسفى للعالم يتبع – فى أغلب الأحيان والحالات – آثار الفلاسفة فى الطبيعة المشائية[٧٧] ، وخاصة أصحاب نظرية الجوهر الفرد .

فمنذ البدء، وحتى قبل العصر الأشعرى ، كانوا يلومون رجالها على عدم معرفة الطبيعة المستقرة للظواهر وخضوعها للقوانين الخاصة . ها هو ذا المعتزلى المعروف الجاحظ يذكر الاعتراض الذى وُجِّه إلى زملائه فى المذهب من ناحية الأرسطيين ، وهو أن تدليلهم على الوحدانية يتطلب نفى كل حقائق الطبيعة[٧٨] .

وخصوم آخرون ، جاهلون جماع هذه النظريات الفلسفية ومعناها العيمق ، أمكنهم أن يأخذوا على النظّام ، وهو واحد من أشجع ممثلى هذه المدرسة ، إنكاره لقانون عدم تداخل الأجسام[٧٩] . إنه يُنقل عنه حقيقةفكرة من هذا النوع . فكرة تكشف عن عقبى قبوله للفهم الرواقى للطبيعة[٨٠] .

وبرغم كفاح المعتزلة للفلسفة المشائية ، فقد ارتدوا أحياناً رداء أرسطوطاليسيا ، وأرادوا أن يصيروا أكثر قبولا (من الآخرين)بتحلّيهم ببعض الأزهار الفلسفية ، وهذا – بالإجمال – مالم يفدهم مطلقاً لدى الفلاسفة .

هؤلاء ينظرون باحتقار إلى طريقة علم الكلام ، ولا يعتبرون المتكلمين أكفاء لخصومتهم وأحرياء بالجدل معهم ؛ وإنهم لا يجمعهم صعيد واحد مشترك بينهم ، فلا يمكنهم إذاً أن يدخلوا وإياهم فى جدل جدى . « المتكلمون – كما يقولون – يدعون أن أحسن مصدرللمعرفة هو العقل .

ولكن هذا الذى يزعمونه هكذا ليس فى الحقيقة هو العقل ، كما أن منهجهم ليس له قواعد بالمعنى الفلسفى . إن الذى يسمونه عقلا ، ويزعمون أنهم به عقليون ، ليس إلا نسيجاً من خيال وهمى » .

ومن البديهى أن هذا الحكم من الفلاسفة أكثر انطباقاً على الأشاعرة منه على المعتزلة . إن الذى يقوله الأرسطيون والأفلاطونيون المحدثون – من القرن العاشر إلى الثالث عشر – عن أن الفلسفة الطبيعية لعلم الكلام ليست عقلية[٨١] ، يصيب فى

الأول الأشاعرة الذين ، في صالح مبادئهم البديهيةالعقيدية ، يضعون أنفسهم فى تعارض مع كل الأنظار التى تنتج عن ملاحظة القوانين الطبيعية واعتبارها .

إنهم يميلون مع البيرونيين « Les Pyrrhonistes »* إلى إنكار يقين مدركات الحواس ، ويمنحون المكان الأكبر إلى فرض الأوهام الحاسية ؛ وإنهم ينكرون قانون العلية أو السببية ، هذا « المصدر والمرشد والهادى أو البوصلة لكل علم عقلى » .

إنهم يرون أنه لا شىء فى العالم يحصل أو يحدث حسب قوانين ثابتة مع ضرورة حقيقية ، والمقدم ليس فى نظرهم سبب التالى أو علته ، وإنهم يحسون قلقاً شديداً فى مواجهة فكرة السبب أو العلة ، حتى لا يرضون أن يسموا الله العلة الأولى ، ولكن فاعل الطبيعة وظواهرها(٨٢) .

وكان من ذلك أن يقبلوا إمكان حدوث أشياء فوق الطبيعة ، فمن الممكن رؤية أشياء ليست فى مدى الرؤية مثلا ، كما أمكن أن يقال عنهم ـ سخرية بهم ـ إنهم يرون ممكناً أن يرى أعمى فى الصين بقة بالأندلس(٨٣) . وهم لهذا كله يستبدلون فكرة العادة بقانون الطبيعة .

إنه ليس بمقتضى قانون ، بل بمقتضى عادة مقررة عن الله فى الطبيعة (إجراء العادة) ، أن بعض الظواهر تتبع أخرى وتتوالى عنها ، وهذا التعاقب ليس مع هذا ضرورياً . من أجل ذلك ليس ضرورياً أن يجر فقدان الطعام والشراب إلى العطش ، ولكنّ هذين يكونان بالعادة عن ذلك الفقدان .

الجوع والعطش يحدثان من أن الحالة العارضة التى تتكون من الإحساس بالجوع والعطش تنضم إلى المادة ، أما هذا العارض فيبقى خارجا عن ذلك (والله قادر على إبعاده) ، والجوع والعطش يبقيان أيضاً خارجين بعيداً . والنيل يزيد وينقص حسب العادة ، لا على أثر علل طبيعية ، وحادث الفيضان إذا لم يحصل ، لا يتغير مستوى النهر ** .

---

* أى الشكاك أتباع بيرون .

** ذكر عن عقيدة الأشعرى أن الفيضان إذا لم يحدث لا يتغير مستوى النهر ، والعقيدة =

وفى وسعهم – كما يزعمون – أن يجدوا تفسيراً لكل شيء فى العالم بهذا الفرض ، وهو « إن كل ما يظهر لنا أنه نتيجة لقوانين ، ليس إلا عادة الطبيعة » . فالله قرر فى الطبيعة عادة أن بعض مجاميع النجوم توافق بعض الحوادث والظواهر ، فالمنجمون يمكن أن يكونوا إذاً على حق ، ولكنهم فقط يعبرون عن أنفسهم خطأ وزوراً[٨٤] .

وكل حادث يكون – إيجاباً أو سلباً – نتيجة خلق خاص من الله ، وإنه يتبع السير المعتاد للطبيعة ، غير أنه من الممكن أن يكون فى ذلك استثناء ، وحينما يغير الله نظام الظواهر الطبيعية يحدث ما نسميه معجزة وما يسميه الأشاعرة خرق العادة ، واستمرار العادة نتيجة لخلق مستمر .

لقد اعتدنا أن نعزو الظل لغياب الشمس ، ولكن لا شيء من ذلك بالمرة ! الظل ليس نتيجة لغياب الشمس ، إنه مخلوق ، وإنه لأمر واقعى ثابت . وهذا ما أجاز لعلماء الكلام أن يفسروا هذا النقل أو الرواية التى تقول إن فى الجنة شجرة يمكن أن يسير فيها الراكب مائة عام دون أن يخرج من ظلها .

وإلا ، فكيف يكون هذا متصوّراً أو مُدركا ما دامت الشمس ستتكور (سورة التكوير : ١) قبل دخول أهل الجنة الجنة ؟ من أين حينما لا يكون شمس يكون ظل ! الظل ليس له صلة بالشمس ، إن الله هو الذى يخلق الظل ، وهنا تماماً قد حصل خرق للعادة[٨٥] .

وهذه الفكرة عن الطبيعة نجدها فى كل إدراك أو تصور للعالم فى العقائد الأشعرية ، والأشعرى نفسه طبقها من قبل بسعة . إنه ينسب له مثلا المذهب الذى يرى أنه بمقتضى عادة الطبيعة لا يمكن أن يدرك المرء بحاسة النظر الروائح والطعوم إلخ ؛ الله كان قادرا على أن يعطى لحاستنا النظرية القدرة على إدراك الروائح أيضاً ، ولكن هذا ليس عادة الطبيعة[٨٦] .

هكذا العقيدة السنية الحرفية ، المؤسسة على المبدأ الأشعرى ، تبعد تماماً فكرة

= الأشعرية أن الفيضان إذا لم يحدث يتغير مستوى النهر ، بحكم ما أجراه الله من العادة ، والله مع هذا قادر ألا ينخفض مستوى النهر إذا أراد ألا يجرى الأمر على المعتاد .

السببية فى كل صورة من صورها · إنها لا تنكر فحسب عمل القوانين الطبيعية الثابتة والأزلية من حيث إنها أسباب لكل حوادث الطبيعة ، ولكنها تدفع أيضاً كل صيغ السببية التى تقترب من وجهة نظر علم الكلام ! وذلك مثل إن « السببية ليست أبدية ، ولكنها حدثت فى الزمان ، وإن الله هو الذى أعطى الأسباب قوة تسبب ـ بطريقة مستمرة ثابتة ـ الظواهر التى هى نتائجها »(٨٧) .

وإذا كان هذا الإدراك للعالم يطرد فكرة الصدفة ، فإن ذلك من أجل أنه يتطلب كشرط مقدم للفعل قصداً محدداً · ولكنه لا يعنى بإبعاد فكرة الصدفة من ناحية أن الفعل هو النتيجة التى لا يمكن تجنبها ، إلا لسببية طبيعية تترجم بالطاعة القانون .

وهذا الإدراك للطبيعة قدم فيما بعد مكاناً ملاءماً لكل متطلبات العقيدة ، أما السهولة التى أمدنا بها بصيغة للمعجزة فقد رأيناها آنفاً ، وكذلك أيضاً للتسليم بكل الأشياء فوق الطبيعية التى تتطلب العقيدةالإسلامية الإيمان بها . ما دام لا يوجد قانون وسببية ، لا يوجد كذلك معجزات أو شىء فوق الطبيعة مطلقاً .

إذا كان حادث الحياة متحدا أو ممزوجاً بعظام الميت المتعفنة البالية ، فإن البعث يكون ، إنه [أى البعث] نتيجة عمل خاص ، كما أن كل أعمال الطبيعة ترجع إلى أعمال خاصة وليس إلى قوانين ثابتة .

هكذا علم الكلام ، الذى تُقبِّل من المسلمين السنيين فى شكله الأشعرى ، عارض المذهب الأرسطى بمنهج يوافق جدا فى الدفاع عن العقائد . إنه ، منذ القرن الثانى عشر ، هو الفلسفة التى تسود الإسلام .

ومع هذا ، فإن مابه من دقة كان من الواجب أيضاً أن ترى خفض قيمتها التى لها سيادتها ، وذلك بمعادل جاء من تدخل عامل تاريخى دينى علينا أن نعنى ببحثه فى القسم الآتى .

٤

الزهد والتصوف

١ — كان الإسلام فى أول أمره ، تسوده فكرة اطراح العالم والزهد فيه ، وذلك فى نفس الوقت الذى غلبت عليه فيه فكرة التوكل والشعور بالخضوع المطلق .

ولقد بيّنا أن تصور هلاك العالم ، والحساب الأخير يوم القيامة ، هى التى أثارت فى النبى الدافع لأداء رسالته النبوية ؛ كما بعث فى نفوس أولئك الذين اتبعوه ، ميولا واستعدادات للزهد والتقشف ، فأصبح من شعار المسلمين ازدراء حطام الدنيا ، والتهوين من شأنها .

غير أن الرسول ، إذا كان قد أعلن حتى النهاية أن السعادة الأخروية هى الغاية من حياة المؤمن ، فإن من المحتم مع ذلك أن تمتزج بمحيط مشاغله وجهة النظر الدنيوية ، وأن تتصل به اتصالا قوياً مباشراً ، وذلك على الرغم من إرادته ورغبته .

كذلك ، غالبية العرب الذين انضووا تحت لوائه ، عقدوا الآمال فى الغالب ، على كسب الفوائد الميسورة التى عرضت لهم ، وعلى السعى للاحتفاظ بها ، ولم يكن بين هؤلاء الذين يمكن أن يتحدث عنهم الإسلام ، وهو فى نشأته إلا الأتقياء الذين يسمون بالقراء والبكائين ، أى الذين يبكون ندماً على ذنوبهم ؛ فترقب الغنائم كان دون ريب باعثاً ذا أهمية كبرى فى نشر الإسلام .

وهذا ما فطن إليه النبى ، حينما جدّ فى إثارة حماس جنوده بواسطة « المغانم الكثيرة » التى وعد الله بها المجاهدين* . وعندما نقرأ القصص القديم « لمغازى » النبى تدهش حقاً من بيان الأنصبة الجزيلة من الغنائم والسبايا ، التى تجمعت عن هذه الحروب ، وهذا ناموس طبيعى حتمى ، يترتب على كل حرب مقدسة .

غير أن النبى لم ينكر مع ذلك الغايات الأكثر سمواً التى ينبغى أن تُفْضى إليها

---

* سورة الفتح : ١٩ « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها » .

هذه الغزوات والحروب ؛ فقد ظلّ ينهى عن الاقتصار على التماس طيّبات الحياة الدنيا : « فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ * » ، « تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ** » ، فنغمة الزهد التى تتخلل التعاليم المكية الأولى بقيت كعنصر مذهبى اعتقادى فى الحالة الواقعية فى المدينة .

غير أن الحقائق قد شغلت أذهان الجماعة الإسلامية الصغيرة ، ودفعتها فى مسالك أخرى ، غير تلك التى كان يسير فيها الرسول فى بدء دعوته . ويحمل أتباعه على السير فيها .

بل قبل أن يغمض النبى عينيه ، وعلى الأخص بعد وفاته مباشرةً ، تحول المبدأ السائد إذن إلى مبدأ آخر ؛ ففكرة الزهد فى العالم حلت محلها فكرة فتح العالم *** ، التى يقود الدين المؤمنين إليها ؛ إذ عن النبى أنه قال : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله ، تُفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة» [(١)] .

ولم يكن هذا الفتح موجهاً نحو المثل الأعلى وحده ، لأن كنوز المدائن ودمشق والإسكندرية ، لم تسمح طبيعتها بإيجاد ميول للزهد والتقشف .

وإن القارئ لأخبار الغنائم ليذهل وتعروه الدهشة العظيمة ، التى يبعثها فى نفسه الوقوف على مقادير الثروات الكبيرة التى اقتسمها المجاهدون الورعون ، وتزوّد منها

---

* سورة النساء : ٩٤

** سورة الأنفال : ٦٧

*** يذكر أن محمداً صلى الله عليه وسلم تحول من الزهد إلى الطمع فى العالم ، « ففكرة الزهد فى العالم حلت محلها فكرة فتح العالم » . الزهد الكلى فى الدنيا لم يكن من شريعة الإسلام ، ولا مما عرف عن الرسول وأصحابه فى صدر الإسلام ولا فى آخره ، والإسلام داعٍ دين القوة والعمل وهو يرغب عن التبتل والرهبانية والانقطاع عن الحياة ، ومن دلائل ذلك ما نجده فى سورة القصص المكية : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

هذا هو المبدأ الذى يتجلى فى الإسلام فى أوله وفى آخره ، ورغبة الرسول فى الفتح ، وتوجيه أمته إلى ذلك ، إنما هو لنشر الدين الإسلامى ، الذى هو دين عام لخير العالم كله ؛ وقد كلف بتبليغه بحسب استطاعته وما يسعه زمانه ، وعلى خلفائه وسائر أمته أن يتابعوه فى هذا التبليغ . أما وقوع التفكير فى الفتح بعد الهجرة فكان لأن الأمر فى مكة ما كان ليتسنى معه مثل هذا التفكير ، ولأنه لم يكن قد جاء أوانه .

الأتقياء خلال العقد الثالث لنشأة الإسلام ؛ فاقتنوا الضياع الواسعة والعقارات الكبيرة ، وأقاموا الدور المنيفة التى شيدوها ، سواء فى وطنهم أو البلاد المفتوحة ، وأحاطوا أنفسهم بمظاهر النعمة والثراء .

وقد بيّنت المصادر التى بين أيدينا مقتنيات أعظم المسلمين ورعاً . ويمكننا أن نلقى نظرة على تركة الزبير بن العوام القرشى ، وهو صحابى بلغ من تقواه أنه عُدّ من العشرة الذين بشرهم النبى بالجنة ، لِقاءَ بلائهم الحسن فى الإسلام ، كما دعاه النبى حواريّه .

لقد ترك الزبير من الأموال العقارية ما تقدر الروايات المختلفة صافى قيمته بما يتراوح مابين خمس وثلاثين واثنين وخمسين مليوناً من الدراهم ؛ حقيقة إن الناس كانوا يلهجون بكرمه ويشيدون به ، غير أنه فى ثرائه كان لا يقل عن قارون ؛ وثبت أمواله المنقولة التى يملكها فى جهات مختلفة من البلاد المفتوحة ، لا يبدو أنه يدل على الزهد فى الدنيا ، فليس له بالمدينة سوى إحدى عشرة داراً ، فضلاً عما يملكه فى البصرة والكوفة والفسطاط والإسكندرية[٢] !

ويوجد صحابى آخر من العشرة الذين بشرهم النبى بالجنة ، وهو طلحة بن عبيد الله ، الذى كان يملك من العقار ما تقدر قيمته برقم صحيح لا كسر له ، وهو ثلاثون ألف ألف درهم ، وعند موته كان لا يزال لدى أمين خزائنه ، مبلغ إضافى قدره : ألفا ألف ومائتا ألف درهم .

وفى تقدير آخر ، قُدرت ثروته النقدية بمائة كيس من الجلد ، يشتمل كل كيس منها على ثلاثة قناطير من الذهب[٣] ، وهو عبء ثقيل ينوء به المرء وهو فى طريقه إلى الجنة !

وتوفى بالكوفة قريباً من هذا العهد (٣٧ هـ/٦٥٧ م) رجل ورع اسمه : الخبّاب ابن الأرتّ ، نشأ فقيراً بائساً ، وكان فى شبابه قيناً بمكة ، وهى مهنة لم تكن محترمة وفقاً للتقاليد العربية فى ذلك العصر[٤] . وقد اعتنق الإسلام ، فناله بذلك أذى شديد من المشركين ، الذين كانوا يعذبونه بالحديد المحمى ، ويذيقونه صنوفاً أخرى من العذاب ، ولكنه ظلّ قوى الإيمان لا يتزحزح شعرة ، واشترك اشتراكاً فعلياً فى غزوات النبى .

وحينما كان هذا المؤمن الصادق الإيمان طريحاً على سرير الموت بالكوفة ، أمكنه أن يدل على صندوق جمع فيه أربعين ألف درهم ، ولم يكتم تخوفه من أن يكون الله قد أناله مقدماً ، بهذه الثروة ، الثواب الذى سيجزيه به على ثباته على عقيدته[٥] .

وإن ما كان يناله المجاهدون والمؤمنون ، من الأنصبة الجزيلة من الغنائم فى وقت الحرب ، ومرتبات العطاء فى وقت السلم ، قد أتاح لهم الفرصة المواتية لجمع مثل هذه الثروات الكبيرة ؛ ففى حروب عبد الله بن أبى السرح بشمال أفريقية فى عهد الخليفة عثمان ، كان نصيب كل فارس من الغنائم ثلاثة آلاف مثقال من الذهب ، وَمَنْ أبى قبول العطاء الذى أجراه أبو بكر وعمر ، مثل الحاكم ابن حزام ، كانوا من الندرة بمكان[٦] .

وكانت البواعث الغالبة التى دفعت بالعرب إلى القيام بالفتوحات ، هى الحاجة المادية والطمع[٧] ، كما فصّل ذلك فى دقة عظيمة « ليونى كايتانى » ، فى عدة فقرات من كتابه عن الإسلام* ، وهو ما يسهل تعليله بالنسبة للمركز الاقتصادى لبلاد العرب ، الذى خلق الحافز إلى الهجرة من البلاد التى أصابها الفقر والاضمحلال ، واحتلال الأقاليم الأعظم ثراءً وخصباً . وقد هَشَّ العرب للدين الجديد ورحّبوا به ، على اعتبار أنه ذريعة لحركة الفتح هذه ، التى كانت تدعو إليها الضرورات الاقتصادية[٨] .

غير أنه لا ينبغى أن نزعم — اعتماداً على ما سبق ذكره — أن هذه النيات الجشعة كانت وحدها هى الدوافع الغالبة على المسلمين فى الحروب الدينية التى نشبت فى العصور الأولى للإسلام ؛ لأنه كان هناك دائماً ، بجانب المجاهدين الذين « يقاتلون على طمع الدنيا » ، آخرون « يقاتلون على الآخرة »[٩] ، ولكن هذا المبدأ الأخير لم يؤثر دون ريب على الصفة الصحيحة المتغلبة على استعدادات جمهور المقاتلين وميولهم .

---

* ذكر المؤلف أن البواعث الغالبة التى دفعت العرب إلى القيام بالفتوحات هى الحاجة المادية والطمع . وقد علمنا الدافع إلى الاهتمام بالفتح ، وأن الرغبة فيه كانت لنشر الدين وتكوين دولة إسلامية عالمية ، وأما المال فلم يكن القصد إليه إلا أمراً ثانوياً . وقد روى الطبرى فى حوادث السنة المائة أن عمر بن عبد العزيز كتب لعامله على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى بوضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، فكتب إليه أن الناس سارعوا للاسلام فراراً من الجزية لا حباً فيه ، فكتب إليه عمر بتأكيد وضع الجزية عمن أسلم ، لأن الله — كما قال — بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً .

وهكذا صار التحول المواتى الذى اصطبغت به شئون الإسلام صبغة ظاهرية ، عاملاً من العوامل التى جعلت الدين الجديد ينبذ وراء ظهره ، منذ عهد سحيق فى تاريخه ، أفكار الزهد والتقشف التى غلبت عليه فى أول أمره . فالاعتبارات الدنيوية المحضة ، والأمانى المادية ، هى التى أمكنها أحياناً أن تشبع المساهمة الحماسية فى نشر الديانة المحمدية ، حتى أمكن أن يقال — منذ الجيل الذى تلا عصر النبى — إنه فى هذا العهد ينبغى أن يُعد كل عمل صالح ، عملاً له صبغتان : « لأنا كنا مع رسول الله تهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا ، وإنّا اليوم مالت بنا الدنيا »[١٠] .

٢ — وإن ضعف حركة الزهد وتراجعها ظلّ يزيد دون توقف ، حينما دأبت دولة الأمويين ، وقد أخذت بزمام الأمور ، فى التضييق على الروح الدينية ، وذلك لأسباب سياسية ، فلم تتجه الروح العامة على وجه الدقة نحو الأولياء والصالحين .

وقد ورد حديث للنبى يصور لنا شعور الأتقياء : « هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده ، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

فإنفاق الكنوز التى غنمها المسلمون فى « سبيل الله » لمصلحة الفقراء والمحتاجين ، اعتُبر فى الأحاديث التى أوردته وأمرت به أشبه بتعويض عن الروح المادية التى نشأت من حركة الفتح[١١] ؛ ولكن قلما صادف هذا ميلاً فى نفوس القوم الذين كان لهم أن يتصرفوا فى هذه الأموال المكتسبة ، وأن يعملوا على الاستفادة منها .

ذلك بأن الكنوز التى جُمعت وكُدّست خلال الفتوحات ، وزيد من ثمرتها وريعها زيادة مطّرده لا تنقطع ، وذلك بانتهاج وسائل بارعة للتنظيم والاستثمار ، لم توجد هنالك فحسب لتُنفق « فى سبيل الله » : أى فى سبيل أغراض خيرية ؛ فقد رغبت الطبقات التى آلت إليها هذه الأموال ، فى أن تتخذ منها وسيلة للاستمتاع بالدنيا ، ولم يرغبوا فى الاقتصار على جمع الكنوز للآخرة .

وتحكى إحدى الروايات المأثورة عن « معاوية » حاكم الشام فى عهد الخليفة عثمان ، والذى أسس فيما بعد الدولة الأموية ، أنه وقع خلاف بينه وبين الصحابى

الورع أبى ذرّ الغِفارى فى موضوع الآية : « والذين يكنِزونَ الذَّهَب والفِضَّة ولا يُنفِقونها فى سبيلِ اللهِ فبشِّرهُمْ بعَذابٍ أليم » .

فقد رأى رجل الدولة معاوية ، ذو النزعة الدنيوية ، فى هذه الآية تحذيراً لا يمكن أن ينطبق على الظروف الواقعية للدولة الإسلامية ، ولكنه تحذير مُوَجَّه إلى رؤساء الديانات الأخرى بالنسبة لجشعهم ومطامعهم ، وهو ما تصدت له الآيات السابقة لهذه الآية .

بيْنما الرجل التقى أبوذرّ رأى عكس ذلك ، وقال بأن هذه الآية «نزلت فينا وفيهم» ؛ وهذا لم يتفق بتاتاً مع آراء معاوية الذى عدّ تفسير أبى ذرّ بالغاً من الخطورة درجة أوجبت رفع أمره إلى الخليفة الذى أمر بإشخاص أبى ذرّ إليه فى المدينة ، ثم أبعده فى قرية مجاورة كيلا يؤثر بتعاليمه — التى يذهب فيها إلى ازدراء الحياة الدنيا — فى الرأى العام بشكل مخالف للروح السائدة[١٢] .

إن فى ذلك ما يصور لنا العقلية الغالبة التى كان على مفسرّى المذاهب الدينية أن ينحنوا أمامها ؛ أما القوم الذين كانوا يمثلون المثل الأعلى الأول للإسلام ، وهو فى نشأته ، فقد عُدّوا غرباء فى هذه الحياة الدنيا ؛ هؤلاء الذين دعوا كأبى ذرّ باسم النبى إلى هذا المبدأ ، وهو : « أى مالٍ ذهبٍ أو فضةٍ أُوكى عليه فهو جمرٌ على صاحبه ، حتى يُفرِّغه فى سبيل الله » وهم أيضاً القوم الذين لم يرغبوا فى أن يعتبروا مَنْ أقام الدور الشاهقة وامتلك الضياع الواسعة ، واقتنى القطعان الكبيرة من الماشية[١٣] ، إخواناً لهم ، مهما بلغ من إخلاصهم وبلائهم فى الإسلام .

وفى الحق كثيراً ما يصادفنا فى وثائق الفكر الدينى دلائل الاستنكار الصريح غير الخفى للزهد المتجاوز للحدّ المألوف لما تتطلبه أحكام الشرع ، مع أن النبى فى السنوات العشر الأولى من بعثته كان دون ريب يحبّذه بلا قيد أو تحفظ ، وهذا يدل على أننا الآن نواجه روحاً طرأ عليها تعديل كبير .

وهنا كان على الحديث أن يقدّم الوثائق المعزّزة لهذا التعديل ؛ فالطموح إلى المثل العليا الأخروية ، لم يتيسر بطبيعة الحال محوه من النظرية الإسلامية للكون ، بل تحتّم أن يساهم فى القوة والأهمية رعايةُ المصالح الدنيوية .

وفى هذا المعنى استُشهد بإحدى تعاليم النبى المجانسة لنظرية أرسطو وهى التوسط فى الأمور ، فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم : « ليس خيرُكم من ترك الدنيا لآخرة ولا الآخرة للدنيا ، ولـكن خيركم من أخذ من هذه وهذه[١٤] » . وقد ورد فى كتب الحديث أمثلة للزهد المتطرف بصورة تدل على استهجان النبى لها .

ومن أبرز الوثائق ، وأكثرها دلالة فى هذا الصدد ، ما ينحصر فى الروايات المتصلة بميول الزهد عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبوه أحد مشاهير القواد فى الصدر الأول للإسلام ، فإنهذه الروايات تصوره بماينافض أباه مناقضة تامة ، وتجعله من أتقى الصحابة وأقواهم حماسة فى الدين ، وأشدهم غيرة وتدقيقاً فى اتباع السُّنة[١٥] .

وقد بلغ النبى أن عبد الله هذا فرض على نفسه صـوماً دائماً ، وأنه حرم عينه الرقاد ليقضى الليل فى تلاوة القرآن ، فنصحه وجَدَّ فى زجره ليقتصر فى عادات زهده على الحد المعقول .

ومن قوله صلى الله عليه وسلم له : « فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزَوْرك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً[١٦] » . كما قال أيضاً : « لا صَامَ مَنْ صَامَ الأَبد » ، أى لا يثاب على مثل هذا الصوم[١٧] .

وتنسب للنبى أقوال كلها ذم وتأنيب لهؤلاء الذين يهملون مصالحهم الدنيوية ، لـكى يتفرغوا لأداء ما لا نهاية له من عبادات ما بين فرض ونفل* ؛ ففى ذات مرة أطرى الصحابة للنبى رفيقاً لهم فى السفر ، كان لا يعمل شيئاً سوى تلاوة الأدعية طالما كان راكباً ، وإقامة الصلاة عندما كانوا ينزلون ، فسأل النبى : « فمن كان يكفيه علف بعيره وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا ، قال : فكلـكم خير منه[١٨] » .

وتوجد أحاديث كثيرة خاصـة بالمغالاة فى التـكفير والتوبة وصنوف التعذيب الجسدى واحتمال المشقات اختياراً وزهداً ، وهى أمور كان يُعَدّ رجل اسمه أبو إسرائيل أنموذجاً لها[١٩] ، وكلها تـكشف عن اتجاه واضح لا شك فيه ، يرمى إلى التصريح

---

* يذكر أنه تنسب للنبى أقوال كلها ذم وتأنيب لمن يطرح الدنيا ، ويتفرغ للعبادة وحدها . هذه الأحاديث إن صح سندها وأخرجها الثقات فهى مقبولة ، وما لم يصح منها لا يقبل ، وليس من مبادئ الإسلام اطراح الدنيا كلية والتفرغ للعبادة وحدها كما علمنا .

بأن مثل هذه الأعمال لا يثاب عليها ، أو أنها على الأقل ضئيلة القيمة من الناحية الدينية : « لو كان جريج الراهب فقيهاً عالماً ، لعلم أن إجابته لأمه أفضل من عبادته لربه عز وجل[٢٠] » .

وقد وجه الرسول أقوى ما عُرف عنه من لوم إلى العزوبة ، فقد مال رجل يدعى عكاف بن وداعة الهلالى إلى هذا النوع من الحياة ، فنال من النبى هذا الدرس : « فأنت إذن من إخوان الشياطين ، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم ، وإن كنت منا فمن سُنّتنا النكاح[٢١] » .

وينسب أيضاً للنبى عبارات شديدة من هذا القبيل وجهها لهؤلاء الذين يريدون أن يتجردوا عن أموالهم ، بإنفاقها فى أعمال البر ، فيكون من ذلك إلحاق الضرر بأسرهم ذاتها[٢٢] .

ويتفق مع هذه التعاليم النبوية ، المتعلقة بحالات فردية خاصة ، المبادىء العامة التى تنسب إلى الرسول : « لكل نبى رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله »[٢٣] .

وهذه عبارة لها خطرها الكبير ، لما تقرره من تضاد ومقابلة بين حياة التقوى والتأمل فى الصوامع المنعزلة المنقطعة ، وحياة العمل الحربى النشيط ، وهو تضاد نوهنا به ، ورأينا أنه على وجه التحقيق كان العامل الأكبر فى اختفاء نزعات الزهد والتقشف فى الصدر الأول للإسلام .

وعند النظر فى الأحاديث النبوية القادحة فى الرهبانية ، ينبغى أن لا يعزب عن البال مظهرها الجدلى المقصود به نقد حياة الزهد فى المسيحية ، والنبى فى كثير من المسائل المذهبية يتخذ فى هذه الأحاديث موقف المعارضة للصوم المسرف المجاوز للحدود الشرعية : « المؤمنُ القوىُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف » ، « فى كل لقمة يتناولها المؤمن ينال بها ثواباً من الله » ، « الطاعمُ الشاكر خيرٌ من الصَّوام الزَّاهد[٢٤] » .

وليس من الفضيلة أن يتجرد المرء عن أمواله ويصير متسولا يتكفف الناس ، بل إن الزكاة ليست واجبة إلا إذا وُجد ما يفيض عن الحاجة ، وحتى فى هذه اللحظة

يجب أن يكون البر بالأسرة وذى القربى فى المحل الأول [٢٥] . ويغلب على هذه التعاليم فكرة أن الشريعة هى التى تحدد مدى الزهد فى متاع الدنيا ، وأنه فيما خلا أحكامها لا يستحب التقشف فى أية صورة من الصور .

وليس مما هو عديم الأهمية بصدد الموضوع الذى نعالجه ، أن ننبه مرة أخرى إلى قلة الاستيثاق من صحة ما يمكن أن يكون قد جرى على لسان النبى حقيقة ، من الأقوال التى سبق لنا الاستشهاد بها كأحاديث مروية عنه ومرتبطة باسمه .

فإنه مع ما أولاه من اهتمام لمقتضيات الحياة الدنيا ، ومع ما طالب به من التسامح لنفسه ، كان يشعر بتقدير عظيم — كما يتضح من كثير من الآيات القرآنية [٢٦] — للزهاد الصادقين التوابين الذين نذروا أن يصرفوا حياتهم فى الصلاة والصيام ، وقد يستثنى من هذا التقدير أمر واحد وهو العزوبة . وأقرب الروايات لآرائه هى تلك التى تحبذ الزهد أى الكف عن متع الحياة الدنيا جميعها ، وذلك كفضيلة سامية نال بها الزاهد القبول والمحبة عند الله [٢٧] .

غير أن ما هو أعظم أهمية ، هو تقرير الكيفية التى جلت فكرة الحياة المضادة للزهد ، التى أوجدتها ظروف السياسة الخارجية الإسلامية ، وذلك عن طريق ما أسند إلى النبى من أقوال وآراء ، وضعت وضعاً على النسق الذى بسطناه فى القسم الثانى .

ويتجلى هذا الاتجاه فى منحى آخر من مناحى الآداب الحديثية ، أعنى به الأخبار المتعلقة بسيرة النبى والصحابة . ومما يجعلنا أقدر على ملاحظة قوة الروح المناوئة للزهد ، تلك الصفات الدقيقة الصميمة التى تركها الحديث تنساب — بطريقة لا شعورية — إلى التصوير الخلقى الذى رسمه لأئمة السلف وأصحاب المُثُل العليا الدينية ، بل أن سيرة النبى مليئة بهذه الصفات .

ويمكننا أن نقرر دون ريب ، بصفة عامة ، أن ميل النبى للنساء ميلا كان مطّرداً فى الزيادة ، وذلك كحقيقة تاريخية مدعمة بالأدلة والأسانيد ، وإنها مع ذلك ظاهرة فريده منقطعة النظير فى الأدب الدينى عند مختلف الأمم والعصور ، وهى تلك التى يعرضها الإسلام فى أخباره النبوية ؛ إذ لم يحدث أن مُثِّلت صورة مؤسس دين من الأديان ، وأظهرت جوانبها الإنسانية فى قالب إنسانى بحت كما مثلت الأحاديث مؤسس

الإسلام[٢٨] ، وذلك من غير تشويه أو مساس بالصورة المثالية التى كونت عنه .

وفى البيئات الزاهدة التى كانت تعد الزهد مثال الحياة الكاملة نهوا عن الاقتداء بهذه الخصائص البشرية ، أو نصحوا بالاعتدال والقصد فيها ، بل استخدموها لتفسير بعض الآيات : « قُلْ إنما أنا بشرٌ مثلُكم » .

وليس ما يدل على الاهتمام بمحاولة إقصاء صفة التأثر بالنزعات البشرية عن النبى ، ولكن أصحاب السير يجتهدون — على نقيض هذا — أن يقرّبوا النبى للمؤمنين من الناحية الناحية البشرية تقريباً صريحاً واضحاً ، وأن يؤكدوا هذا للخاف فى العصور التالية ؛ فقد روى عنه أنه قال : « إنما حبب إلىّ من دنياكم النساء والطيب » ، مع هذه الإضافة : وجُعلت قرّة عينى فى الصلاة »* .

وكثيراً ما سنحت الفرصة لأن تغدق عليه صفات شديدة الغرابة عنه ، بل مضادة لنزعة الزهد ، كما أن هذه الروايات تجعله بحق موضع اتهام خصومه الذين أخذوا عليه أنه لا يشتغل بغير النساء مما لا يتفق وصفة النبوّة[٢٩] .

وإنا نستطيع أن نستخلص بيانات مماثلة لهذه ، من الملاحظات الصميمة الدقيقة المتعلقة بالسير والتراجم التى وصلتنا عن « الصحابة » الورعين . ونحن اليوم أقدر من أى وقت مضى على التعمق فى دراسة هذه الناحية من روايات السير فى الإسلام ، وذلك منذ ظهور الطبعة التى لا تزال جارية** للكتاب الكبير « طبقات ابن سعد » ، الذى جعل فى متناول يدنا مصدراً غنى بالخصائص الدقيقة والتفاصيل الشخصية للحياة الخاصة لأقدم أبطال الإسلام ، وهى التى أهملتها المصادر الأخرى ، وأوردها ابن سعد كجزء من مادة التراجم وأخبار السير .

---

* يرى المؤلف أن جملة « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » زيادة أضيفت إلى حديث : « حبب إلى من دنياكم النساء والطيب » وليتنا نعلم ما الذى رابه فى هذه الجملة حتى حكم بزيادتها ! هل كان فى حياة الرسول العملية ما لا يتفق مع مضمون هذه الجملة ؟ لقد كان النبى مقيما على الصلاة ويهش لاستقبالها ، ويقول : « أرحنا يا بلال » ؛ وكان ، كما روى أبو داود ، إذا حزبه أمر صلى ؛ كما كان يصلى فى السلم والحرب وفى شدة الخوف ، وشرع ذلك كله للمسلمين . والحديث بهذه الزيادة رواه الثقاة ولا مغمز فيه ولا مطعن ؛ ولكن المؤلف ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، ميلا مع الهوى ومجانبة للنصفة !

** هذه الطبعة كملت عام ١٩٢٨ .

ومما يسترعى النظر أن هذه التراجم تعرض بطريقة عادية بيانات تناقلها الرواة ، وبسطوا بها ما اعتادته هذه الشخصيات الورعة من تعطّر وعناية بشعر اللحية وشعر الرأس ، وكيف كانوا يتأنقون ويتحلون بفاخر الثياب[٣٠] ، وكيف كان للطيب عندهم مكانة خاصة مع أن الأتقياء الذين هم أعداء ألداء لفنون التزين دأبوا على ذمّه واستنكاره.

فمثلا يحكى عثمان بن عبيد الله عن ذكريات سنى تعلّمِه أن الطيب كان يجاوز خياشيم الصغار عندما يمر أمام المدرسة أربعة أشخاص أورد أسماءهم ، كان بينهم أبو هريرة أحد كبار رواة الحديث[٣١] .

ويروى أيضاً بأسلوب يدل على التحبيذ والاستحسان ما كان يبديه قوم ، عُرفوا بأنهم أنموذج التقوى والورع ، من زهو ومباهاة بما يرتدونه من فاخر الثياب ، وليس من النادر أن يقرأ أنهم كانوا يرتدون الملابس المخملية .

ولتبرير مثل هذا الترف استُعين ، كما جرت بذلك العادة ، بحديث مروى عن النبي : « إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » . واستناداً إلى هذا المبدأ لام النبيّ قوماً ، فى سعة من العيش ، كانوا يبدون أمامه فى هيئة زرية[٣٢] . وواضح أنه ليس فى هذا أثر من آثار التقاليد الدينية التى تجد مثلها الأعلى فى ازدراء متاع الدنيا .

وأود أن أخص بالذكر مثالا من الأمثلة العديدة التى تعرض لنا فى المصادر القديمة ، والتى تبرز لنا طابع الحياة الإسلامية فى الصدر الأول ، وكذا اتجاهها فى البيئات التى عنيت بغرس هذا التقليد ، وهذا المثال هو خبر قصير يوضح بصورة ساذجة الحقيقة التى عنينا بالكلام عنها .

ها هى ذى صورة محمد بن الحنفية بن على ، الذى عظّمه جمّ غفير من المتدينين الأتقياء على اعتبار أنه المهدى الذى اجتباه الله لتحرير الإسلام ، وأنه الممثل للفكرة « الثيوقراطية » فى عهد الخلفاء الأمويين الأوائل الذين ندد بهم المسلمون كفجرة غاصبين ، وقد نال أبوه علىّ بن أبى طالب قبل مولده شرف تسمية النبى له ، فتسمى كالنبى باسم « محمد أبى القاسم » .

وكان من هذا أن أصبح ابن الحنيفة فيما بعد موضع العقيدة الشيعية الخاصة بالخلود الجثمانى والرجعة ، وهما صفتا من يختاره الله لهداية البشر ويعرف بالمهدى ، وهو اعتقاد سندرس دقائقه فى القسم التالى ، كما كان معقد رجاء وإيمان الأتقياء وموضع ثناء الشعراء المتصلين به . غير أنا نقرأ الخبر الصغير التالى ، من أخبار التراجم وروايات السير المتعلقة بهذه الشخصية الورعة .

روى أبو إدريس : « رأيت ابن الحنفية يخضب بالحناء والكَتَم . فقلت له : أكان علىّ يخضب ؟ قال لا ، قلت فما بالك ؟ قال : أتشبب به للنساء[٣٣] » . وقد حوول عبثاً البحث عن اعترافات شبيهة بهذه فى سير الأولياء السوريين والأحباش .

وفى الحق إذا نظرنا لأخلاق هذا المهدى على ضوء الحقائق التاريخية ، نرى أنه كان فى الواقع ، كما هو الظاهر ، رجلا ذا عقلية دنيوية ، وأنه لم يكن قط بعيداً عن لذاذات الدنيا ومُتَعها[٣٤] ، ومع ذلك فقد كان يمثل المصالح الدينية المقدسة فى سبيل السنن والتقاليد الإسلامية .

ولم يشعر أحد بأدنى تناقض بين إمامة ابن الحنفية ، وبين اعترافه السابق الذى يعسر انسجامه مع إمامته والذى ربما وُضع على لسانه قصد الدعاية . ويمكننا أن نسوق إلى جانب هذا أمثلة أخرى كبيرة من سير سلف الصدر الأول ، وذلك لكى نوضح ما بينا أنه من تعاليم النبى .

٣ — غير أن هذه الحكم والمبادىء لم تكن لتستطيع أن تبرز للوجود لو لم يكن قد بدا حين ظهورها أثر تيار آخر شعرت به الجماعة الإسلامية ، وهو تيار ساعد على تقوية روح الزهد فى الإسلام ، ورأى فى هذه الروح المظهر الحقيق الصافى للحياة الدينية .

وقد ذكرنا أنه وُجد أتقياء[٣٥] عدُّوا التزين والتأنق فى الملبس انتهاكاً للمثل الأعلى للحياة الإسلامية ؛ وطبيعى جداً أن تصادف بين هؤلاء القوم أبا إسرائيل الذى قال عن عبد الرحمن بن الأسود ، وهو شخصية موقرة عظيمة القدر فى المجتمع الإسلامى ، إنه كان يرتدى ثياباً تختلف اختلافاً كبيراً عن ثياب التائبين : « كنت

إذا رأيت عبد الرحمن بن الأسود قلت إنه دهقان من دهاقين العرب فى لبوسه وتمطره ومركبه »(٣٦) .

وقد تجلى هذا الميل الزهدى خاصة فى العراق بعيد الفتح الإسلامى وفى صدر الخلافة الأموية ؛ فى هذا الإقليم وجد كثيرٌ من هؤلاء النساك ، وقد أطلق عليهم بصفة عامة اسم « العُبّاد » أى الذين يعكفون على عبادة الله ، وهم قوم مثل مِعْضد بن يزيد العِجْلى الذى اشترك فى فتح أذربيجان فى عهد الخليفة عثمان ، والذى خرج مع من أصحابه إلى الجبّانة « يتعبّدون »(٣٧) .

ويمثل الربيع بن خُثيم الكوفى بأسلوب حياته وآرائه ، النمط الكامل لهؤلاء القوم ؛ لأنه لم يستثر اهتمامه قط أمرٌ من أمور الدنيا ، إلا إذا كان ليعرف « كم للتَّيْم مسجد » ، ولم يسمح لابنته الصغيرة بأبسط ألعاب الطفولة وأكثرها براءة ، وكان بطبيعة الحال يأبى إباء صادقاً أن يغشى الملاهى المأخوذة عن الفرس ، كما كان يزهد فيما يؤول إليه من غنائم الحرب ويتصدق به(٣٨) .

وينبغى أن نؤكد هذه الحقيقة الفرعية ، وهى أن الزهد عند هؤلاء القوم لم يصل بهم — كما أظهر لنا المثالان السابقان — إلى حد نبذ المشروعات الحربية التى كانت فى الحقيقة وسيلة إلى نشر الدين .

فى هذا العصر الإسلامى الغابر نتبين الكثير من مناقب الزهد والتقشف فى سِير هؤلاء القوم الذين أبلوا البلاء الحسن فى الحروب الإسلامية ، ولا غرو فإننا نجد فى الحديث الذى ينفى الرهبنة وينهى عنها هذه الجملة : « ورهبانية أُمتى الجهاد فى سبيل الله » .

وكلما مالت الحياة العامة نحو المصالح المادية والملاذ الدنيوية ، كلما وجد هؤلاء الذين نشدوا المثل العليا الإسلامية ـ وذلك فى نهاية الصدر الأول ـ أسباباً وبواعث تدفعهم إلى إبداء استهجانهم وسخطهم ، متخذين لأنفسهم موقفاً خاصاً لا يحيدون عنه ، وهو نبذ كل غاية دنيوية .

وأصحاب هذه النزعة أتوا فيما رووه من تراجم الصحابة والرعيل الأول ، الذين

كانوا فضلاً عن سابقتهم فى الإسلام أبطالاً فى الجهاد ، بأخبار النسك والزهد التى تنسب إليهم رغبة فى إظهارهم كنماذج للنفسية الزاهدة[٣٩] ، وطمعاً فى حمل صحيحى الإيمان من المسلمين على استنكار الروح الغالبة على العصر الذى عاشوا فيه .

وفى الواقع نستخلص مما جاء فى هذه الروايات بأن الميل إلى الزهد كان مرتبطاً بالثورة على السلطة القائمة ، وقد أجرى تحقيق فى خلافة عثمان مع رجل اشتهر بلعن الأئمة وعدم الاشتراك فى صلاة الجمعة ـ لكى يحتج بهذا على الحكومة القائمة ـ وعاش نباتيا وعزباً[٤٠] .

وهكذا لجأ كثير من المسلمين ، احتجاجاً على ما ينكرون من حكومة ونظام إلى حياة الاعتكاف والزهد ، وكان الشعار الذى نقشوه على لوائهم . « الفرار من الدنيا » .

ويُضاف لهذا سببٌ خارجى خطير الشأن ، فقد رأينا أن كثيراً من الأحاديث والحكم المعارضة للزهد عليها طابع جدلىّ غير خفىّ ، يُقصد به دحض الميول النسكية فى الديانة المسيحية ؛ ذلك بأن الزهد المسيحى كان فى بداية انتشار الإسلام أو فى نماذج الزهد للمسلمين وأقربها إلى حسّهم ، بما كان فيه من تطبيق لفكرة الزهد تطبيقاً عملياً فى الحياة .

وسببه أيضاً أن أولئك المسلمين الذين قوى فى نفوسهم المجافاة القوية لمُتعَ الحياة الدنيا ، أخذ بلبهم فى البداية نسك رهبان المسيحية وتأثروا بهؤلاء السائحين التائبين أثراً قوياً ، وهم التائبون الذين ورد ذكرهم فى الشعر العربى القديم قبل عهد النبى ، هذا الشعر الذى صور للعرب حياة النسك وبينّها لهم .

وفى كثير من مقطوعات الشعر الجاهلى كانت عادات وتقاليد رهبان المسيحية وراهباتها موضع ملاحظات وموازنات مختلفة[٤١] ، وهى التى أوحت بكلمتى : « سائحين وسائحات » ، أى الرُّحَّل من الجنسين إشارة إلى الأتقياء الزاهدين من المسلمين .

وقد وردتا بالقرآن بالآية ١١٢ من سورة التوبة : « التَّائِبُونَ العابِدُونَ الحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بالمعروفِ والنَّاهونَ عن المنكرِ » ، وبالآية الخامسة من سورة التحريم : « عسى رَبُّهُ إنْ طلقَكُنَّ أنْ يُبْدِلَهُ

أزواجاً خيراً منكُنَّ مُسلماتٍ مُؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيِّباتٍ وأبكاراً » .

وإذاً كانت صورة الرهبان السائحين حاضرة فى ذهن النبى ، ولابد أنه رأى عدداً كبيراًمنهم قبل بعثته(٤٢) . وفى رواية أخرى للحديث الناهىعن الرهبنة : « لاسياحة فى الإسلام » ، فكلمتا « رهبانية » و « سياحة » مترادفتان تماماً(٤٣) .

من أجل هذا يلاحظ أن انتشار الإسلام وخاصة فىالشام والعراق ومصر ، أفسح للنفوس المتعطشة للزهد هذا المجال الروحى ، وبسط رواقه إلى حد كبير ، فالتجارب التى تيسر لتلك النفوس اكتسابها بمخالطتهم المسيحيين ، أصبحت دون ريب مدرسة الزهد فى الإسلام .

ومنذ ذلك الوقت ظهرت هذه الميول النسكية فى وضوح وجلاء ، وبسطت نفوذها على آفاق أخذت تتسع شيئاً فشيئاً . وقد أكمل أصحاب هذه النزعة مذهبهم بما انتحلوه من شواهد وعبارات من « العهد الجديد » ؛ إذ أن أقدم مؤلفات الزهد فى الإسلام تحوى ، كما أوضح الأستاذ مرجليوث ، شواهد خفية كثيرة منتحلة من أسفار العهد الجديد*(٤٤) .

وقد عجب النمط الأوسط من المؤمنين لظهور هذه الميول النسكية ، وتغلغلها تدريجياً فى العقائد الإسلامية وتقاليد الحياة العملية ، وهذا هو ما تدل عليه النادرة التالية :

وهى أن امرأة رأت يوماً فتية يتئدون فى سيرهم ويتحفظون فى حديثهم ، مما يتناقض كثيراً مع ما جُبل عليه العربى من طلاقة فى القول وخفة فى الحركة ، ولما استخبرت عنهم وهى متعجبة من أمرهم أجيبت بأنهم نُسَّاك ، فلم تستطع أن تخفى

---

* يقول « وقد أكمل أصحاب هذه النزعة (نزعة الزهد) مذهبهم بما انتحلوه من شواهد وعبارات من العهد الجديد » . قد علمنا مذهب الإسلام فى الزهد ، وأنه ليس من أصول الزهد المطلق الذى لايستقيم عليه بناء جماعة المسلمين ، ولا يعنى المسلمين أحد هؤلاء المفرطين فى الزهد ؛ وسواء عليهم — أو علينا — أكملوا مذهبهم من العهد الجديد أم من العهد القديم . وإن رووا أحاديث فى هذا كان المحك معايير النقد الصحيح ؛ فما صح قبلناه ، وإلا فمردود ولا نبالى من أين جاء . على أن الموافقة لما جاء فى العهد الجديد لاتثبت الأخذ منه ، فقد يتفق بعض ماجاءت به الأديان مادام الأصل واحداً .

عمن حولها ما لا حفظته ، وقالت : « كان والله عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع وهو الناسك حقاً[٤٥] .

ولو تدبرنا ما جاء فى الآية الثامنة عشرة من سورة لقمان : « واقْصِدْ فى مَشْيِكَ واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إنَّ أَنْكرَ الأصْواتِ لصَوْتُ الحَمِيرِ » ، لزعمنا بأن النبى لوكان قد صادف أمثال هؤلاء الفتية لأقرّهم على نسكهم .

ومن السهل أن ندرك أن هؤلاء القوم بدأوا بالمطعومات عند ما أخذوا أنفسهم بالزهادة ، فصاموا وأسرفوا فى الصوم ، وجرى هذا دون مانع أو قيد ، غير أن ماورد من الأحاديث والحكم الناهية عن الإسراف فى الصوم ، صُرف إليهم ووُجِّه ضدهم[٤٦] .

فضلا عن أننا نصادف بينهم من امتنع عن تناول اللحم وهو نوع من الزهد لدينا شواهد عنه ترجع إلى عصر الصحابة ذاته[٤٧] ؛ فزياد بن أبى زياد من موالى بنى مخزوم صورته الروايات رجلا ناسكا يزهد فى الدنيا ويُديم العبادة ، ويرتدى الخشن من ثياب الصوف ويحرم اللحم على نفسه . حتى أصبح فى عهد عمر بن عبد العزيز أنموذجاً ممثلا لجماعة الزهاد[٤٨] ، ولاشك أن الحديث : « من ترك اللحم أربعين يوماً ساء خلقه[٤٩] » قُصد به أشباه زياد .

وبجانب هذه العناصر السلبية المؤثرة فى مجرى الحياة العملية ، ظهرت تطورات إيجابية تمس العبادات الإسلامية والتصورات الكونية ، ولم تكن هذه التطورات فى ذاتها مناقضة لما جاء به القرآن من مبادىء وأصول فى هذه الناحية ، بل إنها تتألف من مبالغات يسيرة فى تأويل بعض النقط الدينية والأخلاقية فى القرآن .

ولكن على حين لاتعدو هذه النقط فى الآيات القرآنية أن تكون كحلقات هى من نفس الحلقات الأخرى ، من حيث القيمة والأهمية فى سلسلة المبادىء والتعاليم الإسلامية ، قد عدتها بيئات الزهد الإسلامى على جانب كبير من خطر الشأن ، بحيث أصبحت العناصر الأخرى للحياة الدينية إزاءها عناصر ثانوية . وهنا بدأت جرثومة الانشقاق التى نمت وتكاثرت فيما بعد ، والتى فرقت بين هذه النزعات الزهدية وبين النظرية الاعتقادية للسنة الإسلامية[٥٠] .

٤ — ومنذ أقدم عصور الزهد الإسلامى تجلت هذه المبالغة فى ناحيتين : الأولى تعبدية ، والأخرى أخلاقية .

فالناحية التعبدية تتمثل فى « الذكر » الذى احتفظ بمكانته طوال الأدوار التى مر بها التصوف الإسلامى ؛ فإذا كان الإسلام الرسمى يقصر الصلاة على أوقات محدودة فى النهار والليل، فالمبادئ النسكية تخالف هذا التحديد . بما تحتمه من تلاوة القرآن وذكر الله فيما بين أوقات الصلاة* ، وبما ترفع من شأن الأذكار إلى أن تصل بها إلى مرتبة الفرائض الحتمية التى تتضاءل دونها الفرائض الرسمية الأخرى ، وتصبح الثانية بالنسبة للأولى واجباً ثانوياً سيان أداؤه أو إغفاله .

وهذه هى الأذكار الصوفية التى لا تزال حتى اليوم الهيكل الأساسى فى بناء الطرق الصوفية ، تلك الطرق التى ورثت تعاليم هؤلاء النساك الأقدمين .

والناحية الخلقية التى تبرز واضحة جلية فى زهاد ذلك العصر ، هى المبالغة فى التوكل ، أى الثقة فى الله ، وهذه العاطفة هى التى دفعت بهم إلى أقصى درجات الطمأنينة النفسية القانعة . إنهم لا يبالون بشىء ، ويهملون الدنيا إهمالا مطلقاً ، وينبذون كل تصرف ذاتى يحملهم على الاهتمام بمصالحهم الخاصة ، بل يتركون أنفسهم تركا لعناية الله وقضائه ، ويجعلونها بين يديه لا إرادة لها ولا حركة كالميت بين يدى الغاسل(٥١) ؛ وفى هذا المعنى يطلق عليهم « المتوكلون » ، أى الذين وضعوا ثقتهم فى الله .

ويروى عنهم فى معرض الغض من شأنهم والزراية عليهم ، طائفة من المبادىء والنظريات تبين مقدار ازدرائهم للعمل والسعى لكسب القوت وسد حاجات العيش لأنهم يرون فى الكد والسعى فقدانا للتوكل ونقصاً فى الثقة بالله ، ويرون اللجوء لله مباشرة فى قضاء ما يحتاجون إليه دون الاستعانة بالوسائط .

وهؤلاء الذين ينتقصونهم يسمون كفهم عن السعى ، وقناعتهم الساكنة المطمئنة ، بأنها اتضاع العمال وحقارة السائلين .

---

* سورة الأحزاب : ٢١ « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

وهى عندهم أسمى الطرق التى يقيم بها الإنسان أوده : « فالعبيد كلهم فى رزق الله تعالى ، لـكن بعضهم يأكل بذل السؤال ، وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار ، وبعضهم بامتهان كالصناع ، وبعضهم بعز كالصوفية ، فهم يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة » .

ويرون أن من الفضائل التى يمتازون بها أنهم لا يذكرون الغد فى عداد أيامهم[٥٢] فهم يقصون عن محيط فكرهم أن يُعنى المرء بمستقبله ، أو أن يرعى شؤونه وحاجاته ، ويسوقون للتدليل على صحة دعواهم حديثاً يتجلى فيه الوضع ، وهو : « إن الحكمة لتنزل من السماء ، فلا تدخل قلباً فيه هم الغد[٥٣] » .

وعندهم أن من يضع فى الله ثقته إنما هو « ابن الوقت » ؛ « فإذا كان له تدبير فى المستقبل ، وتطلع لغير ما هو فيه من الوقت ، وأمل فيما يستأنفه ، لا يجىء منه شىء[٥٤]

ومن الثابت أن من المبادىء الأساسية فى مذهب هؤلاء القوم التجرد الكامل عن ضرورات الحياة ، ونبذ طيباتها ومباهجها ، أى أن كل من يندمج فى زمرتهم فهو فقير .

وفضلا عن ذلك فهناك أمر آخر ، وهو أنهم لا يكتفون بعدم المبالاة بآلام الجوع وكافة صنوف الحرمان الجسدى ، بل لا يكترثون بكل ما يتعلق بالجسد ، فما ينتابه من عوارض وأسقام لا تحملهم على العمل لعلاجها والبرء منها بالطب والتداوى ، كما لا يبالى نظراؤهم بما يصدره الناس من آراء وأحكام .

وعندهم فى الأثر : « أن من توكل على الله لا يبالى بمدح الناس أو بذمهم » ؛ ولا غرو فمن مبادئهم الصوفية الإهمال المطلق للطرق والأساليب التى يعاملهم الناس بها*

ومن البديهى أن تصوراً كهذا للحياة ، لم يتفق مع الآراء الرائجة فى محيط

---

* « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لا تقاوموا الشر ؛ بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً » (إنجيل متى الإصحاح الخامس عدد ٣٩)

الفكر الإسلامى فى القرن الأول الهجرى ، وهى آراء سبق أن سارت — وهى فى طريق نموها وتطورها — متجهة نحو الحقائق الواقعة .

ويؤيد عدم اتفاقها مجموعة منسقة من الحكم والنوادر موضوعة فى صورة أحاديث مروية عن النبى ، لا تفهم دلالتها ولا يتضح معناها ، مالم ندرك ما يشع فيها من روح الجدل والمحاجة التى قصد بها واضعوها دحض النتائج الدينية المترتبة على الإسراف فى التوكل والثقة بالله .

ومع ذلك فلنا أن نتساءل : كيف استطاعت نزعة النسك والتصوف هذه ، أن تصادف قبولا واستحساناً فى مجتمع دينى شارف أوج عظمته ، وبلغ أقصى ما يصبو إليه من توسع وفتح ، ولم يترك عهد البداوة إلا منذ زمن وجيز لينعم برغد العيش فى المدن المترفة القديمة فى البلاد المفتوحة ؟ .

٥ — من أجل ذلك نرى أنه ظهر فى هذا العصر فى الحياة الإسلامية ، تياران متعارضان يناهض أحدهما الآخر ، ويتمثلان لنا فى حوار رجلين صالحين هما : مالك بن دينار ومحمد بن وسيع .

لقد كانا يبحثان موضوع غاية الغايات ؛ فبينا يرى الأول أن السعادة المثلى هى فى اقتناء قطعة من الأرض والعيش من غلتها ، دون السعى للكسب والحاجة إلى الناس ، يرى الثانى أن السعيد هو الذى يجد أكلة الصباح من غير أن يدرى ما سيتناوله فى العشاء ، وذلك الذى يجد عشاءه دون أن يعرف ما سوف يأكله فى صباح الغد(٥٥) .

وإن فى لهجة الإطراء الزائد لحياة النسك والورع ، يتجلى لنا رد الفعل الذى ناهضت به حركة الزهد الروح الدنيوية النامية وقاومتها ، وهى حركة تنتسب إلى بدايات الزهد القديمة فى عهود الإسلام الأولى(٥٦) .

وقد سبق أن بينا أن هذا التصور للحياة النسكية ، مستمد من فكرة الرهبنة المسيحية ، التى يتفق مثلها الأعلى مع المبادىء التى عرضناها ، اتفاقاً يكاد يكون حرفياً .

ومما هو جدير بالذكر أن فقرات الأناجيل التى يكثر الاستشهاد بها فى الحِكَم

التي تحث على الزهد — كما في إنجيل متى الإصحاح السادس أعداد : ٢٥ : ٣٤ ، وإنجيل لوقا إصحاح ١٢ أعداد ٢٢ : ٣٠ — والتي تتحدث عن طير السماء التي لاتبذر ولا تحصد ، ولا تكدس الحبوب في أهراء ولكن يغذيها خالقها — هذه الفقرات توجد بنصها تقريباً (٥٧) .

وفي لب هذه المبادىء الخاصة بالتوكل* ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناًولزالت بدعائكم الجبال » ؛ وقال عيسى عليه السلام : « انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوماً بعد يوم » .

وقد حاكى هؤلاء الزهاد المسلمون وعُبّادُهم نساكَ النصارى ورهبانهم ، فارتدوا الصوف الخشن (٥٨) ، ويمكن أن نرجع هذه العادة وهى ارتداء الصوف إلى عصر الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٧٠٥ م) على أقل تقدير ، حيث بدأ فيه استعمال كلمة صوفى (٥٩) التى أطلقت فيما بعد على أشياع حركة الزهد فى عصر بلغ فيه نسكهم العملى درجة عالية من النمو والتقدم ، وارتبط بفلسفة قوية مبتكرة لا يزال لها الأثر الفعال فى الفكر الدينى فى الإسلام . وبعد ، فلنتكلم عن التصوف الإسلامى .

* * *

٦ — نفذت تعاليم الأفلاطونية الحديثة إلى نطاق الحياة العقلية فى الإسلام ، ويُعد هذا الحادث ذا أهمية حاسمة من جهة التصوف الإسلامى ؛ فهذا التيارالفلسفى الذى سوف نعنى مرة أخرى فيما بعد بدراسة آثاره العميقة فى نمو الفكر الإسلامى وترقيه ؛ قدأوجد أساساً فلسفياً واعتقادياً بنيت عليه تقاليد الزهدوطقوسه التى سبق لنا وصفها .

فالزاهد المتصوف الذى نبذ الدنيا واحتقرها ، واطرحها واجتواها ، وسما بروحه إلى الكائن الأعلى والملاذ الأوحد ، يجد مايثبِّت يقينه بمنهج حياته الذى نهجه ، وما يقوى نزعته الروحية الإلهية التى اتجه إليها فى مذهب الفيض عند أفلوطين ونظريته فى وحدة الوجود .

---

* الأحاديث التى رويت فى التوكل يقول المؤلف إنها قد توافق مافى الإنجيل . ومعنى هذا أن النبى أكمل دينه من هنا ومن هناك ، أو أن ذلك كان ممن وضعوا تلك الأحاديث ؛ ونحن نذكر أن الكلام هنا هو ماذكرناه فى الزهد فى التعليق السابق الخاص به .

إنه فى كافة أرجاء الكون يشعر بشعاع القوة الإلٓهية ، وإن هذه الظواهر الدنيوية هى عنده سراب ليس له من حقيقة إلا بقدر مايعكس من صورة الذات الحقيقية المتوحدة.

وعلى ذلك يجب على المرء ، إذا ماخلا إلى نفسه ، وتجرد من حجب المادة الكثيفة أن يهيىء نفسه كى يشرق عليها ويغمرها ماللہ من جمال وخير أزليين ، وهو إذا مارتق بروحه نحوه يتخلص من مظهر كيانه المادى ، لكى يصل إلى فناء شخصيته فى الكائن الأعلى المتفرد بحقيقة الوجود :

«لم تكن روحانا فى الأصل سوى روح واحدة ، كذا كان ظهورى وظهورك ، فمن الخطل الكلام عنى وعنك ، فقد بطل فيما بيننا كلمة أنا وأنت [٦٠]» .

«لستُ أنا ولستَ أنت ، كما أنك لستَ أنا ، فإنى أنا وأنت فى وقت واحد ، كما أنك أنت وأنا معاً . وبسببك أيا جلال «خوتن» أشعر بضيق وحيرة ، لاأدرى إذا كنتَ أنا أو إذا كنتُ أنت »[٦١]

وإن حدود الشخصية هى الحجاب الذى يخفى الله عن الإنسان ، وقد نُسب إلى النبى فى شىء من المبالغة ، القول بأن الصوفية يتمثلون بعبارة اتخذوها شعاراً لهم ، وهى : «وجودُكَ ذنب لايقاس به ذنب آخر»[٦٢].

وهى عبارة يفهم منها إظهار الوجود الصحيح وتوكيد الحياة للإنسان بصفته فرداً مستقلا ، يصل بتأمله الباطنى ، وأدائه للعبادات ، واحتماله لآلام التقشف والزهد التى تثير فيه النشوة والسكر الإلٓهى[٦٣] ، إلى أن تتلاشى شخصيته : « الأنا » وثنائيتها أمام الخالق .

وبذا يبلغ التجرد الكامل عن الإحساس بالتقلبات والتغيرات الجثمانية ، وهى حالة تخلو من الهم أو الاشتغال بما ينفع أو يضر . وقد عبر عنها جلال الدين الرومى ، أعظم مترجم عن هذه الفكرة ، بقوله :

« طهِّر نفسك من كل صفة ذاتية ، حتى تدرك كنه وجودك المشرق[٦٤] ؛

بل بطل عنده أن يكون الزمان والمكان من دلائل الوجود :

« فمكانى بلا مكان وأثرى بلا أثر[٦٥]» .

والصوفى الذى اهتدى إلى حقيقة السموات والأرض لايعرف ماهو فوق أو تحت،

قبل أو بعد ، يمين أو يسار[٦٦] ، ولذلك يقول حافظ : « إن من لا يخرج من قصر الكائن الطبيعى ، لا يستطيع أن يبلغ قرية الحقيقة[٦٧] » .

واذا ماتجرد المرء من كافة الصفات التى يوجدها مايثيره العالم الخارجى فى نفسه من انفعالات ، ثم محق كل أثر لإرادته وعاطفته ، وهى الحالة النفسية التى يطلق عليها الصوفيون كلمة « جمع » ، كما أنها فكرة السماذى الهندية[٦٩] ــ عندما يقابلون بين هذه الحالة وحالة النفس المتقلبة المتغيرة بسبب الانفعالات التى تؤثر فيها ، فإنه يعتبر كل هذه الحالات مندرجة تحت موضوع السكر الروحى .

لأنه بتجرده ومحقه لإرادته وعاطفته ، قد ثمل من الشراب القدسى المسكر لجمال الذات الإلهية ، وامتلأ بنورها الباهر الذى أشرق على روحه ، وملأ جوانبها ،وسلبها حواسها الجثمانية .

ومما ينتظمه موضوع المحبة ماينشده الصوفى من غاية عظمى فى دنياه ، ومن فناء فى ذات الله المنفردة بالبقاء ، وهذه المحبة هى التى تأثر بها الحلاج الذى أعدمه أهل السنة ببغداد سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١م لأنه ادعى اتحاده الكامل بذات الله ، وقد زعم قبل أن يسلم نفسه الى الجلاد أن لسانه حين يكلم أتباعه ناطق عن الله .

وممن اشتهر بالمحبة الشاعر الصوفى العربى عمر بن الفارض المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥م وهو الذى قدمه «همر برجشتول» إلى الأدب الألمانى بقصيدة صوفية ترجمها تحت عنوان Das arabische Hohe Lied der Liebe (فينا سنة ١٨٥٤) ونظراً إلى غلبة فكرة المحبة على قصائده ؛ أطلق عليه الخلف لقب «سلطان العاشقين» وكثيراً مايطلق الصوفيون على هذا الرحيق المسكر للحب الإلهى : «شراب المحبة[٧٠] »

« المحبة محو الإرادات واحتراق جميع الصفات والحاجات[٧١] »

« لقد جاءتنى المحبة ، وخلصتنى من كل شىء ، ورفعتنى بعد أن هوت بى ، فحمدا لله على أنه أذابنى ذوبان السكر فى الماء بوصاله . » وجدت الطبيب وقلت له . « أيها الحكيم بم تأمر من دواء لمريض بالمحبة ؟ أنت تأمر بأن أنبذ صفاتى وأن

أفنى وجودى ؛ أى تقول . فر من كل ما يوجد حولك ، ومادمت صائماً فلن تصل إلى لذة السكر ، ومادمت لا تنبذ جسدك فلن تصل إلى عبادة الروح ، ومادمت لا تتلاشى نفسك فى محبة الصديق كما يلاشى الماء النار ؛ فلن تصل إلى الكائن الأعلى . »
وإنما بهذه المحبة يزكى الإنسان نفسه يوم القيامة . « وغدا يوم القيامة ، عندما يحشر الناس . نساء ورجالا . ستصفر وجوه من هول الحساب . ولكنى سأتقدم نحو عرشك ممسكا محبتى بيمينى . راجياً أن يجرى حسابى تبعاً لها »(٧٢) .

فمحبة الله هى إذن ، خلاصة ما انتهى اليه هذا المجهود المركز الذى بذلته أرواح الصوفيين ، لكى يفنى خيال الوجود الشخصى فى حقيقة الكائن الإلهى الشاملة لكل شىء ، وقد أنتجت هذه الفكرة فى كافة لغات الأمم الإسلامية الراقية أدباً شعرياً يُعد فى مرتبة الدرر الفريدة فى الأدب العالمى ، وهذه الفكرة العامة كانت أساسا فلسفيا كافياً لأن يدعم حياة النسك والتصوف .

وهذا الأساس يتألف ، فى جوهره من الذكر الذى يقوم به الممارسون للزهد ؛ فالصوفيون يجتهدون فى الوصول إلى حياة النشوة التى تمثل انجذابهم لله وسكرهم بمحبته ، وذلك عن طريق التأمل وأساليب الذكر وحركاته ، وهذا يخالف كل المخالفة الطريق الذى تتبعه السُّنة الإسلامية للوصول إلى المحبة الإلهية التى هى أيضاً مما ندب إليه الكتاب والسنة(٧٣) .

وعلى ذلك فالصوفيون بإبرازهم للمثل الأعلى لكمال النفس الإنسانية وتحديدهم للخير الأسمى ، يزيدون على الفلاسفة خطوة ويسبقونهم درجة ؛ فابن سبعين المرسى المتوفى بمكة سنة ٦٦٨ هـ — سنة ١٢٦٩ م ، وهو فيلسوف صوفى عهد إليه أن يجيب على « الأسئلة الصقلية » التى وضعها الإمبراطور فريدريك الثانى الهوهنشتوفنى ، أجاب بهذه العبارة ؛ وهى أن الفلاسفة الأقدمين رأوا أن الغاية المثلى هى التشبه بالله ، بينما الصوفيون يدأبون على الفناء فى الله ، وذلك بأن يكون الصوفى قابلا لأن يدع المنن الإلهية تغمره وتفيض عليه ، وأن يمحو انفعالات الحواس ويظهر مشاعر الروح(٧٤) .

وقياساً على ظاهرة من ظواهر التاريخ الدينى ، التى يؤيدها ما وقع فى بيئات أخرى

غير بيئة الإسلام ، عمد الصوفيون ، وهم بسبيل الاهتمام بالدين والتمسك به أو على الأقل التظاهر بذلك ، إلى إقحام آرائهم فى القرآن والحديث بطريق التأويل ، وعززوا نظرياتهم مستشهدين بآيات وأحاديث مستمدة من الكتاب والسُّنة ، وهكذا ورثوا الإسلام تركة « فيلون » .

وهم فى تأويلهم للكتاب يعتقدون بأن هناك وراء المعنى الحرفى للآيات ، وهو معنى لا أهمية له فى الظاهر حقائق فلسفية عميقة تستخلص بالتفسير المجازى ؛ فمثلا أورد القرآن المثل التالى : الآية ١٢ من سورة يس : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ القَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا المُرْسَلون ، إِذْ أَرْسَلْنا إليهمُ اثنينِ فكَذَّبوهما فعَزَّزْنا بِثالثٍ فقَالوا إنا إليكم مُرْسَلون ، قالوا ما أَنْتُم إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا وما أَنْزَلَ الرَّحمنُ مِنْ شىءٍ إنْ أنتُم إلاّ تَكْذِبون ، قالوا رَبُّنا يَعْلَمُ إنا إليكم لَمُرْسَلون » .

ومن الثابت أن هذه الآيات المنزلة لاتدل على حادث ذى شأن أكثر مما يفهم من المعنى الظاهر للفظ الآيات ، لكن هؤلاء المتصوفة رأوا أن المدينة ليست سوى الجسم ، وأن المرسلين الثلاثة هم الروح والقلب والعقل ؛ وعلى هذا الأساس فالقصة كلها وما ذكِر فيها من تكذيب الرسولين الأولين وظهور الثالث ، ومسلك أهل المدينة نحوهم ، ثم ما نزل بهم من عقاب ، كل هذا يؤول تأويلا مجازياً .

وإذاً ، فللمفسرين الصوفيين تأويل مجازى خاص بهم ؛ وهو تأويل باطنى للكتاب أدى إلى وضع مؤلفات كثيرة[٧٥] ، وأصبح يتخلل ثنايا الكتابات الصوفية بأسرها .

ولكى يضفوا على هذا التفسير الباطنى مسحة سُنِّية شرعية من وجهة النظر الإسلامية ، أخذوا عن الشيعة (انظر فيما بعد القسم الخامس) المذهب القائل بأن محمداً أفضى لوصيِّه علىّ بالمعنى الباطنى لآيات الكتاب المنزل .

وهذه المعانى والتعاليم التى لا تُلَقَّن إلا للمريدين وحدهم ، تتألف منها « قبّالة » الصوفيين ، وقد أفصح الشاعر الصوفى العربى عمر بن الفارض ، الذى أشرنا إليه منذ هنيهة ، عن هذه الفكرة الراسخة فى البيئات الصوفية قائلاً :

وأوضح بالتأويل ما كان مشكلاً   علىّ بعلم ناله بالوصية[٧٦]

فعلىٌّ فى نظرهم هو إمام التصوف الإسلامى ، وهى فكرة تنكرها السُّنة الإسلامية إنكاراً باتاً ، إذ أن النبى عند أهل السنة لم يخف شيئاً عن جمهور أُمته ، ولم يفض لأحد بعلم باطنى [٧٧] .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد نشأت عن تلك الفكرة هذه الظاهرة ، وهى أن تقديس علىّ أصبح عقيدة تحمس لها عدد من البيئات الصوفية حتى أنها تغلغلت أحياناً فى ثنايا مذاهبهم وتعاليمهم ، وحتى أن سلسلة الأسانيد الموضوعة للأحاديث الصوفية أسندت فى بعض طرقها إلى رواية الأئمة العلويين . وذلك لكى تنأى بقدر الإمكان عن طرق أهل السنة .

وإن أوضح مثال للرغبة فى تقديس على ، تلك الرغبة الظاهرة فى حركة التصوف ، يتجلى فى طريقة البكطاشية التى تخص علياً والأئمة العلويين بتقديس زائد ، والتى أمدنا الأستاذ « يعقوب » حديثاً ببحث أفرده لها .

هذا ، والبحاثون الإنجليز ، ولا سيما الأساتذة هوينفيلد Whinfield وبرون Browne ونيكلسون Nicholson ، الذين قاموا أخيراً بدراسة التصوف الإسلامى ، وجعلوا من أصله ونموه موضوعاً لدراسة عميقة مستفيضة ، قد أبرزوا بطريقة دقيقة طابع الفلسفة الأفلاطونية الحديثة فى التصوف الإسلامى [٧٨] ، وإن كانت دراستهم هذه لم تستبعد فعل المؤثرات الأخرى التى أوجدت طائفة من العناصر لم تكن أقل أهمية فى تكوين هذا النظام الفلسفى والدينى خلال تطوره وترقيه .

وعند إلقاء نظرة عامة على تاريخ التصوف لا يمكن أن نتجاهل هذه المؤثرات بصفتها عوامل ذات أثر نافذ ، وأقصد بها المؤثرات الهندية التى بدت بصورة محسوسة منذ العصر الذى انتشر فيه الإسلام شرقا حتى حدود الصين ، فتخطت أفقه تدريجاً تلك الآراء الهندية التى ظهر بعضها فى الآثار الأدبية والبعض الآخر فى الفكر الدينى الإسلامى .

ففى القرن الثانى الهجرى ، حينما بذل المترجمون جهوداً عظيمة فى نقل الكتب الأعجمية لإغناء اللغة العربية ، نقلت بعض المؤلفات البوذية إلى الأدب العربى . ومن ذلك ترجمة عربية مُعدَّلة لكتاب « بيلاوْهر وبوداسِفْ » ، وكذلك كتاب البُدّ [٧٩]

وفى المجالس الخاصة للأدباء والمثقفين ، وهى مجالس كانت تجمع أفراداً يمثلون مللاً دينية متباينة يتبادلون الرأى فيها فى حرية وطلاقة ، لم تكن لتخلو ممن يعتنق السُّمَنيَّة ، وهى نحلة بوذية من نحل الهند(٨٠) .

ونخلص من هذا إلى بيان هذه الحقيقة ، وهى أن الفكرة الدينية المسماة بالزهد ، التى صادفت الإسلام السنى ، والتى لا تتفق مع السمات المألوفة التى نعرفها فى التصوف الإسلامى ، تكشف عن آثار قوية تدل على تسرب المثل الأعلى للحياة عند الهنود إلى الإسلام .

ومن أعظم المعبرين عن فكرة الزهد هذه ، الشاعر أبو العتاهية الذى عرض أنموذجا للرجل الفاضل الجليل بقوله :

يا من ترفع للدنيا وزينتها ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك فى زى مسكين

أوَ ليس هذا هو بوذا(٨١) ؟

وإذا أردنا أن نتكلم عن عصر أحدث من هذا ، نذكر ما كشف عنه « فون كريمر » من العناصر الهندية التى توجد فى الآراء الدينية والاجتماعية ، والتى تركت مبادئها أثرها الواضح فى المسلك الشخصى لأبى العلاء وشعره الفلسفى(٨٢) .

ولدينا شواهد لا تقتصر على إثبات أن الأفكار الهندية دخلت فى محيط الفكر الإسلامى من وجهة النظر الفلسفى البحت ، بل تدل أيضاً على أنها كانت موضع حسّهم وتجربتهم عن طريق الرهبان الرحّل من الهنود ، الذين كانوا على كثب من المسلمين فى العراق فى عهد الخلفاء الأوائل من بنى العباس ، كما بلغ السائحون الهنود بلادالشام فى العصر الأموى .

وقد رسم الجاحظ ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ سنة ٨٦٦ م ، فى جلاء هيئة الرهبان السائحين الذين لا ينتمون إلى المسيحية أو إلى الإسلام ، فسمّاهم « رهبان الزنادقة » ؛ وهى تسمية غير دقيقة ، ولكنها على الرغم من ذلك لا يمكن أن تقصر على المانويين وحدهم ، ويؤيد هذا الحالةُ التى نحن بصددها .

وقد ذكر من روى عنه الجاحظ هذا الخبر ، وهو أن هؤلاء الرهبان السائلين كانوا لا يقومون بأسفارهم إلا أزواجاً ، وعرف بالملاحظة الدقيقة أنه عند رؤية أحدهما ، فمن اليسير دائماً أن يكتشف زميله على مقربة منه .

وتنحصر طريقتهم فى أن لا يقضوا ليلتين متواليتين فى مكان واحد ، وأنهم يقرنون حياتهم البدوية بصفات أربعة : وهى القدس والطهر والصدق والمسكنة .

وفى إحدى القصص التى تفصل حياة التسول عند بعض هؤلاء الرهبان ، نجد أنها تنتهى إلى هذه الخاتمة ، وهى أن راهباً فضل أن يتهم بالسرقة ، وأن يحتمل راضياً سوء المعاملة ، على أن يذكر أن طائراً كان هو السارق لأنه لا يريد أن يكون سبباً فى قتل كائن حى[٨٣] وإذا لم يكن هؤلاء القوم من « السادو » الهنود أو من الرهبان البوذيين ، فهم على الأقل من هؤلاء الذين يسيرون على نهجهم ، ويقلدون طريقة عيشهم ونظرهم للحياة .

ومن هذه النواحى ، وبسبب مثل هذه المشاهدات والتجارب وصنوف المخالطة ، تأثرت حركة التصوف الإسلامى فى بدايتها تأثراً يكشف لنا ، بسبب نزعتها الأصلية . عن صلتها الوثيقة بالأفكار الهندية .

ويمكننا مثلا أن ندلل على أثر البوذية ، بكثرة ماورد فى المؤلفات الصوفية الإسلامية من استشهادها بمثال الملك القوى الذى يذر ملكه الدنيوى بعيداً نابذاً العالم وما فيه[٤٨] .

وفى الحق أن تصوير هذه الفكرة فى الكتب الصوفية بشتى الطرق ، ومنها القصص ، هو تصوير قاصر ضئيل ، لا يدرك العظمة الباهرة ولا الروعة الأخاذة التى نلمسها فى سيرة بوذا .

ومن هذه القصص أن ملكا ذا صولة وقوة ، لمح يوماً فى لحيته شعرتين بيضاوين فانتزعهما ، فعادتا إلى الظهور ، وظل الأمر هكذا ، فدفعه هذا إلى التفكير ، فقال فى نفسه : « إنهما رسولان بعثهما الله إلىّ لينذرانى ويحضانى على أن أهجر الدنيا وأن أخصص نفسى لعبادة الله ، فعلىّ إذن أن أطيعهما » .

وعندئذ ، هجر مملكته فجأة ، وأخذ يسيح فى الأرض ، يجوب الفيافى والغابات

مخصصاً نفسه لعبادة الله إلى أن قضى نحبه[85] . وتوجد طائفة كبيرة من قصص الزهد ونوادر الورع ، يدور فيهـا الباعث على النسك والتصوف ، وعلى النفور من الملك والسلطان .

ومن الشواهد القوية التي ينبغى أن تُعد قاطعة فى الموضوع الذى نعالجه أن قصة أحد أئمة الصوفية الـكبار فى الإسلام تشبه السمات البارزة فى سيرة بوذا ، وأريد بهذا قصة الولى إبراهيم بن أدهم المتوفى فيما بين سنتى ١٦٠ ، ١٦٢ هـ = ٧٧٦ — ٧٧٨م .

وقد اختلفت القصص الخاصة بحياته فى بواعث فراره من الدنيا ، ولـكن كل الروايات تدور فى جوهرها على الفـكرة ذاتها ؛ فهى تخبرنا أن إبراهيم كان ابن ملك من ملوك بلخ (الذى حزم أمره فى بعض الروايات عند ما سمع صوتاً من السماء يناديه ، وفى روايات أخرى بسبب تفـكيره فى الحياة التى لا تشوبها نوازع أو حاجات ، وذلك عند ما أطل من نافذة قصره فرأى رجلا فقيراً) ، نخلع ثوب الإمارة ورمى به بعيداً وأبدله بأطمار سائل ، ثم غادر قصره وهجر كل ما يربطه بالعالم حتى زوجه وأولاده ، وأوى إلى الصحراء حيث عاش سائحاً عابداً .

على أن بين البواعث المختلفة لاعتزال هذا الأمير ، باعثاً يستحق التفاتاً خاصاً ذكره جلال الدين الرومى ؛ وهو أن رجال الحرس فى قصر إبراهيم بن أدهم سمعوا ذات ليلة جلبة صاخبة فوق سطح القصر ، وعند ما ذهبوا لاجتلاء الخبر ، فاجأوا قوماً يدعون أنهم يبحثون عن إبلهم الضالة ، فاقتيد هؤلاء المقتحمين للقصر إلى الأمير .

ولمـا سألهم : « هل حدث أن تفقّد امرؤ إبله فوق سطوح المنازل ؟ » أجابوا : « نحن لا نعمل إلا اقتداء بك أنت الذى تسعى إلى الاتحاد بالله ، بينما أنت جالس على عرشك ، فهل لرجل فى مثل هذا المقام يستطيع أن يقترب من الله ؟ » فـكان من هذا أن هرب الأمير من القصر ولم يره أحد منذ ذلك الوقت[86] .

٩ — ومهما يكن ، فقد أثرت العقائد الهندية فى الآراء الصوفية الإسلامية ، فاكتسبت بفضل هذا التأثير قوةً وعمقاً ونفاذاً . ففـكرة الاتحاد أو وحدة الوجود تخطت الصورة التى انتحلتها الصوفية من الأفلاطونية الحديثة ، غير أن نظرية الصوفيتين

فى فناء الشخصية هى التى تقترب وحدها من فكرة الجوهر الذاتى الهندية « أتمان — Atman » إذا لم تكن تتفق معها تماما ؛ ويطلق الصوفيون على هذه الحالة لفظ « الفناء »(٨٧) أو « المحو » أو « الاستهلاك » .

وهى حالة يتعذر تعريفها ؛ بل يزعم الصوفيون أنها لا تحتمل تعريفاً واحداً يمكن الاقتصار عليه دون غيره ، ويرون أنها تتجلى كمعرفة لدنية تتجاوز قيود المنطق وأغلاله؛ ذلك بأنه « حينما يرتبط الفانى بالخالد لا يبقى للفانى وجود ، ولستَ تسمع أو ترى سوى الله عند ما تبلغ مرتبة هذا اليقين ، وهو يقينُك بأنه ما من موجود بحق سوى الله ، فإذا عرفتَ نفسَك فأنت هو وأنت متحد به ، وليس سواه بموجود » ، فشرط الفناء فى الله هو تلاشى شخصية الإنسان وانعدام شعوره بوجوده :

« دعنى أتلاش وأفن فإن الفناء يصيح بى فى أنغام « الأرغن »
بأننا إليه نعود(٨٨) » .

وهكذا ينمحى الفرد فى الذات الكلية الإلهية ، ولا يستطيع المكان أو الزمان، بل كيفات الوجود وخصائصه ، أن تحد هذه الذات غير المتناهية ؛ فإن الإنسان يرتقى إلى الاتحاد بأصل كل الكائنات ، وإدراك هذا الأصل مما يتجاوز حدود كل علم ومعرفة .

وكما أن المرء فى البوذية لكى يبلغ أرقى درجات الفناء ، يتقدم مرحلة مرحلة ، متبعاً طريقاً يتكون من ثمانية مراحل ، وهو « الطريق السوى النبيل » ، فللصوفية « طريقها » ومراتب الترقى فيها ، والسائرون فيها يسمون أهل السلوك .

ومهما تباينت معالم الطريق عند البوذيين والصوفيين ، فهما يشتركان فى صدورها عن مبدأ واحد ، ويتفقان فى أن التأمل(٨٩) — ويسمى عند الصوفيين « المراقبة » أو « الديانة » — يشغل مكاناً مهماً كمرحلة إعدادية للسير نحو أعلى مراتب الكمال ، وذلك حينما يصبح المتأمل وموضع التأمل شيئاً واحداً .

هذا هو الشعور الذاتى بالوحدانية ، وهو غاية التوحيد عند الصوفيين ، ويختلف اختلافاً جوهرياً عن عقيدة الوحدانية فى الإسلام العادى . ومما هو حرىّ بالذكر أن

أحد الصوفيين يذهب إلى حد القول بأن من الشرك أن يزعم الإنسان بأنه يعرف الله ؛ إذ أن هذه العبارة تفيد الثنائية بين العارف وموضع المعرفة ، وهذه الفكرة توجد أيضاً فى الثيوصوفية الهندية(٩٠) .

١٠ — والصوفية ، كنظام من النظم ، تشكلت فى الحياة العملية على هيئة طرق وطوائف يعمل أفرادها على غرس التصورات الصوفية للدين والدنيا ، وقد ارتبط أفرادها شيئاً فشيئاً فى جماعات منذ عهد بعيد حوالى سنة ١٥٠ هـ/٧٧٠ م ، وذلك فى منازل خاصة وصوامع منعزلة ، حيث يعيشون بعيداً عن جلبة الدنيا وضجيجها وفق مثلهم النفسية العليا ، ويشتركون معاً فى أداء الشعائر والسنن التى تفرضها .

ومن اليسير أن نلاحظ أثر العقائد الهندية فى تطور حياة الزهد والاعتكاف فى هذه الصوامع ، كما نلاحظ أن حياة التسول التى يحياها الصوفيون والتى تدفعهم إلى ترك جماعتهم ما هى إلا صورة تحاكى حياة الرهبان السائلين الهنود « السادو » ، وهذا فضلا عن أن أثر الأفلاطونية الحديثة وحدها فى التصوف الإسلامى لا يكفى لتفسير الممارسة العملية لشعائر الزهد الصوفى .

ومما يدل أيضاً على أثر العقائد الهندية ، أن المريد عند ما يتم قبوله فى الجماعة الصوفية يُمنح خرقة تعتبر رمزاً للفقر واعتزال الدنيا ، وقد أوجدت القصص الصوفية تبعاً لأسلوبها ومنهاجها أصلا للخرقة فى السيرة النبوية* ، وربطت موضوعها بالنبى نفسه(٩١) .

ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل أن الخرقة كرمز للاندماج فى الجماعة الصوفية

---

* يقول إن القصص الصوفية وجدت أصلا للخرقة يتصل بالنبى نفسه مع أن أصلها هندى والمحدثون سبقوا بالحكم بأن هذه الأحاديث موضوعة لا أصل لها ، وسواء كان أصلها هندياً أو غير ذلك ، فهذا لا يعنينا . قال ابن الربيع الشيبانى الزبيدى فى كتابه : تمييز الطيب والخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث ، . « لبس الخرقة الصوفية ، وكون الحسن البصرى لبسها من على ، قال ابن دحية وابن الصلاح إنه باطل ... ولم يرد فى خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبى صلى الله عليه وسلم ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحد من أصحابه ، ولا أمر أحداً من أصحابه بفعل ذلك ، وكل ما يروى فى ذلك صريحاً فباطل . ثم قال : إن من الكذب المفترى قول من قال إن علياً ألبس الخرقة الحسن البصرى ؛ فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن من على سماعاً . فضلا عن أن يلبسه الخرقة » .

تشبه طريقة الإندماج فى جماعة « البيكشو » الهندية الذى يتم بتسلم الثوب ومعرفة القواعد والآداب[٩٢] التى يتحتم على المريد اتباعها .

فالأشكال الكثيرة للرياضات الدينية المتعلقة بالذكر فى الجماعات الصوفية ، وكذا الوسائط التى تستخدم للوصول إلى الانجذاب والنشوة — نظام التنفس[٩٣] — أرجعها « كريمر » إلى أصولها الهندية التى أثبت صدورها عنها .

ويوجد بين أساليب التعبد الصوفى هذه ؛ طريقة ذاعت ذيوعاً عظيما حتى تجاوزت البيئات الصوفية إلى غيرها وهى المسبحة والتسبيح ، وهما يرجعان دون ريب إلى أصل هندى . وقد ثبتت مزاولة التسبيح فى الإسلام منذ القرن التاسع الميلادى ، وبدأ على وجه الدقة فى شرق العالم الإسلامى حيث اشتد تأثر طرق الصوفية بالأفكار والأساليب الهندية .

وقد كان لزاماً على هذه البدعة الجديدة — ككل بدعة ناشئة أن تدفع عن نفسها هجمات من يقف فى وجه كل أمر مستحدث فى الدين ، وحتى فى القرن الخامس عشر الميلادى التزم السيوطى أن يدافع عن المسبحة والتسبيح الذى كان منذ ذلك الوقت مستحباً شائعاً[٩٤] .

ولهذا ، لكى نقدر التصوف الإسلامى تقديراً صحيحاً من الوجهة التاريخية ، يجب أن لا نغفل مطلقاً الأثر الهندى الذى ساهم فى بناء هذا النظام الدينى المتولد عن الأفلاطونية الحديثة وقد حُقّ « لسْنُوكْ هِيرْجْرونيه » ، فى درسه الافتتاحى بليدن ، أن يذكر من بين الشواهد الدالة على الأثر الهندى فى الإسلام فى بلاد الهند الشرقية هذه الظاهرة ، وهى أن الآراء الصوفية فى هذه البلاد تتألف منها دعامة الأفكار الدينية ومادتها ، حتى الشعبية منها[٩٥] .

إلى هنا نرانا قد تتبعنا فى الصورة ، التى رسمناها للفكرة الصوفية ، الميزات العامة البارزة فى الحركة الصوفية ، كما تتمثل لنا فى أوج نموها وتطورها ، وقد تكونت هذه المميزات خلال تطور تاريخى لم نحاول إجماله هنا ، وننتظر بيانه وشيكا من أقدر المتضلعين فى تاريخ التصوف الإسلامى وهو الأستاذ « رينولد نيكلسُون »

والتصوف من جهة أخرى ليس نظاماً متجانسا محدودا من حيث نظرياته أو طقوسه ، بل لايوجد تعريف مضبوط مجمع على قبوله تندرج تحته اتجاهات التصوف العامة ، فهنالك على الأخص فروق لاحصر لها فى تفصيلات أفكاره ووقائعها .

وزيادة على ما اعترى حركة التصوف من تطور داخلى ، فإن رد الفعل الخارجى والمؤثرات التاريخية التى غلب أثرها فى البيئات الصوفية المختلفة ، أدى إلى اختلافات وتفريعات لا تحصى وانقسامات فى الأساس النظرى لهذا النظام ، بل تظهر هذه الاختلافات فى كيفية النظر إلى فكرة التصوف نفسها[٩٦] .

وقد تسنى « لنيكلسون » فى لمحة عامة إلى تطور الصوفية[٩٧] ، اعتماداً على المصادر العلمية والأدبية حتى القرن الخامس الهجرى ، أن يجمع من التعريفات المختلفة لفكرة التصوف ثمانية وسبعين ، ومع ذلك فلا يلوح أن قائمة التعريفات قد استقصيت أو أن معينها قد نضب .

فإن أبا منصور عبد القاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩هـ/ سنة ١٠٣٧م (وهو أحد علماء نيسابور الذى عُنى فى كتاباته على الأخص بتفريعات العقائد وظهور الفرق فى الاسلام) قد جمع على الترتيب الأبجدى من مؤلفات أقطاب الصوفية الثقات ، مايقرب من ألف تعريف للصوفية وفكرة التصوف[٩٨] ، ومن الطبيعى أن يقابل هذا التباين فى الفكرة الأساسيه للتصوف فروق كثيرة فى الفروع والتفصيلات[٩٩] .

وقد تسرب إلى الطرق الصوفية المختلفة ، تبعاً لمذاهب المؤسسين لها ، طائفة من النظريات المختلفة المتباعدة ، ولذلك نلمس كثيراً من الاختلافات الرسمية فى الرياضات وسنن الزهد التى لايتسنى ممارسة التصوف بدونها ، ونشاهد أيضاً أن تنظيم الطرق الصوفية فى البلاد الإسلامية يرتكز على قواعد متنوعة ومتباينة .

ويوجد خلاف جوهرى فى علاقات هذه المذاهب الصوفية بالإسلام الشرعى ، فأئمة التصوف الأولون ، الذين وضعوا أساس نظريات الصوفية وآرائها ، آثروا « عمل القلب » وفضلوه على الأداء الرسمى لفرائض الإسلام وأحكامه ، أو كما يقولون « عمل الجوارح » .

وإنهم لم يزعموا مع ذلك تجرد عمل الجوارح من قيمته ، أو اعتباره عملاً كاملياً ،

ولكنهم لم يقرروا له قيمة أو يعتبروا له معنى إلا إذا اقترن بعمل القلب ، لأن مقومات الحياة الدينية عندهم ليست هى الجوارح وإنما هى القلوب .

وقد ظلت هذه النزعة ممثلة فى تعاليم الصوفية ، وادعت أنها على وفاق مع شعائر الإسلام وأحكامه الرسمية ، وذهبت إلى أن الحياة السنية الصحيحة لاتبلغ مرتبة الكمال ؛ إلا إذا أديت الفرائض والسنن الرسمية مصحوبة بالإخلاص وصدق الشعور الباطنى (١٠٠) . ولا ينكر فريق آخر من الصوفيين القيمة النسبية لهذه الفرائض ؛ ولكنه لا يرى فى هذه الشعائر الظاهرية سوى أمثلة ومجازات رمزية .

وهناك فئة أخرى ترفض هذه الشعائر رفضاً باتاً ؛ لأنها ترى أن مثل هذه القيود الشرعية لاتربط العارفين . وفى الواقع نجد فيما يحكى عن انعدام الوازع النفسى بانتهاك سنن الإسلام وفرائضه ، أنه ليس قاصراً على نفر من الصوفيين الذين انفردوا بهذا النقص . بل إنه شمل طوائف بأسرها من الدراويش . ولنذكر منها فحسب طريقة البكطاشية(١٠١) .

بل لانعدم أن نجد بين هؤلاء فريقاً لايستبيح لنفسه إغفال هذه الشعائر فحسب ولكنه يرى أن من حق الصوفى أن يتخطى كافة النواميس الخلقية . وأن يخرج على العرف الاجتماعى وعلى ما يسمى «بالخير والشر» . وقدوتهم فى هذا « اليوجى »(١٠٢) للهنود وبعض الغنوصيين المسيحيين(١٠٣) .

كما أن لهم شبيهاً بالمتصوفة الغربيين كالأمريكيين مثلا ، الذين يستخلصون مبادئهم الماجنة من نظرتهم الحلولية للعالم ، كما يصنع بعض متصوفة المسلمين الذين ينكرون إنكاراً قاطعاً كل الصفات الظاهرة لتلك الحياة الباطلة ؛ لأن عالم المظاهر هذا ليس له ألبتة وجود عندهم ، ولذا فهم لايبالون بما تتطلبه هذه الحياة المتقلبة المتغيرة من مقتضيات وأحكام .

وقد أمكن تقسيم الصوفيين من ناحية علاقتهم بالشريعة إلى فريقين : أتباع الشريعة Nomiste والمنكرين لها Anomiste ، وهذه الثنائية تذكرنا بالتضاد بين عالم الحس المتغير وعالم الحقيقة الذى أورده « كليمان » السكندرى بصدد الآراء الخفية المغلقة المحكمة التى كانت للغنوصيين فى العصور القديمة .

وقد وقف الغنوصيون حيال شريعتهم موقفين متناقضين ، فحبذ فريق منهم الحياة الحرة الطاقة التى لا تعبأ بأحكام الدين ، بينما بالغ آخرون فى التقشف والحرمان ، ودعوا إلى حياة الزهد واعتزال الدنيا (١٠٤) ؛ وإن الفرق بين هاتين النحلتين لشبيه لما بين المذاهب الصوفية من اختلاف .

١٢ — وتطلق كلمة الدراويش على الذين يعيشون معيشة الصوفيين ، ولكن لابد أن نميز الصادقين منهم فى محبة الله وقوة النشوة الروحية ، والذين ينشدون من الحياة الزاهدة التى خصصوها للتأمل والتفكر أن يصلوا بنفوسهم إلى مرتبة الكمال ، وبين الدراويش الرحل الذين يعيشون معيشة التسول الطليقة الماجنة ، والذين يتخذون التصوف من أجلها ذريعة للبطالة وخداع الجماهير .

هؤلاء قد نذروا أنفسهم للدعة والخمول ، وأدوا رسوم الحياة الصوفية أداءً ظاهرياً لكى ينالوا بها عيشاً خالياً من المتاعب والمشاغل ؛ وليحصلوا على ما يحتاجونه مع بقائهم أحراراً وادعين (١٠٥) .

ونراهم يلوكون عبارات محبة الله ويزعمون أنهم يسلكون الطريق ، ولكن يتعذر علينا أن نجد فيهم الصوفى الجاد الصادق :

« إن الدرويش الذى يتأمل أسرار الكون ويكتنه خفاياه ، يوهب كل لحظة ملكا كاملا بغير حساب . وليس الدرويش ذلك الذى يستجدى قوته ويتكفف الناس ، إنما الدرويش الصادق هو الذى يهب روحه وقلبه (١٠٦) » .

وليس الدرويش الحقيق بالسائل أو الطفيلى المتجول ، ومع ذلك فالتشرد يُظهر لنا نواحى كثيرة لفكرة خلقية قد تهمنا من ناحية علم تاريخ الأديان . وإذا نظرنا إلى الموضوع من تلك الناحية ، فإنا نود أن نأتى هنا بنبذة عن طائفة واحدة من هؤلاء الدراويش الأحرار ، وهم الذين يسمون بالملامتية أى أهل اللوم ، وهى صفة لا يختص بها الدراويش السائحون فحسب ، ولكنها تطلق أيضاً على الصوفيين المقيمين الذين هم أصدق نسكا ، ويسمون بالملامتية لأسلوب حياتهم المبتكر ومنهاج تصوفهم الفذّ .

وتنحصر الصفة الجوهرية لهؤلاء القوم ، الذين شبهوا بحق « بالـكابيين » ، فى عدم اكترائهم ، وإهمالهم المتجاوز للحدّ لـكل مظاهر الحياة الخارجية ؛ فهم يهتمون بكل ما يثير السخرية والفضيحة بمسلكهم وما يجر عليهم مذمة الناس لهم[١٠٧] ، ويرتـكبون من الأعمال ما يُعد مخجلا للدرجة القصوى ، يبغون بذلك تطبيق مبدئهم وهو « ازدراء الاحتقار » .

إنهم يريدون أن يعرف الناس عنهم أنهم لايعملون لشعائر الدين ولو أنهم يعملون بها فى الواقع ، ويدأبون على إثارة احتقار الناس لهم ، وغايتهم من ذلك هى أن يروضوا أنفسهم على عدم المبالاة بأحكام الناس وآرائهم ، وهم فى هذا يبالغون فى تطبيق قاعدة صوفية عامة أوجزها جلال الدين الرومى فى الحـكمة التالية .

« اهجر فرقتك وكن موضع الاحتقار ، واخلع عن نفسك ثوب المجد ، ودع نباهة ذكرك وانشد نفور الناس وهوانهم»[١٠٨] .

والملامتية منتشرون فى كافة أنحاء العالم الإسلامى . وقد أفرد الـكتانى بحثاً خاصاً فى صوفيِّ فاس[١٠٩] أبرز فيه صفات الملامتية فى كثير من تراجم أبطالها . والمجتمع الإسلامى فى آسيا الوسطى أنتج أبدع مثال للدرويش الملامتى ، وذلك فى قصة الشيخ « مشرب » المجنون الحـكيم والتقى الزنديق[١١٠] .

وقد بين أخيراً « رِيتزِنشـتـين » أنه بقيت عنـد هؤلاء القوم صفة من صفات الرهبانية القديـمة ترجع إلى الـكابية ، وتَعُـد الجراءة الوقحة المتبجحة فرضاً دينياً[١١١] .

١٣ — ومن أقدم الأزمنة تغلغلت التعاليم الصوفية فى الأدب الفقهى واللاهوتى فى الإسلام ، وضمت هذه التعاليم فى صورتها الشعبية جموعاً غفيرة من المسلمين ، وظهر فعلها الصامت فى شـكل حركة قوية قصد بها استحداث أثر مكين نافذ فى فـكرة التدين والتوجيه الدينى فى الإسلام ، فأصبح التصوف ذا قيمة كبرى فى تحديد الآراء والمظاهر الدينية الإسلامية وتـكييفها .

ومع ذلك ، فلننظر أولا فى موقف الصوفية حيال النزعات السـائدة فى الحياة الدينية الإسلامية ، والتى كان يكافح بعضها بعضاً من أجل أن تحافظ على كيانها

من التغيير والتبديل ، ويتضح هذا الموقف مبدئياً من حيث علاقة التصوف بالفرائض والأحكام الرسمية ونظام العقائد فى الإسلام ، كما بسطه الفقهاء والمتكلمون بسطاً اعتبروه تحريراً روحياً عظيم القدر وتوسيعاً للأفق الدينى الضيق المحدود .

لقد عمل الصوفيون على أن يحل محل الطاعة العمياء التي ينجم عنها التشكك وتوهم القصور والتفريط ، التربية الذاتية التى يقوم بها الزاهد فيربى نفسه بنفسه ؛ كما حل محل التفريعات الدقيقة الملتوية للاستدلالات الكلامية الانغماس الصوفى فى جوهر النفس وتحريرها من شوائب المادة وأدرانها ؛ واحتل الباعث على محبة الله المكان الأول كوسيلة للزهد والمعرفة وتجرُّد الإنسان عن ذاته ؛ واعتبر التصوف الصلاة عبادة قلبية تتعارض مع عبادة الجوارح ، ووضح البون الشاسع بينهما ، بل حل علم القلب والنظر المبنى على التأمل الباطنى محل العلم المستمد من كتب الفقهاء .

والشريعة فى الطريق الصوفى هى نقطة الابتداء وهى درجة من درجات التهذيب ، وتؤدى إلى الطريقة السامية التى ينبغى السعى لها بصدق ، والتى يثاب الإنسان على آلامها بنيل الحقيقة ، وغايتها النهائية هى كسب المعرفة التى لم يصل إليها أحد ألبتة تمام الوصول ، لأن السالك إنما يكون عندئذ متأهباً للترقى إلى « علم اليقين » .

غير أن الإنسان لا يتيسر له أن يسمو إلى الإدراك المباشر « لعين اليقين » دون أن يركز فيوضاته الباطنية ومواهبه اللدنية فى حقيقة الذات الإلهية المتفردة بالوجود ، وعند هذه المرحلة ينعدم اعتماد السالك على السنن والتعاليم الدينية ؛ وبينما ينال الناس علوم الدرجة السابقة أى علم اليقين عن طريق الأنبياء ، نجد العلوم الإلهية الأعلى مرتبة فى الكمال ، تشرق على نفس المتأمل دون أدنى وساطة[١١٢] ، وفوق هذا أيضاً توجد الدرجة العليا وهى « حق اليقين » ، وهى مرتبة ليست فى الطريق الذى يسلكه الصوفى لتهذيب نفسه .

وهذا السبيل المتدرج يؤدى فى جوهره إلى الإقرار بأن الصفة الظاهرية للدين لا أهمية لها ، بالنسبة للحقيقة المقدسة التى ينبغى الاتجاه نحوها : « لست مسيحياً ولا يهودياً ولا مسلماً[١١٣] » .

فتعدد الفرق ، واختلاف الصيغ الدينية والعبادات والأحكام الشرعية ، يفقد كل معنى وقيمة فى نفس ذلك الذى يسعى للاتحاد بالذات الإلهية ؛ فكل شيء فى نظره ليس سوى حجاب يخفى الجوهر ، ولا يستطيع أن ينزع هذا الحجاب إلا مَنْ يدرك كنه الحقيقة حينما يصل إلى العلم بالذات الأزلية الحقة .

ومهما تظاهر الصوفيون بتقدير الإسلام السنى تقديراً عالياً ، فلغالبيتهم نزعة مشتركة إلى محو الحدود التى تفصل بين العقائد والأديان ، وعندهم أن هذه العقائد كلها لها نفس القيمة النسبية إزاء الغاية المثلى التى ينبغى الوصول إليها ، كما أن هذه الأديان جميعاً تتجرد عن هذه القيمة إذا لم تنتج المحبة الإلهية ، وهذه المحبة هى التى يمكن أن تعتبر مقياساً موحداً ثابتاً لتقدير الأديان .

وقد ارتفعت بعض الأصوات منادية بأن العلم بوحدانية الله يشتمل على عنصر من عناصر الاتحاد والإخاء بين البشر ، بينما الشرائع والأديان تسعى لإثارة التفرقة والانقسام فيما بينهم[١١٤] .

وزعم جلال الدين الرومى بأن الله أوحى لموسى بأن « عشاق الطقوس والشعائر طبقة ، وهؤلاء الذين احترقت قلوبهم وأرواحهم بمحبة الله يؤلفون طبقة أخرى[١١٥] » ؛ وفى ذلك يقول محيي الدين بن عربى :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة — فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف — وألواح توراة ومصحف قرآن[١١٦]

أدين بدين الحب أنى توجهت — ركائبه ، فالدين دينى وإيمانى

ويقول جلال الدين أيضاً : « إذا كانت صورة معشوقنا فى معبد أوثان ، فمن الجهل المطبق أن نطوف حول الكعبة ؛ وإذا كانت خالية من عبير المحبة فهى كنيّس ، وإذا تنسمنا عبير الاتحاد بذاته تعالى فى ذلك الكنيّس فهو كعبتنا[١١٧] » .

والإسلام كما نرى ، ليس موضع استثناء فى دعوى الصوفيين ، وهى عدم المبالاة بالأديان كافة . وقد نُسب إلى التلمسانى ، وهو من مريدى ابن عربى ، تلك العبارة

الشديدة : « القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا* » ، أي في الكلام الصوفي[118] .

وبجانب هذه التصريحات والمزاعم الدالة على إغفال الأركان الاعتقادية ، من حيث علاقتها بالغاية المثلى التي ينبغي أن يؤدى الدين إليها ، والدالة أيضاً على أعلى درجات التسامح ، حتى لقد قيل : « إن السبل المؤدية إلى الله هي بقدر عدد أرواح الناس[119] » — نجد هذه الفكرة القائلة بأن النحل والديانات تحول دون بلوغ هذه الغاية ، لأنها ليست من مصادر الحقيقة ، وهذه الحقيقة لا يمكن الاهتداء إليها عن طريق المنازعات المستحرّة بين الملل والنحل المختلفة :

« لا تلم الاثنتين والسبعين فرقة على منازعاتها ، لأنها لا ترى الحقيقة ، وإنما تطرق باب الخرافة[120] »

(حافظ)

وليس فيما قاله أبو سعيد أبو الخير الصوفي ، لصديقه ابن سينا ، تعبيراً عن عقيدة خاصة أو رأى فريد في بابه : « ما دامت المساجد والمدارس لم تُهدم هدماً تاماً ، فسوف لا ينجز الدراويش عملهم ؛ وما دام الكفر والإيمان لم يتشابها ولم يتماثلا تماماً ، فما من رجل يكون صحيح الإسلام والإيمان[121] » .

وهذه الآراء وأمثالها جعلت الصوفيين يلتقون بالمفكرين الأحرار في الإسلام ، الذين وصلوا إلى هذه النتيجة ، بانين إياها على اعتبارات أخرى[122] .

وفضلاً عن أن الصوفيين يعتبرون الشريعة غاية في ذاتها ، وأنها يمكن أن تحتفظ على الأقل بشيء من قيمتها كوسيلة من وسائل الزهد ، يذهب الصادقون منهم في تصوفهم إلى إنكار العقائد الكلامية وما تذهب إليه من ضرورة العلم بالله عن طريق النظر الفلسفي ؛ وعندهم أن العلم ليس تفقهاً ، لأنهم لا يستمدونه من الكتب ، ولا ينالونه بالدراسة .

---

* نسب إلى التلمساني — وهو من تلامذة ابن عربي — هذه العبارة : « إن القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في كلامنا » . ومن البين أن هذا ، إن صح من التلمساني ، فهو من شطحات الصوفية التي تعارض الشريعة . وهذا القول يلتحق بقول الحلاج « ما في الجبة إلا الله » ، ونحو ذلك من الشطحات .

وقد اعتمد جلال الدين على سورة التكاثر فى صوغ هذه الحكمة : « فلتدرك بقلبك علم النبي ، بلا كتاب ولا أستاذ ولا معلم[١٢٣] » . لذلك هم غرباء عن العلم الكلامى المألوف المستمد من الكتب ، كما تعروهم الدهشة والحيرة فى حضرة العلماء وطلاب الحديث ، ويقولون عن هؤلاء : « إنهم يشوشون علينا أوقاتنا[١٢٤] » .

وإذا كانت الغاية عند الصوفيين هى معرفة الحقيقة ، ففيم تجدى البراهين والاستدلالات التى يرى أصحاب العقائد شدة الحاجة إليها ، ويحتمونها بصورة قاطعة ، والتى يجعل الكثيرون منهم الإيمان الدينى متوقفاً على العلم بها ؟

يقول ابن عربى إن من يؤمن بانياً إيمانه على البراهين والاستدلالات ، لا يمكن الوثوق بإيمانه ؛ لأنه مستمد من الفكر والنظر ، ولهذا فهو إيمان يتأثر بالاعتراضات[١٢٥] .

وليس الحال هكذا فى الإيمان النفسى ، الذى مركزه القلب ، والذى لا يمكن أن يدحض ؛ فكل علم يستند إلى النظر والفكر ليس علماً صحيحاً موثوقاً به ، لأنه قد يزعزعه الشك والاضطراب . وفى هذا يقول جلال الدين : « يغلب على جماعة العاشقين حال أخرى ، لأن فى خمر المحبة نشوة لا يدركها سواهم ، وشتان ما بين المحبة القلبية والعلم الذى يكتب بالدراسة[١٢٦] » .

فالطريقة الصوفية لا تدفع بالمرء إلى دقائق المجادلات ، أو تحمله على اجتياز مسالكها الملتوية المسببة للدوار ، والسير فى أخاديد الاستدلالات وخوانق القياسات ؛ فاليقين لا ينال باستنباطات المتكلمين البارعة ، وإنما يستطيع الصوفى أن يغترف المعرفة من أعماق القلب ، وأن يجد فى التأمل الباطنى السبيل الأوحد للوصول إليها ؛ فالصوفية كما يقول القشيرى ، هم من أهل الوصال والناس أهل الاستدلال[١٢٧] .

وقد سبق أن ذهب أحد الصوفية إلى حد القول « بأنه عندما تتجلى الحقيقة يرتد العقل ؛ لأن العقل هو الأداة التى تستخدم لمعرفة العبودية ، وليس للوقوف على الكنه الحقيقى للربوبية[١٢٨] .

إن هذا إنكار قاطع لنظرية العلم عند علماء الكلام الذين يقدسون العقل[١٢٩] . وما أثقل تحديدهم لمدى حرية الاختيار ، وما أبغضه لدى قوم كالصوفيين يعيشون فى

اللانهاية ، ويرون العمل الإرادى المنفرد قطرة حقيرة فى المحيط العالمى ، وذرة مغمورة فى سناء القدرة الإلهية المطلقة ! فالرجل الذى تجرد عن نفسه ونبذ كل رغبة خاصة ، لا يستطيع أن يستمع إلى بحث يتعلق بالإرادة أو بخلق الإنسان لأفعاله .

وكم يبدو لهؤلاء الصوفيين أن من لغو القول وسقطه البحث فى أفعال الإنسان والمناقشة فيها ، تلك الأفعال التى لا يستطيعون فهمها إلا على سبيل النفى والإنكار !

كما نجد أحياناً أن كبار الصوفيين فى بعض المذاهب الفقهية ينكرون علم الكلام فى لهجة قاسية ، وإن كان ذلك حقيقة لبواعث غير هذه ، مثل عبد القادر الجيلانى وأبى إسماعيل الهروى المتوفى سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م من الحنابلة — والأخير كتب بحثاً موجزاً فى التصوف — ورويم وابن عربى من الظاهرية القريبة من مذهب الحنابلة[١٣٠] .

كذلك تغير النظر إلى المثل الأعلى للحياة الإسلامية ، فأصبح ينظر إليه من وجهة تخالف تلك التى أقرتها تعاليم المذاهب السنية . وهكذا أثر الصوفيون أثراً قوياً على الجماهير الخاضعة لنفوذهم ؛ فقلّ إعجاب الناس بتلك السمة العسكرية التى كانت لأبطال الإسلام وكماته — والشهداء الأقدمون ما كانوا إلا من فئة المجاهدين — فانصرفوا عنها ، وولوا وجوههم نحو صور الزهاد الشاحبة ، وأجسام العُبّاد الهزيلة ، والرهبان المنقطعين فى الصوامع .

بل ان الأبطال الأقدمين فى عصور الإسلام الأولى الذين كانوا مثالاً يحتذى ، صار لزاماً أن يحصلوا على صفات البطولة الجديدة* ، أى أنهم جُرِّدوا من سيوفهم ، وألبسوا أردية الصوف[١٣١] .

١٤ — وينبغى أن نتوقع مجافاة أهل السُّنة للصوفيين ، وعدم انطواء نفوسهم على نية حسنة لهم ، وأما أكثر اللمزات الساخرة التى وجهها أهل السنة إلى اللباس الصوفى الذى ينسبون إليه[١٣٢] .

---

* يذكر المؤلف أخيراً أن مؤرخى رجالات الإسلام وأبطاله جردوهم أخيراً من سيوفهم ، وألبسوهم أردية الصوف الخ . والتصوف الحق لا يختلف فى القديم عن الحديث ؛ فهو مجاهدة النفس ، واتباع الآداب الشرعية ، والوقوف عند حدود الله . وما خالف ذلك فهو رد على صاحبه.

فقد روى الأصمعى (المتوفى سنة ٢١٦ هـ سنة ٨٣١ م) اللغوى أن فقيهاً معاصراً له ، تكلم الناس فى مجلسه بشأن القوم الذين يسيرون فى مهابة ووقار ، مرتدين ثياب التائبين الخشنة ، فقال الفقيه : « ما علمتُ أن القذر من الدين [١٣٣] » .

ومن اليسير أن ندرك كيف أن تعاليمهم ، وربما موقفهم الدينى أيضاً ، وإهمالهم لشعائر الإسلام إهمالاً دفع بهم فى كثير من الأحيان إلى حد إنكار كافة فرائضه وسننه [١٣٤] ، وقد جرّ عليهم الهجمات القاسية والحملات العنيفة . وقد أتاح الصوفيون ، بسبب حسن نيتهم وإخلاصهم ، المجال لفقهاء السنة لاتهامهم بالزندقة ، وهى تهمة يتهم بها كل من يفكر تفكيراً حراً ولا يسلك سبل السنة المعبدة .

لقد كان هؤلاء الصوفيون يتحدثون بلغة لا بد أنها بدت شديدة الغرابة والشذوذ فى نظر فقهاء أهل السُّنة ، الذين وصموا أبا سعيد الخراز بالكفر لورود العبارة التالية فى إحدى مؤلفاته : « إن من يعود إلى ربه يتشبث به وينتهى إلى جواره ، وينسى كل ما سواه ، ولو سألته عن مأتاه ومآبه ، لا يقدر أن يجيب بشىء سوى الله [١٣٥] » .

وإذا بدت على عبارة كهذه شبهة الزندقة ، فكم يشتد عبوس الفقهاء وتتجهم وجوههم من سماع أحاديث الصوفية فى الفناء والبقاء واتحاد الإنسان بالذات الإلهية وغير ذلك ! وكم يهيج غضبهم من مشاهدة بدع المتصوفة ، التى منها ما ظهر فى عصر سابق كالرقص الصوفى !

وكان من ذلك أنه فى نهاية القرن التاسع الميلادى ، عندما غلبت على بغداد الروح السنية المتعصبة ، تعرض كثير من مشاهير الصوفية للمطاردة والاضطهاد على أسلوب محاكم التفتيش [١٣٦] . وإن فى كلمة الجنيد أحد كبار صوفيى المدرسة القديمة وهى : « لا يصل امرؤ إلى مرتبة الحقيقة ، مالم يعامله ألف صديق له كأنه زنديق [١٣٧] » ، لدلالة قوية على روح هذا العصر ؛ فإذا اندفع أحد الصوفيين إلى أبعد من هذا المدى فى نتائج الاتحاد بالذات الإلهية ، فمصيره إلى الجلاد ، كما حدث للحلاج والشلمغانى .

١٥ — وإذا أردنا بحث العلاقة بين التصوف والإسلام السنى ، فإنه يسترعى

انتباهنا خاصة ظاهرتان فى كلتيهما دلالة على الرغبة فى التوفيق بين النظامين المتعارضين : الأولى من جانب الصوفية ، والثانية من أهل السُّنة .

والأولى تبين لنا أن الصوفيين أنفسهم شعروا بالحاجة إلى أن يلطفوا ولو ظاهرياً من حِدَّة مناقضتهم لشعائر الإسلام ، وألا يخلقوا فى نفوس خصومهم تحاملاً وهمياً يصم الصوفية بجحدهم للإسلام .

كما أحسوا بأن الميل المضاد « للاسمية » الغالب على الصوفية أثار قلقاً واضطراباً شديدين ؛ حتى فى البيئات الصوفية الأقل تطرفاً التى لم يألم رجالها من الإزراء بالشرع الإسلامى وإهماله ، ونددوا بهذه الحركة ، ورأوا فيها نذير انحلال التصوف واندثاره (١٣٨) .

فالطريقة والحقيقة تفترضان وجود الشريعة ، وبدونها ليس للطريقة الصوفية أية دلالة ، لأن الشريعة هى الباب الموصل إليها : « وائتوا البيوت من أبوابها » .

ولدينا أهم الشواهد وأقواها فى الدلالة على رد الفعل الداخلى لحركة التصوف فى رسالة الشيخ الصوفى الكبير ، عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى سنة ٤٣٧ هـ سنة ١٠٤٥ م ، التى وجهها إلى الجماعات الصوفية فى كافة أنحاء البلاد الإسلامية ، وهى رسالة لا ينبغى أن نتصورها شيئاً شبيهاً برسالة تبحث فى واجبات الوعاظ ورجال الدين .

إنها كتاب ضخم جعلته طبعة القاهرة لا تقل صفحاته عن ٢٤٤ صحيفة من الطباعة الضيقة المتراصة ، ويشتمل على تصوير أعلام الصوفية الكبار ومنتخبات من حِكمهم وأقوالهم المأثورة ، مضافاً إليها موجز للمبادىء الرئيسية للتصوف ، ويشيع فيه كله الميل إلى إقرار الوفاق والانسجام بين الشريعة والتصوف ، وإثبات أن الأقطاب الحقيقيين للمذهب الصوفى يستنكرون مناوأة الإسلام القائم ، ومن ثم يجب على الصوفى الصادق أن يكون مسلماً حقاً بالمعنى المصطلح عليه عند أهل السُّنة .

وهنا نلاحظ أن الحاجة لمثل هذا الكتاب تبين ، بجلاء المناوأة القوية التى عظمت واشتدت بين التيارين فى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى .

يقول القشيرى لأصحابه : « اعلموا أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ؛ حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة ؛ مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ؛ وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ؛ فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات . . . ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال ... وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية » .

ولعلاج هذه الحالة كتب القشيرى رسالته التى كان لها دوى عظيم فى العالم الصوفى ، وساعدت على إعادة الروابط التى كادت أن تفصم بين السُّنة والصوفية .

١٦ — والظاهرة الثانية التى بقى علينا أن نذكرها هى إحدى الظواهر القوية الأثر ، التى بدأت عهداً جديداً فى تاريخ العلوم الدينية الإسلامية ، وقد ظهرت بعد القشيرى بقليل ، وهى التى تمثل الجهود التى بذلت للتوفيق بين التصوف والشريعة والتى صدرت من الناحية المقابلة للناحية السابقة .

فبينا أخذت الحركة السابقه على عاتقها أن تناهض عدمية «nihilisme» الصوفيين لأنها كانت رد فعل من الإسلام السنى لمقاومة تعاليمهم ، نرى حركة مقابلة ، وهى تسرب الآراء الصوفية وانتقالها إلى أهل السُّنة .

وترتبط هذه الظاهرة باسم أحد فقهاء الإسلام الأعلام وهو أبو حامد محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ سنة ١١١١ م ، المعروف عند جدلى أوروبا المسيحيين فى العصور الواسطى باسم Algazel, Abuhamet .

وكم كان أثر الغزالى قوياً فعالا فى المسائل والموضوعات الدينية الإسلامية كما وصلت إليه حتى عصره من نمو وتطور ، وكان الفكر الدينى فى عهده قد غمره الجدل الفقهى ودقائق الكلاميين الملتوية ، وهو ما نتج عن تطور شريعة الإسلام وعقيدته .

ولقد اشتغل الغزالى نفسه بهذه العلوم ، وكان أستاذاً قديراً وكاتباً مجيداً بكل معنى هاتين الـكلمتين ، وكان إحدى مفاخر المدرسة النظامية التى أسست ببغداد فى ذلك الوقت ، وكتاباته الفقهية تعد مرجعاً من المراجع الرئيسية فى المذهب الشافعى .

وقد أنهت سنة ١٠٩٥ م الأزمة النفسية التى صادفته فى حياته ، بأن انقطع عن جهوده العلمية الموفقة ، وزهد المنزلة الرفيعة التى أكسبه إياها توفيقه فى الدرس والتعليم واعتزل ليقضى ما بقى من حياته مستغرقاً فى التأمل والتفـكير ، وليطوى نفسه فى عزلة الصوامع النائية عن مساجد دمشق وبيت المقدس .

ومن هذه الصوامع ألقى نظرة فاحصة ناقدة على التيارات الغالبة على الروح الدينية الإسلامية التى جهد كثيراً للتحرر منها ظاهراً وباطناً بعزلته واعتكافه .

وكان من نتائج تحرره من هذه الاتجاهات والتيارات ، التى أدرك شدة ما تجلبه من ضرر ومفسدة بالمثل العليا الدينية : فى الحياة العلمية والعملية ، أن أخرج للناس كتباً محكمة رصينة ، خالف فيها أسلوب الفقهاء المزهوين بعلمهم ، وعرض فيها منهاجاً منسقاً متماسكا ، رأى وجوب الأخذ به لإعادة بناء العلوم الدينية الإسلامية ، كما أنه فى مباحثه الأخرى التى هى أقل بسطاً وتفصيلا كشف فى عبارة قوية أخاذة بعض نواحى فـكره الدينى .

وقد رأى على الأخص هذا الخطر مجسما فى عنصرين من عناصر النشاط فى العلوم الشرعية ، كانا فى نظره من ألد أعداء الديانة القلبية النفسية ، وهما : الدقائق الجدلية فى العقائد ، والتفريعات الملتوية فى الفقه ؛ وهما ما عمرّ ساحة العلوم الدينية ، وقوّض صرح الروح الدينية العامة . كما خاض بنفسه ضروب الفلسفة ومسالـكها ، ولم يستطع ألبتة أن يتخلص تخلصاً تاماً من الأثر الذى كان لها فى تـكوين فـكره الدينى (١٣٩) .

ومع ذلك فهو فى إحدى مؤلفاته التى ذاع صيتها بين الـكتب الفلسفية فى العصور الوسطى وهو : « تهافت الفلاسفة » ، أعلن حرباً لا هوادة فيها على فلسفة ابن سينا المشائية ، مُظهراً ما اشتملت عليه من ضعف وتناقض ، كما أنه ندد بمغالطات الـكلاميين فى أقيستهم ، وعدها إسرافاً عقلياً لا غناء فيه ، يكدر صفاء العاطفة الدينية وصدق انبعاثها ، ولا يتفق مع بساطة الفـكر الدينى وخفة مؤونته .

بل إن هذه المغالطات فى رأيه ضارة وخيمة العاقبة ، ولاسيما إذا تجاوزت جدران المدارس الكلامية — كما يطالب بذلك الكلاميون — واستقرت فى أذهان العامة ، فلا ينالون منها إلا بلبلة فكرهم وزعزعة إيمانهم .

وقد وجَّه الغزالى هجماته ، بدرجة أشد وأقسى ، إلى أهل الفقه ومجادلاتهم الشرعية ، واستطاع هنا أن يستعين بتجاربه الشخصية ؛ فهو من أجل أن يعتكف فى صوامع النساك ترك منصبه الكبير فى أعظم جامعة إسلامية ، بل إنه نبه ذكره وعلا شأنه بما صنفه من مؤلفات فى علوم الفقه التى جرد عليها فيما بعد سهام نقده .

وعلى الرغم من تسليمه بقيمة هذه الأبحاث وخطرها فى الحياة العملية ، فقد أخذ يستنكر منذ ذلك الوقت ، ما يصنعه الفقهاء من مزج أمور الدين بالمجادلات الفقهية ، وذهب إلى أن هذا النوع من الدراسات التى خلع عليها أصحابها المتفيهقون المزهوّون ثوب القداسة وجلالة القدر ، ليس هناك ما هو أبعد منها عن الدين وأكثر التصاقاً بشئون الدنيا ، وليس ما هو أقوى منها ارتباطاً بمطالب العصر ومقتضياته .

فالنجاة فى الآخرة لا يضمنها للمرء البحث فى الأحكام الشرعية المدنية فى عقود البيع وقواعد الإرث وسائر التعقيدات والدقائق والتفاريع ، التى أضيفت إليها خلال العصور المختلفة ، والتى ثبتت دعائمها ، بعد أن أحلها أصحابها مكانة دينية عالية ليست أهلا لها ، وأصبحت ذريعة للفساد الخلقى عند من يعدها أعظم عناصر علم الكلام قيمة وخطراً ، واتخذها فقهاؤها وسيلة لإشباع مطامعهم الدنيوية والاسترسال فى غرورهم الكاذب .

كما ذم الغزالى كذلك الأبحاث الملتوية والمنازعات التافهة فى الخلافات التعبدية بين المذاهب ، وندد بها فى عبارات قوية قارصة ، معتبراً إياها اشتغالا بما لا طائل تحته ، وبما هو أدعى إلى إفساد الروح الدينية [١٤٠] ، وأشار بوجوب تنمية الشعور الدينى فى النفس كتجربة ذاتية قلبية بين المرء ونفسه ، وذلك بدلا من العناية بالطرائق الجدلية والكلامية الخاصة بأهل الفقه والعقائد .

وأخيراً وجد أن لب الحياة الدينية وجوهرها ، هو أن يسمو الإنسان بنفسه

إلى حالة التأمل والشعور بالتوكل ، على أن تكون محبة الله الباعث الرئيسى لكل ما يصدر عنه من فعل . وكما حلل العواطف الخلقية تحليلا عاماً فى قدرة بارعة ، فقد أفرد فى دراسته بحثاً عميقاً مستفيضاً عالج فيه الباعث الرئيسى ، وأرشد عن الطريق الذى يجب أن يسلكه لبلوغ هذه الغاية .

وبهذه المبادىء خلص الغزالى الصوفية من عزلتها التى ألقاها عليها . وأنقذهامن انفصالها عن الديانة الرسمية ، وجعل منها عنصرا عادياً مألوفا فى الحياة الدينية فى الإسلام ، ورغب فى الاستعانةبالآراء والتعاليم المتعلقة بالتصوف لكى ينفث فى المظاهر الدينية الرسمية الجامدة قوة روحية .

وقد اندمج الغزالى فى سلك الصوفيين ، وعاش على طريقتهم ، ولم يبعده عنهم إلا رفضه غايتهم المثلى وهى الحلول . وإنكارهم لأحكام الشريعة واحتقارهم لها . ولم يخرج الغزالى بما رأى عن جادة السُّنة ، إنما رغب فحسب فى أن يجعل لتعاليمها وأحكامها تأثيراً على حياة المسلم أعظم نبلا وأوثق اتصالا بالقلب ، وأن يقرب بينها وبين المثل الأعلى الذى يبغيه ويحبذه للحياة الدينية .

ومن جيد حِكَمه : « فاعلم أن الساعى إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ، ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس ، بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس(١٤١) » .

وقد عالج الأحكام والسنن الشرعية من هذا الوجه وبهذه الروح ، فى مؤلفه المنسق الكبير الذى توجّه بهذا العنوان الفاخر : « إحياء علوم الدين » ، لوثوقه بقيمته فى الإصلاح والتهذيب ، ولاقتناعه بأن العناية قيّضته ليبعث فى الرفات الهامدة للفقه الإسلامى الرسمى حياة جديدة .

وقد حذا حذو من سبقه من المصلحين ، وجعل نفسه من زمرتهم ، لأنه اجتنب الاستعانة بفكرة التجديد ، ولم يعتبر عمله تجديداً ، وإنما هو إعادة السنن القديمة إلى حالها الأول ، تلك السنن التى تطرق إليها التغيير والفساد فى العصور التالية .

كما اتجه نظره فى حماسة وإعجاب إلى الحياة القلبية الصادقة المفعمة بالإيمان التى كان يحياها المسلمون فى عصور الإسلام الأولى ، وعزز انتقاده واستنكاره بما ساقه

من الأمثلة المستخلصة من عصر الصحابة ، وبهذا جعل مذهبه متفقاً مع السُّنة .

إنه فى الجو الدينى الذى أحاط بعصر الصحابة ، لم يرتكز التدين على الحكم الجدلية أو الدقائق الفقهية ؛ ولذا أراد الغزالى أن يخلص الأمة الإسلامية من ضرر الزخارف الكمالية والزيادات الثانوية المفسدة للروح الدينية ، وأن يقوى الأثر التهذيبى للشريعة التى تعامى الناس عن مقاصدها وغاياتها .

وهكذا بدلا من شعور الاستنكار الصامت الضعيف الأثر الذى ملأ نفوس الصوفيين ، ممن غمرتهم الفيوضات الربانية وتوثقت الصلة بينهم وبين مريديهم المخلصين ، ونأوا عن مسالك السنة الواضحة ، جاحدين الرسوم الدينية الجامدة والعقائد اليقينية الجافة — نهض فقيه من فقهاء السُّنة الأعلام ، وهو الغزالى الذى رفع صوت احتجاجه عالياً مستنكراً ماأصاب الإسلام من تحريف وانتكاس ؛ بسبب أخطاء أعلام الفقه ، وضلالات أساطين الكلام . وما حظى به الغزالى من توقير واحترام فى كافة البيئات الإسلامية كفقيه سنى ، ساعد كثيراً على أن تكلل محاولته بالنجاح .

ولم يصادف عمل هذا الفقيه الجليل القدر معارضة ما إلا من جانب القوم الذين تعرضت مكانتهم الدينية الرفيعة للخطر بشكل جدى ، فلم تحدث هذه المعارضة إلا مرة واحدة ، وكان ذلك فى الأندلس ، حيث قامت جماعة من الفقهاء لم يحتملوا الحط من مقامهم ، فأوقدوا النار لإحراق كتاب الإحياء ؛ غير أن هذا لم يكن سوى مقاومة عارضة لم يكن لها أثر دائم ، كما أن أهل الأندلس أنكروا ماصنعه فريق من فقهائهم (١٤٢)

وإن ما بُذل من محاولات يائسة قصد بها منع تدول هذا الكتاب ، لم يحُل دون انعقاد إجماع السنيين على أن ينقشوا على لوائهم مذهب الغزالى بعد ذلك بزمن قصير ، وأن يحيطوا شخصه بهالة القداسة ، كما حباه الخلف اعترافاً بفضله بلقب «محيى الدين» و « المجدد(١٤٣) » ، الذى أرسله الله تعالى لتفادى ذهاب ريح الإسلام فى فترة الانتقال المضطربة الواقعة ما بين القرنين الخامس والسادس فى حياة الإسلام .

وقد عُدّ «الإحياء» كأنه أبدع كتاب ألف فى العلوم الدينية لإحاطته بها بين دفتيه ، حتى قيل فيه : « كاد الإحياء أن يكون قرآناً(١٤٤) » . واعتبرت السُّنة الإسلامية

الغزالى حجة ثقة يحتج به ، ولآرائه فصل الخطاب ؛ وصار اسمه شعاراً لتوحيد الصفوف فى سبيل مكافحة الميول المعادية للإجماع ، كما أصبحت جهوده وتواليفه بعض أحجار الزاوية العظيمة الخطر فى تاريخ الإسلام التهذيبى والخلقى [١٤٥] .

١٧ — وإذا أمكننا أن نجارى المسلمين فى اعتبار الغزالى مجدداً للإسلام ، فإننا نريد أن ننوه أيضاً على الأخص بقدر الغزالى فى ناحية من نواحى الفكر الدينى ، وهذا فضلا عن الفكرة الدينية العامة التى أشاعها ، والتى رفع بها من شأن الآراء الصوفية وجعلها من العوامل الفعالة فى الحياة الدينية فى الإسلام .

لقد ترفعت أغلب المذاهب الحكيمة والمبادىء الرشيدة ، التى وضعها أئمة المسلمين فى صدر الإسلام ، عن مجاراة الميل إلى التكفير وذلك بصفة واضحة قاطعة ، وجهدت فى أن تبين مراراً أن المرء ينبغى أن يحذر من أن يصم بالكفر [١٤٦] — بسبب الاختلاف فى الرأى — مسلماً من أهل الصلاة [١٤٧] أو من أهل القبلة .

ولدينا بيانات جمة الفائدة تتعلق بهذا الموضوع ، دونها المقدسى [١٤٨] الجغرافى (حوالى سنة ٩٨٥م) ، الذى اهتم فى دراسته للعالم الإسلامى اهتماما خاصاً بالنواحى الدينية .

والعقائد الإسلامية لايمكن المقابلة بينها وبين العناصر الدينية الأساسية فى أية كنيسة مسيحية ، فليس فى الإسلام مجامع دينية يحمى فيها وطيس المناقشات والمجادلات ، حتى يصل المجتمعون بعد ذلك إلى وضع القواعد الدينية والصيغ الاعتقادية التى يتحتم اعتمادها بعد ذلك كرمز يدل على الدين الصحيح ؛ ولا توجد فى الإسلام وظائف كهنوتية أو سلطة دينية تمثل المعيار القويم للسُّنة .

ولايوجد تفسير للنصوص المقدسة أقره المسلمون وحده دون غيره ، واعتمدوا عليه فى استخلاص عقائدهم ومناهج مذاهبهم .

والإجماع ، وهو السلطة العظمى عندهم التى يرجعون إليها فى المسائل الدينية النظرية والعملية ، هو قوة يتسع مدى استخدامها ويتعذر ضبطها وتحديدها ، بل إن فكرة الإجماع ذاتها وضع لها الفقهاء تعريفات متباينة ، ومن العسير ، فى المسائل الاعتقادية خاصة ، الاتفاق على ماينبغى اعتباره إجماعا دون نزاع أو جدال ، فما يراه فريق فى مسألة قد لايراه فريق آخر .

وإذا تطلبنا فى نطاق السُّنة الإسلامية من عدد من كبار العلماء المختلفى النزعة ممن يعدُّون من الأئمة الثقات الذين يعتد برأيهم ، ويعتبر هذا الرأى عنصراً أساسياً للإيمان الصحيح فى الديانة المحمدية ، أن يحددوا لنا ماينبغى أن نفهمه من كلمتى : كفر وزندقة ، نتلقى منهم أشد الإجابات تبايناً وأكثرها تناقضاً وذلك مالم نتقدم لأشخاص ذوى نزعة مذهبية متعصبة من جامدى الفكر .

وهذه الإجابات تصدر عن أصحابها وهم يعلمون بقيمتها النظرية البحتة ، لأنه من القسوة أن يؤدى مدلول هذه التعريفات إلى البت فى مسألة حياة الإنسان أو موته .

« لأن الكافر الذى صح كفره يطرد وينبذ ؛ ولا يبقى أهلا لأن يتعامل الناس معه فى أية تجارة ، ولا يؤاكل ، ونكاحه باطل ، وينبغى اجتنابه وازدراؤه ، ولا يُصَلَّى وراءه إذا أَمَّ بالناس ، ولا يؤخذ بشهادته أمام القاضى ، ولا يُقبل وليّاً لامرأة فى نكاحها وعند موته لا يُصَلَّى عليه ، وقبل إهدار دمه يُرَغَّب فى العودة إلى الإسلام ويستتاب ثلاث مرات ، كما لو كان مرتداً ، فاذا لم يتب وجب قتله(١٤٩) » .

وهذا قول ينطوى على شدة بالغة ، غير أنه لا يفكر فى تنفيذ هذه الفكرة حقيقة إلا قليل من الناس ، وقد يكونون أقلية ضئيلة من متعصبى الحنابلة(١٥٠) .

ومما يدخل فى باب الزيغ فى العقائد ، الأخذ بمبدأ حرية الإرادة الذى يرى أن الله لا يخلق أفعال الناس ، وإنما هم الذين يخلقونها . ولقد أُثر عن النبى أنه قال : القدرية مجوس هذه الأمة » .

وشدّد المسلمون النكير على أصحاب هذا الرأى واتخذوا حيالهم موقفاً بالغاً فى الشدة ، فضلا عن أن كتب التوحيد لاتقتصر فى إطلاق كلمات « الكفر والفسق » على ذوى النحل الاعتقادية الحائدة عن جادة السنة والخارجة على الإجماع .

ولكنا نرى أن قوماً كهؤلاء ، كانوا فى صدر الإسلام والعصور الأولى للسُّنة موفورى الكرامة ، ملحوظى المكانة من الناحية الاجتماعية ، بل كانوا يعدون فقهاء ثقاة فى مسائل الشرع والعقائد(١٥١) .

وقلما كانوا يضارّون فى آرائهم أو يتعرضون لشىء من الاضطهاد ؛ ما لم نجد فيما

كان يبديه كبار أهل السُّنة من علامات الازدراء والاشمئزاز نوعا من المضايقة الشديدة، وما لم نتغال فى تقدير حالات التطرف الفردية اعتماداً على أنها تمثل حكم الرأى العام .

ولم تؤخذ بالشدة والصرامة إلا الآراء والمذاهب المناوئة للدولة(١٥٢) ، وسنلاحظ فى حركة الشيعة بعض النقط التى تتلاقى فيها العقائد بالقانون العام . ففى ميدان العقائد قلما يُحال بين المذاهب الاعتقادية وبين حرية نموّها وتقدمها .

وهنا أساس هذه الظاهرة الهامة ، وهى أن الإيمان بمجموع العقائد الإسلامية ليس حتمياً فى كثير من الأحيان ، ولا يعد المسلم مسئولا عنه ، وهذا التحرر من الإلزام والمسئولية يبدو فى صورة شاذة غير مألوفة .

على أنه لم يكن من النادر أن تتسرب إلى العقائد طائفة من الآراء الغريبة التى يمكن اعتبارها تفسيراً فكاهياً للدقائق التى يعرض لها الكلاميون بصورة جدية ، والتى يمكن النظر إليها كجهد بذلوه للمبالغة فى التفريعات الاعتقادية إلى حد اللغو والسخف ، أكثر مما نعدها تعبيراً عن آراء يؤمنون بها فى غمار المناقشات فى المسائل الاعتقادية التى وصلوا بها إلى غايتها .

ولم تتجه الرغبة الجدية إلى تطبيق الأحكام والعقوبات ، التى تسرى على الكفرة والزنادقة من الوجهة النظرية ، على أصحاب هذه الشنع والضلالات إلا فى القليل النادر ، وفى بعض الحالات التى بدت على الأخص على جانب كبير من الخطورة .

١٨ — غير أن روح التسامح لا تميز إلا العصر القديم الذى لم يكن النزاع فيه بين الآراء المتضاربة ، على كثرة ما شاهده من الخلاف فى الرأى ، قد بلغ حد التعصب المتحزب . ولم تبد روح التعصب الممقوتة من الجانبين : « جانب السنيين وجانب العقليين » ، إلا بعد تفشى روح الجدل فى العقائد(١٥٣) .

ومما بلغنا عن أخبار الأشعرى ، وهو فى لحظاته الأخيرة ، ما روى من أنه استقدم وهو على فراش الموت ، إلى بيته الذى توفى فيه ببغداد أبا علىّ السرخسى ، واستطاع رغم انحلال قواه أن يتمتم بهذه الكلمة : « أشهد أنى لم أُكفر أحداً قط من أهل القبلة » .

ذلك بأن المسلمين يتجهون بأرواحهم نحو موضع واحد للعبادة ، وما يفترق فيه بعض الناس من غيرهم إن هو إلا خلاف لفظى فى التعبير . حقيقة ، إنه فى رواية أخرى كان آخر ما فاه به هو لعن المعتزلة ، وإنى أميل إلى الأخذ بالرواية الأخيرة وتوثيقها ؛ فإن روح هذا العصر الملىء بالفتن المذهبية ، تتلاءم كثيراً مع الميل إلى التكفير أكثر من الميل إلى إشاعة التسامح وتقريب شقة الخلاف .

وليس عبثاً ما ورد فى عبارة قديمة ، وهى : « تنحصر عبادة المتكلمين فى تشمم الزندقة » (١٥٤) . وتعطينا المؤلفات الكلامية صورة صادقة عن هؤلاء الجهابذة ، إذ يكثر فيها التراشق بألفاظ الكفر والزندقة ، وتوجيهها إلى من يجرؤ على مخالفة المؤلف مخالفة يسيرة .

وخلال هذه المنازعات والصيغ والتفريعات المليئة بالمغالطات ، نجد الصوفية وحدها هى التى يفوح منها عبير التسامح ، وقد رأينا أنها بلغت المدى الذى أنكرت فيه المعالم الأصلية للدين . على أن الغزالى لم يتابعها إلى هذا الحد ، فكتاباته لا ينضب معينها ولا تضعف قوتها عندما يعمد إلى الغض والتحقير من شأن كافة الصيغ والمغالطات الاعتقادية ، التى يدعى أصحابها أنها من القدسيات ، وأن الإنسان يتعذر عليه بدونها النجاة والخلاص .

وكم يسمو أسلوبه المذهبى الجاف إلى بلاغة مؤثرة أخَّاذة حينما يعمل على مكافحة مثل هذه الادعاءات ودحضها ! وقد أفرد لمذهب التسامح مؤلفاً خاصاً عنوانه : « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ، أبان فيه للمسلمين أن الاتفاق على الأركان الرئيسية للدين إنما هو محك الإيمان ، وأن الخلاف بصدد الفروع الاعتقادية والتعبدية ، حتى ولو شمل إنكار الخلافة التى يقرها أهل السُّنة ، وما يترتب على هذا الإنكار من الاتجاه نحو الشيعة ، لا يمكن أن يعد أساساً للتكفير ، فأوصى المسلم قائلاً : « الوصية أن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ، ماداموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله غير مناقضين لها » .

هذا ، وقدر الغزالى العظيم فى تاريخ الإسلام هو فى بعث هذا المبدأ القديم ، وتذكير إخوانه فى الدين به ، واصطناعه له اصطناعاً جدياً كسب له الأنصار والأتباع ؛

وهو بهذا كما رأينا لم ينشر آية فكرة جديدة ، ولكنه حدد طريق العودة إلى فضائل العصور الماضية وروحها المثلى .

وليس أدنى مما سبق صحة وصدقاً أنه أيقظ تلك الروح التى تنكبها الناس وأنكروها ، فأغناها بعناصر صوفيته التى ألهمها ؛ وأنه تجافى المنازعات الاعتقادية والفقهية وتفاداها ، تلك المنازعات التى تؤدى إلى التفرقة والانقسام ؛ وأنه نبذ الحكمة المذهبية التي يعتد بها أصحابها وينكرون سواها ؛ وأنه رغب فى توجيه نفوس إخوانه فى الدين نحو الإيمان القلبي الصميم الذى يوحّد الصفوف ويلمّ الشعث ، نحو العبادة التى تقام معابدها فى القلوب ؛ وقد كان هذا أعظم أثر للصوفية فى التكوين الديني للإسلام* .

---

* وبعد ! هكذا رأينا المؤلف ، ومن أشار إليهم من الباحثين المستشرقين ، جهدوا فى محاولة التدليل على أن التصوف الإسلامى — فى أصوله وطرائقه ونموه وتطوره — يرجع إلى عوامل مختلفة غريبة عن الإسلام ، وهم ، فيما ذهبوا إليه من هذا الرأى ، مابين غال ومعتدل فى تقدير قيمة هذا العامل أو ذاك من تلك العوامل الأجنبية .

ونحن ، وإن كنا لانستطيع أن ننكر أثر هذه العوامل أو بعضها لانستطيع كذلك أن نذهب كما ذهبوا إلى أن التصوف الإسلامى ، وبخاصة التصوف الحق منه ، مدين لها فى أصوله ومقوماته ونظرياته وطرائقه .

إذا كان الزهد هو الخطوة الأولى إلى التصوف ، وإذا كان التصوف يقوم مع هذا على رياضة النفس وذكر الله والتفكر فيه ، وإذا كانت غاية التصوف حب الله والمعرفة الكاملة اللدنية ؛ إذا كان ذلك كذلك ، كان من الحق أن يقرر الباحث المنصف أنه فى المعين الأول للاسلام (القرآن والحديث) مايصح أن يكون أصلا لهذا التصوف .

لقد نهى الإسلام عن الرهبانية ، وحذر من الغلو فى الدين والعبادة ، وجعل لنا أن نتناول من طيبات هذه الحياة من غير إسراف ؛ ولكنه مع هذا كله ، نهى عن الإخلاد إلى هذه الحياة الدنيا ، وبين أنها لعب ولهو ، وأنها لهذا ليست إلا متاع الغرور . فإذا أضيف إلى هذا سيرة الرسول وصحبه الأكرمين ، كان هذا وذاك هو السبب فيما نعرف عن كثير من المسلمين من الزهد الذى يزعم الزاعمون رجوعه إلى المسيحية ورهبانيتها . وقد كنا نسمع لهم لو قالوا بأن المبالغة فى الزهد هى التى ترجع إلى المسيحية أو الهندية على مايريدون .

وفى القرآن والحديث بعد هذا ، كثير من الحث على ذكر الله والتفكر فيه : « واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخفية » ، « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » . كما فيهما تصريح بأن الله يحب من يشاء من عباده ؛ فإذا أحبه كان سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها .

وفى القرآن — بله الحديث — كذلك مايشير إلى مذهب المتصوفة فى المعرفة الحقة ، وأنها هى التى تكون من لدن الله ، وتنال بالرياضة وجلاء القلب حتى يكون كالمرآة . إننا قد نرى مايشير

. . . .

= إلى ذلك فى قصة العبد الصالح (الخضر عليه السلام) الذى أتاه الله من لدنه علماً ، وفى قوله تعالى فى آية أخرى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، فإن من السهل ، إذا قرنا هذه الآية بالآية التى جاءت فى قصة سيدنا الخضر ، أن نرى أن هذا العلم هو ما يكون من الله مباشرة لا بطريق النظر والاستنتاج ، وأن طريقه هو تقوى الله ؛ وما هذا إلا المعرفة التصوفية ، التى طريقها الرياضة والمجاهدة وصالح العمل .

نعتقد بعد ماتقدم كله ، وهو قليل من كثير يمكن التقدم به فى هذا المجال ، أن من الحق أن نقرر أن التصوف الحق نشأ فى الإسلام ومن الإسلام ، وكان القرآن وحديث الرسول وسيرته معينه الأول ومصدره ، ثم عملت الثقافات الأجنبية الدخيلة عملها فيه وفى غيره من مظاهر الفكر الإسلامى وكان تأثره بتلك الثقافات قوياً وضعيفاً حيناً آخر ، ولات حين تفصيل ذلك كله .

أما نظريات وحدة الوجود والاتحاد والحلول ، ونحوها من الآراء الخاطئة ، فهى حقاً دخلت التصوف من ناحية تلك الثقافات الأجنبية ، وذلك مايسرنا تقريره والإعلان به .

٥

الفـــرق

١ — يُنسب للإسلام عادة كثرة فرقه الدينية وتعددها ، وتباين تعاليمها وتنوعها ، وذلك إلى الدرجة التى لايسمح بها التقدير المتزن للوقائع الصحيحة المستنبطة من تاريخه .

ويرجع أغلب الخطأ فى هذا إلى علماء الكلام المسلمين أنفسهم ؛ إذ أساءوا فهم حديث من الأحاديث النبوية قصد به فى الأصل تمجيد الإسلام وإعلاء شأنه ، نخصه بقدر من الفضائل والمزايا ، بلغت فى عددها ثلاثاً وسبعين ، تقابلها من فضائل اليهودية إحدى وسبعون ومن المسيحية اثنتان وسبعون ، ففهمها الكلاميون على أنها ثلاث وسبعون فرعاً أو فرقة .

وقد استرسلوا ، اعتماداً على هذا التخريج ، فى الإكثار بقدر استطاعتهم من تعداد الفرق الذاهبة كلها فى النار ، ما عدا « الفرقة الناجية » التى يُفضى مذهبها وحده إلى النجاة والخلاص ، أى تلك التى توافق السنة[١] . وقد أوجدت البيئات الأخرى التى هى أقرب من هؤلاء إلى روح التسامح ، والتى تستطيع أن تستشهد بالغزالى ، تأويلا لهذا الحديث يتلاءم مع العقلية المتسامحة ، وهو : « كلها فى الجنة إلا الزنادقة » .

هذا الفهم الخاطىء للحديث الإسلامى ، الخاص بفضائل الإسلام الثلاث والسبعين وتخريجها على أنها فروع أو فرق ، أثّر أحياناً فى آراء الغربيين وتصوراتهم ؛ فلم يقتصروا على اعتبار المذاهب الأربعة فرقاً دينية ، ولكنهم حسبوا أيضاً أن من الفرق الدينية ما ظهر فى الإسلام من الخلافات الاعتقادية والمذاهب التى حادت عن جادة السنة ، على الرغم من أنه لم يتح لها أن تؤسس فرقاً دينية منشقة .

فما يدل مثلاً على الجهل بتاريخ الإسلام جهلاً تاماً ، وضع المعتزلة فى عداد الفرق . ولاشك أن المتكلمين عمدوا بمحض إرادتهم إلى أن يكفر بعضهم بعضاً ،

لمجرد الخصومة فى الرأى ، وأنكروا أحياناً بصورة جدية أن خصومهم من المسلمين ، وطبقوا فعلاً ما يترتب على هذا التفكير من آثار عملية . فالولد السنى لا يرث أباه الذى شايع المعتزلة فى قولهم بمبدأ حرية الإرادة ، وذلك لأن اختلاف الملة يحول دون الإرث كما تقضى بذلك الشريعة الإسلامية[٢] .

غير أن هذا التغالى فى التعصب لم يتفق مع الشعور السائد فى الجماعة الإسلامية التى لم تتردد فى أن تعد تطبيق هذه القاعدة فى المواريث ، على هذه الصورة ، عملاً سفيها خاطئاً ، بعيداً عن محجة الصواب[٣] .

إننا فى الإسلام نجد أن الفرق الدينية الحقيقية التى يمكن أن تنطبق عليها هذه التسمية هى الجماعات التى تنكبت السنة وابتعدت عن التعاليم الإسلامية المعتمدة التى أقرها المسلمون فى مختلف عصورهم التاريخية ، أى الأفراد الذين عارضوا الإجماع فى المسائل الأساسية ذات الأهمية القصوى فى نظر غالبية المسلمين .

والانقسامات الدينية التى من هذا القبيل والتى لا تزال قائمة فى العالم الإسلامى فى الوقت الحاضر إنما ترجع إلى أقدم عصوره التاريخية ، ولا تعزى كما قد يتبادر إلى الذهن إلى اختلاف وجوه النظر إلى المسائل الدينية ، ولكنها ترجع إلى مشكلات تتعلق بالتنظيم السياسى ، وهى مشكلات شغلت المحل الأول فى تفكير المسلمين القدامى .

وفى الحق ، إن المسائل السياسية فى جماعة بنت كيانها على أساس دينى ، لا بد أن تصطبغ بصبغة دينية ، وأن تتخذ المصالح الدينية مظهراً لها ، مما يضفى على المنازعات السياسية طابعاً خاصاً .

وإن الحركات التى أدت إلى الانقسامات الدينية الأولى فى صدر الإسلام ترجع أهميتها — حقيقةً — إلى ما اشتملت عليه من المسائل والنظريات الدينية التى نمت وتفرعت فى بيئتها العربية ، ثم لما زادت وفرة وقوة بامتزاجها بالعناصر الخارجية والمؤثرات الأعجمية ، سرعان ما طبعت هذه النظريات انشقاقات المسلمين بطابع دينى ظاهر .

ومع ذلك فقد شغلت المشاكل السياسية ، فى بدء قيامها ، المحل الأول من عناية

المسلمين ، ثم لابستها الاعتبارات الدينية وامتزجت بها كعامل من عوامل الإعداد والاختمار ، وتحولت حثيثاً هذه الاعتبارات الدينية إلى مؤثرات فعالة وعناصر قوية عملت على استدامة هذه الانقسامات وإبراز ما يفرّق بينها من وجوه الخلاف .

٢ — توفى النبى ، ولم يعرف المسلمون ، معرفة صحيحة لا يتطرق إليها الشك ، رأيه فى ولاية الحكم فى الجماعة الإسلامية ، فأصبحت المسألة المهمة الشاغلة لأذهان المسلمين هى الفصل فى مسألة الخلافة ، وكان مما ضمن لعمل النبى دوامه واستمراره ما أصابه المسلمون من نجاح موفق فى اختيارهم لخليفته .

غير أنه نشأ بين كبار الصحابة ، منذ بدأت مشكلة الخلافة ، حزب نَقَم على الطريقة التى انتُخب بها الخلفاء الثلاثة الأول وهم أبو بكر وعمر وعثمان ، الذين لم يراع فى انتخابهم درجة القرابة من أسرة النبى . وقد فَضَّل هذا الحزب بسبب هذا الاعتبار ، أن يختار للخلافة عليًّا بن أبى طالب ابن عم النبىّ وأدنى قريب له ، والذى كان فضلا عن ذلك زوجاً لابنته فاطمة .

ولم يجد هذا الحزب فرصة مواتية ، يُسمع فيها صوته عالياً ، إلا حينما كان على رأس الدولة الإسلامية الخليفة الثالث عثمان أحد أفراد الأسرة الأموية ، التى كافح عميدها أبو سفيان ومعه بنو أمية الإسلام كفاحاً شديداً وهو فى مهد نشأته . وذلك على الرغم من أن الأمويين اضطروا فيما بعد ، إذعاناً لما أصابه الإسلام من نجاح وقوة ، إلى الانضواء تحت لوائه والنبىّ على قيد الحياة

وإن ما ناله بنو أمية من نفوذ فى الحكومة الإسلامية ، إبان خلافة قريبهم عثمان ، وما ترتب على ذلك من الاستئثار بامتيازات مادية فى الدولة ، أدى إلى قيام الساخطين بالفتنة ، وتابعهم هؤلاء الذين أهملتهم الحكومة وتركتهم جانباً ، ثم قُتل الخليفة وبدأ النزاع بين حزب على وأشياع الخليفة المقتول الذين هبوا منذ ذلك الوقت للمطالبة بدمه ، ثم أقروا بحق معاوية الأموى حاكم الشام فى مطالبته بالخلافة .

ومن الإجحاف أن نتهم عثمان بضعف الإيمان أو بفتور الحماس للإسلام ، وذلك على الرغم من انتمائه لعشيرة لم تعرف بصدق الإخلاص للدين الجديد ، ولم يكن فى رأس الاتهامات التى وجهها الخصوم إلى عثمان اتهامه بعدم الاكتراث بأحكام

الدين . بل إنه لاقى منيته وهو مشتغل بتلاوة القرآن ، وهو الذى كان موضع جهده وعنايته حتى انتهى فى كتابته إلى وضعه النهائى المحدود ، الذى لا يزال يعتبر حتى اليوم النص المعتمد للقرآن .

وعلى الرغم من الموقف الدينى الذى وقفه أبو بكر ، قامت فى عهده — إلى جانب الساخطين السياسيين — حركة كانت ضعيفة دون ريب فى أول أمرها ، وقد أوجدها ثوار دينيون رأوا فى علىّ أنه أحق دون غيره بالخلافة وأن الحق الإلٓهى قد خصّه بها . غير أن علياً لم يستطع أن يلى الخلافة وأن يكون الرابع فى الترتيب فى قائمة الخلفاء بمعاونة هذا الفريق ، دون أن يُجمع المسلمون على مبايعته فى كافة الأمصار ، فاضطر أن ينالها بمحاربة الطالبين بثأر عثمان وعلى رأسهم معاوية الأموى .

وقد تمكن معاوية وأصحابه خلال معركة صفين من ابتداع حيلة حربية بارعة عدّها أوجوست ميلر(٤) « من أشنع المهازل وأسوئها فى التاريخ البشرى » ، وتوصلوا بها ، بعد معركة دامية كان ينبغى أن تُفضى إلى اختلال صفوفهم واندحارهم إلى عقد هيئة للتحكيم .

وإذا حكمنا على علىّ من الناحية السياسية نجد أنه أظهر ضعفاً شديداً عندما أبدى موافقته على هذا الحل السلمى مظهراً ، الذى قُصد به حسم المسألة المتنازع عليها ، فترتب على هذا أنه كان ضحية المخاتلة والدهاء على طول الخط ، فرجحت كفة خصمه . ولسنا بحاجة إلى بصيرة نافذة لندرك أن هزيمته النهائية كانت أمراً حتمياً لا محيص عنه ، حتى إذا لم يكن خنجر قاتله قد وضع حداً نهائياً للنزاع الذى شغل به ونهض بأعبائه .

وقد كانت موافقة علىّ على التحكيم ، الباعث الأول لظهور إحدى الفرق الدينية فى الإسلام ؛ فقد كان فى معسكر الخليفة بعض المسلمين المتعصبين الذين رأوا أن الفصل فى موضوع خلافة النبى لا يصح أن يوكل إلى البشر ، بل ينبغى الاحتكام فيه إلى الحرب والكفاح وسفك الدماء .

وإذا كانت السيادة والسلطة مما يصدر عن الله ، فالحكم فيهما لا يحسن إخضاعه للاعتبارات البشرية أو الملابسات الدنيوية . وهكذا ، اتخذوا هذا المبدأ « لا حكم

إلا الله » شعاراً لهم وانسحبوا من جيش على وأصحابه ، وعرفوا فى تاريخ الإسلام ، بسبب انفصالهم « بالخوارج » ، وقد أنكروا حق كل من على ومعاوية فى الخلافة لأنهما استهانا بالدين وأخلاَّ بأحكامه .

وقد ظهر للخوارج أن ما صنعوه فى حروب على لم يكن فى سبيل إعلاء كلمة الله « وحكمه »[٥] ولكن كان الباعث على إثارة هذه المنازعات والغاية فيها هو التماس المصالح الدنيوية والسعى للنفوذ والسلطان وتحقيق المطامع الشخصية ، وعندهم أن الخلافة ينبغى أن تعقد لأفضل أبناء الأمة الإسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد .

وبعد أن اشترطوا حرية اختيار الخليفة استخرجوا من هذه المقدمة كل النتائج المنطقية المترتبة عليها ؛ فلم يقصروا الخلافة ، كما كان الحال إلى ذلك الوقت ، على قوم تمتعوا وحدهم بهذا الامتياز ، بل إنهم أنكروه على قبيلة قريش التى ينتمى إليها النبى ، وذهبوا إلى أن « عبداً حبشياً » لا يقل أهلية للخلافة واستعداداً لها عن سليل أعظم القبائل حسباً ونسباً .

ولكنهم فى مقابل هذا ، يشترطون فى الخليفة أن يكون أشد الناس خشية لله ، وأعظمهم طاعة له ، وأقواهم استمساكاً بالدين واتباعاً لأحكامه ؛ فإذا لم يف مسلكه بهذه الشرائط وقصرت سيرته عن إدراكها ، جاز للأمة أن تخلعه .

وقد شمل تشددهم أيضا عامة المسلمين فأقروا حكما هو أقسى مما ذهب إليه أهل السُّنة ، وهم فى هذه المسألة على طرفى نقيض مع المرجئة ، إذ جعلوا الأعمال جزءاً مكملا للإيمان إلى حد أن مرتكب الكبيرة لم يقولوا بعصيانه فحسب ، بل عدوه كافراً[٦] ، فحق لعلماء الغرب أن يطلقوا عليهم « لقب متطهرى الإسلام »[٧] بسبب نزعة التشدد التى غلبت على أخلاقهم الدينية .

ومما يميز نظرياتهم الخلقية أنهم وثّقوا الصلة بين الأحكام الفقهية والمثل الخلقية العليا توثيقاً تقصر السُّنة الإسلامية السائدة عن بلوغ مداه ، ويمكن أن تتخذ المسألة التعبدية التالية مثالا : حدّد الفقه الإسلامى نواقض الوضوء ، وهى جميعاً بلا استثناء عبارة عن حالات وشرائط جسمانية .

وقد ارتضى فقه الخوارج هذا التحديد دون قيد أو شرط ، ولكنه أضاف إليه مع ذلك بعض الزيادات ، وإنى لموردها بالمعنى من كتاب ظهر حديثاً عن ديانة هذه الفرقة[٨] : « كما ينقض الوضوء ما يجرى على اللسان من كذب وغيبة يؤذى الجار او يؤذى من لا يجرؤ المرء على قول مثله فى حضرته ؛ كما تنقضه السعايات التى ينشرها الحقد والعداء بين الناس ؛ وإن ما يفوه به المرء من سباب ولعنات وطعنات مقذعة فى حق غيره من بنى الإنسان أو الحيوان لما يخرجه من حالة الطهارة ويحتم عليه الوضوء قبل أدائه للصلاة » .

وهذا معناه أن الأكاذيب والبذاءات الخادشة للحياء ومالا يليق ، ويندرج معها تبعاً لذلك سائر النقائص والرذائل ، لا تقل فى نقضها للطهارة عن أثر القذارة الجثمانية ، وإذن فالطهارة الخلقية من الفروض التى لا تصح الصلاة بدونها[٩] .

هذه هى مبادىء فى السياسة والعقائد والأخلاق ميزت المذهب الخارجى وطبعته بطابع خاص ، واتخذها الخوارج أسساً لمذهبهم ، وتابعوا كفاحهم لبنى أمية بعد أن استقرت الخلافة فى أيديهم ، ووصموهم بالفسق والمعصية واغتصابهم للحكم ، وأثاروا فى وجه دولتهم الفتن والقلاقل فى أطراف الإمبراطورية العربية الشاسعة .

ولم تتألف من الخوارج جماعة محدودة ثابتة ، كما أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحد كلمتهم وتجمع شملهم ، بل أخذت جموعهم المتفرقة ، فى أنحاء الدولة بزعامة رؤسائهم يقلقون الولاة ويناوئونهم ، مما استغرق جهود قواد الدولة الكبار فى مكافحتهم ، هؤلاء القواد الذين يرجع الفضل فى تثبيت دعائم الخلافة الأموية إلى مهارتهم وتوفيقهم الحربى .

وقد سارع إلى الانضمام إلى الخوارج الطبقات المعدمة الرقيقة الحال فى المجتمع الإسلامى ، التى راقتها كثيراً ميول الخوارج الديمقراطية واحتجاجاتهم على مظالم الحكام والولاة .

وكانت ثورات الخوارج تتخذ ذريعة لكل فتنة ترمى لمناوأة الأمويين ، وتعلل بها البربر المستقلون فى إفريقية الشمالية فى الثورة التى قاموا بها فى وجه الحكام الأمويين ، وقد غاب عن المؤرخين المسلمين أن يدركوا حقيقة المقاومة الوطنية المستميتة التى قام بها البربر .

إذ لم ير هؤلاء المؤرخون فى ثورتهم سوى أنها فتنة من فتن الخوارج[١٠] ، ولذا ثبتت فى هذه البلاد دعائم المذهب الخارجى وظلت بها وقتاً أطول مما عاشت فى البلاد الإسلامية الأخرى ، وقد اعتنقته هنالك جموع غفيرة من البربر أصحاب تلك البلاد .

وعكف الخوارج بعد إخماد فتنهم وثوراتهم على الاشتغال بالدراسة النظرية لمذاهبهم الخاصة فى السياسة والأخلاق والعقائد والعناية بها ، فمنذ أن كفوا عن مناهضة الحكومات القائمة ومناوأتها بالسلاح ، أخرجوا عدداً كبيراً من المؤلفات الفقهية والكلامية ؛ وكان أوسع الناس خبرة بأحوالهم الأستاذ موتيلنسكى ، ناظر مدرسة قسطنطينية بالجزائر ، الذى ثكلته العلوم الإسلامية بوفاته أخيراً (سنة ١٩٠٧) .

وكما أن الخوارج ظهروا فى صدر الإسلام إبان حروبهم وفتنهم على شكل طوائف وجماعات متفرقة ، فإننا نلاحظ مثل هذه الفروق فى تفصيلات مذهبهم وخاصة فى الصيغ والعبارات والآراء التى تُعزى عادة إلى رؤسائهم الأقدمين .

ولا غرابة فى أن يشتمل مذهبهم عليها ، لأن قواعده تكونت فى عهد هذه الفتن والحروب التى كان الخوارج فيها منقسمين إلى طوائف مختلفة ، ومما يسترعى النظر أنهم فى بعض المسائل الاعتقادية الهامة يقربون كثيراً من المعتزلة[١١] .

وفى العهد الذى كان المذهب الخارجى فيه لا يزال مضطرباً مهوشاً لم يبلغ درجة التماسك والاستقرار ، ولم يصبح نظاماً وضعياً محكما ، كانت قد ظهرت عند فقهاء الخوارج نزعات عقلية rationaliste دفعت بهم إلى التفكير فى المسائل الدينية تفكيراً حراً ، وذلك عندما غلبت على مذهبهم المظاهر السلبية التى عارضوا بها مذهب أهل السُّنة .

وقد ظهر بينهم ، إبان معارضتهم للعقائد الإسلامية العامة ، حزب رأى أن يعتمد على القرآن وحده كمرجع للأحكام ، وأن يرفض ما عداه من السنن المأثورة لقصورها عن توضيح أركان الإسلام وضبط أحكامه[١٢] .

وذهبت فرقة منهم إلى حد الطعن فى سلامة السور القرآنية ؛ « فالميمونية »

أنكرت كون سورة يوسف من القرآن ؛ وزعم العجاردة أنها قصة من القصص وقالوا لا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن ، واستبعدوا أن تكون مساوية فى المنزلة للسور الأخرى من كتاب مقدس أنزله الله[١٣] .

وذهب بعض أتقياء المعتزلة هذا المذهب فى إنكار الآيات التى تصب اللعنات على خصوم النبى — مثل أبى لهب — وشق عليهم أن يتصوروا أنها من أم الكتاب ، وأنها مما ينطبق عليه قوله تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ »[١٤] .

ومن السهل أن نفترض أن الخوارج فى المسائل التعبدية والأحكام الشرعية يختلفون أحياناً عن أهل السُّنة[١٥] ، لأن فرقهم عاشت وتعاليمهم تكونت بعيدة عن إجماع أهل السُّنة . وقد رغب أهل السنة فى إبراز معارضة الخوارج للإجماع فى مذاهبهم الأربعة الرئيسية ، فأطلقوا عليهم فيما بعد لقب الخوامس ، أى المنشقون الذين خرجوا عن نطاق الجماعة السنية ذات المذاهب الأربعة .

ولا يزال يوجد فى أيامنا جماعات إسلامية تدين بالمذهب الخارجى . ومن بين فرق الخوارج العديدة التى كانت الفروق المذهبية سبباً فى انقسامها — كما لاحظنا آنفاً — بقيت فرقة الإباضيين نسبة لمؤسسها عبد الله بن إباض (ويستحسن أهل إفريقية الشمالية أن ينطقوا كلمة إباضيين بالفتح[١٦]) .

ولا يزال الإباضيون يؤلفون جماعات عديدة فى إفريقية الشمالية على الأخص[١٧] ، كما فى مزاب فى إقليم جبل نفوسة بطرابلس الغرب التى بعث أهلها بنائب إباضى يمثلهم فى مجلس المبعوثان بالقسطنطينية . ويوجد فريق آخر بزنزبار بإفريقية الشرقية أما الوطن الأصلى للإباضيين الذين يهاجرون إلى إفريقية الشرقية فهو بلاد عمان العربية .

ويلاحظ أن الخوارج يعيشون فى جوانب منعزلة بعيدة عن مواطن الاتصال بين الأمم ، ويقطنون بقاعا تكاد تكون نسياً منسياً ، وقد حاولوا فى السنوات الأخيرة أن يستنهضوا همتهم ونشاطهم وأن يستعيدوا الشعور بكيانهم .

وربما أثارهم الاهتمام الذى لم يعد خافياً عليهم والذى أبداه علماء أوربا نحو آدابهم ومؤلفاتهم ، فعمدوا فى السنين الأخيرة هذه ، إلى طبع عدد من كتبهم الرئيسية فى علم الكلام ، بل إنهم حاولوا بث دعاية هجومية فى صحيفة أصدروها ، وإن كان لم يظهر منها فيما يلوح لى إلا بضعة أعداد فحسب[١٨] .

ففرق الخوارج ، من حيث الترتيب الزمنى ، يمكننا أن نعدها من أقدم انشقاق دينى حدث فى الجماعة الإسلامية ، ولا يزال هذا الانشقاق باقياً فى الجماعات الإسلامية المنفصلة عن مذهب أهل السنة ، وإنا نلمس فى تاريخهم مثالا سهلا وأنموذجاً قليل التعقيد يشرح لنا كيف نشأت الفرق الإسلامية وكيف اقتحم تيار الأفكار الدينية نطاق النزاع السياسى .

٣ — هذا ، وإن الانشقاق الدينى الذى نجم عن معارضة الشيعة ومقاومتهم لهو أعظم خطراً فى تاريخ الإسلام من حركة الخوارج .

إن أوجز الكتب الابتدائية عن الإسلام تبين على وجه التحديد أن الإسلام ينقسم إلى قسمين : السنى والشيعى ، ويرتبط هذا الانشقاق الدينى كما رأينا آنفاً ، بمسألة ولاية الحكم ؛ فإن الحزب المناصر لآل البيت قد شايع فى عهد الخلفاء الثلاثة الأول ، حقوق البيت النبوى فى الخلافة ، ملتزماً الهدوء والسكينة ، ودون أن يدخل مع ذلك فى نزاع مكشوف للدفاع عنها .

غير أنه بعد مقتل علىّ أخذ فى معارضة الدول غير العلوية التى اغتصبت الحكم واستأثرت به منذ انقضاء علىّ ؛ فاحتج أولا على الأمويين ، ثم تابع احتجاجه ومقاومته للدول الأخرى التى جاءت بعدهم والتى لم تسلم بنظريته فى الخلافة الشرعية الصحيحة ؛ وفى كل مرة يهضم الغاصبون حقوق آل البيت ، يهب أفراد هذا الحزب لمقاومتهم ، ومعارضتهم ما لآل البيت من علىّ وفاطمة من « حق إلهى » .

وقد نددوا بالخلفاء الثلاثة الذين سبقوا علياً ، ووصموهم بالاغتصاب والإثم والطغيان ، كما أضمروا فى قلوبهم الحقد والرغبة فى المقاومة ، وكلما واتتهم الفرص كانوا يجهرون بالثورة والخروج على النظم القائمة للدول الإسلامية فى كافة عصور التاريخ الإسلامى .

واصطبغت هذه المعارضة بصبغة دينية بالنسبة لطبيعتها ، لأن الدوافع الدينية قد غلبت عليها ، وبدأ المعارضون بموضوع الخلافة ؛ فذهبوا إلى أن الرئيس الشرعى الأوحد للإسلام من الوجهة الدينية والدنيوية هو الإمام الذى خوّله الله الإمامة وخصه بها ، وليس ذلك الذى يتبوأ الخلافة ويتقلد السلطة عن طريق اختيار المسلمين له ، وقد فضلوا

أن يلقبوا الرئيس الأعلى والسليل المباشر للنبي الذي يدينون له بالطاعة في كل عصر بالإمام ، لأن هذا اللقب يدل في معناه على مقام ديني ومكانة دينية ملحوظة لاتوجد في غيره من الألقاب .

والإمام الأول هو علي ، ويعده أهل السُّنة أنفسهم ، دون أن يمسوا حقوق أسلافه في الخلافة ، رجلا ذا فضائل ومعارف تفوق المألوف ؛ وسماه الحسن البصري « رباني هذه الأمة[١٩] » .

غير أن الشيعة رفعوه إلى مرتبة أعلى من هذه ، فقالوا بأن النبي بثه علوماً كان يخفيها عن جمهور صحابته لأنهم لم يكونوا أهلا لها ، وقد توارث العلويون هذه العلوم .

وكما اختار النبي علياً وعينه صراحة ليكون خليفة له فيما بعث لأجله من هداية الأمة وحكمها وتدبير أمورها ؛ فهو لذلك: «وصيّ» ، أي أنه انتخب برغبة النبي وإقراره .

ومما يفرق من حيث المبدأ بين الشيعة وأهل السنة[٢٠] أن يعمد المسلم إلى إنكار رغبة النبي وإقراره ، رعاية لمصلحة شخص من الأشخاص أياً كان هو ، وفي اعتقاد خصوم أهل السنة أن علياً له وحده الحق في لقب أمير المؤمنين[٢١] وهو لقب حمله خلفاء المسلمين منذ عهد عمر ، ونجده محرفاً في مؤلفات الأوربيين الغربيين في العصور الوسطى ؛ فكتبوه تارة «ميرامولن» Miramolin ، أو «ميراموملن» Miramomelin أو « ميراموملي » Miramomelli [٢٢] .

والخلفاء الشرعيون لعلي ، باعتبار أنهم أئمة ورثوا مرتبته في رئاسة الدولة وولاية الحكم فيها ، وفي العلوم والصفات الروحية التي اختص بها ، هم دون غيرهم السلالة المباشرة لعلي من زوجه فاطمة ، أي نسل حفيد النبي : الحسن أولا ثم الحسين ، ويتبعهما سائر الأئمة العلويين . وكل إمام منهم وصي لسلفه الذي عينه بإقراره الصريح موافقاً للترتيب الآلهي ، وجاعلا إياه المرشح الشرعي للوظيفة الربانية[٢٣] .

وهذا الترتيب سبق أن قضى الله به وكتبه على كل عصر ، وأقره الرسول كتقليد إلٓهي لمنصب الحكم وولاية أمور الأمة[٢٤] . وقد وُفِّق التفسير الشيعي للقرآن ، الذي بلغ الغاية القصوى من التأويل التحكمي المتعسف[٢٥] ، في العثور على آيات قرآنية تؤيد هذا النظام المقرر .

وكل دستور آخر للخلافة غير هذا ، يعدونه من الناحية الدنيوية اغتصاباً وقهراً ، ومن الناحية الدينية أو الروحية مؤامرة إجرامية مدبرة للقضاء على المصدر الشرعى الوحيد للتوجيه ، والإرشاد الدينى فى الجماعة الإسلامية .

لأن إمام كل عصر ، هو وحده بمقتضى الحق الإلهى وصفة العصمة غير العادية التى وهبها الله إياه ، قد خول له ووكل إليه تعليم الجماعة الإسلامية وتوجيهها فى كافة شؤونها الدينية ، وماهذا إلا نتيجة ضرورية ترتبت عن العدالة الإلهية ، بمعنى أن الله تعالى لايحرم أى جيل من الأجيال من هذا التوجيه والإرشاد .

وإذاً ، فوجود إمام لكل عصر أمر ضرورى لاغنى عنه ، لأن الغاية من التشريع السماوى والتوجيه الالهى لا تتحقق دون إمام حائز لمثل هذه الهداية وهذه العلوم الربانية ؛ فالإمامة هى نظام واجب ، وتنتقل بوراثة لا تنقطع إلى أفراد الذرية النبوية الحائزين لمثل هذه الصفات .

وهكذا ، غلب الجانب الدينى فى التشيع الجانب السياسى وتقدم عليه ، ووجد الشيعة فى أقدم دولة ناوأوها وهى دولة الأمويين ، الفرصة الأولى فى أن يتجهوا فى حركتهم اتجاها دينياً ، وكان مسلك الأمويين دائماً — إذا تركنا جانبا مسألة الحق الشرعى فى الخلافة — عنواناً للمخازى والفضائح فى نظر الأتقياء .

لأنهم كانوا يضعون نصب أعينهم المصلحة الدنيوية للحكومة الإسلامية ويجعلونها فى المحل الأول . بينما رأى الأتقياء تغليب المصلحة الدينية ، لأنهم كانوا لايرون الحكومة إلا أن تكون حكومة « تيوقراطية » .

وبعد ولاية الأمويين الخلافة بقليل ؛ سنحت لشيعة على فى عهد يزيد بن معاوية فرصة دل اختيارهم لها على الطيش وقصر النظر ، وأشركوا الحسين فى نزاع دام مع الغاصب الأموى . وقد زودت ساحة كربلاء (سنة ٦٨٠م) الشيعة بعدد كبيرمن الشهداء اكتسب الحداد عليهم حتى اليوم مظهراً عاطفياً فى العقائد الشيعية .

وبعد ذلك بقليل نازلت الشيعة الأمويين مرة أخرى تحت لواء المختار . وبطشت بها من جديد سطوة الأمويين القاهرة . وقد دعا المختار لواحد من أبناء على لم يكن ابنا لفاطمة . وهو محمد بن الحنفية ونادى بخلافته . وهذه بادرة تدلنا على بدء الانقسامات الداخلية فى الشيعة .

وعلى ذلك فقد ظل الشيعيون ، حتى بعد أن حاقت بهم تلك الهزائم الفاصلة ، يتابعون معارضتهم ومكافحتهم للأنظمة السياسية فى الإسلام التى أقرها الإجماع ، وقلما كانوا ينجحون فى أن يرفعوا علم مرشحهم للإمامة .

ونظراً لأنهم كانوا يسيئون اختيار الفرص الملائمة للقيام بالثورة ، كانت ثورتهم تمنى دائما بهزائم لامفر منها ، ولذلك التزموا أن يقنعوا بالعيش وهم يأملون أن الله تعالى سيحدث فى يوم من الأيام تغييراً عادلا فى الشئون السياسية ، واضطروا أن يخضعوا ظاهراً للحكومة القائمة مع مبايعتهم فى الباطن لإمام عصرهم وعملهم على التمهيد بفوزه بالدعاية السرية .

وهكذا نشأت أنظمة سرية تعمل على نشر الآراء الشيعية بين الجماهير بواسطة رئيس يشرف عليها يسمى « الداعى » ومن الطبيعى أن هذه الأنظمة كانت فى كل عصر موضع مراقبة السلطات ومطاردتها ، وكان اضطهاد العلويين هو شغل الحكام الشاغل ، ولم يفت هؤلاء أن يروا فى الدعاية السرية الثورية التى يبثها الشيعة ، خطراً يهدد سلامة الدولة وأمنها .

وقد فاق العباسيون الأمويين فى إدراكهم لحقيقة هذا الخطر ، لأنهم لم ينسوا أن الدعاية العلوية التى نشطت فى أخريات العصر الأموى هى التى أتاحت لسلالة العباس أن تجهز على عرش الأمويين فى أواسط القرن الثامن الميلادى ، كما مهدت الدسائس الشيعية بدرجة كبيرة إلى هذه الخاتمة التى انتفع بها العباسيون ، وقد استأثروا بالغنيمة وحدهم دون العلويين بحجة أن حفيد محمد بن الحنفية قد تنازل لهم عن حقه فى الخلافة تنازلا رسمياً .

وبعد أن ظفر العباسيون بثمرة الدعاية الشيعية ، اضطروا أن يكونوا على جانب كبير من الحصافة وبعد النظر لمقاومة الدسائس والمؤامرات التى لم ين الشيعة عن تدبيرها ، ورأى الشيعة فيهم أنهم كأسلافهم الأمويين ليسوا خلفاء شرعيين يحق لهم أن يلوا النبى فى تدبير شئون المسلمين .

وإذاً ، فقد دأب العباسيون على أن يثنوا الأمة الإسلامية عن تقديس على وآله وهدم المتوكل قبر الحسين لأنه رأى الناس يجب أن لا يذكروا أنه فى هذه البقعة

المقدسة يرقد ابن لعلى كان قد أراق دمه دفاعاً عن حقوق آل البيت ، واضطهد العباسيون كثيراً من كبار العلويين حتى من الذين ينتمون إلى سلسلة الأئمة ، ونـكلوا بهم فى قسوة زائدة ، وقد قضى كثير منهم حياته فى السجن(٢٦) أو مات مقتولا أو مسموماً .

وفى زمن الخليفة المهدى ، اضطر واحد من الشيعة الذين ثبتوا فى إخلاصهم للعلويين ، أن يظل مختفيا طيلة حياته هربا من مطاردة الخليفة له . وهو لو جرؤ على الخروج من مخبئه لـكى يؤدى صلاة الجمعة(٢٧) لعرض حياته للخطر .

وقد زعم العباسيون بعد أن انتقلت الخلافة إلى أيديهم أنهم استردوا حقوق آل البيت ، ولذا وجدوا أن الشيعة أشد خطراً عليهم مما كانوا فى عهد الأمويين ، لأن الشيعة نازعتهم الخلافة بحجة أنها أحق بها منهم ، أما الأمويون فقد أنـكروا من حيث المبدأ حق آل البيت فى الخلافة ، ولذلك أصبح مما لا يطيقه خلفاء بنى العباس أن ينازعهم الشيعة الحـكم بناء على دعوى الحقوق الشرعية(٢٨) .

وفى الأدب الشيعى موضوع لا ينضب معينه ، ولا يمل كتاب الشيعة ترديده وهو موضوع « محن آل البيت » . وقد نسبوا للنبى أحاديث تنبأ فيها بالقدر السيىء الذى سوف تنـكب به ذريته ، كما وردت نبوءات كهذه فى الروايات المأثورة عن على(٢٩) .

وقد جاء فى إحدى هذه الروايات ، التى يتجلى فيها الوضع والاختلاق ، أن علياً أخبره خادمه قنبر بمقدم بعض الزائرين من شيعته ، فأنـكرهم على لأنه لم يجد فيهم السمات المميزة للشيعة ؛ إذ يعرف الشيعة الحقيقيون بأجسامهم الضاوية التى برحت بها صنوف المشقة والحرمان ، والشفاه التى جففها الصدى ، والأعين التى لا تـكف عن تذراف الدموع(٣٠) .

والشيعى الصحيح بائس شقى ألف العناء والاضطهاد كالأسرة التى يدافع عن حقها ويعانى الآلام من أجلها ، حتى دخل فى روع المسلمين أن آل البيت قد خصتهم العناية باحتمال آلام الشقاء وعذاب الاضطهاد ، وأخذ الناس بالرواية التى تزعم أن

السليل الحقيق من آل بيت النبي لابد أن يبتلى بالمحن على سبيل الاختيار ، حتى إذا تبين أنه يعيش فى نعمة ودعة حامت الشكوك حول صحة نسبه .

قال الحسينى محمد بن محمد العلوى : « مَنْ يكون من أهل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابد أن يبتلى ، وأنا رُبيت فى النعمة وكنت أخاف أن يقع خلل فى نسبي فلما وقع هذا (أى سجنه واستئصال أمواله) فرحت وعلمت أن نسبي متصل[٣١] .

صوّر الشيعة تاريخ آل البيت تصويراً أخاذاً نزعوا فيه نزعة مسرحية ، ونجد أن تاريخهم منذ كارثة كربلاء عبارة عن سلسلة لا تنقطع من التعذيب والاضطهاد ، وروى الشيعة أخبارها شعراً ونثراً فى مؤلفات كثيرة زاخرة بتراجم هؤلاء الشهداء وكُتُب المقاتل هذه هى إحدى خصائص الشيعة .

وقد جعلوا من رواياتها واسطة عقد اجتماعاتهم فى الثلث الأول من شهر المحرم الذى خصصوا اليوم العاشر منه — عاشوراء — للاحتفال بالذكرى السنوية لمأساة كربلاء[٣٢] ، وجمعوا إلى الذكرى الرهيبة التى لحوادث هذا اليوم المفجعة أنهم يمثلونها تمثيلا مسرحياً يسمونه « تعزية » ، وقد نظم أحد أمراء الشيعة أبياتا أشار فيها إلى المحن العديدة التى ابتلى بها آل البيت[٣٣] :

نحن بنى المصطفى ذو محن   يجرعها فى الحياة كاظمنا
عجيبــــة فى الأنام محنتنا   أولنا مبتـــلى وآخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهم   طرآً وأعيادنا مآتمنـا

ولا يستطيع المناصر لآل البيت الصادق فى إخلاصه لهم أن يكف عن سكب العبرات وتصعيد الزفرات وبث الشكوى وإظهار الحداد ، على ما ينزل بالأسرة العلوية من محنة وبلاء وتعذيب واضطهاد ، كما أنه لا يستطيع أن يغالب البكاء على من يسقط من أفرادها شهيدا ، حتى ضرب المثل برقة هذه الدموع :

أرَقُّ من دمعة شيعية   تبكى علىّ بن أبى طالب[٣٤]

ولا يقل شيعة العصر الحاضر ، ممن نالوا حظاً من الثقافة ، عن الشيعى الساذج فى الشعور بالحنق والسخط على الأمويين . وقد وجدوا فى هذه النزعة الحزينة التى يتميز بها مذهبهم ، فضائل دينية عظيمة القدر ، بل رأوا فيها مادة لعاطفة نبيلة رقيقة

وروح إنسانية عالية تناقض أحكام الشريعة الجامدة . واعتبروا هذه الروح النبيلة الجانب الإنسانى الرفيع فى الديانة الإسلامية . بل أنفس تعاليمها وأسماها[٣٥] .

يقول أحد الشيعة الهنود المعاصرين — وقد صنف بالإنجليزية فى علوم الرياضة والفلسفة — : « إن فى بكاء الحسين لما يجعل لحياتنا معنى ولأرواحنا قيمة ، ولو كففنا عن هذه العبرات لغدونا أعظم الناس جحودا وإنكارا للجميل ، وسوف نرتدى فى الجنة ثياب الحداد على الحسين ، وإن هذا الحداد هو شرط الحياة الإسلامية وأساس وجودها » .

ويقول أيضاً : « إن الحزن على الحسين لهو العلامة الصحيحة الدالة على الإسلام ، ومن المحال أن لا يذرف الشيعى الدموع لأنه جعل من قلبه قبرا حياً ومثوى حقيقياً للإمام الشهيد الذى احترت رأسه[٣٦] » .

٥ — وإنا نتبين مما رسمناه عن جهود الشيعة ، وعن الأخطار المترتبة عن تنظيم بعوثهم ، أن حركتهم عبارة عن دعاية خفية مستترة أكثر مما هى مقاومة مكشوفة ، وهذا ما يجعلها مخالفة لغيرها من الفرق ، وهى دعاية يحيط بها جو من الأسرار ، وتغشاها أساليب من المكر والمراوغة ، وسائر ما تقتضيه الحكمة والحذر من الأخطار التى يستهدف لها المندمجون فى سلك التشيع إذا ما أفشيت أسرارهم المقدسة .

ويرى أحد أئمة الشيعة أن الملكين الذين يلازمان كل امرئ كى يحصيا عليه أقواله وأفعاله ، يتركانه عندما يتلاقى شيعيان ، ويأخذ أحدهما فى التحدث إلى الآخر .

ولما نبهوا الإمام جعفر الصادق صاحب هذه الدعوى إلى مناقضتها للآية القرآنية « مَايَلْفِظُ مِنْ قَولٍ إلا لَدَيهِ رَقيب عتيد » ، إذ أن هذا الرقيب هو الملك الحارس الذى يسمع مايقوله المرء ، زفر الإمام زفرة عميقة واخضلت لحيته بالدموع ، وقال مامعناه : أجل : حقاً حقاً إن الله أمر ملائكته بأن يتركوا المؤمنين وحدهم عند مايتناجون ، غير أن الملائكة إذا فاتهم هذا فالله يعلم ما كان خافياً[٣٧] .

وإن الأخطار التى تحيق دائماً برجال الشيعة قد أوجدت فى بيئتهم نظرية خلقية أفردتهم بصفة بارزة طبعت روحهم بطابع خاص . وترتبط هذه النظرية ارتباطاً وثيقاً بالضرورة الحتمية التى تنجم عما يبذله الشيعة من جهود سرية .

ولم تتضح هذه النظرية للشيعة فى مبدأ الأمر ، غير أن من عداهم من المسلمين أخذوا بها وأقروها استناداً على الآية القرآنية : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياءَ مِنْ دُونِ المؤمنينَ ومَنْ يفعلْ ذلكَ فليسَ مِنَ اللهِ فى شئٍ إلا أن تتقُوا منهمْ تُقاةً ويُحذِّرُكُمُ اللهُ نفسهُ وإلى اللهِ المصيرُ » .

وقد استعان بها الخوارج فى حركتهم ليحققوا بها هذه الغاية نفسها ، وجعلها التشيع مبدءاً من مبادئه الأساسية ، وعدها واجباً ضرورياً يجب على كل عضو من شيعتهم أن يرعاه من أجل الصالح المشترك لهم جميعاً .

وتتلخص هذه النظرية فى كلمة « تقية » التى تفيد الحيطة والحذر ، فالشيعى لا يستطيع فحسب أن يخفى مذهبه وأن يكتم عقيدته ، بل يجب عليه أن يفعل ذلك وأن يبالغ فى الإخفاء والكتمان ، وعليه فى البلد التى يسودها خصومه أن يتكلم وأن يعمل كما لو كان واحدا منهم ، حتى لايجلب الخطر والاضطهاد لأصحابه[٣٨] .

وإذاً ، فمن اليسير أن نتصور أى مدرسة للمخاتلة والغدر تنطوى عليها تعاليم مبدأ التقية الذى أصبح ركناً من أركان المذهب الشيعى ، كما أن عجز الشيعى عن المجاهرة بعقيدته الحقيقية التى يؤمن بها هو فى نفس الوقت مدرسة للسخط الكامن الذى يكنه الشيعة لخصومهم الأقوياء ؛ وهو سخط مبعثه عاطفة من الحقد الجامح والتعصب الثائر ، وكان من نتائجه ظهور هذه الآراء الدينية غير المألوفة ، التى لاتماثل بتاتاً مبادىء الإسلام السنى .

لقد سأل سائل ذات مرة الإمام جعفر الصادق بما معناه : « أيا سبط النبى ! إنى لا أقوى على الدفاع بجد عن حقوقكم ، وكل ما أستطيع عمله ، هو البراءة من أعدائكم والدأب على لعنهم ، فما هو قدرى عندكم ؟

فأجاب الإمام : روى لى أبى عن أبيه الذى أخذه عمن سمعه من النبى : « من اشتد ضعفه حتى عجز عن معاونتنا نحن آل البيت وعن نصرتنا ، ولكنه وهو فى بيته يصبّ اللعنات على أعدائنا ، تحييه الملائكة لأنه من الأبرار ، وتدعو له الله قائلة « إلهنا ارحم عبدك الذى عمل ما قدر على فعله ولو قدر على أن يزيد لفعل » ، فيقول الله تعالى : قد استجبت دعاءكم ورحمت عبدى وجعلته بين الأبرار والأخيار[٣٩] » .

فلعن الخصوم عند الشيعة فريضة دينية من قصر فيها ارتكب إثماً فى حق دينه[٤٠] ، وقد طبعت هذه العقلية مؤلفات الشيعة بطابع خاص .

٦ — نستخلص مما سبق أن محور العقائد الشيعية يرتكز على نظريتهم فى الإمامة وفى الوراثة الشرعية لها ، لمن اصطفاهم الله تعالى من ذرية آل البيت وخصصهم لهذه المرتبة العالية .

ويرى الشيعة أن الاعتراف بإمام العصر ، سواء أظهر جهرة أم نافح عن حقه بالدعوة سراً ، شرط من شروط الإيمان ، لاتقل عندهم فى المرتبة عن الإيمان بوحدانية الله ونبوة محمد ، ويحتمون الإيمان بهذه الإمامة أكثر مما تحتم العقائد السنية الاعتراف بالخلافة كما سار عليها المسلمون فى أدوار تاريخهم .

وليس الاعتراف بالإمام فى مذهب الشيعة أمراً تكميلياً لصحة العقيدة ، بل هو جزء جوهرى من صميم القواعد الإيمانية لا ينفصل عن أرفع الحقائق الدينية ، وهاهو ذا نص لأحد فقهاء الشيعة : « عن أبى حمزة قال لى أبو جعفر . إنما يعبد الله مَنْ يَعرف الله ، فأما من لا يعرف الله فإنما يعبده هكذا ضلالا .

قلت : جُعلتُ فداك ؟ فما معرفة الله ؟ قال : تصديق الله عز وجل ، وتصديق رسوله ، وموالاة على والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام ، والبراءة إلى الله عزوجل من عدوهم ؛ هكذا يعرف الله » . « وليس بمسلم حقاً من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً وإمام عصره ، ومن لا يفوض أمره للإمام ويبذل نفسه فى سبيله[٤١] » .

ويضيف الشيعة إلى « أركان الإسلام الخمسة » ركناً سادساً ، وهو « الولاية » ، أى الانضواء إلى الأئمة ، وهذا يوجب أيضاً البراءة من أعدائهم[٤٢] . وواجب البراءة يُعد فى العقيدة الشيعية من الفرائض الدينية الرئيسية ؛ فعندهم فى الأثر ، أن « حب علىّ يأكل السيئات كما تأكل النار الحطب[٤٣] » .

وهذه النزعة فى التعلق بآل البيت هى دعامة التعاليم الشيعية ، وقد عرّفها أحد الخوارج بقوله : وقد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة[٤٤] » .

٧ – ولأجل أن نفهم العقيدة الشيعية فى الإمامة ، ينبغى أن نخص بشىء من الاهتمام الفرق الذى يفصل بين نظرية السيادة « الثيوقراطية » للخليفة عند أهل السنة ، وما يماثلها للإمام الشرعى عند الشيعة .

فالخليفة فى الإسلام السنى ، تعقد له البيعة لتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية لكى ترتكز فى شخصه واجبات الجماعة الإسلامية ؛ وها أنا ذا أورد نصاً عن الإمامة من مصنف فقيه إسلامى يقول :

« لابد للمسلمين من إمام يقول بتنفيذ أحكامهم وإقامة حدودهم ، وسد ثغورهم وتجهيز جيوشهم ، وأخذ صدقاتهم ، وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطريق ، وإقامة الجمع والأعياد ، وتزويج الصغار والصغائر الذين لا أولياء لهم ، وقسمة الغنائم ، ونحو ذلك من الواجبات الشرعية التى لا يتولاها آحاد[٤٥] الأئمة ؛ ومجمل القول أن الخليفة يجتمع فى شخصه السلطة القضائية والإدارية والعسكرية فى الدولة .

ومهما كان يشغل منصب الرئاسة فى الدولة ، فليست له صفة أخرى سوى أنه خليفة لسلفه ، وقد تقلده بواسطة بشرية — كالانتخاب أو تعيين سلفه له — ولم يُقَلده بفضل ما يتصف به من صفات كامنة فى شخصه ، فالخليفة عند أهل السُّنة ليست له سلطة روحية لها حق الهداية والإرشاد .

وعلى نقيض ذلك إمام الشيعة ، فهو بفضل الصفات الشخصية التى أودعها الله تعالى فيه ، يعتبره الشيعة هادى المسلمين وفقيههم ووارث رسالة النبى[٤٦] ، فيأمر ويعلم باسم الله .

وكما استطاع موسى أن يسمع ربه عندما آنس النار من جانب الطور : « يامُوسَى إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ العَالِمين » ، فهكذا ينزل الوحى الإلٓهى على إمام العصر[٤٧] .

وليس للإمام فحسب ، صفة الرئاسة للسلطة الحاكمة المقبولة لدى الله ، وإنما يرفعه فوق المستوى البشرى العادى صفات هى فوق البشرية ، لم يسمُ إليها فقط بفضل مرتبة عالية اكتسبها اكتساباً ــ لأنها كامنة فى شخصه وخاصة من خواصه ــ ولكنه نالها أيضاً بفضل مادته ذاتها .

فمنذ أن خلق الله آدم ، تسلسلت فى أعقابه المجتبين ، الواحد بعد الآخر ، مادة نورانية إلٓهية ، انتهت بأن وصلت إلى صلب الجد المشترك لمحمد وعلىّ ، وحينئذ انقسم هذا النور الإلٓهى إلى جزأين : جزء أصابه عبد الله والد محمد ، وجزء لأخيه أبى طالب والد علىّ ، ومن أبى طالب انتقل هذا النور الإلٓهى إلى إمام كل عصر جيلاً بعد جيل.

وإن فى وجود هذا النور الإلٓهى الأزلى فى مادة الروح عند إمام العصر ، ما يهبه قوى روحية فائقة تتجاوز كثيراً المستوى البشرى ، فمادة روحه أنقى من مادة روح الآدميين العاديين لخلوها من نزعات الشر وتحليها بالصفات القدسية .

هذه هى تقريباً الصورة المرتسمة فى أذهان الشيعة ، حتى المعتدلين منهم ، عن طبيعة الأئمة وحقيقة جوهرهم . ومن يغل منهم فى تصورها — كما سنرى — يرفع عليًّا والأئمة إلى ما يزيد عن هذا كثيراً ، إلى حد الاقتراب من درجة الألوهية ، بل بلوغها أحياناً .

وإذا كانت هذه النظرية الخاصة بالتناسل الروحى ليست عند فرق الشيعة متفقة فى صِيَغها أو متحدة فى تفصيلاتها ، فإنه يمكن اعتبارها نظرية من النظريات الشيعية التى تسلم بها كافة فرق الشيعية ويؤمنون فيها بالخصائص المميزة لأئمتهم .

ويرتبط بهذه النظرية تصورات اعتقادية أخرى ؛ فعندهم أن الله تعالى حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، كان هذا السجود موجهاً للمواد النورانية الخاصة بالأئمة والتى اشتمل عليها جسد آدم ، وقد أمره الله تعالى بعد أن سجدت له الملائكة ، أن يرفع بصره إلى قمة العرش الإلٓهى ، حيث شاهد انعكاس هذه الأجسام النورانية المقدسة ، كما تنعكس صورة وجه الإنسان فى صفحة مرآة صافية ، فالصور المنعكسة لهذه الأجسام المقدسة قد رُفعت إذاً إلى العرش الإلٓهى (٤٨) .

ولكن الخرافات الشعبية وسخافات الدهماء ، لم تقنع بهذه العقائد التأليهية ، بل بسطت آثار الصفات الإلٓهية الكامنة فى أجسام الأئمة حتى شملت حياتهم الدنيوية ؛ فيعتقد عامة الشيعة مثلاً أن أجسام الأئمة ليس لها ظل ، وإن كان الحق أن مثل هذه التصورات قد نشأ فى عصر كان الأئمة فيه مختفين عن الأنظار .

ويعتقد الشيعة أن الإمام المهدى[٤٩] لا يصيبه جرح أو أذى . وقد يعد الناس أحياناً ، هذه الصفة من خصائص النبى[٥٠] ، ويجعلها المسلمون ولا سيما أهل إفريقيا الشمالية من مناقب أوليائهم ، كما ينسب المراكشيون هذه الكرامة لكثير من المرابطين[٥١] .

٨ — ولم تضلّ عقائد الشعب وحدها فى هذه المبالغات ، وإنما ضلت معها النظرية الاعتقادية الشيعية ، وتاهت فى تحليقات شاهقة متطرفة ، عندما أخذت فى تصوير صفة الأئمة وطبيعتهم .

ويوجد داخل نطاق التشيع نظريات مغالى فيها ، تجمع على تجسد الألوهية فى علىّ والأئمة . ولا يقتصر الأمر فى هذا على اعتبار مشاركتهم للكائن الأعلى فى الصفات والقوى الإلٰهية التى ترفعهم فوق المستوى البشرى المألوف ، ولكن على اعتبار أن عليًّا والأئمة هم صور وأشكال يتمثل فيها الجوهر الإلٰهى ذاته ، وأن جثمانية هذا الجوهر ليست سوى حادثٍ طارىء .

وإنا نصادف فى الفرق الشيعية التى نستقى أخبارها من المؤلفات الجدلية والتاريخية الخاصة بالفرق الإسلامية ، كابن حزم والشهرستانى وغيرهما ، صوراً متعددة لهذه العقائد لا يزال فريق من الناس فى بعض البقاع يؤمن بها إلى اليوم .

وذلك كطائفة من الفِرق الشيعية يطلق على مجموعها اسم « عَلىّ إلٰهىّ » أى الذين يرون الألوهية فى علىّ ، واسمهم وحده كاف فى بيان حقيقة عقيدتهم[٥٢] ؛ وهم يجمعون إلى تأليه علىّ ، رفضهم لبعض أركان الشريعة الإسلامية .

وفى مثل هذه الزندقات ما لم تبسط صفة الألوهية على النبى ، كثيراً ما يؤدى الرفع من شأن علىّ إلى الغض من مقام النبى حتى يصل إلى درجة أقل من درجة علىّ المؤلّه . ويرى بعض هذه الفرق أن نزول جبريل بوحى الرسالة على محمد إنما جاء خطأ ، وأن عليًّا هو الذى كان مقصوداً بها .

وتوجد فرقة أخرى وهى فرقة العليانية ، التى تسمى أيضاً « بالذمية » لذمهم للنبى ، إذ عندهم أن النبى قد اغتصب لنفسه المنزلة التى كانت لعلىّ[٥٣] . وفى فرقة

النصيرية ، التى سنعنى بها فى نهاية هذا القسم ، أنزل النصيريون محمداً — بجانب علىّ المؤله — إلى منزلة أقل شأناً من علىّ ، وزعموا أنه كان حجاباً له .

وأصحاب هذه العقائد يسمّيهم الشيعيون أنفسهم بالغلاة ، ويرجع منشؤهم إلى العصور الإسلامية الأولى ، إذ ظهروا فى العصر الذى بدأ يتكوّن فيه للأسرة العلوية حزب سياسى . ولدينا أحاديث غاية فى القِدَم ، بل هى متداولة فى البيئات الشيعية ، تنسب إلى علىّ والعلويين أنفسهم استنكارهم لهذه المبالغات وقدحهم فيها ، لأنها لاتفيد إلا فى إثارة الحقد والكراهية لآل علىّ[٥٤] .

ومما هو جدير بالنظر والاعتبار من جهة أخرى ، أن هذه المبالغات لم تؤدّ فحسب إلى رفع منزلة علىّ وذريته فى تصورات الشيعة وعقائدهم ، وإنما ترتب عليها أيضاً تعديل كبير ، يُعتدّ به فى فكرة الألوهية ذاتها .

فمذهب تجسد الجوهر الإلهى فى أشخاص الأسرة العلوية المقدسة ، قد أفسح فى الواقع المجال فى هذه البيئات إلى عقائد وتصورات للألوهية مغرقة فى التشبيه والتجسيم والمادية ، وإلى آراء أسطورية محضة ، تسلب أصحابها أدنى حق فى معارضة الوثنية أو المقابلة بين عقائدهم وعقائد الوثنيين .

ويطول بنا المقام لو دخلنا فى بيان عقائد هذه الفرق ، المختلفة الأسماء ، بسبب اختلاف أسماء مؤسسيها كالبيانية والمغيرية وغيرها ، وقد نشأ أغلبها عن مذهب التجسد الشيعى ، ومن الميسور الوقوف على مذاهبهم فى الترجمات الأفرنجية للكتب العربية الخاصة بالفرق الإسلامية[٥٥] .

وإلى هذه المصادر ، أستطيع أن أحيل هؤلاء الذين يريدون براهين وأدلة أكثر دقة ووضوحاً ، لإثبات هذه النتيجة ؛ وهى أن الشيعة كانت على وجه الدقة ، المنطقة التى نبتت فيها جراثيم السخافات التى حلت وقضت على نظرية الألوهية فى الإسلام .

٩ — ومن المبالغات الشيعية ، التى يستطيع النقد الوضوعى أن يجعلها مقاربة فى المنزلة لنظرية الإمامة التى يؤمن بها الشيعة المعتدلون ، مذهب عصمة الأئمة وبراءتهم من العيوب والذنوب ، وهو مذهب أصبح عقيدة راسخة ثابتة ، ويعد أحد المبادىء الأساسية والأصول الإيمانية فى الإسلام الشيعى .

بل إن الإسلام السنى يعلق أهمية كبيرة على مسألة عصمة الأنبياء ، وما إذا كانوا بفضل نبوتهم مطهرين من الذنوب كما يبحث على الأخص فى عصمة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، والرد بالإيجاب على هذه المسألة هو دون ريب عقيدة يتحتم على كل مسلم أن يؤمن بها[٥٦] .

ولـكن القيمة النسبية لهذه النقطة الاعتقادية قد تقررت عن طريق هذه الحقيقة وحدها ، وهى أن أعظم الفقهاء الثقات قد صاغوا — منذ أقدم العصور الإسلامية — هذه النقطة وعالجوها من وجوه مختلفة جد الاختلاف .

فلم يتفقوا مثلا على الحـكم فيما إذا كانت العصمة تشمل العصر السابق للبعثة النبوية ، أو فيما إذا كانت لاتبدأ إلا فى اللحظة التى آلت فيها الرسالة إلى النبى . كما أن فقهاء السنة ليسوا متفقين فى مسألة ما إذا كانت العصمة ، التى هى من نصيب الأنبياء ، تمتد إلى الـكبائر أو تشمل كافة أنواع الأخطاء والذنوب .

ولا يرغب كثير من الفقهاء فى الإقرار لهم بهذا الامتياز ، ما عدا عصمتهم عن اقتراف الـكبائر . غير أنهم يعترفون بأنهم كسائر البشر معرضون لاقتراف أخطاء يسيرة Peccata venialia ، أو على الأقل لنوع من « الزلل » ، وأنهم قد يؤثرون طريقاً من طريقين ، هو أقلهما خيراً وفضلا .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن ما حاول المسلمون فهمه من حديث ، لم يكن له مع ذلك إلا صدى ضئيل[٥٧] ، يبين حالة استثنائية ليوحنا المعمدان — وهو فى القرآن يحيى ابن زكريا — الذى لم يرتـكب معصية قط ، بل لم يخطر على قلبه اجتراحها .

ويبدو أن حدة الاختلاف بين الفقهاء فى موضوع العصمة تقل كثيراً عند ما يطبقونها على سيرة النبى ؛ فالنبى قد عاش قبل بعثته كما عاش بعدها دون أن يرتـكب كبيرة أو صغيرة .

وهذا دون ريب يناقض آراء الطبقة الأولى من المسلمين الذين أجروا على لسان النبى اعترافه بقابليته للخطأ وبحاجته إلى التوبة ؛ لقد رووا عنه أنه قال : « يأيهـا الناس : توبوا إلى ربكم فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة[٥٨] » ؛ وقوله : « إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة[٥٩] » .

وهذان الحديثان يتلاءمان مع هذا الدعاء للنبي : « ربِّ تقبّل توبتي وأجِب دعوتي، واغسل حوبتي وثبّت حجتي واهدِ قلبي وسَدِّد لساني واسلُل سخيمة قلبي [٦٠] » .

فإذا كان هناك اعتقاد بعصمة النبي لم يكن معنى لهذه الأحاديث ولا هذا الدعاء ؛ وإذا لم يكن على بينة بما يدفعه إلى التوبة والاستغفار ، لما أُنزلت عليه الآية القرآنية : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وما تأخَّرَ [٦١] » ، فى الوقت الذى شعر فيه بعظمة النصر الذى كُتب له [٦٢] .

وحاصل ما أوردناه من وجهة النظر الاعتقادية ، أنه لا يوجد بين الآراء السنية المختلفة المتعلقة بعصمة الأنبياء وعصمة محمد ، رأى واحد يعتبر هذا الامتياز الخلقي شيئاً آخر سوى أنه « لطف » وهبه الله تعالى للنبي ، وليس منها ما يعتبر هذا الامتياز صفة ضرورية كامنة بطبيعتها فى مادته . كما أن عقائد أهل السنة لا تُقحم قط ، على أى وجه ، هذه النقطة الاعتقادية فى مسألة العصمة من الوجهة النظرية ، بل الأمر على نقيض ذلك .

فالفقهاء والسنيون يعملون دائما على توكيد طبيعة النبي البشرية المحدودة ، وإبرازها فى دقة ومثابرة ، إلى الدرجة التي يصبح فيها العلم الخارق للعادة والكامن فى ذاته متنافياً تماماً مع الحقائق الأساسية عن صفة النبي وشخصه .

ويقولون مثل هذا عن عصمته ورجحان نصيبه من العلم على نصيب غيره من الناس ، وعندهم أن هذين ليسا فضيلة عامة كامنة فى شخصه ، ولكنهما نتيجة الهداية والحكمة التي لقنها الله له فى حالات معينة خاصة ، والمسلم يؤمن بصدق النبي للتسليم بصحة ما أتى به كوحى إلهى .

وإذا كان الله قد اصطفاه للنبوة والرسالة ، فهذا لأنه اختير مترجماً ومُعبِّراً عن الإرادة الإلهية ، وليس لاستعداده الشخصي لهذا ، وهو لا يستخدم فى أداء رسالته النبوية موهبة عقلية فائقة ترفعه فوق مستوى العلم البشرى .

وقد فصّل القرآن هذا الرأى بطريقة واضحة دقيقة ، ولم تتعده الطبقات الأولى من علماء الكلام والفقهاء . وقد رغب خصوم النبي فى إحراجه بالاستفهام منه عن

أشياء لا يعرفها ، فقال : « مالى ولهم ، يسألونى عما لا أرى ؛ إنما أنا عبدٌ لا علم لى إلا ما علمنى ربى عز وجل[٦٣] » .

ويرى أهل السُّنة أن من الزيغ أن يزعم الإنسان الإحاطة بالغيب ، ويعدون هذا الزعم جحوداً بالآية القرآنية : « قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إلا الله» . وهذا النفى يشمل حتى النبى[٦٤] ذاته ، فماذا يكون إذاً حال غيره من الناس!

ويولى أهل السُّنة قسطاً كبيراً من الرعاية والتبجيل للأتقياء والعلماء من آل البيت وهم على وجه الدقة أئمة الشيعة ، ولكنهم لا يقرون لهم بصفات شخصية أخرى تزيد على ما لغيرهم من علماء المسلمين وأتقيائهم .

فمثلاً حينما ذكر النووى ، وهو من فقهاء أهل السُّنة ، محمداً الملقب بالباقر ، وهو الخامس فى شجرة النسب النبوى ، شهد له بالقدم الراسخة فى العلم حتى أنه لقب بالباقر ، وأطرى تقواه وطاعته ، ورأى فيهما مثالاً يقتدى به ، ولكنه لم يخصه بغير هذه الكلمات : وهو تابعى جليل وإمام بارع ، مُجْمَعٌ على جلالته ، معدود فى فقهاء المدينة وأئمتهم[٦٥] .

وشتان بين هذا وبين الصورة التى رسمتها الشيعة له ، فقد عدته إمامها الخامس ولم تر فيه فقيهاً عادياً من فقهاء المدينة ، ولكنه يساهم فى المادة النورانية الخالصة التى تحدرت فى سلالة النبى .

ومن قبيل هذه الدعوى ما كتبه ذلك الشيعى الهندى الحديث الذى سبق لنا الاستشهاد ببعض عباراته ، وهو الكاتب الذى يؤلف باللغة الإنجليزية والذى تشبع بالأفكار العقلية والفلسفية ؛ فقد وصف الحسين مثلاً بأنه « الباعث الأصلى على الوجود » ، وبأنه « الرابطة الجوهرية بين العلة والمعلول » ، أو « الحلقة الذهبية بين الله والإنسان[٦٦] » .

والفكرة السنية المتعلقة بمكانة النبى ومكانة ذريته المقدسة لم تنل منها الصفات الأسطورية التافهة التى أسبغها الخيال على النبى ، ولكن لم يؤلف قط من هذه الصفات عنصر دينى من العناصر التى يتحتم على المسلم السنى الإيمان بها .

وقد عقد الشعرانى الصوفى فصلاً كاملاً نسب للنبى فيه خصائص كثيرة ، منها

مما يلي : « وكان يرى من خلفه كما ينظر أمامه وعن يمينه وعن شماله ، ويرى بالليل وفي الظلمة كما يرى بالنهار وفي الضوء ؛ وكان إذا مشى مع الطويل طاله ، وإذا جلس يكون كتفه أعلى عن جميع الجالسين ؛ ولم يقع ظله على الأرض ، ولا رؤى له ظل في شمس ولا قمر لأنه كان نوراً[٦٧] » .

غير أنه مما لاشك فيه أن هذه الآراء ترجع إلى أثر النظريات السامية «transcendantes» التي اعتقدها الشيعة في أئمتهم ، والتي لم يتيسر بطبيعة الحال أن يترك النبي دون أن ينال نصيبه[٦٨] منها . وهذا برهان آخر يدل على الارتباط بين الشيعة والصوفية ، وهو مما سبقت إشارتنا إليه .

١٠ — وقد نالت هذه المسائل كلها أهمية كبيرة في الإسلام الشيعي . لأن الصفات التي أقرها الشيعة لأرواح أئمتهم قد رفعتهم إلى مستوى أعلى بكثير من حدود الطبيعة البشرية ؛ فهم كما رأينا مطهرون من الذنوب مبرأون من العيوب ، خلت نفوسهم من دوافع الشر ، فلا تستهويهم المعاصي والآثام ، لأن المادة الإلهية النورانية التي يحملونها لا تتفق ألبتة مع الميول الشريرة ، ولكنها تمنحهم أيضاً أعلى مرتبة في مراتب العلم اليقيني الثابت ، أي « العصمة » التامة من الوقوع في الخطأ[٦٩] .

ومن تعاليم الشيعة أن الأقوال والروايات ، التي ترجع إلى رواية أكيدة عن الأئمة ، هي أقوى في الإثبات والتيقن من الإدراك المباشر للحواس ، وذلك لعصمة من روى عنهم وتنزههم عن الخطأ . وهذه الأقوال أهل لأن تهب المرء يقيناً صحيحاً مطلقاً أصح من ذلك اليقين المكتسب بطريق الحواس المعرضة للوهم والخداع[٧٠] .

ولدى هؤلاء الأئمة — فيما عدا العلم الديني الميسور لكافة المسلمين — علم باطني يتوارثه الواحد بعد الآخر وروايات رمزية متواترة تنتقل بالوراثة في أسرة النبي من جيل إلى جيل ، وهي تشمل حقائق الدين وكافة حوادث العالم . فعليّ لم يعرف — فحسب — المعنى الحقيقي للقرآن الخفي عن الفهم العادي ، ولكنه ألمّ أيضاً بكل ماسوف يحدث حتى يوم القيامة ، وعرف كل فتنة كانت إلى ذلك الوقت

« تضلّ مائة شخص وتهدى مائة آخرين إلى الطريق السوى » ، ويعلم من يوجّهها ويثيرها[٧١] .

ومن أجل ذلك ترى الإيمان بهذا العلم الباطنى والنبوى — الذى خُص به علىّ — قد أتاح للشيعة أن يصنعوا طائفة من المؤلفات الأدبية الغريبة ، زعموا أنها تشتمل على هذا الوحى الخفىّ[٧٢] .

وقد انتقل علم علىّ برواية خفية ، تناقلها الأئمة الذين تبعوه ؛ فهم يتلقون الوحى ولا يستطيعون أن يعلنوا سوى الحق ، وهم أيضاً السلطة العليا المفردة التى بيدها التعليم والهداية .

ويعدهم الشيعة بفضل صفتهم هذه ، المتمِّمين الشرعيين لرسالة النبى ، ولأقوالهم وقراراتهم وحدها الحق فى أن تقتضى من المرء إيماناً مطلقاً وطاعة واجبة بلا قيد ولا شرط ، وعلى ذلك فكل تعليم من التعاليم الدينية ينبغى أن ينقل عن أحد الأئمة لكى يعتبر صحيحاً ثابتاً ، وهذا النوع من الضبط والتثبت من كل فكرة أو عقيدة يسود كل مؤلفات الشيعة الدينية .

والأحاديث النبوية لا تنتهى أسانيدها إلى الصحابة الذين يتلقونها عن النبى ، ولكنها تنتهى إلى الأئمة أصحاب السلطة الوحيدة التى تخول لهم نشر الفرائض والأحكام الإلٰهية والنبوية وتأويلها .

وقد نشأ عندهم كذلك تفسير للقرآن غريب فى بابه تناقلوه عن الأئمة ، وعالجوا فيه أرق الموضوعات وأدناها بطريقة تتلاءم مع نظرية الإمامة والعقائد الشيعية الأخرى ، وكلها مؤلفات فريدة فذة يتحتم العلم بها لمن يريد أن يكوّن فكرة عامة عن روح التشيع[٧٣] .

ويستنتج من كل ما تقدم أن كثيراً من المبادىء التى أقرتها العقائد السنية ، لضبط الأحكام والوقوف على مدى صحتها من الناحية الدينية ، يعدها الشيعة أقل شأناً وأدنى قيمة من حيث أهميتها كمصدر للعلم الدينى ، فقد هبط الشيعة بالإجماع إلى درك الشكليات العادية اليسيرة ، وهم يسلمون نظريا بقيمة هذا المبدأ فى الفصل فى المسائل الدينية ، ولكن عقائدهم الشيعية لا ترى للإجماع شأناً وخطراً إلا فى أمر واحد ، وهو

أنه لا ينعقد من غير معاونة الأئمة واتفاقهم ، وهذا الاتفاق هو العنصر الجوهرى الذى يحمل للإجماع قيمته وأهميته ؛ ومع هذا فالتجارب التاريخية فى نظر الشيعة ، قد أثبتت لهم أن الإجماع لا يبلغ محجة الصواب .

وعند ما اشترط أهل السنة إجماع المؤمنين كى تكون الخلافة صحيحة — ذلك الإجماع الذى أوجد بعد وفاة النبى دستوراً أقره المسلمون واعتمدوه ، وخضعت لأحكامه منذ ذلك الوقت العلائق السياسية فى الإسلام — وجد الشيعة هذا الإجماع دليلا يثبت أن محض الإجماع وحده لا يتفق دائماً مع ناموس الحقيقة والعدل ، ورأوا فى حل مسألة الخلافة على ذلك الأسلوب السنى عملا قد سجل تماماً الجور والاغتصاب ، لذلك غضوا من شأن هذه السلطة الإجماعية وأرجعوها إلى موافقة الأئمة ، بأن العقيدة الخاصة بمشيئة الإمام المعصوم والسلطة الشرعية المخولة له ، تقدم وحدها للشيعى أوكد الضمانات للحق والصدق .

وكما أن الشيعة يعتبرون إمام العصر هو وحده الرئيس السياسى والشرعى للجماعة الإسلامية ، فهم يعدّونه أيضاً السلطة الوحيدة القادرة ذات الكفاية للنظر فى كل المسائل التى لم تفصل فيها الشريعة المتواترة منذ بدء الخليقة ، ليؤخذ بأحكامه فيها فى كافة العصور التالية ، كما أنه السلطة القادرة وحدها على تفسير الأحكام الشرعية وتطبيقها .

وإذا أردنا إذاً ، أن نميز فى عبارة قصيرة موجزة ما ينبنى عليه جوهر الخلاف بين الإسلام السنى والشيعى ، يمكننا القول بأن الأول هو مذهب الإجماع ، والثانى هو مذهب السلطة[٧٤] .

١١ — وقد سبق أن أشرنا إلى أنه منذ العصور الإسلامية الأولى ، حينما كانت النظريات لا تزال بعد فى دور النمو والتكوين ، لم يكن جمهور الشيعة متفقاً على أشخاص الأئمة . فقد كان من أولى مظاهر الفكرة الشيعية ارتباطها كما رأينا بإمام لا ينتمى لذرية علىّ من فاطمة ، بل إنه فى نطاق السلالة الفاطمية ، أقرت جماعات مختلفة من أشياع علىّ طوائف متباينة من الأئمة ، ساعد على كثرتها وفرة ذرارى هذه الأسرة وتعدد فروعها ، فبعد وفاة الإمام أبى محمد العسكرى كان الشيعة قد انقسموا إلى أربعة عشر فريقاً[٧٥] ، وكل منها يفضل سلسلة من الأئمة دون غيرها من فروع الأسرة العلوية[٧٦] .

وأعظم هذه القوائم ذيوعاً والتى يعترف بها حتى اليوم أكبر عدد من الشيعة هى فرقة الإثنا عشرية أو الإمامية التى جعلت مرتبة الإمامة الخاصة بعلىّ تنتقل منه إلى أعقابه التالين له حتى الإمام الحادى عشر الذى كان محمد أبو القاسم (ولد ببغـــداد سنة ٨٧٢ م) ابنه وخليفته .

وقد اختفى محمد هذا ولم يبلغ الثامنة من عمره ، ولا يزال على قيد الحياة منذ ذلك الوقت فى مكان خفى حتى لا يراه الناس ، وسيظهر فى آخر الزمان إماما مهدياً يحرر العالم ويطهره من المفاسد والشرور ويقيم حكم السلم والعدل ؛ وهذا هو ما يسمى « بالإمام الخفى » ، الباقى منذ اختفائه ، والذى ينتظر الشيعى المؤمن عودته إلى الظهور كل يوم .

والاعتقاد بالإمام الخفى يسود كافة فروع الشيعة ، ويعتقد كل فرع منها بخلوده وعودته إلى الظهور فى المستقبل مهدياً ، لكى يختم سلسلة الأئمة التى يؤمن بها هذا الفريق من الشيعة .

وتبنى الفرق الشيعية المختلفة اعتقادها بخلود الإمام الذى تعده خاتم الأئمة ، كما تدعم إيمانها بعودته إلى الظهور فى يوم من الأيام ، على أحاديث موضوعة مختلقة يؤيدون بها عقيدتهم هذه .

ويمكننا أن نتصور طبيعة الحجج التى يسوقونها من المثال التالى ، وهو قول أجراه على لسان موسى الكاظم — المتوفى سـنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م — والإمام السابع من اثنى عشر — الفرقة التى ختمت به قائمة الأئمة واعتبرته الإمام الخفى الذى لا بد من عودته يوماً ما : « كل من حكى عنى أنه عُنى بى خلال مرضى ، أو غسلنى وحنطنى ودفننى ، أو أنه نزل فى قبرى ومس رفاتى ، فقل عنه إنه كذاب . وإذا استعلم أحد عنى بعد اختفائى ، فليُجَب إنه يعيش ولله الحمد ، ولعنة الله على من سئل عنى فأجاب إنه قد مات(٧٧) » .

فالرجعة إذاً ، هى إحدى العناصر الجوهرية فى نظرية الإمامة عند كافة الفرق الشيعية ، ولا تختلف هذه الفرق إلا فى هوية الإمام الخفى الذى قدرت له العودة ، كما تختلف فى قائمة الأئمة التى يؤلف الإمام الخفى واحداً منها(٧٨) .

ومنذ بداية التشيع ازدادت الثقة الوطيدة بعودة الإمام المختفى يوماً ما ، وقويت عند هؤلاء الذين وضعوا آمالهم فى علىّ وذريته ، بل إن هذه العقيدة اتجهت — أول ما اتجهت — إلى علىّ ذاته ، فإن فريقاً من أتباعه الذين كانوا يقدسونه وهو حىّ إلى حد اعتباره كائناً فوق البشر ، والذين أخذوا هذه التعاليم عن عبد الله بن سبأ ، لم يؤمن بموت علىّ — على الطريقة الدوسيتية docétiste — وإنما كان يعتقد أنه اختفى وسيعود فى المستقبل ، ويُعدّ هذا أقدم مظهر لعبادة علىّ المغالى فيها . كما يعد بصفة عامة أول انقسام حدث فى صفوف الشيعة[٧٩] .

واتجهت بعد ذلك العقيدة الخاصة بالإمام المختفى الذى سيرجع يوماً ما ، إلى محمد ابن الحنفية أحد أبناء علىّ ، وكان يؤمن أتباعه بحياته ورجعته .

وفكرة الرجعة ذاتها ليست من وضع الشيعة أو من عقائدهم التى اختصوا بها ، ويحتمل أن تكون قد تسربت إلى الإسلام عن طريق المؤثرات اليهودية والمسيحية[٨٠] .

فعند اليهود والنصارى أن النبى إيليا قد رفع إلى السماء ، وأنه لا بد أن يعود إلى الأرض فى آخر الزمان لإقامة دعائم الحق والعدل ، ولا شك أن إيليا هو الأنموذج الأول لأئمة الشيعة المختفين الغائبين ، الذين يحيون لا يراهم أحد ، والذين سيعودون يوماً ما كمهديين منقذين للعالم .

ونصادف فى البيئات غير الإسلامية عقائد مماثلة لهذه ، مقترنة بأمانى أخروية مستخلصة منها ؛ ففرقة الدوسيتيين* تنكر موت مؤسسها «دوسيتيوس Dositheos» وتؤمن بخلوده[٨١] ؛ كما أن « ڤيشنو » فى عقيدة « القايشناڤاس » الهندية سيعود إلى الظهور فى نهاية العهد الحالى للعالم ، متجسداً فى صورة « كالجى » ، وذلك لكى يخلص « أرياس » من حكامها الظلمة ، أى تخليص الهند من فاتحيها من المسلمين .

وينتظر مسيحيو الحبشة رجعة ملكهم تيودور كمهدى فى آخر الزمان[٨٢] ؛ ولا يزال المغول يعتقدون بأن « جنكيز خان » الذى يقدمون له القرابين على ضريحه كان قد وعد قبل موته أنه سيعود إلى الدنيا بعد ثمانية قرون أو تسعة ، لكى ينقذ المغول من نير الحكم الصينى[٨٣] .

---

* هى فرقة مسيحية تتهم بالزندقة ترى أن المسيح لم يكن له جسم مادى ولا طبيعة بشرية .

وفى العصور الإســلامية ظهرت عدة زندقات ، بعد قمع الفتن التى أشعلت هذه العقائد الزائفة نيرانها ، وقد علقت مثل هذه الآمال على عودة أصحابها فى المستقبل ، فأشياع « بهافريد » ، وهو أحد هؤلاء الذين حاولوا فى بدء العصر العباسى القيام بثورة زرادشتية لمناهضة الإسلام ، اعتقدوا بعد إعدام باعث حركتهم أنه رُفع إلى السماء ، وأنه سيعود إلى الدنيا يوماً ما للانتقام من أعدائه[٨٤] ، وآمن بمثل هذا أعوان المُقَنَّع ، الذى بعد أن ادعى الحلول الإلهى فيه ، قضى عليه بالإحراق[٨٥] .

وفى الأزمنة الحديثة نسبيا ، اشتد تعلق المسلمين بهذه العقيدة حتى من كان منهم غريبا عن التشيع ، فمسلمو القوقاز يؤمنون برجعة بطل استقلالهم « إيليا منصور » الذى ظهر قبل زعيمهم « شامل » (سنة ١٧٩١) ، والذى لا بد أن يعود إليهم بعد قرن من طرد الروس[٨٦] .

ويعتقد أهل سمرقند برجعة أوليائهم كشاه زند وقاسم ابن عباس[٨٧] ، كما ثبت أن الأكراد ، منذ القرن الثامن الهجرى على الأقل ، يؤمنون برجعة زعيمهم المصلوب ، تاج العارفين حسن بن عدى[٨٨] .

وإن العقائد المهدية عند الشرقيين والغربيين ، الخاصة بإعادة النظم العادلة فى الدين والسياسة ، تمتاز عليها جميعا عقيدة الشيعة فى الإمام الخفى الذى لا بد من رجعته ، وتنفرد دونها بشدة رسوخها وقوة توكيدها .

وقد جهد الشــيعة فى تبيان الأساس الدينى لهذه العقيدة ، والدفاع عنها لوقايتها من سخرية المرتابين وخصومة المادين ، حتى استغرقت جزءاً كبيراً من مؤلفاتهم الدينية ، بل ظهر حديثا بفارس كتاب يدعو إلى التوقى من الشك الذى تعاظم تياره الجارف ، فأوشك أن يذهب بالإيمان « بإمام العصر » الخفى .

وقد حاول أيضا كثير من فقهاء اليهود ومتصوفتهم — وغالبيتهم تستند على سفر دنيال — أن يقوموا بحسابات تأويلية خاصة لتحديد وقت ظهور المهدى ، وسار على هذا المنوال بعض متصوفة المسـلمين البارعين وبعض الشيعة ، وذلك بأن انتهجوا تأويلا « قبَّاليًّا » لآيات القرآن وسوره ، وتجميعات للحروف والأعداد قصدوا بهــا تحديد اللحظة التى سيظهر فيها الإمام الخفى ، وأسماء المؤلفات التى تعالج مثل هذه

التقديرات مدونة فى وثائق الفهارس الخاصة بالمؤلفات الشيعية القديمة .

ومع ذلك فقد ندد أقطاب التشيع المعتدل ، منذ بداية الحركة الشيعية ، « بالوقاتين » ووصموهم بالخداع والتدجيل ، وحظروا الاشتغال بمثل هذه المسائل الدقيقة استناداً على أقوال وروايات ينسبونها إلى الأئمة[٨٩] . وهذا شبيه بما صنعته اليهودية ، من توجيهها أقسى صنوف اللوم « لمقدر النهاية وحاسبها » (مكاشابحى قِصِّين[٩٠]) .

وإن ما ألحقته الحقائق الواقعة بتلك التقديرات الحسابية ، من تكذيب وتناقض ، يشرح لنا فى جلاء ما أثارته هذه الوعود والنبوءات ذات الضبط والتحديد من نفور واستهجان .

١٣ — قد اعتبرنا حتى هذه اللحظة أن الإيمان بظهور المهدى مبدأ من المبادىء الرئيسية فى التشيع ، ويجب أن نضيف إلى ذلك استكمالا لبحثنا أن أهل السُّنة أنفسهم يعتقدون بمجىء مصلح إلى العالم فى آخر الزمان يبعث الله به ، ويسمونه أيضاً بالإمام المهدى أى الذى هداه الله إلى الطريق السوى[٩١] .

وهذه العقيدة وما تنطوى عليه من آمال وأمان ، تظهر فى بيئات التقى والورع عند المسلمين ، كزفرة من زفرات الأسف والانتظار يُصَعِّدُونها ، وهم فى غمرات حالة سياسية واجتماعية لا تنقطع ثورة ضمائرهم حيالها .

فالحياة العامة وحالاتها الواقعة تظهر لهم حقيقةً ، فى وضع يتناقض مع مقتضيات المثل العليا التى يصبون إليها ويدأبون على اتباعها . وقد تجلت لهم هذه الحياة العامة بملابساتها كآثام دائمة ومعاص لا تنتهى ومخالفة مستمرة للدين والعدالة الاجتماعية .

وهم يشتركون جميعاً فى الاعتقاد بأن المسلم الصالح ، حباً فى خير الجماعة الإسلامية وإبقاءً على وحدتها ، لا ينبغى أن يشق عصا الطاعة ، بل عليه إيثاراً للمصلحة العامة أن يحتمل صابراً المظالم القائمة ويتدرع بالصبر وطول الأناة فى معاناة آثام الأشرار ، ولكنهم يتوقون علاوة على ذلك ، إلى التوفيق بين الواقع وبين مقتضيات إيمانهم وتقواهم ، وأمدهم بهذا التوفيق رجاؤهم الوطيد فى ظهور المهدى[٩٢] .

ومن الثابت أن الخطوات الأولى تتفق مع انتظار رجعة عيسى الذى سيعمل مثل

المهدى على إقامة معالم العدل ، غير أنه اتصلت بهذه الأمنية خلال نموها وتطورها عناصر جديدة ، جعلت المهمة الأخروية التى سيقوم بها عيسى ، بالنسبة إليها أمراً ثانوياً .

واتجه قوم آخرون كانوا أشد تقيداً بالواقع ، إلى أن ما يعقدونه من آمال على المهدى المنتظر قد يتحقق معظمه على يد الأمراء الذين كانوا يتوقعون منهم العمل على إقرار نواميس العدالة الإلهية ، وخيل إليهم بعد سقوط الدولة الأموية أن بعض خلفاء بنى العباس قد يحققون لهم هذه الأمانى ، غير أنهم استفاقوا فى اللحظة المناسبة من هذا النعيم الكاذب والوهم الباطل .

وظل العالم فى نظر الأتقياء تخيم عليه الشرور كما كان حاله من قبل . فتحولت فكرة المهدى تدريجياً إلى أن صارت طوبى utopie مهدية ، دفع المؤمنون بها إلى مستقبل بعيد غامض ، وأصبحت قابلة لأن تمتزج بها دائماً خرافات وأقاصيص أخروية ممعنة فى السذاجة والإغراب ؛ وهى لا تخرج فى الأصل عن أن الله سيبعث يوماً ما رجلا من نسل النبى سيعيد ما بطل من سنته ، « وسيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً » .

هذا ، وقد امتزج بالفكرة المهدية التى ترجع فى أصلها إلى العناصر اليهودية والمسيحية بعض خصائص « ساو سخايانت Saoschyant » الزرادشتى ، كما امتزج بها ما كان يجول فى أذهان العاطلين البارعين من خيالات وتصورات جامحة أنتجت على مدى الأيام كثيراً من الأساطير الفنية الزاخرة عن العقيدة المهدية .



وقد خاض الحديث فى موضوع هذه العقيدة التى كثر نقاش المسلمين فيها ، ونُسبت للرسول أحاديث صَوَّر فيها على وجه الدقة الصفات الشخصية التى يتصف بها منقذ العالم الذى وعد به فى آخر الزمان .

على أنها لم تجد فى الحقيقة منفذاً تتسرب منه إلى مصنفات الحديث الصحيحة المتشددة فى ضبط الرواية ، ولكن أخرجتها الكتب الأخرى التى كانت أقل تشدداً فى صحة تخريج الأحاديث .

وقد أمكن استخدام هذه العقيدة خلال عصور التاريخ الإسلامى لتبرير الفتن



والقلاقل التي أشعل نيرانها بعض الثائرين السياسيين الدينيين ، متطلعين إلى قلب النظم الحكومية القائمة ، وساعين إلى استجلاب محبة الشعب حتى يفتتن بهم ، على اعتبار أنهم يمثلون الفكرة المهدية ، فدفعوا بذلك بأجزاء كبيرة من العالم الإسلامي لى خوض غمار الاضطرابات والحروب .

وكلنا يذكر ما سجله التاريخ الإسلامي في الماضي القريب من حركات قامت على الفكرة المهدية ، كما أنه يوجد في أيامنا هذه طامحون في المهدية ظهروا في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي ، وهم في الغالب يعملون على مقاومة نفوذ الدول الأوربية الآخذ في الزيادة في البلاد الإسلامية[٩٣] .

وإن المشاهدات والاختبارات الشيقة التي قام بها « مارتن هارتمان » للوقوف على تيارات العالم التركي الحديث ، تبين لنا أنه حتى في عصرنا هذا [كان] ينتظر الناس في كثير من البيئات الإسلامية التركية ظهور المهدي الحقيقي في سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ ، وهو « الذي سيخضع العالم كله لراية الإسلام ويأتي على يديه العصر الذهبي الزاهر[٩٤] » .

وما دمنا قد أدركنا كنه التشيع ، فمن الطبيعي أن يكون الإسلام بصورته الشيعية هو وحده البيئة الملائمة التي ينبغي أن تنمو بها بذرة الأماني المهدية ؛ فإن حركة التشيع منذ بدايتها هي احتجاج واستنكار لمناهضة الخلفاء للحق الإلهي مناهضة عنيفة ، وإبطالهم إياه بالقهر والاغتصاب الذي أصبحت الأسرة العلوية ضحية له ، مع أنها هي وحدها الجديرة بالخلافة . وهكذا نمت العقيدة المهدية عند الشيعة ، وقويت حتى صارت عصباً حيوياً في مجموعة المبادىء الشيعية .

أما في الإسلام السني ، فإن ترقب ظهور المهدي ، على الرغم من استناده إلى الوثائق الحديثية والمناقشات الكلامية[٩٥] ، لم يصل ألبتة إلى أن يتقرر كعقيدة دينية ، ولم يبد قط عند أهل السنة إلا كلية أسطورية لغاية مثلى مستقلة أو كأمر ثانوي بالنسبة لجوهر النظرية السنية للكون . ويرفض الإسلام السني رفضاً قاطعاً العقيدة المهدية على صورتها الشيعية ، كما يهزأ بفكرة الإمام الكامن وحياته الطويلة .

وسبق أن تجلت لأهل السُّنة سخافة عقيدة الإثنا عشرية الخاصة بالمهدي ؛ لأن

المهدى ، تبعاً لما جاء فى الروايات السنية ، يجب أن يكون اسمه كالنبى — محمد بن عبد الله — بينا والد الإمام الخفى ، وهو الإمام الحادى عشر اسمه الحسن(٩٦) .

فضلا عن أن الشيعة يعتقدون بأن هذا الذى سيكون مهدياً فى المستقبل ، قد اختفى عند ما كان طفلا ، ومن ثمَّ بطلت مهديته شرعاً عند أهل السنة ، بسبب صغر سنه لأن مرتبة الإمامة لا تكون إلا من نصيب البالغين ؛ كما يرتاب آخرون فى وجود ابن للإمام حسن العسكرى عاش بعد أبيه .

وعلى نقيض ذلك ، نجد أن الإيمان بتحقق الأمانى المهدية فى المستقبل له أهمية اعتقادية جوهرية فى الإسلام الشيعى ، فهو حجر الزاوية فى العقائد الشيعية وهو مماثل تماماً لمبدأ رجعة الإمام الخفى وعودته إلى العالم الظاهر المحسوس ليكون له شرعه الجديد ، ويعيد فيه سنن النبى التى درست ، ويرد حق أسرته المهضوم ، وهو وحده القادر على « أن يملأ الدنيا حقاً وعدلا » .

وقد جد علماء من الشيعة ، ممن يتسمون بالجد والوقار أن يثبتوا ، إزاء تهكم أهل السُّنة ، وأن حياة الإمام الخفى الطويلة(٩٧) والمخالفة للمألوف ، ممكنة الوقوع وليست بمستحيلة ، مستشهدين باعتبارات « فيزيولوجية » وأسانيد تاريخية خطيرة .

بل إنه فى أثناء غيبته الجسمانية يعدونه بحق : « قائم الزمان » ، ولا يرون من المستحيل عليه أن يفصح للمؤمنين عن رغباته وأوامره(٩٨) ؛ وهو موضع أشعار حماسية مغرقة فى المدح ، ينظمها فيه أتباعه المخلصون الذين لا يمجدونه فحسب ، ولا يتزلفون إليه كأمير يسير بين الأحياء لكى يتفقد شؤونهم ويرعى مصالحهم ، ولكنهم يغدقون عليه فى أشعارهم ما تتطلبه عقيدة الإمامة من ألقاب وصفات تتجاوز المستوى البشرى .

وهو يتخطى فى سموه الروحى غاية ما بلغه الذكاء البشرى لأنه مصدر كل علم وغاية كل أمنية ، وشعراء الشيعة على تمام اليقين بأن قصائد مديحهم تصل إلى العرش الخفى الذى تتبوّؤه هذه الشخصية السامية(٩٩) .

ولنتساءل بعد ، عن مدى ما تساهم به العقيدة الخاصة بالإمام الخفى فى الحوادث الدنيوية ، وأثر هذه المساهمة فى التصورات السياسية والدينية للكون عند الشيعة .

كما نتساءل إلى أى حد يتحتم فيه إخضاع نظام من الأنظمة الحكومية عند الأمم الشيعية — حينما لا يعدو هذا الناحية الشكلية — لسلطة هذه القوة الخفية لكى يتيسر لها أداء وظيفتها ؟ .

ويمكننا أن نلتمس الإجابة عن هذا فى عصرنا الحاضر بهذه الحقيقة فى الدستور الفارسى الجديد ، إذ أنه عند افتتاح البرلمان ، دعا المجتمعون لإمام الوقت متوسلين أن « يرتضى عملهم وأن يُغضى عن أخطائهم » .

وكما جاء فى القرار الذى نشره الحزب الشورى فى أكتوبر سنة ١٩٠٨ تأييداً لعودة الدستور ، بعد الانقلاب الاستبدادى الذى كان قد دبره الشاه محمد على ، فقد ورد فيه : « ربما لم تحيطوا علماً بقرار علماء مدينة النجف ، المدينة الطاهرة المقدسة ، وهو قرار واضح لا لبس فيه ولا غموض ، بيَّن لنا أن كل من يعمل على مناوأة الدستور ، يصير شبيها بذلك الذى يجرد سيفه فى وجه إمام الوقت (أى المهدى الخفىّ) ، نسأل الله أن ينعم عليكم برجعته[١٠٠] » .

وهكذا احتفظت فكرة الإمامة بقوتها حتى الوقت الحاضر ، وارتقت حتى بلغت أوجها كعقيدة من العقائد الأساسية ، وأصبحت عنصراً جوهرياً فعالا فى النظام الدينى والسياسى .

١٣ — بعد أن درسنا عقيدة الإمامة وطبيعتها وخطرها ، وبعد أن عرفنا أنها أعظم الأصول الإيمانية فى العقائد الشيعية من حيث افتراقها عن عقائد أهل السُّنة ، علينا أن نعالج مسألة أخرى لكى ندرك حقيقة التشيع إدراكا تاماً .

لا يدل الانتماء إلى الإسلام على الخضوع فحسب ، لنظام سياسى محدود ، سواء أكان ذلك من الناحية النظرية أم بأداء أعمال معينة ، وإنما يدل فضلا عن هذا على التسليم بطائفة محدودة من العقائد الضرورية يتحتم على المسلم أن يؤمن بها ، ولو أن صيغها النهائية لم تتفق عليها المذاهب والفرق المختلفة .

كما يقتضى الإسلام أيضاً أداء مجموعة محدودة جلية من العبادات والشعائر والأحكام المنظمة للحياة ، والتى أصبحت أشكالها وأوضاعها موضع خلافات كثيرة فى المذاهب المعترف بسنيتها والتى تعيش يجاور بعضها بعضاً .

فهل حدث فى التشيع — وذلك فيما خلا نظرية الإمامة — تطور فقهى أو كلامى جعل للشيعة نظريات اعتقادية أو أحكاماً شرعية وتعبدية خاصة ميزتهم تمييزاً جوهرياً عن الإسلام السنى ؟ .

نقول للإجابة على هذا : إن الإسلام الشيعى ينطوى بطبيعته على اتجاه يخالف اتجاه السُّنة مخالفة صريحة ، حتى فيما يمس المسائل الجوهرية الخاصة بالعقائد ، فتصور الشيعة لطبيعة الأئمة قد أثر حتما فى آرائهم فى الوحدانية وفى أسماء الله وصفاته ورسله .

وهناك أمر آخر ينبغى أن نعتد به ؛ ذلك أنه فى داخل تيارات التشيع المختلفة التى كثرت تفريعاتها كثرة عظيمة ، اختلفت وجوه النظر فى الحكم على المسائل الاعتقادية .

لقد انتحت بعض المدارس الفكرية الشيعية فى العقائد ناحية التجسيم الساذج الغليظ ، ومع ذلك يمكننا أن نقرر أن النزعة الغالبة على التشيع فى المسائل التى لا تتأثر الإجابة عليها بنظرية الإمامة ، تقترب كثيراً من نزعة المعتزلة[١٠١] التى ألممنا بها فى القسم الثالث ، حتى أن فقهاء الشيعة عرفوا — كما سنرى فى مثال تال — كيف يستعينون بالآراء الاعتزالية لبناء القواعد الخاصة بمذهبهم ؛ فقد مالوا لأن يَتَسَمَّوْا بالعدلية أى أنصار العدل ، وهذا كما نرى هو اتصاف باللقب الذى أطلقه المعتزلة على أنفسهم .

وتتجلى مشابهة الشيعة للمعتزلة فى أمر آخر ، وهو دعوى الشيعة بأن علياً والأئمة كانوا أول من وضع عقائد الاعتزال ، وأن الكلاميين الذين جاءوا بعد الأئمة لم يصنعوا شيئا سوى أنهم بسطوا المبادىء التى وضع الأئمة قواعدها وأصولها من قبل وفصلوها[١٠٢] .

وهذا هو السبب فى أننا كثيراً ما نجد فى مؤلفات الشيعة الفقهية هذه الظاهرة وهى أنهم فى سردهم للآراء الاعتزالية ، يزعمون أن إماما من أئمتهم ، يعينونه بالاسم وإن لم يتفقوا عليه ، هو أول من ابتدعها .

ولكى نستشهد بمثال من الأمثلة البارزة الجلية ، نورد الفكرة التالية التى ينسبها الشيعة للإمام أبى جعفر الباقر ، ويذكرنا شطرها الثانى بعبارة مشهورة

لفيلسوف من فلاسفة الإغريق*: من صفات الله تعالى العلم والقدرة بمعنى ما يتصف به العالم من علم والقادر من قدرة ؛ فما تميزه بتصورك على أنه استعدادات دقيقة خفية لذاته تعالى ، فهذا التميز مخلوق وإدراكه مكتسب ، وهذه هى حقيقة فكرك الخاص (ما دامت هذه الصفات مميزة عن الذات الإلهية) .

ويشبه هذا أن النمل ، تلك الحشرات الضئيلة الحقيرة ، لو عقلت لتخيلت أن لله قرنين لأن القرون عندها هى فى الواقع عنصر من عناصر كمالها ، وترى فى انعدامها — تبعاً لتصوراتها المحدودة — نقصاً وعيباً ، وهذا هو الحال تماماً إذا ما نسبت الكائنات العاقلة صفاتها الخاصة لذات الله(١٠٣).

وإن الارتباط الوثيق بين العقائد الشيعية السائدة ومبادىء المعتزلة ، تبدو دلائله حينما نمعن النظر فى الأولى ، فمبادىء المعتزلة تتجلى بلا شك فيما أقره فقهاء الشيعة من أن الإمام الخفى ينتمى إلى مدرسة العدل والتوحيد ، أى إلى مذهب المعتزلة(١٠٤).

ومن بين فرق الشيعة ، نلاحظ أن الفرقة الزيدية على الأخص ؛ هى فى تفصيلات مذهبها أوثق صلة بتعاليم المعتزلة بدرجة أعظم من الفرقة الإمامية .

وقد استقر الاعتزال فى مؤلفات الشيعة حتى يومنا هذا ؛ ولذا فإن من الخطأ الجسيم ، سواء من ناحية التاريخ الدينى أو التاريخ الأدبى ، أن نزعم بأنه لم يبق للاعتزال أثر قائم محسوس بعد الفوز الحاسم الذى نالته العقائد الأشعرية .

وعند الشيعة مؤلفات اعتقادية كثيرة ، يرجعون إليها وينسجون على منوالها ، وهى حجة قاطعة تدحض هذا الزعم وتفنده . ويمكن أن نعتبر كتب العقائد الشيعية كأنها من مؤلفات المعتزلة ، لأنها تنقسم إلى قسمين كبيرين ؛ يندرج تحت أحدها أبواب الوحدانية ، ويندرج تحت القسم الآخر أبواب العدالة .

ومن الطبيعى ألا تخلو هذه الكتب والأبحاث من الموضوعات الخاصة بنظرية الإمامة وعصمة الإمام ، ولكن يجب ألا نغفل أنه فى هذه النقطة الأخيرة يتفق النظّام أحد أساطين المعتزلة مع الشيعة فيما ذهبوا إليه فيها .

---

* يريد به « اكسانوفان » الفيلسوف اليونانى الأيلى الذى يقول إن الناس هم الذين استحدثوا وأضافوا إليهم عواطفهم وهيئاتهم ؛ فالأحباش يعتقدون آلهتهم سوداً فطس الأنوف ؛ وأهل تراقية يعتقدونهم زرق العيون حمر الشعور ؛ ولو استطاعت الثيرة والخيل التصوير لصورت الآلهة على مثالها .

ومما يسترعى النظر أن علم الكلام الشيعى يتجه بصفة خاصة نحو المعتزلة . لأنه يستند فيما يسوقه من براهين لتأييد نظرية الإمامة على قواعد اعتزالية بحته ؛ فالحاجة إلى وجود إمام لكل عصر وما يجب أن تمتاز به هذه الشخصية من عصمة وقداسة ، قد ربطتها الشيعة بنظرية لاشك فى طابعها الاعتزالى البحت ، وهى النظرية القائلة بضرورة الإرشاد والتوجيه — اللطف الواجب — المترتبين على الحكمة والعدالة الإلهية .

فالشيعة ترى أن الله تعالى عليه أن يبعث للناس فى كل عصر هادياً لا يكون عرضة للخطأ والضلال ، وبذلك عزز علم الكلام الشيعى أسس تعاليمه بآراء ونظريات استمدها من عقائد المعتزلة(١٠٥) .

١٤ — وليس هناك من فروق تفصل ما بين مذاهب أهل السُّنة والشيعة ، فيما عدا عدة رسوم وشكليات ، فى أبواب العبادات والمعاملات فى الشريعة الإسلامية ، وكلها شكليات متناهية فى الدقة ، قلما تمس المسائل الجوهرية .

فالعبادات والمعاملات عند الشريعة لا تفترق عن تلك التى يتبعها سائر المسلمين افتراقاً يزيد عما يوجد بين المذاهب السنية من اختلافات ، وهى لا تتعدى قط الفروق الشكلية الصغيرة فى الشرائط والأوضاع ، وهى تشبه ما نصادفه من اختلاف بين الأحناف مثلا والمالكية وغيرهم(١٠٦) . . .

وقد لوحظ أن منهج الشيعة فى العبادات يقترب كثيراً من مذهب الشافعية فيها ، والسنيون لايعدون الشيعة حائدين عن جادّة السُّنة بسبب المناحى الخاصة التى يذهبون إليها فى فقههم ، أو حتى بسبب نزعاتهم فى المسائل الاعتقادية ، وإنما على الأخص بسبب خروجهم على القانون الدستورى الذى أقرته السُّنة .

ومما يفيد كثيراً فى إدراك ضآلة الفروق التعبدية بين فقه الشيعة وفقه السُّنة وقلة شأنها ، أن نقف على الأوامر الخاصة بالتعديلات التى كان على جماعة سنية أن تجريها بسبب خضوعها لفاتح شيعى ، وأن تنظم أمورها وفقاً للتعاليم الشيعية .

وتحقيقاً لهذه الغاية ، سنجتزىء بقدر من الأمثلة مما يعرض لنا فى البيان الذى

أصدره ذلك الفاتح الشيعى فى سنة ٨٦٦ م ، والذى رسم فيه التغييرات التى أعيد بها النظام العام فى طبرستان وفقاً للمبادىء الشيعية ، وذلك إذ يقول :

« ينبغى أن تحمل من تحت إمرتك على أن يعملوا بكتاب الله وسنة رسوله ، وبكل ما صح تواتره عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب من أصول الدين وما تفرع عنه من فروع ، وعليهم أن يجهروا بأفضلية علىّ على كافة المسلمين ؛ ويجب أن تنهاهم فى شدة وصلابة عن الإيمان بالجبر وتأويلات التجسيم ، وأن لا يحيدوا عن الإيمان بوحدانية الله وعدالته ، وأن يحظر عليهم رواية الأحاديث التى تنسب المناقب إلى أعداء الله وأعداء أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب .

كما عليك أن تأمرهم بتلاوة بسملة الفاتحة فى بدء الصلاة بصوت عال ، وتلاوة القنوت فى صلاة الصبح[١٠٧] ، وأن يكبِّروا خمس تكبيرات فى صلاة الموتى ، وأن يبطلوا عادة المسح على الخفين[١٠٨] ، وأن يزيدوا فى الأذان والإقامة عبارة : « حىّ على خير العمل[١٠٩] » ، وأن تُعاد الإقامة » .

فلا يعدو إذن ، الفرق بين السُّنة والشيعة — وذلك فيما خلا الأصول الاعتقادية — تلك الخلافات التعبدية القليلة الشأن التى يمكن إهمالها والتى يصادفنا الكثير من أمثالها عند الموازنة بين المذاهب السنية[١١٠] ؛ ومجموعها فيما يظهر سبع عشرة مسألة من المسائل الفرعية التى اعتمد فيها الفقه الشيعى حلولا معينة ، لا تتفق مع ما أنتجته المذاهب السنية بشأنها[١١١] .

١٥ — ولعل أعظم الفروق المذهبية بين فقه السنة وفقه الشيعة تتجلى فى أحكام النكاح ، وهى فروق نراها — ونحن بصدد بحث التعاليم الشيعية وتقديرها — أعظم خطراً من تلك الفروق التعبدية التافهة التى نلمسها فى فرائض الدين وشعائره . وذلك فى مسألة من المسائل التى تستحق أن نوليها شيئاً من العناية ، وهى : صحة النكاح المعقود لمدة زمنية معينة أو بطلانه ، وهو ما نسميه بالنكاح المؤقت[١١٢] .

لقد أباح أفلاطون الزواج المؤقت فى كتابه الجمهورية ، متأثراً باعتبارات تختلف فى الحقيقة اختلافاً جوهرياً ، عن تلك التى يمكن أن نقدر أهميتها فى الحياة الإسلامية ، وقد أباحه للنخبة المختارة من المجتمع الذين أطلق عليهم الفيلسوف اسم « الحراس » .

وقد أورد « تيودور جومبرتز » حقائق مماثلة لهذه ، استمدها من الحركات الاجتماعية التى ظهرت فى انجلترة الجديدة ، عند الفرقة الدينية المسماة « بالكماليين » التى أسسها «جون همفرى نويس » ، وكان مركزها الرئيسى فى أونيده «oneïda» ، طوال مدة توازى متوسط ما يعيشه الإنسان فى الحياة[١١٣] وقد ظهرت منذ ذلك الوقت نظريات الكماليين « Pertcetionnistes » فى الزواج فى الأدب القصصى باسم « زواج التجربة Trialxmrriage » .

وبطبيعة الحال كانت هناك بواعث أخرى ، هى التى اقتضت من النبى فى بدء رسالته التشريعية أن يسمح بشكل من أشكال الزواج كان متبعاً فى الجاهلية ، واسمه الاصطلاحى فى الفقه : « المتعة » ، ولكننا نفضل أن نسميه بالنكاح المؤقت الذى يبطل حتما بعد انتهاء الأجل المسمى وفقاً للاتفاق ودون القيام بأدنى إجراء شكلى للطلاق[١١٤] ، ومع ذلك فصحة هذا الشكل من الزواج قد نسخت بعد بضع سنوات .

وتعزو بعض الأحاديث هذا النسخ إلى النبى ، بينما الروايات الأخرى ، تذكر أن عمر حظر هذا النكاح على المسلمين وأعلن أنه صنو الزنا ؛ غير أن المسلمين ترخصوا فيه حتى بعد هذا التحريم ، وذلك فى ظروف خاصة كمناسبة الحج مثلا . واستند المبيحون له على حديث يتصل سنده بابن عباس ، ولذلك تهكم السامعون بفتواه ، ورددوا على سبيل السخرية هذه العبارة : « تزوج فلان على فتيا ابن عباس[١١٥] » .

ومهما يكن ، فقد أجمع أهل السنة على حظر المتعة * ، نظراً لاتجاه النظم الإسلامية نحو الثبات والاستقرار ، بينما الشيعة لا يزالون إلى وقتنا هذا ،

---

* إن الذى يرجع إلى المراجع المعتبرة فى الفقه الإسلامى ، مثل كتاب الهداية فى الفقه الحنفى وشروحه وحواشيها ، يتبين أن معنى المتعة عقد مؤقت بأجل معين فيدخل فيه النكاح المؤقت أيضاً ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان أحل هذا النوع من النكاح ثلاثة أيام من الدهر فى غزاة اشتد على الناس فيها العزوبة ، وأن التحريم كان من الرسول نفسه بأحاديث صحيحة وردت فى الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث ، وأن ابن عباس صح رجوعه عما كان اشتهر عنه فى الإباحة التى كان يراها حالة الاضطرار والعنت فى الأسفار ، وأن تحريم الرسول كان تحريم تأبيد لا خلاف فيه بين الأئمة والعلماء إلا طائفة من الشيعة .

هذا هو الحق ، فما ذكره المؤلف مخالفاً له يعتبر غير صحيح ، وقولا لا دليل عليه .

رون صحتها[١١٦] وذلك استناداً على الآية ٢٨ من سورة النساء : « يُريدُ اللهُ أنْ يُخَفِّفَ عَنكم وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعيفا »[١١٧] ، ولم يثبت عندهم بأحاديث جديرة بالثقة أن النبي صلى الله عليه وسلم نسخها .

وقالوا إن عمر أبطل المتعة خطأ[١١٨] ، وهم لايقرون له بسلطة شرعية ولا يرونه مرجعاً لبيان أحكام الشريعة ، ولذا لا يأخذون بالروايات التى نقلت عنه هذا الحكم .

وهذه مسألة فقهية نعتبر الخلاف فيها بين أهل السنة والشيعة قد بلغ أقصى مداه .

١٦ — بقى أن نذكر ، بمناسبة هذه الفروق ، بعض العادات والتقاليد الدينية التى تدخل فى دائرة الذكرى التاريخية ، وهى تقاليد تتصل بإحياء ذكرى العلويين وحداد الشيعة على من استشهد من آل البيت . وقد تيسر للأفكار الشيعية ، فى عهد الدولة البويهية أن تميط اللثام عن حقيقتها ، وأن تظهر بفضل حمايتهم ورعايتهم حرة طليقة فى رائعة النهار .

لقد أحيا البويهيون عيداً شيعياً خاصاً هو عيد « الغدير » لذكرى عهد الاستخلاف الذى أوصى فيه النبي بخلافة علىّ ، وحدث هذا العهد بالقرب من غدير خمّ ، واستند عليه العلويون منذ أقدم العصور الإسلامية لتدعيم عقائدهم الشيعية وتبريرها[١١٩] .

ويحتفل الشيعة أيضاً بيوم عاشوراء ، وهو أقدم من عيد الغدير ، وجعلوه يوماً من أيام الحداد على نكبة كربلاء والاستغفار من آثامها وكبائرها ، وتزعم الروايات الشيعية وقوعها فى هذا التاريخ .

كما ينفرد الشيعة أيضاً بالحج إلى قبور العلويين بالعراق[١٢٠] وزيارة الأماكن التى قدستها الذكريات العلوية ؛ وهو ما جعل لتقديس الأولياء وعبادة الأضرحة فى مذهب التشيع طابعاً فريداً خاصاً ميزها عن غيرها ورفع من قيمتها وخطرها ، وقوّى من دلالتها الباطنة ، أكثر بكثير من عناية أهل السنة بقبور أوليائهم ، تلك العناية التى بلغت أيضاً عندهم غايتها .

١٧ — وقبل أن ندع البحث فى الخواص السياسية والاعتقادية والشرعية للشيعة وفى الملابسات التاريخية والدينية المرتبطة بالمبادىء الشيعية ، يحسن أن ننوه هنا ببعض

الأوهام الشائعة عن طبيعة التشيع التى عمَّ ذيوعها إلى زمن قريب ، والتى نرى أن الناس لم يتخلوا عنها إلى اليوم تخلياً تاماً . وأود أن أبرز ثلاثة من هذه الأوهام التى لا يحسن إغفالها فى مصنف فى التاريخ الدينى يتألف من هذه الدراسات :

(١) الفكرة الخاطئة التى تزعم بأن الفرق الأساسى بين أهل السُّنة والشيعة ينحصر فى أن مذهب أهل السنة يعتمد سنة النبى مع الكتاب كمصدر للدين والحياة الدينية ، بينما الشيعة تقتصر على القرآن وترفض السُّنة(١٢١) .

وهذا خطأ جسيم يدل على جهل تام بحقيقة التشيع ، وهو خطأ كثيراً ما أثارته المقابلة بين لفظى « سُـــنة » « شيعة » . والشيعة لايحتملون أن نعدهم خصوماً لمبدأ السنة .

بل يعتقدون أنهم ، هم وحدهم الذين يعملون بالسنة الصحيحة ، وأنهم يأخذون بالروايات الصادقة التى تناقلها آل البيت ، ويرون أن خصومهم من السنيين يبنون سنتهم على روايات الصحابة الذين يتهمونهم بالتقصير والخيانة وينكرون عليهم كل ثقة وأمانة .

ومن الأدلة المألوفة فى هذا الصدد ، التى يمكن أن نسوقها لدحض هذا الوهم ، أنه يوجد مقدار كبير جليل من الأحاديث المشتركة بين أهل السنة والشيعة ، غير أن هذه الأحاديث تفترق فحسب فى الأسانيد التى تؤيدها .

كما أنه إذا ما شايعت أحاديث السنيين نزعات الشيعة أو لم تتعارض معها على الأقل ، لا يتحرج فقهاء الشيعة من أن يستشهدوا دون أدنى تردد بمصنفات الحديث الصحيحة التى اعتمدها خصومهم من أهل السنة .

وندلل على ذلك بالحقيقة التالية ، التى نوردها على سبيل المثال ، وهى أن كلا من صحيح البخارى ومسلم ، وكذا سائر المصنفات والمسانيد كان الأتقياء والصالحون يتلونها فى ليالى الجمع فى قصر وزير من وزراء الشيعة المتعصبين ، هو طلائع بن رُزِّيك(١٢٢) .

فالحديث هو إذن ، من المصادر الأساسية الأصلية فى الحياة الدينية عند الشيعة . ولنا أن نستدل على شعور فقهاء الشيعة وإحساسهم القوى بقيمة السنة ، أن ما ذكرناه فى القسم الثانى من وصية على بن أبى طالب لعبد الله بن عباس لكى يحاجَّ الخوارج بالسنة ، مقتبس من ديوان خطبه وأقواله المأثورة التى تناقلها عنه الشيعة .

فاحترام السنة هو إذاً مما يتطلبه مذهب التشيع كما هو الحال عند أهل السنة تماماً وهو ما تؤيده المصنفات التى صنفها الشيعة فى السُّنة النبوية وفيما وضعوه من أبحاث تتعلق بها . ويدل أيضاً على تقديرهم لها ، مثابرة الفقهاء ذوى النزعة الشيعية وحماستهم فى وضع الأحاديث واختلاقها ، أو إذاعة ما سبق وضعه واختلاقه منها ، خدمة لمصلحة[١٢٣] التشيع وأغراضه .

ولذا ، فمن الخطأ الواضح القول بأن الشيعة ليست عندهم سنة[١٢٤] أصلا ، أو أن السنة ليست من مبادئهم الدينية . وهم لا يعارضون خصومهم السنيين على اعتبار أنهم ينكرون السنة ولا يعترفون بها ، ولكن على اعتبار أنهم الأعوان المخلصون لآل بيت النبي وشيعته . وهذا هو معنى كلمة « شيعة » ، أو « الخاصة » وهو ما يقابل أوشاب العامة وأخلاطهم الغارقين فى العماية والضلال .

(ب) الخطأ القائل بأن التشيع فى منشئه ومراحل نموه يمثل الأثر التعديلى الذى حدثته أفكار الأمم الإيرانية فى الإسلام ، بعد أن اعتنقته أو خضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية .

وهذا الوهم الشائع مبنى على سـوء فهم للحوادث التاريخية ، وهو ما أولاه « فلهوزن » ما يستحقه من عناية فى كتابه : « أحزاب المعارضة الدينية والسياسية فى الإسلام القديم » فالحركة العلوية نشأت فى أرض عربية بحتة . ولم تمتد إلى العناصر الإسلامية غير السامية إلا فى خلال ثورة المختار[١٢٥] .

بل إن قواعد نظرية الإمامة ، والفكرة الثيوقراطية المناهضة لنظرية الحكم الدنيوية ، وكذا الفكرة المهدية التى أدت إليها نظرية الإمامة والتى تجلت معالمها فى الاعتقاد بالرجعية — ينبغى أن نرجعها كلها ، كما رأينا ، إلى المؤثرات اليهودية والمسيحية .

كما أن الإغراق فى تأليه علىّ ، الذى صاغه فى مبدأ الأمر عبد الله بن سبأ ، حدث فى بيئة سامية عذراء لم تكن قد تسربت إليها بعد الأفكار الآرية ، وانضم لهذه الحركة فى بدء قيامها جموع غفيرة من العرب[١٢٦] ، حتى إن أول الواضعين لجزء من مبادىء التجسيم والحلول قوم لا شك أنهم من الجنس العربى الصميم .

وقد مال لاعتناق التشيع — مع كونه من الفرق المخالفة — قبائل عربية تشبعت بالآراء الثيوقراطية وبشرعية حق علىّ فى الخلافة ، فأقبلت على تعاليمه فى لهفة وحماسة لا تقل عن حماسة الإيرانيين .

حقيقة أن صفة المعارضة التى انطوى عليها التشيع ، قد صادف عند الإيرانيين قبولا وترحيباً ، فانضووا بمحض اختيارهم تحت لواء هذه الفكرة الإسلامية التى أمكنهم أن يؤثرا بعض التأثير فى نموها وترقيها فيما بعد ، وذلك بفضل فكرتهم الوارثية القديمة الخاصة بالملكية الإلهية .

ولكن بوادر هذه الفكرة فى الإسلام لا يشتم منها وجود مثل هذا التأثير الإيرانى ، فالتشيع كالإسلام عربى فى نشأته وفى أصوله التى نبت منها .

(ح) الوهم القائل بأن التشيع يمثل رد فعل الروح الحرة لمقاومة جمود العقلية السامية وتحجرها ، وقد بسط هذا الرأى أخيراً « كارّادى ڤو » الذى بين أن فى التضاد بين التشيع والإسلام السنى « نزاعاً بين فكر حر طليق وسُنة ضيقة جامدة[١٢٧] » .

ولا يأخذ بوجهة النظر هذه ، أو يُعَوِّل على صحتها ، واحد ممن يعرفون الأحكام الفقهية فى التشيع . ولا شك أن خصوم الشيعة أخذوا عليهم بحق أن تقديسهم علياً شَغَلَ أكبر حيز فى حياتهم الدينية بل أصبح واسطة عقدها ، حتى غدت العناصر الدينية الأخرى بجانب هذا التقديس قليلة الشأن ضئيلة القيمة .

ولكن هذا الدليل الذى ساقوه بشأن الشيعة لا يعيننا قط على إدراك السمات البارزة فى مبادىء الفقه الشيعى ، وهى لا تقل فى شدتها عن مثيلتها فى فقه أهل السُّنة . وإن ما يغلب على مسلمى فارس الشيعيين من لين وتساهل ، إزاء بعض القيود فى العبادات[١٢٨] ، لا يحسن أن يدفع بنا إلى الخطأ فى تقدير مبادىء التشيع تقديراً تاريخياً صحيحاً .

لقد أنكر الشيعة كافة العوامل التى تؤثر فى الهيئة الاجتماعية وتعمل على رقيها ، حتى يولوا أئمتهم تلك السلطات الشخصية الواسعة التى اعتقدوا فيها العصمة والبعد عن الزلل والهوى ، وبذلك لم ينتفعوا بعناصر التيسير والإباحة التى تشتمل عليها

الأنظمة الحرة التى نشأت عند أهل السنة ، فالتعاليم الشيعية هى بالأحرى التى تشبعت بالروح الاستبدادية المطلقة .

وفضلاً عن ذلك ، فإننا إذا علمنا بأن ما تتّسم به الأفكار الدينية من حرية أو جمود ، أو من سعة أو ضيق ، يمكن أن نقدره تبعاً لدرجة التسامح التى يُعامل بها أصحاب الملل الأخرى ، يلزمنا أن نضع الشيعة فى مرتبة هى دون مرتبة الإسلام السنى .

ومن الطبيعى أننا لا نعنى هنا بالمظاهر العصرية البادية عند الشيعة فى الوقت الحاضر ، وإنما نعنى بالقواعد الشرعية والدينية وحدها التى أقرتها تعاليمهم والتى دونها فقهاؤهم فى وثائقهم المذهبية . وفى الحق أن هذه القواعد اضطرت أن تخضع وأن تلين فى كل مكان ، إزاء الضرورات الحيوية والعملية التى اقتضتها الأزمنة الحديثة ، وأصبح من المتعذر انطباقها بكل مظاهر شدتها على الأحوال الاجتماعية إلا فى البيئات المنعزلة عن الحضارة والعمران .

والنظرية الفقهية الشيعيّة التى تحدد علاقة الشيعة بأصحاب الديانات الأخرى ، تبدو لنا — إذا حكمنا عليها باعتبار وثائقها الشرعية — أقسى وأشد من النظرية المماثلة لها التى يقرها أهل السُّنة .

ويتجلى فى الفقه الشيعى التعصب الذى يبلغ أقصى حدوده نحو الديانات الأخرى ، وجهود فقهائهم فى تأويل الأحكام الشرعية فى هذه المسألة بالذات كانت قاصرة ، ولم يستفيدوا مطلقاً من التسهيلات التى أدخلتها السنة الإسلامية فى عدد من المسائل ظهرت فيها شدة الآراء القديمة وصلابتها .

فبينا الإسلام السنى قد محا ، بواسطة التأويل الذى اعتمده فى النهاية ، اللهجة القرآنية الشديدة نحو الكفار : « يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا المشركونَ نَجَسٌ » ، تقيد الحكم الشرعى عند الشيعة بحرفية هذا النص ، وأعلن نجاسة المادة الجثمانية للكافر وجعل الاتصال به وملامسته فى عداد النواقض العشرة التى تؤدى للنجاسات(١٢٩) .

ومن الحقائق النموذجية المستمدة من الواقع المشاهد ، دهشة « حاجى باباالمورى »

الذى لاحظ أن : « من أغرب صفات الإنجليز أنهم لا يعدون كائناً من كان على شىء من النجاسة ؛ فهم يلمسون إسرائيلياً كما يلمسون واحداً من قبيلتهم » . وطريقة الإنجليز هذه فى النظر إلى المخالفين لك فى عقيدتك ، هى مما لا يقبله الحكم الشرعى عند الشيعة .

ولدينا كثير من الأمثلة التى تشتمل عليها مؤلفات الأوربيين الذين عاشوا بين ظهرانى الشيعة ، وسأقتصر على إيراد بعض البيانات المستمدة من كتاب مؤلف لاحظ الروح الشعبية الفارسية ملاحظة دقيقة ، وهو الدكتور « پولاك » الذى قضى أعواماً طويلة فى فارس الشيعية متقلداً منصب الطبيب الخاص للشاه ناصر الدين .

يقول : « إذا قدم أوربى مصادفة وعلى غير انتظار فى بداية تناول الطعام ، يقع الفارسى فى الحيرة والارتباك ويسقط فى يده ، لأن الآداب تمنعه من أن يأمر زائره بالانصراف ، وإذا سمح له بالدخول تحرج لأن ما يلمسه الكافر من طعام تلحقه النجاسة[١٣٠] » ؛ « والفضلات التى تتبقى من طعام الأوربيين يأبى أن يتناولها الخدم ويتركونها للكلاب » .

ويتكلم پولاك عن الرحلات فى فارس فيقول : « على الأوربى أن لا يغفل أن يُعِدَّ لنفسه إناءً يشرب منه ، فليس من أحد يعيره شيئاً ، فعقيدة الفرس أن كل إناء يتنجس إذا ما استخدمه الكافر[١٣١] » .

ويحكى المؤلف أن وزير خارجية فارس « ميرزا سيد خان » ، « يغسل عينيه أمام الأوربيين وتحت بصرهم لكى يحفظهما من النجاسة » ، وهذا الوزير المسلم كان على جانب كبير من الورع والتقوى ، وقبل مكرهاً أن يتطبب بالنبيذ ، غير أنه استطاب أخيراً هذا العلاج ، « حتى إنه على تقاه كان لا يُرى صاحياً قط[١٣٢] » .

واعتاد الشيعة أن يظهروا مثل هذا التعصب نحو الزرادشتيين الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، ويقص « برون » فى هذا الصدد كثيراً من الملاحظات التى استرعت انتباهه أثناء إقامته فى « يزد » ؛ فقد جُلد أحد الزرادشتيين لأن ملابسه حدث أن لامست عفواً وعن غير قصد فاكهة كانت معروضة للبيع فى السوق ، فعدت الفاكهة

نجسة بسبب ملامسة هذا الكافر لها ، واستحال على المؤمنين من الشيعة أن يتناولوا شيئاً منها[١٣٣] .

ونصادف غالباً هذه العقلية المتعصبة بين الشيعة الأميين خارج بلاد فارس ؛ ففي لبنانَ الأوسط بين بعلبك وصفد ، وفى الشرق فى جبال لبنان **Antiliban** ووادى الشام Cœlesyrie ، نجد عند فلاحى الفرقة الشيعيةالتى يطلق عليها اسم « ميتاولى » (مفردها مِتْوالى أو مُتْوالى أى الأعوان المخلصين لعلى) نمطاً للعقلية الشيعية يميزها عن غيرها من الفرق ، وعددهم يتراوح ما بين خمسين إلى ستين ألف نسمة .

وجاء فى إحدى الروايات ، التى نرتاب كثيراً فى صحتها ، أن الميتاولى من سلالة جماعة من المهاجرين من الأكراد نقلوا من العراق إلى الشام فى عهد صلاح الدين ، أى أنهم يعدون فى هذه الحالة من أصل إيرانى[١٣٤] ، ولكن يبدو أن هذا فرض لا أساس له من الصحة .

وتقطن الجماعات الكبرى منهم بعلبك والقرى المجاورة ، وقد تحدرت منهم أسرة أمراء حرفوش ، وهؤلاء الفلاحون يشاركون غيرهم من الشيعة ما أبناه من الإحساسات التى يشعرون بها إزاء أصحاب الديانات والنحل الأخرى .

ومع أنهم يتصفون بسجية الكرم والسخاء نحو من يطرق أبوابهم ، أياً كان هو ، يعتبرون ما يستخدمه ضيوفهم فى طعامهم وشرابهم من أوان نجساً .

وقد قال فى هذا الصدد المستكشف الأمريكى « سيلا مريل » ، الذى جال كثيراً فى هذه الأصقاع من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٧٧ منقباً عن آثار فلسطين ، فى بعثة للجمعية الأمريكية : « يعتقد الميتاولى أن ملامستهم للمسيحيين تدنسهم وتلحق النجاسة بهم ، حتى أن الآنية التى يكون المسيحى قد أكل منها أو شرب ؛ أو التى يكون قد استخدمها فى طعامه ؛ لا يعودون إلى استعمالها قط ويحطمونها مباشرة[١٣٥] » .

على أنه إذا كان علينا أن نرفض الفكرة الخاطئة التى تزعم بأن التشيع ، من حيث أصله ونشأته هو ثمرة العوامل الإيرانية التى أثرت على الإسلام العربى ، فإننا يمكننا مع ذلك أن نرجع موقف الشيعة المتشدد حيال الديانات الأخرى إلى الأثر الفارسى الزرادشتى الذى ساهم فى بناء الآراء الشيعية وتكوينها التاريخى[١٣٦] .

وإن موقف التعصب فى فقه الشيعة نحو الديانات الأخرى — وهو ما بسطناه آنفاً — يُذَكِّرنا عفواً بالقواعد القديمة التى أغفلت غالبية الزرادشتيين فى العصر الحاضر السير على نهجها ، وهى القواعد التى قررتها كتبهم الدينية البارسية ، والتى يمكن أن نعد تعصب الشيعة الصدى الإسلامى لها ؛ ومنها « أن على الزرادشتى أن يتطهر بالنيرانج إذا لمس غير زرادشتى » . « وأن لا يتناول طعاماً أعده له غير زرادشتى سواء أكان زبداً أو عسلا ، كما يحظر ذلك فى الأسفار(١٣٧) » .

وإن انتحال الشيعة لهذا القانون البارسى هو الذى أوجد ثغرة من ثغرات الخلاف التعبدى بين أهل السنة والشيعة ؛ فمع الرخصة التى وردت صراحة فى القرآن : « اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الذينَ أُوتوا الكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهمْ » ، يُحرم فقه الشيعة الطعام الذى أعده اليهود والنصارى ؛ وما يذبحه هؤلاء من حيوان لا يباح للشيعى تناوله(١٣٨) ؛ أما السنيون فينهجون فى هذه المسألة ما أتى به القرآن من رخصة وتيسير(١٣٩) .

وعلاوة على ما ذكرنا ، فإن الشيعة فى باب آخر من أبواب الفقه لم ينتفعوا من إباحة أمر آخر يسّره القرآن ، فوضعوا أنفسهم بذلك فى موقف يناقض ما جاء بكتابهم المنزل ، حتى يجدوا منفذاً لنزعتهم المتعصبة .

فقد أباح القرآن للمسلم أن يتزوج من النساء الشريفات من اليهود والنصارى : « والمُحْصَنَاتُ مِنَ الذينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيرَ مُسافِحِينَ ولا مُتَّخِذِى أَخْدانٍ وَمَن يَكْفُرْ بالإيمانِ فَقَد حَبِطَ عَمَلُهُ وهُوَ فى الآخِرَةِ مِنَ الخاسرِين » ، وأجازت السُّنة هذا الزواج المختلط لأنه لا يتنافى مع النظرية الإسلامية فى العصور الأولى للإسلام(١٤٠) ، وقد تزوج الخليفة عثمان بامرأته المسيحية نائلة(١٤١) .

لكن الشيعة على نقيض أهل السُّنة لا يقرون زواجاً كهذا مستندين على الآية القرآنية ٢٢١ من سورة البقرة : « ولا تَنْكِحُوا المُشركاتِ حَتى يُؤْمِنَّ ولأَمَةٌ مُؤْمِنةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشركةٍ ولوْ أَعْجَبَتْكُمْ » ، أى أنها تحظر الزواج بالمشركات .

أما الآية التى تبيح الزواج بالكتابيات فقد خرجوا بها بطريق التأويل عن معناها الأصلى[١١٣] الذى نزلت من أجله .

غير أن هذه النزعة المتعصبة عند الشيعيين الصادقين فى تشيعهم لم تقتصر على الكفار ، بل شملت المسلمين من مختلف النحل والمذاهب ، وكتب الشيعة تفيض بالدلالة على هذا البغض والتحامل .

وقد غلبت على الشيعة هذه النزعة لأنهم كانوا جماعة قليلة اضطرت أن تكافح طويلا منذ بداية حركتها ، وأن تخوض غمار المصاعب الشاقة التى تحدق عادة بنحلة مضطهدة ، وأن تقاوم ما يقع عليها من عسف واضطهاد .

وفى أغلب الأحيان لم تتح لهم حرية التعبير عن آرائهم لأنهم حرموا حرية الجهر بعذهبهم وعقائدهم وعباداتهم ، فلم يستطيعوا التعبير عما يجول فى نفوسهم إلا باتفاق سرى فيما بينهم .

ولذا شعروا بالحنق والرغبة فى الانتقام من أعدائهم الذين اغتصبوا السلطة قهراً واقتداراً ، واصطنعوا التقية التى فرضوها على أنفسهم ، وكأن شأنهم فيها شأن الطريد الشهيد الذى لا يعمل إلا ما يزيد نار غيظه اشتمالا وحقده حدة وعنفاً نحو الذين كانوا سبباً فى ضنكه وشقائه .

وقد سبق أن رأينا كيف رفع فقهاء الشيعة لعن الأعداء والخصوم وجعلوه فى مرتبة الفرائض الدينية ، واشتط بعضهم متجاوزاً هذا المدى فى الحقد والعداوة لأصحاب العقائد الأخرى ، فقرنوا الآية التى تأمر بأداء الزكاة باستثناء يَحْرِم الكفار ، كما يحرم خصوم المبدأ العلوى ، من كل أنواع البر والإحسان ؛ ورووا عن النبى أنه قال بأن من يحسن على أعدائنا كان كمن يسطو على بيوت الله[١٤٣] .

ولأهل السُّنة أن يذكروا موقفاً أعظم إنسانية ورحمة من هذا المثال ، وهو الذى ضربه الخليفة عمر عند دخوله الشام ، إذ أمر بإعانة المسلمين من الصدقات التى تؤخذ فى سبيل المصلحة العامة للجماعة الإسلامية ، وأمر كذلك بإعانة المرضى من المسيحيين . روى البلاذرى أن « عمر عند مقدمه الجابية من أرض دمشق

مرَّ بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت[١٤٤] » .

والأحاديث عند الشيعة مفعمة بالبغض والعداء نحو المسلمين الذين يخالفونهم فى المذهب ، وقد يكون ذلك بدرجة أكبر مما يشعرون به نحو الكفار ، ومن هذه الأحاديث ما يضع أهل الشام — أى خصوم الشيعة من أهل السنة — فى مقام أقل بكثير من مركز النصارى ، كما يضع أهل المدينة الذين ارتضوا خلافة أبى بكر وعمر فى مرتبة أحط من مرتبة مشركى مكة[١٤٥] .

أى تسامح فى هذا مع المخالفين فى الرأى ؟ وأين الشعور نحوهم باللين والتساهل والمصابرة ؟ بل أين حرية الفكر ؟ إن الإسفاف التالى يبين لنا ما بلغه الشيعة من حمق وسخف فى ازدرائهم لخصومهم .

لقد أفتى فقيه كبير من فقهائهم أنه فى المسائل الغامضة التى لا تزودنا فيها أصول الشريعة بقبس يهدينا إلى حلها حلاً صحيحاً ، فالمبدأ الذى يجدر بنا اتباعه هو أن نفعل نقيض ما يستحسنه أهل السنة ؛ أو كما قال : « ما خالف العامة ففيه الرشاد[١٤٦] » ، وما هذا سوى فقه التعصب والحقد !

١٨ — ومن فرق الشيعة ، التى اندثرت تماما مع كر الزمن ، بقيت فرقتان — علاوة على الاثناعشرية — كانتا على الأخص على جانب من القوة وسعة الانتشار وهما الزيدية والإسماعيلية .

(ا) تقف الزيدية على الإمام الخامس فى قائمة الأئمة الاثنا عشرية ، وتنسب إلى زيد بن على من نسل الحسين ، وقد ثار بالكوفة سنة ١٢٢هـ/ سنة ٧٤٠م مطالباً بالخلافة ، دون ابن أخيه جعفر الصادق الذى أقر له جمهور الشيعة بإمامته الشرعية الموروثة . وقد أخمد الخليفة الأموى فتنته وقضى عليه ، واستأنف ابنه الكفاح من غير طائل وانتهى أمره فى خراسان سنة ١٢٥هـ/ سنة ٧٤٣م .

واتخذ الزيدية من حركة زيد ومطامحه مايبرر انشقاقهم وخروجهم على الشيعة ؛ فأنكروا الإمامة الاثنا عشرية ، وخالفوهم فى أنهم أصبحوا منذ ثورة زيد لا يرون

انتقال الإمامة من أب إلى ابن بطريق الوراثة المباشرة ، وأنكروا قصرها على سلالة الحسين بن على التى استأثرت وحدها بالإمامة دون غيرها من الفروع .

وعلى ذلك فالزيدية تعترف بإمامة كل علوى — دون مراعاة انتسابه لهذا الفرع أوذاك — له من الاستعداد الروحى للرئاسة الدينية مايعينه على إظهار مواهبه فى نضاله من أجل الغاية المقدسة ، فيكون بذلك أهلاً لطاعة الجماعة إياه وانضوائها تحت لوائه ؛ فنظريتهم المثلى هى الإمامة النشيطة العاملة ، وليست الإمامة السلبية التى تنتهى بهم إلى الإمام الخفى وهى نظرية الاثنا عشرية .

وهم لا يقولون بالخرافات المتعلقة بالعلم الباطنى عند الأئمة ، إلى غير ذلك من صفات شبيهة بصفات التأليه التى خص الشيعة أئمتهم بها ؛ وقد تقيدوا بدلاً من هذه الخيالات والأحلام بالصورة الواقعية للإمام الذى يعمل فى الحياة فى نضال مكشوف ، ويكون على رأس الجماعة الإسلامية حاكما وفقيهاً .

كما استمسكوا برأى مؤسس مذهبهم فأظهروا تسامحاً فى حكمهم على خلافة أهل السنة فى العصور الإسلامية الأولى ، ولم يشاركوا غيرهم من الشيعة فى لعن أبى بكر وعمر وسائر الصحابة والقدح فيهم لأنهم لم يبايعوا علياً بالخلافة بعد وفاة النبى مباشرة .

ولكنهم يأخذون عليهم عدم إدراكهم للمواهب الفائقة الممتازة التى كانت لعلى ، دون أن يحملوهم وزراً على خطئهم فى التقدير أو على قصورهم عن التفطن لهذه المواهب ، كما لا يرون فيمن أجمعوا على مبايعته بالخلافة غاصباً قاهراً .

ومن هذا الوجه يمكننا أن نعد الزيدية الحزب الشيعى المتعدل حيال أهل السُّنة . وقد تحدّرت سلالة الحكام الزيديين من الفرع الحسنى من ذرية علىّ ، كما فى دولة الأدارسة فى شمال أفريقية من سنة ٧٩١ م إلى سنة ٩٢٦ م ، وكما أسس فريق منهم دولة شيعية أخرى تسنى لها أن تحكم فى طبرستان من سنة ٨٦٣ إلى سنة ٩٢٨ ، وكذا الحكومات الشيعية التى أقاموها فى أواسط بلاد العرب ـ وذلك منذ القرن التاسع الميلادى ـ والتى بنت حقها فى الحكم على دعاوى زيدية(١٤٧) . ولا تزال هذه الفرقة من فرق الشيعة منتشرة إلى اليوم فى جنوبى بلاد العرب ، حيث تعرف هنالك باسم « الزيود » .

(ب) أما الإسماعيلية فإنها تستمد اسمها من أنها ، على خلاف الإثنا عشرية تختم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع ، وإمامها السابع الذى لا تعترف الإثناعشرية بإمامته هو « إسماعيل » بن الإمام السادس « جعفر الصادق » المتوفى سنة **٧٦٢** م . وقد اختلفوا فى تعليل قعوده عن مباشرة مهمته كإمام ، على الرغم من انتسابه للبيت العلوى .

ومهما يكن ، فقد ترك الإمامة لابنه محمد الذى أصبح الإمام السابع الحقيقى وحل بذلك محل أبيه إسماعيل ، ثم وليه فى الإمامة أخلافه فى سلسلة متصلة كانوا أئمة مستترين متخفين ، اجتنبوا المجاهرة بالدعوة إلى اللحظة التى أغرت فيها الحركة الإسماعيلية السرية بظهور الإمام الشرعى فى شخص عبيد الله على اعتبار أنه المهدى المنتظر . وقد أسس هذا ، الدولة الفاطمية فى شمال أفريقية سنة ٩١٠ م ، وأطلق على هذه الفرقة الشيعية اسم السبعية تمييزاً لها عن فرقة الإمامية المعروفة .

وهذا الفرق بين الإسماعيلية والإمامية الذى ليست له إلا قيمة شكلية ، لم يكن كافياً لإظهار الإسماعيلية وتمييزها عن سائر الفرق الشيعية المتعددة ، ما لم تكن الإسماعيلية قد اتخذت دعايتها ذريعة لخلق حركة خطيرة فى التاريخ الدينى للإسلام وهى حركة القرامطة ، ومالم تكن المؤامرات والدسائس التى حركوها قد أسفرت عن تأسيس دولة عظيمة فى تاريخ الإسلام السياسى ، ألا وهى الدولة الفاطمية .

وكان القائمون بالدعاية والترويج للفرقة الإسماعيلية يتخذون من نزعاتها وسيلة لمزج عقائدهم بنظرات أعجمية غريبة ؛ فصرنا لا نستطيع أن نتبين فى مذهبهم ، قواعد الإسلام التقليدى حتى فى صورته الشيعية البحتة ، وانتهى الأمر بهم إلى طمس معالمه وانحلال عقائده انحلالا تاماً .

ومن أقوى المؤثرات التى ساعدت على تطور الأفكار الإسلامية ما أتى عن طريق الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، فقد نفذت نظرياتها إلى أرحب ميادين الفكر الإسلامى ، بل تسربت إلى الوثائق الدينية التى كانت أساساً لما نما وازدهر من التعاليم الإسلامية ذات الطابع السنى الأكيد[١٤٨] .

وقد تسنى لنا فى القسم الرابع أن نثبت كيف أن الصوفية بفضل أفكارها ومبادئها، أمكنها أن تطبق النظريات الأفلاطونية الحديثة تطبيقاً على تعاليم الإسلام، وقد ظهرت أيضاً فى البيئات الشعبية محاولات رمت إلى مزج عقيدتى الإمامة والمهدية بنظرية الفيض فى الأفلاطونية المحدثة(١٤٩).

ويبدو هذا الأثر الفلسفى فى استعانة الدعاية الإسماعيلية بالنظريات الأفلاطونية، مع ملاحظة هذا الفرق بينها وبين الصوفية؛ فالصوفية لم تبغ من الاستعانة بهذه النظريات إلا أن توجد دعامة نفسية تُبنى عليها الحياة الدينية، بينما الإسماعيلية استخدمتها لكى تنفذ إلى صميم الديانة الإسلامية وتعمل على تعديل أحكامها وعقائدها. وفكرة الإمامة عندهم لم تكن إلا قناعا ستروا وراءه برامجهم الهدامة، ولم تكن إلا تكأة إسلامية المظهر اعتمدوا عليها كأداة للتقويض والتدمير.

وقد بدأ الإسماعيلية بنظرية الفيض الأفلاطونية، تلك التى بنت عليها جماعة إخوان الصفا البصرية فلسفتها الدينية فى موسوعتها المصنفة، واستنبطت الإسماعيلية من هذه الفلسفة أعمق نتائجها وأشدها تطرفاً.

فوضعوا بذلك نظاماً فلسفياً هو صورة تاريخية منعكسة لنظرية الفيض الكونى التى وضحتها هذه الفلسفة، وقد بينوا فيه المظاهر الدورية للعقل الكلى، التى بدأت سلسلتها بآدم وانتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد واختتمت بالإمام الذى يلى الإمام السادس عند الشيعة — وهو إسماعيل وابنه محمد — مكوّنين من حلقة سبعية من « الناطقين »، وملأوا الفترات التى تفصل بين كل ناطق وآخر بمجموعات سباعية مؤلفة من أشخاص صدروا كالناطقين تماماً عن القوى الخارقة.

وتعمل كل مجموعة سباعية من هؤلاء على تدعيم عمل الناطق الذى سبقها، والتمهيد للناطق الجديد الذى يخلفه، فهى سلطة تعاقبية دقيقة التحديد بديعة التركيب، تتجلى الروح الالهية فى درجاتها المختلفة ومراحلها المتوالية، وتظهر للإنسانية منذ بدء الخليقة فى صورة يتزايد كمالها وبهاؤها.

وكل مظهر من هذه المظاهر الدورية للعقل الكلى، يبدو فى وقته حتى يُكمل

إنجاز العمل الذى أداه المظهر السابق ، أى أن الوحى الإلهى لا ينقطع ولا ينتهى فى فترة زمنية معينة من فترات تاريخ الخليقة .

وبهذا النظام الدورى المتكرر يلى المهدىُّ الناطقَ السابعَ آتياً برسالة تُعد من حيث هى مظهر من المظاهر الدورية أكمل وأعظم مما سبقها ، بل تفوق رسالات من سبقه حتى رسالة النبى محمد [عليه السلام] .

وهذا التطبيق لفكرة المهدية يهدم إحدى دعائم الإسلام الأساسية التى لم يجرؤ التشيع المألوف أن يزعزع أصولها ، فمحمد عند المسلمين هو « خاتم النبيين » وقد نُعت بهذه الصفة فى القرآن . « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَـكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » .

والديانة المحمدية فى شكلها السنى كما فى شكلها الشيعى قد أولت هذه الفكرة أهمية اعتقادية ، وهى أن محمداً قد ختم إلى الأبد سلسلة الأنبياء ، وأنه أنجز إلى نهاية الحياة الدنيا ما مهد إليه من سبقه من الأنبياء ، وأنه الحامل لآخر رسالة بعث الله بها إلى الجنس البشرى « والمهدى المنتظر » ليس إلا رجلا يعمل على إحياء سنة خاتم النبيين وإعادتها ، وهى السنة التى تنكبها الناس لفسادهم وضلالهم .

وهذا المهدى إنما « يسير على نهج السنة » ويحمل اسم صاحبها ؛ ولكنه ليس نبياً ، بل هو دون السلطة التعليمية الهادية التى تقابل إحدى مراتب التطور فى الفكرة المهدية التى تجاوز تعاليم النبى (١٥٠) .

غير أن نظرية الفيض عند الإسماعيلية قد محت ما للصفة النبوية لمحمد وما للشريعة التى أرسله الله بها من قيمة وخطر ، وهى قيمة يؤمن بها المسلمون قاطبة حتى من كان منهم على مذهب الشيعة .

وتحت لواء هذه الجماعة الشيعية ، وهى الإسماعيلية الذين اتخذ الدعاة مذهبهم ستاراً لإخفاء أغراضهم ، روجت الدعاية السرية مبادئ هادمة للإسلام مقوضة لأركانه .

وهذه الدعاية تنطوى على تعاليم تدريجية يُلَقَّنُها مريدو الاندماج فى الجماعة

الإسماعيلية على مراتب متتالية ، ولا تبقى هذه التعاليم فى أعلى مراتبها من الأصول الإيمانية الواجبة فى الديانة المحمدية إلا هيكلا خاوياً وبناءاً متداعياً ، ذلك بأن غاية ما تذهب إليه الإسماعيلية هو هدم كل عقيدة واقعية محدودة .

بل إنه فى المراحل الإعدادية التى يقتضيها الاندماج فى المذهب الإسماعيلى ينبغى أن يفهم المريد القرآن والشريعة فهماً مجازياً ، أى عليه أن ينبذ المعانى الظاهرة ولا يُعنى بها لأنها ستار يحجب المعنى الروحى الصحيح .

وكما أن مذهب الأفلاطونية الحديثة يصبو إلى التجرد من الحجب الجثمانية وأن يعود الإنسان إلى الوطن السماوى : وطن النفس الكلية ، فكذلك يجب على من يريد الاندماج فى سلك الإسماعيلية أن يزيح عن بصره الحجب المادية التى تغشى الشريعة .

وذلك بأن يرتقى إلى معرفة تتناهى فى السمو والدقة وأن يسمو إلى عالم الروحانية المحضة ، لأن الشريعة عندهم ما هى إلا واسطة تهذيبية ووسيلة تربيبية ، ذات قيمة نسبية وأهمية عرضية وقتية . وهى تصلح لقوم لم يكتمل نضجهم بعد ، وهى رمز يتحتم البحث عن كنهه الحقيق فى الخير الروحى الذى تدأب الشريعة له وتسعى إليه .

ويذهب الإسماعيلية إلى حد تكفير من لا يأخذ بهذه المبادىء الهادمة ، والكفار فى نظرهم هم من يفهون الآيات القرآنية والأحكام الشرعية فهماً حرفياً بحسب معانيها الظاهرة .

وتبين الحادثة التالية مدى فهم الإسماعيلية للشريعة فهماً مجازياً وتحللهم من قيودها ؛ وهى أن إسماعيل الذى تنتسب الفرقة إليه أنكر إمامته خصومه من الإمامية الإثنا عشرية لوقوعه فى محظور وهو أنه كان يتناول الخمر ، فأصبح غير أهل لأن يلى الإمامة ، فرد عليهم مريدوه : إن الله إذا اجتبى شخصاً للإمامة واصطفاه منذ مولده لتقلد هذا المنصب الخطير فى المستقبل ، طهّره من الذنوب والأوزار وأفقده القدرة على إتيانها ، فتحريم الخمر لم ير فيه إسماعيل — ومن ثم مريدوه من الإسماعيلية — إلا معنى مجازياً ، وطبّقوا ذلك على الأحكام والفرائض الأخرى كالصيام والحج وغيرها .

واستخلص خصومهم من نظريتهم الدينية هذه ، أنهم يتحللون من النواميس

الخلقية ويبيحون كل محظور [١٥١]، غير أنا لا نستطيع أن نسلّم أن هذا التصوير البشع تؤيده حقيقة حالهم .

وقد تيسَّرت الاستفادة من تعاليم هذه الفرقة فى شىء من البراعة والحذق مع حسن التدبير وإحكام الخطط ؛ لأن طريقة الانخراط فى سلكها ، ومراتب تعاليمها المتدرجة ، تلاءمت كثيراً مع أساليب بث الدعايات السرية الغامضة ، وخلق الحركات المختلفة التى أثرت على بقاع شاسعة فى أنحاء العالم الإسلامى .

وقد كان تأسيس الدولة الفاطمية فى أفريقيا الشمالية ، ثم فى مصر وغيرها من البلاد التى أخضعتها (من سنة ٩٠٩ م إلى سنة ١١٧١ م) ، ثمرة الدسائس الإسماعيلية .

ولم يقنع بعض الإسماعيلية ممن تقيدوا بالمنطق بمظهر التجلى الأعظم للعقل الكلى الذى تجلى بصورة وقتية فى شخص الإمام الفاطمى ، ورأوا وجوب إيصاد هذه الدائرة .

وفى سنة ١٠١٧ م اعتقدوا أنه قد حانت اللحظة التى يُعلن فيها الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى بأن التجسد الإلهى قد حلّ فيه ، وعند ما اختفى الحاكم فى سنة ١٠٢١ م — وربما مات مقتولاً — أنكر مريدوه موته وذهبوا إلى أنه يعيش متخفياً وأنه سيرجع .

ولا يزال دروز لبنان يؤمنون إلى اليوم بطبيعة الحاكم الإلهية ، كما أن الطائفة التى عُرفت فى تاريخ الحروب الصليبية باسم الحشاشين هى إحدى ثمار الحركة الإسماعيلية .

ويمكننا أن نقدّر العلاقة بين التعاليم الثورية الإسماعيلية والإسلام الواقعى إذا لاحظنا الطريقة الغالبة عليهم فى إدراك الحقائق الدينية واستنباطها ، وهى طريقة التأويل المجازى ؛ فالحقائق لا توجد إلا فى المعانى « الباطنة » ، أما المعانى « الظاهرة » فهى حجب مضطربة وأقنعة متناقضة .

ومريدو الاندماج فى الفرقة الإسماعيلية تُزاح عنهم هذه الحجب والأقنعة بالقدر الذى يناسب استعداداتهم ، ويتدرجون فى هذا المضمار حتى تتهيأ لهم المقدرة على مواجهة الحقائق وهى سافرة .

وهذا هو ما حدا بالفقهاء إلى تسمية أصحاب هذه العقائد بالباطنية ، مع أنهم

يشتركون فيها مع الصوفية . فالصوفية بدأت كذلك بهذه المبادىء الأفلاطونية ذاتها ، حتى بلغت الغاية القصوى فى التأويل الباطنى[١٥٢] ، ويستطيع الباطنية الإسماعيلية أن ينظموا كلمة كلمة أبيات جلال الدين الرومى الشاعر الصوفى التى تترجم عن الهدف الصحيح لفكرة التأويل المجازى :

« إعلم أن آيات الكتاب سهلة يسيرة ، ولكنها على سهولتها تخفى وراء ظاهرها معنى خفياً مستتراً ؛

ويتصل بهذا المعنى الخفى معنى ثالث يحير ذوى الأفهام الثاقبة ويُعميها ؛

والمعنى الرابع ما من أحد يحيط به سوى الله واسع الكفاية من لا شبيه له ؛

وهكذا نصل إلى معان سبعة : الواحد تلو الآخر ؛

ولذا لا تتقيد يابنى بفهم المعنى الظاهرى ، كما لم تر الشياطين فى آدم إلا أنه مخلوق من الطين[١٥٣] » .

فالمعنى الظاهرى فى القرآن شبيه بجسد آدم ، فما نراه منه هو هيئته الظاهرة وليس روحه الخفية المستترة[١٥٣] .

وتُذكرنا هذه المراحل المتوالية ، والتى يأخذ معناها الخفى العميق فى الدقة ، كما يذكرنا المعنى الذى تخفيه الحجب الظاهرة للعبارات المكتوبة ، بما يسميه الإسماعيلية « تأويل التأويل » ، أى التفسير الباطنى للتفسير الباطنى .

ففى كل مرحلة أو درجة أعلى من سابقتها ، يصبح المعنى الباطنى والرمزى المتعلق بالمرحلة السابقة أساساً للقيام بتأويلات أخرى أعظم دقة والتواءاً[١٥٤] إلى أن يتبخر تبخراً تاماً موضوع التفسير الإسلامى الذى كان الأساس الأول منذ البداية .

وقد تفرعت عن الإسماعيلية بسبب إغراقها فى التأويل إغراقاً لاحد له ، فرق هى دونها أهمية وأقل منها أثراً ، ومن أعظم هذه الفرق المذهب الباطنى الخاص بفرقة الحروفية — أى مؤولى الحروف — وقد أسسها فضل الله الأَسْترابادى فى سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ — ٩٨ م .

وهذا المذهب مبنى أيضاً على نظرية التطور الدورى للروح الكلية التى أقحم

فضل الله شخصه فى دائرتها ، زاعماً بأنه أحد مظاهر الألوهية وأن تعاليمه هى أتم وحى وأصدقه ، وقد حملت هذه الدعاوى ابن تيمورلنك على الفتك به ، فصار شهيد مبدئه .

وقد مزج فضل الله مذهبه بدعاوى رمزية وسفسطات خلابة المظهر ، وهى نظريات رمزية عن الحروف وقيمتها العددية وما ادعاه لها من قيمة فى إحداث الآثار الكونية . واعتمد الحرفيون هذه الطريقة السحرية « القَبَّالية » وتمادوا فيها إلى حدّ بعيد ، وأوجدوا بذلك تأويلاً للقرآن قلَّ ما أبقى على معانيه الأصلية ! ويلاحظ أيضاً أن مذهب الحروفيين فى الحلول قوى الشبه بمذاهب الصوفيين ، كما فى تعاليم الطريقة البكطاشية التى تدين بالنظريات الحلولية(١٥٥) .

وقد أصبحت العناصر العددية لنظرية الإمامة معتبرة من الأمور الثانوية ، وذلك فى كل ما ارتبط بفرقة الإسماعيلية أو تفرع عنها من فروع . وقد ارتضى الإسماعيلية الأئمة الإثنا عشر ، وحظى عندهم هذا التقدير بأعظم القبول .

وذلك لأن القاعدة عندهم هى رفض التأويل الحر للحقائق الدينية فى الإسلام ، وكذا الإغراقُ فى تطبيق الأحاديث العلوية والاستعانة بها مهما كان من الميسور التذرع بها للوقوف على المعارف الخفية والتعاليم الباطنية التى لا ينقطع الوحى الإلهى عن الترقى بها فى طريق الكمال ، والتي يتحقق اكتمالها واطِّراد ترقيها بفضل المظاهر الإلهية الدائمة التجدد .

١٩ — إن الطابع الفلسفى لفرقة الإسماعيلية لم يحررها مما اتصف به الشيعة عموماً من الفكر الضيق الجامد ، ويتجلى هذا على الأخص فى نقطتين :

أولا — غلا الإسماعيلية فى الثقة غير المحدودة التى خوّلوها لأصحاب السلطة ، وهى تطابق فى غلوها نظريتهم فى الإمامة ولهذا أطلق عليهم اسم « التعليمية » ، أى الذين يعتمدون اعتماداً مطلقاً على سلطة الإمام التعليمية ، وهو ما يقابل عند أهل السُّنة حرية البحث الشخصى والعنصر الجمعى ممثلاً فى فكرة الإجماع ، وقد كافحها الغزالى فى رسالة من رسائله جعلها على شكل محاورة أفلاطونية بينه وبين أحد التعليمية(١٥٦) .

ولم تتبين الإسماعيلية فى أحكام القرآن وشرائعه — بعد أن أوّلها تأويلاً

مجازياً — إلا معانى تتضمن ضرورة الخضوع المطلق لسلطة الإمام[١٥٧] ، وتفرع عن هذا التقديس لسلطة الإمامة واجب الطاعة المطلقة للرؤساء ، كما هو الحال على الأخص طائفة الحشاشين إحدى فروع الحركة الإسماعيلية التى خلقت من هذه الطاعة العمياء حكما إرهابياً صارماً[١٥٨] .

ثانياً — تشارك الإسماعيلية سائر فرق الشيعة فى تعصبها المتطرف وبغضها للنحل والمذاهب المختلفة ، ويكفى — بدلاً من إيراد الشواهد الكثيرة الدالة على ذلك — أن نستشهد بفقرة صغيرة فى مخطوط بليدن ، وهو كتاب إسماعيلى يبحث فى الزكاة وفى تأويلها المجازى ، تقول : « إن من أشرك مع إمامه سلطة أخرى ، أو ارتاب فى وجوب الطاعة له ، كان كمن أضاف للنبى نبياً آخر أو كمن شك فى نبوته ، وبذا صار كمن وضع مع الله إلهاً آخر ؛ وعلى ذلك فمن أشرك بالإمام أوشك فى الإمامة أو أنكرها صار نجساً وليس بطاهر ، وأصبح ما يقتنيه هذا الرجل مما لا يصح استعماله[١٥٩] » .

ولا يزال الإسماعيلية يعيشون إلى اليوم جماعات متفرقة فى أواسط الشام[١٦٠] ، وهم منفصلون عن طائفة الدروز التى تؤله الحاكم ، كما أنهم يقطنون أجزاء أخرى من العالم الإسلامى ، وخاصة فارس والهند ، ويسمون هنالك باسم « خوجة[١٦١] » ، وقد شُيد حديثاً بزنزبار بناء[١٦٢] تعقد فيه اجتماعات الإسماعيلية .

ويرأس الإسماعيلية فى الوقت الحاضر « أغا خان » ، الذى يزعم أن نسبه ينتهى إلى أحد فروع الدولة الفاطمية ، وذلك بصفته سليل أمراء الحشاشين الذين يدعون انتسابهم لخلفاء الدولة الفاطمية[١٦٣] .

وأتباع أغاخان يدينون له بالطاعة ، وهو يقيم فى بومباى أو فى نواحٍ أخرى من الهند ، ويعتمد فى معيشته على ما يُجبى من الزكاة وما يُقدم له من الهبات السخية ، فهو واسع الثراء ويملك كثيراً من الموارد المالية . وهو رجل دنيوى المظهر إلى حد كبير ، ومشبع بأفكار الثقافة العصرية ، لذا كان من الطبيعى أن يخصص موارده للإنفاق على رحلاته العديدة .

وقد زار لندرة وباريس والولايات المتحدة ، بل زار البلاط الملكى فى طوكيو ،

ولا شيء فى مظهره يذكرنا بمبادىء المذهب الذى ينبغى أن يمثله ؛ وهو ينفق من أمواله بسخاء على حركات الثقافة العصرية فى الهند الإسلامية . ويساهم بأ كبر نصيب فيما يقام بها من منشآت[١٦٤] — وسوف نعمل على التعريف بالإسلام فى الهند فى القسم التالى — وقد اختارته عصبة الهند المسلمة رئيساً لها[١٦٥] .

وهو ممن يؤيدون سيادة الإنجليز على الهند ، تلك السيادة التى يراها نعمة للشعوب الهندية . وفى حركة « السواراجى » الأخيرة أصدر لمسلمى الهند بياناً قصد به أيضاً غير المسلمين ممن يدينون بالديانات الأخرى ، أثبت فيه أن رغبة الهنود فى الاستقلال هى رغبة طائشة حمقاء ونزعة متهوسة سابقة لأوانها ؛ ثم بيّن ضرورة الحكم الإنجليزى ونفعه ، كعامل من عوامل الاتحاد والتوفيق بين طوائف السكان ذوى الميول المتعارضة ، ممن يقطنون إمبراطورية الهند[١٦٦] .

٢٠ — هذا ، وقد حبت العقائد الشيعية علياً وذريته بصفات خارقة جعلتهم فوق المستوى البشرى ، وتسنى لكثير من أساطير الأمم التى اعتنقت الإسلام — وهى أساطير تدور حول أبطال أشبه بالآلهة — أن تتسرب إلى الروايات العلوية ، فجددت بذلك حياتها بعد أن فقدت قوتها وتماسكها منذ زوال الديانات القديمة التى كانت ممتزجة بها ؛ فاكتسب الأئمة العلويون صفات هؤلاء الأبطال الأسطوريين ، وأمكن للعقائد الشيعية أن تنتظم دون صعوبة هذه الصفات ، ولم يتحرج الغلاة فى أن يصلوا فى تقديس الأئمة إلى ما فوق المستوى البشرى وأن يجعلوهم من الكائنات التى تساهم فى تصريف القوى الكونية .

وقد سبق أن رأينا مدى ما وصلت إليه فى هذا الصدد النظريات الشيعية حتى المعتدلة منها ؛ فالشيعة الغالية تقول بأن المواد النورانية لعلى وآل بيته متحدة بعرش الله ، وذهبوا فى إحدى خرافاتهم إلى أن الحسن والحسين كانا يحملان تعويذتين حشوهما من زغب جناح الملك جبريل[١٦٧] .

وفى هذه البيئة غلب العنصر الأسطورى على أشخاص الأئمة العلويين ، فصار علىّ مثلا إلٰهاً للرعد وظهر خلال السحاب يبرق ويرعد ، وما الرعد إلا مقرعته التى يضرب بها . وكما نسبت الأسطورة القديمة حمرة الشمس عند غروبها إلى دم «أدونيس»

الذى قتله الخنزير البرى ، نسبتها الأسطورة الشيعية إلى دم الحسين الذى سفك فى كربلاء ، وادعت أن غروبها قبل مقتله لم يكن أحمر اللون[١٦٨] .

وحكى القزوينى الجغرافى المتوفى سنة ٦٨٢ هـ سنة ١٢٨٣ م عن أمة الترك فى « بغراج » أنه كانت تحكمها أسرة يرجع أصلها إلى يحي بن زيد العلوى ، وأنهم يحتفظون بكتاب ذهبى دوّنت على غلافه مرثية فى موت زيد ، وأنهم أحلوا هذا الكتاب مكانة دينية عظيمة ؛ فسموا زيداً ملك العرب وعلياً إلـه العرب ، وحينما كانوا ينظرون إلى السماء كانوا يقولون : « ها هو إلـه العرب يصعد وينزل[١٦٩] » .

وقد صبغت الإسماعيلية الآراء الدينية فى الإسلام بعناصر الغنوصية والأفلاطونية الحديثة ، مما جعل تعاليم هـذه الفرقة ستاراً لحفظ البقايا الدينية للوثنية القديمة . وبما أن الإسماعيلية قد رفعت الأئمة العلويين إلى مستوى الألوهية ، فقد كان من السهل عليهم أن يتخذوا منهم « أقانيم » يسبغون عليهم تصورات الوثنية القديمة عن الألوهية ، وهى تصورات وعقائد ليس لها من الإسلام إلا الألفاظ والاصطلاحات الدينية الإسلامية التى تستتر وراءها .

وهكذا ، بقيت الوثنية السورية القديمة فى أودية لبنان فى شكل ظاهرهُ إسلامى شيعى ، وذلك فى فرقة النصيرية التى تسكن الإقليم الواقع بين طرابلس وأنطاكية ، والتى يغلب على مذهبها الإثنا عشرى أفكار وعقائد لاشك فى وثنيتها .

وينبغى أن نلاحظ أنه فى هذه البلاد التى تقطنها جماعات من هذه الفرقة الشيعية كانت الوثنية لا تزال سائدة فيها قبيل ظهور الإسلام ، وأن المسيحية ذاتها لم يثبت لها قدم فيها إلا بعد وقت طويل[١٧٠] .

وبعبارة أوضح يمكننا أن نقول بأن الآراء التى أدخلها الإسلام فى هذه البلاد تبدو كأنها ممتزجة بالعناصر الوثنية القديمة ، فليس بها من الإسلام سوى المظهر . وإن الروح العامة لهؤلاء الأقوام قد احتفظت فى الواقع بالتقاليد الوثنية التى كانت لأجدادهم ، وإن غيّرتها من الناحية الظاهرية البحتة ، وذلك عند ما طبقها هؤلاء الأقوام على الأوضاع الخارجية الجديدة التى للعبادات الإسلامية .

وفى هـذا المزيج من الوثنية والغنوصية والإسلام ، لم يزد ما أضافه الإسلام على أن يكون صورة مباينة لما سبقه قد فرضها فرضاً على العبادة الوثنية القديمة ، كما أنه أطلق أسماء جديدة على الأفكار الدينية التى كانت للوثنية ؛ فمثلا يقول النصيرية فى أحد أدعيتهم : « علىّ خالد فى طبيعته الإلـهية ، وتؤيد الحقيقة الكبرى أنه إلـهنا على الرغم من أنه إمامنا فى الظاهر (١٧١) » .

وتمثل الفرق المختلفة علياً فى القوى العديدة الخاصة بالظواهر الطبيعية المؤلهة ، وهو فى نظر غالبيتها إلـه القمر ، ويبالغ الشيعة فى تسميته فيطلقون عليه « أمير النحل » ، أى أمير النجوم . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن غلاة الشيعة قد أنزلوا محمداً إلى مرتبة أدنى من مرتبة علىّ ، وجعلوه يقوم بدور ثانوى بأن صار لعلى « حاجبا » ، ويتألف منه ومن على وسلمان ثالوث من الآلهة تتصل به كل الزوائد المتعلقة بالعبادة الوثنية لمظاهر الطبيعة .

وإنا نجد فى الواقع أن فى عبادة علىّ وذريته والشخصيات المرتبطة بقصص العلويين ــ وكذا الأئمة ــ ما يدل على عبادة السماء والشمس والقمر وسائر القوى الطبيعية ، وقد تم هذا التحوير بسبب الغنوصية التى اجتازت كل هذه البقايا الوثنية وتخطتها ، وتتجلى حقيقة هذه العبادة للمريدين تبعاً لمراحل اندماجهم التدريجية فى المذهب الشيعى .

وإن كانت الشريعة الإسلامية عند النصيرية لا تحتفظ فى المراحل الأولى للاندماج إلا بقيمة رمزية ، كما هو الحال فى الإسماعيلية الذين يشعر نحوهم النصيريون مع ذلك بالعداء ، فكل عنصر من العناصر الإسلامية الوضعية المحدودة يختفى تماماً عند المندمج فى جماعتهم .

والقرآن ذاته يحتل عندهم مكاناً ثانوياً بالنسبة لكتاب آخر يقدسونه ، وعلى الرغم من الأسرار التافهة الخاصة بطوائف هذه الفرق تسنى لنا معرفة ما يحتويه هـذا الكتاب بفضل رجل مرتد خرج من صـفوفهم واعتنق المسيحية ؛ وكثيراً ما عالجت المؤلفات الأوربية والأمريكية هذا الكتاب من جهة علم تاريخ الأديان (١٧٢) .

والنصيرية من جهة أخرى يعارضون غيرهم من المسلمين مدعين أنهم « أهل التوحيد » ، وأنهم المترجمون الصادقون عن الفكر الشيعى القويم ، ويعدون الشيعة العاديين من الظاهرية ويعتبرونهم من أنصار التعاليم الدينية السطحية الذين لم يتغلغلوا فى أعماق الوحدانية الحقة ، ويحكمون عليهم بالتقصير ويسمونهم « بالمقصرة » ؛ لأنهم تخلفوا عن غيرهم فى عبادة علىّ ، وقصّروا فيها عن القدر المطلوب (١٧٣) .

وفى الحق ، إنه إسلام اسمى فحسب ؛ هذا الإسلام الذى تمثله هذه الصور المتخفية ، الساترة للوثنية الآسيوية القديمة التى أضافت إليها أيضاً ، عندما تشكلت على هذه الصورة ، الكثير من العناصر المسيحية كقداس الأطعمة والنبيذ وهو أشبه بالعشاء الربانى ، وكذا إحياء الأعياد الخاصة بالمسيحية . وتدل الشواهد المستنبطة من علم الأديان ، على أن الفرق المختلفة التى يطرأ عليها مثل هذا الانحلال تكون قابلة غالباً لأن تنتق وتنتحل مجموعة من عناصر الديانات السابقة .

والآن ، قد بحثنا هنا ما نشاء من الفرق المخالفة المنشقة التى أثرت فى نمو الإسلام وتطوره ، حتى استقرت الفكرة السنية استقراراً نهائياً ، وحددت معالمها تحديداً واضحاً . غير أن الأذهان لم تركن إلى الدعة والسكون ؛ فعلينا أن نفكر فى الحركات الدينية التالية التى لا تزال آثارها مدركة محسوسة إلى هذه الأيام .

٦

الحركات الدينية الأخيرة

١ — بحث الأستاذ « وِسْترمارك » فى الفصل السابع من كتابه : نشأة الآراء الخلقية وتطورها » ، الدور الذى تقوم به العادة فى التكوين الابتدائى للأفكار المتعلقة بالأخلاق والقانون ، فقال : « إن العادات والتقاليد فى المجتمع البدائى تقوم مقام القانون ، بل إنها تظل القاعدة المرعية الوحيدة للسلوك ، حين يكون التنظيم الاجتماعى فى هذه الجماعة البدائية قد قطع شوطاً فى سبيل الرقى [١] » .

وقد وضّح قيمة العادة وخطرها كمقياس من مقاييس القانون ، وكقاعدة من قواعد التشريعات الخلقية والقضائية ، مستنداً فى ذلك على الكثير من المراجع الأدبية والتاريخية العظيمة القدر ، منتهجاً فى بحثه البسط والتفصيل بطريقة لم يسبقه إليها واحد ممن عالجوا هذه الناحية فى تاريخ الحضارة والقانون .

وقد ألمع خلال بحثه إلى الأفكار الخلقية عند البدو من العرب والتركمان ، ولكنه أهمل مع ذلك ارتياد ناحية من نواحى دراساته الخطيرة الشأن ، ألا وهى فكرة السُّنة ومقدار أثرها فى المجتمع العربى فى العصور الجاهلية والإسلام .

فمنذ أقدم العصور ، كان المقياس الراجح الذى كان يحكم به العرب على شرعية الأعمال ولياقتها ، مهما كانت ظروف صدورها ، منحصراً فى تساؤلهم عما إذا كانت هذه الأعمال موافقة للقواعد التى ألفوها ، أو العادات التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم .

فما من أمرٍ أو فعلٍ يوصف عندهم بالفضل أو العدالة ، إلا إذا كان له أصل فى عاداتهم الموروثة أو كان متفقاً معها . وهذه العادات التى تتألف منها السنة تقوم عندهم مقام القانون أو الديانة sacra ، كما أنهم كانوا يرونها المصدر الأوحد للشريعة والدين ، ويعدّون اطّراحها خطأً جسيماً ، ومخالفة خطيرة للقواعد المعروفة والتقاليد المرعية التى لا يصح الخروج عليها ، وما يصدق عن الأفعال يصدق أيضاً عن الأفكار

الموروثة . والجماعة يتحتم عليها أن لا تقبل فى هذا المجال شيئاً جديداً لا يتفق مع آراء أسلافها الأقدمين[٢] .

ونتبين من هذا ، كيف عارض المكيون النبي حينما أخذ يبشرهم بنعيم الجنة وينذرهم بعذاب السعير وحساب يوم القيامة ، ولم يجدوا وجهاً للرد عليه سوى اعتراضهم — الذى غلب عليهم ترديده — بأن آباءهم لم يسبق لهم أن سمعوا بمثل هذه الأشياء ، وأنهم لا يستطيعون أن يترسموا طريقاً غير الطريق الذى سلكوه[٣] ؛ ولذا فقد ظهرت لهم تعاليم النبي ، إزاء تقاليدهم القديمة الموروثة « كدين محدث » ، بل إنهم اعتبروا هذا الدين بسبب جِدّته هذه ذميما مستقبحاً[٤] .

ففكرة السنة يمكن أن ندرجها بين الظواهر التى سماها سِپْنسر : « بالعواطف القائمة مقام غيرها sentiments représentatifs » ، وهى النتائج العضوية التى جمعتها بيئة من البيئات البشرية خلال الأجيال والأحقاب ، والتى تركّزت وتجمعت فى غريزة وراثية تتألف منها الصفة أو الصفات التى يتوارثها أفراد هذه البيئة[٥] .

وقد نقل العرب فيما بعد فكرة السنة إلى الإسلام الذى أمرهم بمخالفة سنتهم القديمة ، وأصبحت السنة الإسلامية دعامة من دعامات الفقه والتفكير فى الإسلام . ولا شك أن نظرية السنة فى الجاهلية قد أصابها تعديل جوهرى عند انتقالها إلى الإسلام .

فى الإسلام أصبح المسلمون لا يطالبون بإحياء السنن الوثنية التى نُسخت معالمها ، بل بدأوا بالمأثور من المذاهب والأقوال والأفعال التى كانت لأقدم جيل من أجيال المسلمين ، وأصبح أفراد هذا الجيل هم المؤسسين لسنّة جديدة تغاير السنة العربية القديمة .

وأخذ المسلمون منذ ذلك الوقت ، ينهجون فى حياتهم نهج الأساليب والآراء التى صح عندهم أنها من أقوال النبي وأفعاله ، ويضعونها فى المحل الأول ، أو تلك التى صحت عن الصحابة ، ويضعونها فى المحل الثانى ؛ ولم يُعنوا بالنظر فى الأعمال إذا كانت فى ذاتها صالحة قويمة لاغبار عليها ، عنايتهم بالبحث والتنقيب عما قاله النبي والصحابة أو فعلوه فى ظروف تماثلها[٦] .

وهم لذلك يتوارثون سُنة النبي والصحابة ، ويدأبون على الاقتداء بهم فيها ، على اعتبار أن هذه السُّنة هي الطريقة المثلى للتفكير الصحيح والعمل الصالح .

لهذا جعل الخلف من الحديث موضع ثقته الكبرى ، لاشتماله على ما أُثر من أقوال وأفعال السلف الذين يمدهم أئمة الهدى ومنار النهج القويم .

وقد بُذلت جهود كبيرة خلال المرحلة الأولى من مراحل نمو الشريعة الإسلامية ، لكي يتهيأ للفقهاء أن يحتفظوا بحرية النظر والاستعانة بالعقل والبصيرة النافذة فى استنباط الأحكام الشرعية ، وذلك فى الحالات التى تفتقر إلى أحاديث صحيحة يوثق بها ، ويمكن تطبيقها على هذه الحالات للفصل فيها ، أو إذا كان المتواتر منها ضعيفاً مشتبهاً فى صحته .

ولكن لم يذهب فقيه من فقهاء المسلمين إلى القول بإنكار حق السُّنة — ممثلة فى الأحاديث الصحيحة — فى أن تكون المصدر الأول من مصادر استنباط الأحكام، مما جعل ظهور الاستدلال العقلى والنظر الفلسفى فى مضمار البحث الشرعى أمراً كمالياً محضاً .

وهكذا ، أصبحت الحاجة إلى السُّنة فى الإسلام « عاطفة تقوم مقام غيرها » . ولم يكن للمؤمنين الأتقياء من همّ سوى أن ينسجوا على منوالها وأن يسيروا على نهجها ، وأن لا يعملوا إلا ما أمرت به ؛ وأن يجتنبوا كل ما يناقضها ، بل كل مالا يصادف تأييداً منها .

وقد اعتبر المسلمون أن كل ما خالف السنة أو كل مالا يتماثل معها تماماً ، كما يذهب المتطرفون ، إنما هو بدعة ؛ سواء أكانت المخالفة فى المسائل الاعتقادية ، أم فى أهون تفصيلات السلوك فى الحياة العملية[٧] . وبذا أنكر المتشددون كل فعل أوقول مقطوع الصلة بسنن السلف الصالح ، أى أنهم أنكروا كل بدعة فى أية صورة كانت .

٢ — وقد سهل كثيراً من الوجهة النظرية أن يفرض المتشددون مثل هذه القيود التى لم يتشكك المسلمون فى صحتها ووجاهتها ، ولكنها مع ذلك اصطدمت فى كل ناحية من نواحى الحياة العملية بمقتضيات الواقع ؛ لأن تطور ظروف الحياة والتجارب التى اكتسبتها الأمم الإسلامية بفعل العوامل الجغرافية والتاريخية ،

قد فرضت عليها أحوالا مغايرة لمقتضيات السنة وجرّتها إلى ملابسات تخالف تمام المخالفة أساليب الحياة والفكر فى عهد الصحابة .

كما أن السوابق العديدة ، والمؤثرات الأجنبية التى أحاطت بالمسلمين ، حملتهم على أن يقوموا بهضمها وتمثيلها وصهرها ؛ هذه العوامل مجتمعة حتمت على المسلمين أن يبادروا بفتح ثغرة فى حصن السنّة المنيع ، حين تعذر عليهم أن يتقيدوا بالفكرة السنية المتشددة التى يعدونها المعيار الأوحد للحق والقانون .

هكذا سلّم المسلمون وعقدوا الصلح ، وهكذا انتهوا إلى مفارقات دقيقة سهّلت عليهم إقرار الكثير من البدع التى فتحوا لها أبواب السُّنة على مصاريعها . وقد وضع الفقهاء طائفة من النظريات بيّنوا فيها الحالات والظروف التى يستطيع المسلمون فيها أن يوافقوا على بدعة من البدع ، بل يعتبرونها بدعة حسنة ومحمودة .

وقد وجد الفقهاء والمتكلمون فى العصور الإسلامية المختلفة المجال واسعاً للعمل فى هذا المضمار ، بفضل ما أمكنهم أن يظهروه من حذق بارع وبصيرة نافذة ، وظلت الأمور تجرى على هذا المنوال إلى وقتنا الحاضر* .

وإن فكرة الإجماع ، التى ثبتت قواعدها خلال هذا التطور الذى مرّ بالشريعة الإسلامية ، أصبحت عنصراً من عناصر التوفيق والتقريب بين السُّنة والبدع المستحدثة . وذلك أن المسلمين إذا اتبعوا عادة من العادات أو ألِفوا تقليداً من التقاليد ، وارتضاه جمهورهم زمناً طويلا ولم ينكروه ، أصبحت هذه العادة أو التقليد فى النهاية جزءاً من صميم السُّنة .

---

* يذكر المؤلف أن المسلمين كانوا أولا متشددين فى الحرص على السنة والنفور من البدعة ، أياً كانت صورها ، ثم اضطرتهم الأحوال إلى التساهل فى هذا وإقرار بعض البدع ، وتسمية بعضها بدعة حسنة . والمسلمون لم يخرجوا مطلقاً عن السنة ، ولا يرى أحد منهم سوء كل بدعة ومحاربتها ؛ فضرب من اللباس — مثلا — لم يكن فى زمن الرسالة ، إذا كان لا يدخل تحت اللُّبس (بتشديد اللام وضمها وضم الباء بعدها) المحظورة كألا يكون من الحرير ؛ بدعة ولكنها غير مذمومة ، وكذلك القول فى غير هذا المثل ؛ وإنما البدعة ما خالف قواعد الدين ومبادئه . وترى الفقهاء يتناولون ما يعرفون من عادات البلاد المفتوحة ومعاملاتهم ، فيستهجنون بعضها ، ويقرون بعضها بعد عرضه على ميزان الشريعة .

وقد ترتفع أصوات الفقهاء الورعين خلال بضعة أجيال مظهرين استياءهم وتذمرهم من هذه البدعة ، غير أن هذه البدعة كلما طال الزمن عليها وانعقد إجماع المسلمين على اتباعها تعتبر مباحة ؛ بل قد ينتهى الأمر بها إلى أن يشترط المسلمون مراعاتها ، ويرون البدعة كل البدعة فى مخالفتها واطراحها ؛ وإذاً فهم يصمون كل من يطالب بإعادة السنن القديمة وإحيائها بأنه « مبتدع * » .

وإنا نجد فى « مولد النبى » مثالا بارزاً يوضح لنا كيفية تطور البدعة وتحولها إلى سُنة . والمولد النبوى عيد شعبي يحتفل به المسلمون فى كافة أنحاء العالم الإسلامى السنى فى أوائل شهر ربيع الأول ، ويشترك فى الاحتفال به أقطاب رجال الدين ، وكان علماء المسلمين لا يزالون حتى القرن الثامن الهجرى يعدونه مخالفاً للسُّنة ، ونهت عنه غالبيتهم على اعتبار أنه بدعة مستحدثة فى الإسلام ، وصدرت فتاوى كثيرة فى تحريمه وأخرى فى إباحته .

غير أن هذا العيد أصبح منذ القرن الثامن الهجرى ، اعتماداً على إقرار جمهور الأمة الإسلامية وموافقتها ، جزءاً أساسياً جوهرياً لا ينفصل عن صميم الحياة الإسلامية ، وأصبح لا يتطرق إلى ذهن مسلم أن يفكر فى صدده على أنه بدعة من البدع المستقبحة[8] .

وتنطبق هذه الحالة أيضاً على أعياد دينية أخرى واحتفالات تعبدية كذلك نشأت فى القرون المتأخرة ، واضطرت أن تجاهد فى مبدأ الأمر لكى يقرها العلماء ، بعد أن وصموها دهراً طويلا بأنها من البدع الدخيلة على الإسلام[9] .

ويثبت لنا تاريخ الإسلام أن علماء المسلمين مهما بلغوا من الصلابة والتعنت فى مبدأ الأمر ، إزاء العادات والتقاليد التى يكون جمهور الأمة قد ارتضاها

---

* ذكر أن الإجماع أصبح أداة فى إقرار بعض البدع المستحدثة إذا سكت المسلمون عليها . وهذا غفلة عن معنى الإجماع الذى هو حجة يؤخذ به فى تسويغ ما توارد عليه ؛ ذلك بأن الإجماع هو اتفاق مجتهدى الأمة على حكم شرعى ، وأين هذا من عادة يسير عليها بعض المسلمين مسوقين بدافع ما ويتابعهم البعض الآخر ، وقد يكون ذوو الاجتهاد والرأى منكرين لها ؟ فمثل هذا لايدخل فى دائرة الإجماع . والاحتفال بالمولد النبوى — الذى تمثل به بعد — ليس من المجمع عليه بالمعنى السابق ، فهو عادة جرت ولا تزال موضع النظر من الوجهة الدينية ، وقد يكون عند بعض الفقهاء من النظر ما يستوجب الإقلاع عنها وتحريمها .

وأقر اتباعها ، لم يستنكفوا مع ذلك أن تهدأ مقاومتهم لتلك العادات والتقاليد التى اكتسبت حقها فى الوجود ، وأن يقرروا أن الاجماع قد انعقد على استحسان ما كانوا يعدونه من قبل من البدع المنهى عن اتباعها .

٣ — ويمكننا أن نقرر على وجه العموم الحقيقة التالية : وهى أن أئمة الحياة الدينية الإسلامية وأقطاب الهداية والإرشاد فيها ، إذا كانوا قد تمسكوا بفكرة السنة ، صلاحاً منهم وورعاً ، فهم لم يظلوا دائماً جامدين معاندين لمقتضيات الحياة المتغيرة التى تحتمها تطورات الزمن وتقلبات الظروف والأحوال ، وأنه من هذه الوجهة ليس من الصواب أن نعد الجمود وعدم القابلية للتغير من الصفات الملازمة للشريعة الإسلامية* .

ومنذ أقدم العصور الإسلامية التزم المسلمون أن يتجاوزوا فى النظم السياسية والاجتماعية ماتقرر فى عصور الإسلام الأولى من عادات وتقاليد ، فلم تُؤخذ عليهم رعايتهم للظروف الجديدة الطارئة ؛ فلم يُنظر إلى ما أنتجوه من تخفيف أو توسعة على أنهم ارتكبوا عملاً لا يتلاءم مع تقاليد السُّنة وروحها .

ومن بين المذاهب السنية الأربعة يعترف المذهب المالكى « بالمصلحة » utilitas publica ، أى ما يقتضيه الصالح العام كفكرة ينبغى أن تكون الغاية من تطبيق أحكام الشريعة ، وعلى ذلك فمن الممكن التخلى عن القواعد التى قررتها الشريعة إذا ماثبت أن مصلحة الجماعة تتطلب حكماً يغاير حكم الشرع** ، (وهذا

---

* ذكر أن الجمود ليس من ملازمات الشريعة . وقد علم مما سبق أن ما يجد من العادات يعرض على ميزان الشريعة ؛ فما وافقها أجيز ، وما نافرها أنكر . وليس للدين مصدر واحد هو العادات والتقاليد ؛ فقد يقر صاحب الرسالة عادة إذ لابأس بها ، ولا تصبح مع هذا ضربة لازب . ومن المقرر أن العادات المحضة النبوية لا يطلب الائتساء بها ، وإن كان بعض المتشددين — كابن عمر — يأخذ نفسه بالائتساء بها . وينبغى أن نلاحظ أن الفقهاء دائماً يفرقون بين أعمال الرسول العادية ، وأفعاله التشريعية .

** يقرر المؤلف أن المذهب المالكى يبيح الأخذ بالمصلحة العامة ، ومن الممكن لهذا التخلى عن القواعد التى قررتها الشريعة إذا ما ثبت أن مصلحة الجماعة تتطلب حكماً يغاير الشرع . وهذا غير معروف فى فقه المالكية ، وما كان ليقول به أحد من المسلمين . فمن يبيح لنفسه أن يغير أحكام الشرع تبعاً للمصلحة العامة التى يزعمها ، والشارع أحكم الحاكمين وأدرى بمصالح الناس ! =

يقابل فى القانون الرومانى : corrigere jus propter utilitatem publicam) .

ولا شك أن هذه الحرية لا تتعلق إلا بما يعرض من الحالات الفردية التى لا تجر إلى نسخ الشريعة الإسلامية نسخاً كاملا . غير أن إقرار هذا المبدأ فى ذاته ، دليل على المرونة المباحة فى دائرة الشريعة نفسها .

ومما لا يحسن أن يمر بنا دون أن ننوه به فى هذا الصدد ما صرّح به الزرقانى ، الفقيه الذائع الصيت المتوفى بالقاهرة سنة ١١٢٢ هـ/ سنة ١٧١٠ م ، فى إحدى فقرات شرحه على موطأ مالك ، من أنه من الممكن اتخاذ أحكام جديدة فى الظروف التى تطرأ عليها حوادث جديدة ، واختتم رأيه قائلا : « ولا غرو فى تبعية الأحكام للأحوال[١٠] » .

وإذاً ، فالشريعة الإسلامية على حقيقتها لم تجعل باب الإصلاح والتجديد موصداً فى وجه الإسلام ، واستطاعت الحياة الإسلامية بفضل هذه الحرية وما تحققه لها من حماية أن تأخذ عن المدنية الغربية ما يلائمها من نظمها الجديدة .

غيرأن هذه النظم كثيراً ما أثارت فى بعض الحالات معارضة الجامدين والراجعيين ولكن اعترف بها أخيراً اعتماداً على ما أصدره العلماء من فتاوى رسمية ، وهم العلماء الذين يشهد الناس بفقههم حتى أصبحوا فى مأمن من مهاجمة المغالين فى الاستمساك بأهداب السُّنة .

وفى الحق ، إن هذه ظاهرة مؤسفة ممضة ثقيلة على النفس ؛ إذ أن الأنظمة النافعة ذات القيمة العملية والمصلحة الحيوية ، لا يُستطاع تنفيذها ولا تنال حق وجودها إلا عن طريق فتوى من الفتاوى ، وما لم يسبق تحقيقها مناقشات طائلة تبحث فيما إذا كانت هذه الأنظمة مما تبيحه الشريعة الإسلامية وتسمح بالأخذ به .

= والذى عند المالكية القول بالمصالح المرسلة ، وهى مالم يعرف عن الشارع اعتبارها أو إلغاؤها؛ فلو جاء فى الشريعة حكم يعارض المصلحة ، أو المناسب كما يعبر الأصوليون ، فلا خلاف فى إهماله واطراحه . نعم ، تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، على ألا يضار ذو المصلحة الخاصة ؛ فقد زيد فى مسجد الرسول ، واشترى الزائد من أصحابه فى غير ضرار ، لما كانت فى ذلك المصلحة العامة .

وهكذا ، أخذت الإصلاحات والتجديدات التى انتحلتها الأمم الإسلامية — وربما كان أولها إدخال المطبعة فى القسطنطينية سنة ١٧٢٩ م — تنعم « بحقوقها المدنية » فى هدوء واطمئنان ، محتمية بصكوك الحرية الدينية ، وهى هذه الفتاوى التى أباحتها .

كما أنه فى الميدان الاجتماعى كان على فقهاء الشريعة أن يلتمسوا ، بحذقهم ونفاذ بصيرتهم ، مختلف الوسائل للتغلب على الصعاب التى ظهر لهم أنها تعوق الإسلام عن الأخذ بمقتضيات العمران الحديث .

فهم مثلا قد عانوا كثيراً من المشاق ؛ وبذلوا جهوداً طائلة ، لابتكار تفريعات دقيقة يستعينون بها على إباحة هذه النظم الجديدة ، فأصبح لا يجد المسلمون ، حتى من كان منهم شديد التمسك بدينه ، حرجاً فى أن يؤمِّنوا مثلا على أنفسهم فى شركات التأمين ، مع أن المبادىء الإسلامية المتشددة ترى فى هذا العمل شبهة لأنها تعده من قبيل الحظ والمصادفة .

وكان على الفقه أن يزيل أيضاً عقبات كهذه فيما يتعلق بإباحة صناديق الادخار أو التوفير ؛ فهذا النظام لا يعد مباحاً من الوجهة النظرية فى مجتمع تحرم شريعته « الفائدة المالية » فى كافة أشكالها ، (ولا تقتصر على الشكل الربوى منها[11]).

ومع ذلك فالمفتى المصرى الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٩٠٥ ، تمكن فى فتوى علمية ، أصدرها فى هذا الموضوع ، أن يثبت للأمة الإسلامية أنه ليس فى التوفير أو الادخار وما ينجم عنه من أرباح ما ينافى الشرع ، كما أن زملاءه من علماء القسطنطينية سبقوه فى أنهم أصدروا فتاوى تبيح للحكومة العثمانية من الوجهة الشرعية أن تعقد قروضاً على شكل سندات تدفع عنها لحامليها أرباحاً سنوية[12]* .

* يذكر أن المسلمين لا يرون حرجاً فى أن يؤمنوا على أنفسهم فى شركات التأمين ، مع أن المبادىء الإسلامية ترى فى هذا شبهة . وإذا كانت المبادىء الإسلامية ترى فى هذا شبهة ، كما يقول بحق ، فكيف يستبيح المتشددون هذا العمل ! قد يحصل هذا من بعض المسلمين ، ولا يكون دليلا على اعتقاده حله ، فليس المسلم معصوماً من المعصية .

وفتوى الشيخ محمد عبده بشأن صناديق الادخار لم نرها حتى نعلم كنه ما فيها ، والظاهر أن =

وفى عصرنا الحاضر يمكننا أن نتحقق من هذه الظاهرة ذاتها فى ميدان المسائل السياسية الكبرى . فقد شاهدنا أنه عند قيام الثورات الأخيرة فى الدول الإسلامية لم يصادف إدخال النظام الدستورى سواء فى الممالك السُّنية أو الشيعية ؛ موافقة شبه اضطرارية فحسب ، من جانب علماء الدين .

ولكن هؤلاء العلماء استعانوا بالقرآن ذاته ليستخلصوا منه أن الحكومة النيابية هى وحدها الحكومة الشرعية الصحيحة[١٣] (ومن استدلالاتهم ما أولوا به فى هذا المعنى كلمة « شورى » فى الآية الثامنة والثلاثين من سورة الشورى : « والذين استَجابوا لربِّهم وأقاموا الصلاةَ وأمْرُهم شورَى بينَهم ومما رزقناهم يُنفِقون ») .

كما أن الملأ الشيعيين ، الذين هم أصحاب السلطة النافذة فى الحياة الدينية عند شيعة فارس ، والذين يؤيدون الثوار تأييداً دينياً ، استعانوا بالإمام المستور فى مطالبهم البرلمانية ، كما صنع من قبلهم مجتهدو البلدتين المقدستين . النجف وكربلاء .

وقد دأب بعض الفقهاء والثقات ذوى المكانة العلمية فى البلاد الإسلامية ، أن يؤكدوا فيما وضعوه من الأبحاث الدينية العديدة ، مقتضيات الحياة السياسية الحاضرة ، وأن يعززوها بالآيات القرآنية والأحاديث ، كما اعتمدوا على وثائق الإسلام الدينية فى تشجيع التقدم الثقافى فى الحياة المدنية (كمسألة المرأة وغيرها ...)[١٤] .

٤ — هذه المسألة مستمدة من التطور الحديث فى البيئات الإسلامية . ولكن الظاهرة التى تجلت لنا فى هذه البيئات تدلنا على الاتجاهات الدينية التى غلبت عليها فى القرون السابقة .

ومع ذلك يلزمنا أن نبادر بإضافة هذا الاستثناء وهو أنه خلال هذه القرون كلها وُجدت دائماً أقليات معاندة متصلبة فى مسألة السنة والبدعة ، وكانت دائمة الرغبة فى تحديد معنى البدعة الحسنة وحصرها فى أضيق دائرة ممكنة ، طامعة فى حفظ الإسلام نقياً خالصاً من شوائب البدع ؛ كما كانت تكافح بكل الوسائل الممكنة ، وكثيراً ما غلب

= الاستفتاء صيغ فى صورة ليس فيها تحديد الفائدة . وكذلك فتوى علماء القسطنطينية ، لم نرها حتى نحكم عليها . والذى نعلمه أن القرض بالفائدة رباً حرام لا يقدر على إباحته أحد ، ومن أقدم على ذلك ضرب بقوله عرض الحائط ، أياً كان القائل .

عليها التعصب ، الطرائق النظرية والعملية التى كانت تستخدم للتوفيق بين السُّنة والبدعة .

ولم تقتصر على مكافحة العادات المستحدثة التى تسربت إلى الحياة الشرعية والتى لم يعرفها المسلمون فى حياتهم الأولى ، ولكنها ناهضت أيضاً النظريات الاعتقادية التى جهلتها العصور الأولى ، وكذا ما ترتب عليها من صيغ صاغها لها المتكلمون ، بل إن الآراء الأشعرية التى أصبحت جزءاً من مذهب أهل السُّنة ، استقبحتها هذه الأقليات ، ونددت بها تنديداً قاسياً ، معتبرة إياها من البدع التى لا مبرر لها والتى تستوجب المذمة واللوم .

والتاريخ الداخلى للحركات الإسلامية يتمثل لنا كصراع دائم بين السنة والبدعة بين مبدأ التمسك بالحديث تمسكاً شديداً ، وبين الاتساع الدائم لآفاق الإسلام وتجاوز معالمه الأولى . وقد استمر هذا العداء خلال عصور الإسلام كلها ، وخلال مراحل تطوره الاعتقادى والفقهى .

وإن ضرورة هــذا الصراع ، وحقيقة استناده على موضوعات واقعية يتنازع المسلمون عليها ، لهما أقوى دليل يدحض الفكرة الواسعة الانتشارية التى عبَّر عنها كُونين Kuenen فى محاضرات « هِبِّرْت » حيث يقول : « لقد قُدِّر للإسلام بعد برهة وجيزة جداً من النمو والترقى ، أن يصب نفسه فى قالب لا يحيد عنه وأن يتخذ شكله الثابت الذى لا يتغير[(١٥)] .

ومع ذلك فكونين نفسه يربط بهذه الفكرة حقيقة ذكرها ، وهى أنه فى أواسط القرن الثامن عشر تحولت الميول المتجهة نحو تطهير الإسلام من كل بدعة ، إلى حركة رجعية عنيفة ؛ وينتج من هذا على الأقل أن الإسلام فى هذا العصر ذاته لو أنه كان قد صُبَّ فى قالب جامد لا يتزحزح عنه ، فما كان ذلك ميسوراً إلا بقيام الفتن والمنازعات الدامية .

٥ — ولم يكن بين التيارات المختلفة للتفكير الاعتقادى فى الإسلام تيار جدّ فى تقبيح البدعة واضطهادها فى نشاط ومثابرة كالمذهب الحنبلى ، الذى يقدس أتباعه ذكرى رئيسه ومؤسسه الإمام الذائع الصيت أحمد بن حنبل .

فقد برز من صفوف الحنابلة كبار المتحمسين الشديدى التعصب للسنة وأشد الخصوم عداوة لكل بدعة ، سواء أكانت فى العقائد ، أو العبادات ، أو أساليب الحياة وتقاليدها .

ولو أن المسلمين انصاعوا لمتشددى الحنابلة وأخذوا بآرائهم ، لجردوا الإسلام من معالمه وأعادوه إلى مادته الأولى التى كانت له عند نشأته بالمدينة ، ولأرجعوه إلى الشكل الذى كان عليه فى عهد الصحابة .

ولكن يحسن بنا ألا نعتقد أن هذه العقلية قد غلبت عليها النزعة الخيالية أو ما يمكن تسميته بالميول « الرومانتكية » ، أى أنها تتشدد فى إحياء سنة المدينة بدافع الأمانى الوجدانية والهيام بسذاجة الماضى الجميلة .

غير أنا لا نصادف فى نفوس هؤلاء المتشددين ، عبيد الألفاظ والحروف ، أثراً لإحساس عميق أو عاطفة متدفقة تملك زمام القلب ، وما تشددهم كله إلا المنطق الرسمى للسنة الذى يتخلل ثنايا احتجاجاتهم .

وفى الحق كانت توجدخلال القرون المتعاقبة مواد وفيرة تستوجب النقد والاستنكار ، وكان أول ما احتج عليه الحنابلة العقائد الروحية ومنهاج التفسير القرآنى الذى ترتب عليها . وقد سبق لنا أن رأينا أن هذه العقائد عدها الحنابلة زيغاً وزندقة ، حتى ما كان منها على مذهب الأشاعرة .

ولم يرغب هؤلاء المتشددون فى أن يحيدوا قيد شعرة عن حرفية المتون ، ولا أن يجعلوها تعنى شيئاً يزيد أو ينقص عنها ، أو أن يخرجوا بها إلى هذه الناحية أو تلك ، فضلا عن أنهم اتخذوا من الحياة الدينية مادة لمساجلاتهم .

وَلنُحْجِم هنا عن الدخول فى تفصيلات هذا النقاش ، مقتصرين على ذكر مثال واحد هو أقرب من سائر الأمثلة الأخرى لصميم الحياة الدينية فى الإسلام .

٦ — نشأ فى الإسلام بتأثير عدة عوامل ، بعضها سيكولوجى والبعض الآخر تاريخى ، شكل من أشكال العبادة . وهذا الشكل مهما عُدّ مناقضاً لفكرة الألوهية

فى الإسلام ، ومهما اعتبر خارجاً عن جادة السُنة الصحيحة ، سرعان ما اكتسب « حقوقه المدنية » فى دولة الإسلام الشاسعة ، ويعتبر عند كثير من طوائف المسلمين وجماعاتهم أعظم خطراً وأعلى قدراً من جوهر الدين الإسلامى ذاته ، وهو الصورة الصحيحة التى يتجلى فيها الإيمان الشعبى .

وهذا الإيمان الساذج يرى أن الله بعيد عن الناس ، وأن الأولياء المحليين هم أدنى إلى نفوسهم وقلوبهم ، ولهذا هم موضع التكريم فى عباداتهم ، كما أنهم مبعث مخاوفهم ومعقد آمالهم ومحل تبجيلهم وورعهم .

وأضرحة هؤلاء الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى المتصلة بها هى مواضع عباداتهم التى يرتبط بها أحيانا ما يظهره العامة من تقديس وثنى غليظ لبعض الآثار والمخلفات ، بل إن العامة تخص هذه الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحضة * .

ويختلف تقديس الأولياء هذا ، من حيث شكله وطبيعته تبعاً للظروف الجغرافية والصفات الجنسية (الأثنوجرافية) للأمم الإسلامية ، وهى صفات يزيد فى تباينها الأحوال القديمة التى كانت عليها هذه الأمم قبل اعتناقها للإسلام ؛ إذ أنه وجد فى أغلب مظاهر هذا التقديس بقايا الديانات التى قهرها الإسلام وقضى عليها ، وهذه البقايا تتفاوت فى مداها وفى وضوح الشكل الذى انتقلت إليه وقوته .

وقد أسبغت الخواص الإقليمية لتقديس الأولياء صفة شعبية على الطابع العالمى الموحّد للإسلام ، وهذه الطبقة الشعبية قد حددتها الظروف المحلية المختلفة[١٦] .

وعلاوة على الظروف الخاصة بالصفات الجنسية لكل شعب ، وهى الصفات « الإثنولوجية » ، فإن الحاجة النفسية التى سبق بيانها كانت ملائمة لنمو تقديس

---

* تكلم بإسراف على التوسل بالأولياء ، وتكلم بلسان المنكرين له كالوهابية ، وعد التوسل قريباً من العبادة أو يفوقها . ولا يرى مسلم ذلك ؛ فالعبادة — ومن مظاهرها الصلاة — لا يتوجه بها مسلم لغير الله ؛ وأما التعظيم الذى يكون من المسلمين للولى ، فلسمو منزلته عند الله بما قدم من عمل صالح ، وهذا تكريم فى الواقع للعمل الصالح وترغيب فيه . وليس الأمر فى التوسل بالخطر الذى يصوره المؤلف فى عباراته المبالغة الغالية .

وقد يحتج مثل ابن تيمية وابن عبد الوهاب بحوادث وقعت فى الصدر الأول ، وفيها التنفير من مثل ما يقع فيه المسلمون اليوم ؛ لكن ذلك كان قبل استقرار التوحيد ، والناس لا يزالون حديثى عهد بالشرك ؛ فأما اليوم ، وقد استقر التوحيد وبطلت عبادة الأوثان ، فلا يجب هذا التشدد الذى يعبر عنه أمثال من ذكرنا .

الأولياء فى الإسلام وازدهارها ، وهى الحاجة إلى ملء الهوة التى تفرّق بين المؤمن الساذج ورغباته اليومية وبين الألوهية المحلقة البعيدة المنال ، والتى لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق القوى التى يمكن أن تكون وسيطاً بينه وبين خالقه ، فيشعر نحوها بالثقة ؛ ويظن أنها أقرب لروحه من الألوهية التى تتبوأ العلويات اللامتناهية فوق الكائنات البشرية ومخلوقات الحياة الدنيا .

إن الشعب يؤمن بالله ويخشاه كقوة كونية تسيطر على الحوادث الكبرى فى هذا الكون ، ولكنه لا يفترض أنه تعالى يعنى بالحاجات الضئيلة التى ترومها طائفة يسيرة من الناس ، بله حاجات فرد واحد .

فلأن تزدهر الحقول المجاورة لمكان ما ، ولأن يكثر نتاج قطعان إحدى القبائل ولأن يبلّ مريض من مرضه أو أن تقر عينه بكثرة الذرية ـ هذه كلها أمور تهم كثيرا الولى المحلى الذى أصبح موضع الثقة ومحط الآمال ، فإليه يؤتى بالقرابين وفى سبيل مرضاته تنذ النذور لكسب نياته الحسنة ؛ أو إذا أردنا الاقتراب من الاصطلاحات الفقهية والآراء الإسلامية : « لكى ترجى شفاعته عند الله تعالى » .

كما أن أتباعه ومريديه يعدونه عماد الحق والصدق ، وأنه الحارس لهما الكفيل بهما ، ويخشى الواحد منهم أن يحنث فى يمين حلف فيه باسم الولى ، أو أن ينكث بعهده فى مكان يراه الولى ذا طهارة وقداسة ؛ أكثر مما يحمرّ خجلا عندما يحلف بالله باطلاً . ويقيم الولى بين أتباعه ، ويسهر على سرائهم وضرائهم وحقوقهم وفضائلهم .

ولم يبق من إسلام المسلمين فى بقاع شاسعة من العالم الإسلامى ـ كبدو السهوب العربية وقبائل القابيل فى إفريقية الشمالية ـ إلا ما يزيد فى جوهره عن مظاهر تقديس الولى المحلى وما يرتبط بها من مراسم وشعائر .

وإن الحاجة لتقديس الأولياء قد ساعدت الصفات الجنسية التى لهذه الشعوب على اطراد نموها ، وبقى بفضل هذا النمو كثير من عناصر الديانات السابقة للإسلام ، واستأنفت حياتها فى المظاهر العديدة الخاصة بتقديس الأولياء المحليين مكتسية فى الظاهر بستار إسلامى .

ومن الفصول المهمة فى التاريخ الدينى للإسلام الدراسة العلمية للظواهر المرتبطة بهذه الاطرادات والزيادات التاريخية الدينية ، وليس فى استطاعتنا إلا أن نشير إليها هنا إشارة موجزة نرمى بها إلى بيان هذه الفكرة ؛ وهى أن أشكال هذا التقديس كانت منذ قرون عديدة مباحة ومقبولة حتى من حيث المبدأ ، حتى من جانب السلطات الدينية الرسمية .

وقد قنعت هذه السلطات بفصل مظاهر الوثنية الخشنة عن مثل هذا التصور للمعانى الدينية ، ولم يتيسر قط عملياً تحديد مدى هذا الفصل أو هذه التفرقة على وجه الدقة ، ولم تكن الديانة الرسمية منذ البداية متسامحة هكذا حيال مطالب الضمير الدينى للشعب .

وفى الحق ، ليس من شىء أشد خروجاً على السُّنة القديمة وأظهر مناقضة لها من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الإسلام والماسخ لحقيقته ، وإن السنى الصادق الحريص على اتباع السُّنة لابد أن يعده من قبيل الشرك الذى يستثير كراهيته واشمئزازه .

وزيادة على ذلك ، فإن صفة النبى كما صورتها السنة ، قد أصابها التعديل والتحوير لكى تتلاءم مع تقديس الأولياء هذه ، وقد أقحمت فى علوم سير الأولياء hagiologie وتقديسهم hagiolatrie ؛ حتى نجم عن ذلك أن العقائد الشعبية وضعت صورة للنبى تتعارض تماماً مع البيانات البشرية التى صور بها القرآن والسُّنة مؤسس الإسلام .

وإن نداء الغيرة على السنة ، الذى ارتفع مدوياً لمحق البدع التى تسربت إلى عقائد الإسلام وعباداته ، لم يشتد بحق إلا عند ما هب لمناهضة التيار المناقض للسنة المعادى لها ، وهو التيار الذى أحدثته مظاهر تقديس النبى والأولياء .

ومع ذلك فقد مال الإسلام الرسمى بعد شىء من المقاومة ، إلى الأفكار الدينية السائدة التى أقرها الإجماع الشعبى والتى عنى بتنظيمها وتلطيفها تلطيفاً فقهياً — وذلك فيما عدا بعض التحفظات المذهبية — ليدمج فى نظام السنة ثمرة هذا التطور التاريخى .

٧ — وعلى الرغم مما أبداه العلماء من اللين والتسامح نحو هذه البدع ، فقد ظلت غريبة دخيلة فى نظر الحنابلة ذوى الحماسة الروحية البالغة ، الذين اعتقدوا بأن العناية

قد قيضتهم ليكونوا حماة للسنة رافعين للوائها ، ساعين لوقايتها من كل بدعة اعتقادية وتعبدية واجتماعية ؛ وهذه الفئة القليلة من المتحمسين ظلت ضعيفة لا نفوذ لها إزاء النزعات السائدة .

غير أنه فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ظهر فى سوريا فقيه جرىء أحسن التعبير عن ميول الحنابلة وآرائهم ، وهو تقى الدين بن تيمية الذى دأب فى خطبه وكتاباته على مراجعة الإسلام التاريخى ، دارساً له من ناحية سننه القديمة وما طرأ عليها من ابتداع ، ثم هب لمناهضة البدع التى عملت على تحوير المعالم الأصلية للإسلام وتعديلها ، سواء أكان ذلك فى العقائد أم فى الأحكام والعبادات .

كما أبدى هذه الغيرة فى مقاومة الآثار التى أحدثتها الفلسفة فى الإسلام ، حتى الصيغ الكلامية الأشعرية ، على الرغم من أن السُّنة قد أقرتها منذ عهد طويل .

وكافح ابن تيمية الصوفية ومبادئها الحلولية ، كما استنكر تقديس النبي والأولياء ، وأنكر الحج إلى قبر النبي واعتبار المسلمين إياه عملا ذا قيمة دينية عظيمة ، وعدَّه بدعة مخالفة للدين ، وإن رأى المسلمون الأتقياء فى زيارة المدينة تكملة للحج إلى مكة .

لقد نهض ابن تيمية ، دون أن يوقفه شىء ، إلى مقاومة السلطات الدينية التى أضفت على المراسم الطفيلية الزائدة فى العبادات صفة شرعية هى ثمرة الإجماع ، فقد كان يرجع دائماً فى تحقيقها إلى السنة ، وإلى السُّنة وحدها .

وإن آثار التخريب المغولى أوجدت فى الدولة الإسلامية حينئذ شعوراً عميقاً بالألم والتفجع ، فكانت مواتية لإيقاظ ضمير الأمة الإسلامية وحملها على إحياء الإسلام وبعث قوته ، وذلك بالرجوع إلى السُّنة التى جرّ تغييرها إلى غضب الله ومقته .

غير أن الحكومات الزمنية وكذا السلطات الدينية ، لم تشارك ابن تيمية فى غيرته وحماسته ؛ لأن شعارها هو عدم إثارة ما يخيم عليه الهدوء والسكينة Quieta non movere ، فضلا عن أن المسلمين لا يستطيعون أن يعودوا القهقرى ؛ لأنهم يواجهون منذ عدة قرون نتائج تاريخية فى ميدان الاعتقاديات والأحكام الشرعية ، يتحتم عليهم احترامها كأنها من صميم السُّنة .

وكان المرجع الدينى الأخير للإسلام أبو حامد الغزالى الذى اهتدى إلى صياغة ألف فيها بين التعبديات والعقليات والاعتقاديات والصوفيات ، وأوجد منها نظاماً دينياً موحداً أصبح منذ ذلك الحين ميراثاً مشتركا للإسلام السنى ؛ ولذا ، أصبح الغزالى هدفاً سدد إليه الحنابلة الجدد كل ما فى جعبتهم من سهام ، رغبة منهم فى مكافحة التطورات التاريخية والقضاء على آثارها .

ولم يحرز ابن تيمية نجاحاً عظيما ؛ فقد سيق من محاكمة دينية إلى أخرى حتى مات فى السجن سنة ١٣٢٨ م ، وكانت المؤلفات الكلامية التى صنفها العلماء بعد وفاته مباشرة تدور حول فكرة واحدة ؛ وهى معرفة ما إذا كان ابن تيمية زنديقاً أم منافحاً أميناً عن السنة .

وقد عمل نفر من محبيه وأتباعه على إحاطة ذكراه بهالة من القداسة ، بل إن خصومه سرعان ما اتجهوا إلى الوئام وتقريب شقة الخلاف ، متأثرين بما يشيع فى مؤلفاته من روح الجد والغيرة على السنة والإخلاص للدين .

وظل أثره محسوساً على الرغم من أنه كان يعمل بصورة خفية كامنة خلال أربعة قرون ، ومؤلفاته التى تقرأ وتدرس كانت فى كثير من البيئات الإسلامية قوة صامتة ، تثير من وقت لآخر انفجارات عدائية ، لمناهضة البدع الدخيلة على الإسلام .

ومن أثر مذهبه ، قيام إحدى الحركات الدينية الحديثة فى الإسلام ، وهى حركة الوهابيين التى قامت فى أواسط القرن الثامن عشر .

٨ — إن تاريخ الإسلام العربى زاخر بالأمثلة الكثيرة التى تبين اجتماع مواهب العلم الدينى بصفات البطولة الحربية ، وذلك فى شخصيات قوية قادرة على التوجيه والتنظيم .

وكما أن السيف والقيثارة قد اجتمعتا فى عصور الوثنية ، فكذلك اتحد فى الإسلام العلم الدينى بالنبوغ الحربى ، واستخدمت هذه المواهب فى مكافحة الكفر والزندقة ، والتاريخ القديم للإسلام مفعم بالأمثلة الكثيرة التى من هذا القبيل ؛ أو على الأقل ، إن الروايات الدينية — الغريبة حقاً عن وقائع التاريخ الصحيح — قد عقدت أكاليل النبوغ فى العلوم الدينية على كثير من أبطال الجهاد فى الإسلام ، وأضافتها إلى ما أحرزوه من نصر ومجد .

وأقدم أنموذج لهذا الجمع بين المواهب العلمية والعربية ماأثر عن على ابن أبى طالب وسيفه ، الذى تذكر الرواية أنه كان يمتشقه رجل كان مثلاً عالياً فى الشجاعة النادرة ، وكان فى نفس الوقت الحجة فى كافة المسائل الدينية التى كان يعالجها بعلمه الدينى الراسخ ؛ بل إنا نرى غالباً ، فى الأخبار التاريخية المستيقنة نوعاً ما ، هذا الجمع بين المزايا الحربية والعلمية فى أشخاص كانوا على رأس الجيوش المحاربة .

ولكى نثبت استمرار هذه الظاهرة حتى عصرنا الحاضر ، يكفى أن ندلل عليها أولاً بعبد المؤمن فى القرن الثانى عشر الميلادى ، الذى غادر كراسى التعليم ومنابر الوعظ ليكون على رأس حركة الموحدين ، ثم لكى يؤسس دولة إسلامية عظيمة فى المغرب ، بعد حروب حماسية أثارها وقاد الجماهير فيها وأبدى فيها كثيراً من ضروب البسالة .

وإليك البطل الإسلامى الحديث : الأمير عبدالقادر الجزائرى الذى قاوم الفرنسيين مقاومة حربية باسلة عند ما أخذوا فى إخضاع بلاده الجزائر ، ولما انتهى جهاده جمع حوله فى منفاه بدمشق طلابه ومريديه الذين تابعوا فى إصغاء واجتهاد دروسه فى الفقه المالكى والعلوم الدينية الأخرى فى الإسلام .

وممن يمثل هذه الظاهرة الفذة فى تاريخ الإسلام الحديث « شامل » بطل الاستقلال القوقازى ؛ والمهديون الحربيون الذين ظهروا فى السودان والصومال ، والذين سمعنا كثيراً من أخبارهم فى أيامنا هذه ، ولو أنهم دون ريب أدنى مرتبة ممن سبقهم ؛ وقد برز هؤلاء المجاهدون أيضاً من صفوف طلاب العلوم الدينية الإسلامية .

ومن أهم الحركات الدينية الحربية التى قامت بها الأمة العربية ، تلك التى أثارها فى الأزمنة الحديثة فى أواسط بلاد العرب محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٧٨٧ م .

فبعد أن درس ابن عبد الوهاب مؤلفات ابن تيمية ، وقد أقبل عليها بشغف زائد ، أثار فى مواطنيه حركة دينية أساسها بواعث دينية ، وسرعان ماعظم أثرها وكثر أنصارها ، ودفعت بالأمة العربية المفطورة على الحرب إلى خوض غمار القتال ، فأحرزت عدة انتصارات حربية باهرة نشرت من نفوذها وبسطت من سلطانها حتى تجاوزت شبه الجزيرة العربية إلى بلاد العراق .

وقد أفضت هذه الحركة إلى تأسيس دولة لا تزال ، مع ما مرّ عليها من التقلبات الـكثيرة والمنافسات والمنازعات الداخلية التى أضعفتها ، قائمة إلى اليوم فى أواسط بلاد العرب ، وتُعد عاملاً ذا أثر قوى فى سياسة شبه الجزيرة العربية .

ومع أن عبد الوهاب يختلف عن الفقهاء الحربيين الذين نوهنا بذكرهم ، فى أنه لم يمتشق بنفسه وهو على رأس أتباعه سيف البطل الحربى ، فلا أقل من أن آراءه الفقهية هى التى دفعت بصهره وحاميه الزعيم محمد بن سعود إلى القيام بمغامرات حربية لإقامة السنة الصحيحة وإعادتها ، فجرّد السيف لـكى يدافع على الأقل فى الظاهر عن آراء ومبادىء دينية أراد أن يحققها فى الحياة الدينية .

وإن أحدث من شاهد من الرحالة الأفرنج الاضطرابات الداخلية فى هذه الدولة الدينية هو « يوليوس يوتنج » ، الذى تمـكن من الإقامة فى ربوعها وقتاً طويلا فى إحدى سياحاته فى بلاد العرب(١٧) .

والحركة الوهابية هى التحقيق العملى لانتقادات ابن تيمية واحتجاجاته الحنبلية : على البدع المخالفة للسنة التى أقرها الإجماع ، وعلى الصيغ الاعتقادية التى تقررت خلال التطور التاريخى للإسلام ، وعلى البدع المستحدثة فى الحياة اليومية .

ويكفى أن نذكر أن المذهب الوهابى يتشدد فى قمع كل بدعة ، حتى إنه ينهى عن تدخين الطباق وتناول القهوة التى لا يمكن بطبيعة الحال الاستدلال على شرعية تناولها من سنة الصحابة ، والتى لاتزال إلى اليوم محظورة فى أرض الدولة الوهابية على أساس أنها كبيرة من الـكبائر .

وقد عاشت جموعهم المسلحة فى بلاد العرب ، ولم تقو الدولة العثمانية على صدها ، إلى أن برزت لهم جنود الوالى المصرى محمد على التى هبت لنصرة السيادة التركية الاسمية .

وقبل مجىء المصريين كانت جموع الوهابيين قد أطبقت على المساجد ، التى يخصها أهل السُّنة والشيعة بأكبر نصيب من الرعاية والتقديس ، فخربتها لأنها عدتها مراكز لأقبح صنوف الشرك ، ورأت فى التقاليد والمراسم المرتبطة بها مايجعلها شبيهة بالوثنية ،

كما تابعت ابن تيمية فى مذهبه فعدّت أيضاً من الوثنية ما يخص به المسلمون قبر النبى من تقديس بالغوا فيه إلى درجة العبادة* .

وقد أتى الوهابيون هذه الأعمال كلها باسم السُّنة والعمل على إحيائها وإعادتها ، وهم فى جهادهم هذا يتمثلون بالسلف الصالح . على أنه فيما يتعلق بقبر النبى نرى أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى قد سبقهم فى هذا المضمار ؛ فقد عمل ، استمساكاً منه بالسنة ، على توجيه قبر النبى عند ما أمر بعمارته وجهة أخرى غير الوجهة الأصلية للقبلة ، خوفاً من أن يجعل الناس من هذا الأثر موضعاً للعبادة ، وهذا ما أراد منعه عند ما جعل اتجاه موضع الضريح مخالفاً للاتجاهات المتبعة فى المساجد[١٨] .

وفضلا عما حرّمه الوهابيون من عبادة الأضرحة والمخلفات ، فقد ناهضوا بدعاً أخرى ومنعوها ، وهى البدع التى طرأت على العبادات الإسلامية ، ولا سيما إلحاق المنارات بالمساجد واستعمال المسابح مما كان مجهولاً فى العصور الأولى للإسلام ، فقد رأوا أن العبادات يجب أن تمثل بدقة ظروف عهد الصحابة وأحوالهم .

أما فيما يتعلق بالحياة اليومية ، فقد أعادوها إلى بساطتها الخالصة من كل شائبة ، كما تواتر الخبر الصحيح عنها فى مئات الأحاديث المروية عن الصحابة بل وعن الخلفاء أنفسهم ، وقد حرموا كل صنوف الترف ، وجعلوا من تقاليد المدينة فى القرن السابع الميلادى بعد انقضاء ألف عام عليها أنموذجاً يُحتذى وقاعدة للأخلاق والسلوك فى الدولة السنية الوهابية .

وعن موقف الوهابيين من تقديس الأولياء الذى كان الهدف الأساسى من حملاتهم ، يمكننا أن نستخلص منه أنهم جديرون بالاسم الذى أطلقه عليهم « كارل فون ڤنسنتى » وهو « هدامو المعابد فى بلاد العرب** » وذلك فى قصة وضعها عنهم ، وصف فيها حياتهم الاجتماعية ، وبيّن فيها ظاهرة أجمعت عليها المصادر الأخرى ، وهى روح النفاق والتقوى الكاذبة ، التى تتطلب «تطهراً» ظاهرياً شديداً .

---

* لا ندرى كيف يذكر أن المسلمين يبالغون فى تقديس قبر النبى إلى درجة العبادة ؛ مع أنهم يذكرون دائماً فى صلواتهم : (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) ، وأنهم يعلمون أنه ميت فى قبره !

** Tempelstürmer in Hoch Arabien.

ويتجلى ما للمبادىء الوهابية من أثر عظيم ، فى الظواهر المشابهة لها التى ظهرت فى جهات نائية فى العالم الإسلامى ، والتى نشأت دون ريب نتيجة لأثر هذه الحركة الوهابية العربية .

٩ — وإذا أردنا البحث فى علاقة الإسلام السنى بالحركة الوهابية ، نجد أنه مما يسترعى انتباهنا خاصة ، من وجهة النظر الخاصة بالتاريخ الدينى ، الحقيقة التالية :

يجب على من ينصب نفسه للحكم على الحوادث الإسلامية أن يعتبر الوهابيين أنصاراً للديانة الإسلامية على الصورة التى وضعها لها النبى والصحابة ، فمراد الوهابيين وغايتهم إنما هى إعادة الإسلام الأول كما كان . وهذا يصادف غالباً من الوجهة النظرية موافقة وتسليما حتى من جانب العلماء [١٩] ، أما من الوجهة العملية فلا بد أن يحكم عليهم أهل السنة بأنهم من الخوارج المنشقين .

إذ أن الحائد عن جادة الدين القويم هو ذلك الذى يخرج على الإجماع ويرفض ما اتفق أئمة المسلمين خلال أعصر التاريخ على حله وسنيته وعدالته . وليس فى هذه الحالة من حاجة إلى المطالبة بالوثائق والأسانيد القديمة للسنة ، لأن ما اتفق عليه الإجماع أصبح سُنة من تلقاء نفسه ، وليس سُنيا إلا كل ما يوافق الديانة العامة المعترف بها وكل ما يتفق وتقاليدها وأحكامها المتبعة؛ وما يعارض هذا الإجماع يعد ضلالا وزيفاً [٢٠]

ومن هذه المقدمات ليس فى وسع المسلم إلا أن يستخلص نتيجة واحدة : وهى أن الوهابيين الذين لا يشك أحد من الناس فى إخلاصهم للسنة ، يناهضون ويحرمون أموراً هى إما من الأمور المباحة فى المذاهب الأربعة المعترف بسنيتها ، أو أن بعضاً منها هو موضع التحبيذ والتفضيل .

ولذا ، فالوهابيون قوم قد خرجوا عن نطاق الإسلام السنى ؛ وصنعوا ما صنعه الخوارج فى العصور الإسلامية الأولى .

ومنذ القرن الثانى عشر الميلادى أجمع أهل السُّنة على اعتبار الغزالى الحجة النهائية القاطعة للإسلام السنى والمرجع النهائى لتعاليمه ، وقد عمد الوهابيون فى مجادلاتهم الفقهية والكلامية مع أنصار السُّنة المكية إلى مقاومة تعاليم الغزالى ، وهى مقاومة

لم تفتر حدتها إلى اليوم ، وذلك بالاحتجاج بآراء ابن تيمية التى رفضت السنة الغالبة أن تأخذ بهـا .

فالغزالى فى جانب ، وابن تيمية فى جانب آخر ، وقد اتخذ من اسميهما الفريقان المتناظران : أهل السنة والوهابيون ، شعاراً لهم فيما شجر بينهم من نزاع ، وقد أقر الإجماع تعاليم الغزالى واعتمدها ، وكل من يرى من المسلمين غير ذلك فقد قطع صلته بالإجماع وخرج عليه ، وإذاً ، فالوهابيون على الرغم من سنيتهم المنطقية وزعمهم الإسلامية البحتة ؛ ينبغى اعتبارهم من الخارجين المارقين ، كما يجب أن يوصموا بهاتين الرذيلتين .

١٠ — بينا الحركة الوهابية التى نشأت فى شبه الجزيرة العربية والتى أتينـا على وصف موحياتها ونتائجها ، توجه نظرها إلى الماضى وتنكر الصفة الشرعية لما أحرزه المسلمون من تقاليد وسنن خلال تطورهم التـاريخى ؛ ولا تريد أن تعترف بالإسلام إلا على هيئة حفرية متحجرة من حفريات القرن السابع الميلادى ، نجد حركة أخرى من الحركات الطارئة التى حدثت فى الإسلام فى عصر أحدث من عصر قيام الوهابية ، تؤمن بالتطور الدينى للجنس البشرى وتجعل من إيمانها هذا مبدأ أساسياً من مبادئها وفـكرة حيوية فى تعاليمها ، وأعنى بها الحركة البابية التى كان مهدها فى بلاد الفرس .

وهذه الحركة صدرت دون ريب عن ضرب من ضروب التشيع ، وهو المذهب السائد فى هذه البلاد ، غير أن مبادئها الأساسية ترتبط تاريخياً بفكرة صادفتنا فى القسم السابق ونوهنا بأنها الفكرة الرئيسية فى مذهب الإسماعيلية ، ونعنى بها تحقيق الـكمال الذاتى للوحى الإلهى عن طريق التجلى التدرجى الارتقائى للعقل الـكلى .

فى بداية القرن التاسع عشر ظهرت فرقة جديدة أخذت بمذهب الإمامة الذى تؤمن به طائفة من الاثنا عشرية من الشيعة ، وهو مذهب الشيخيين الذى يخص أتباعه « الإمام المستور » ومن سبقه من الأئمة بالقداسة الزائدة والعبادة الخالصة ، ويرون على أسلوب الغنوصيين أن الصفات الإلهية قد حلت فى أشخاصهم وتجسدت وأنهم القوى الخالقة ، وبهذا بلغوا بالأسطورة الإمامية المعروفة إلى مدى بعيد ، ويحتم بذلك وضعهم فى مصاف الغلاة .

وقد ترعرع فى هذه البيئة الشاب الورع « ميرزا على محمد » الشيرازى الذى ولد سنة ١٨٢٠ م . وقد شهد له أصحابه بسبب مواهبه الفائقة وحماسته المتقدة بأن العناية الإلهية قد اصطفته لغاية سامية ، وكانت هذه الشهادة من إخوانه فى المذهب الملتهبين غيرة وحماسة إيحاء قوياً أثر فى عقل هذا الشاب الغارق فى تأملاته وأفكاره ؛ فاعتقد أخيرا فى نفسه أنه يؤدى رسالة سامية فوق مستوى البشر ، وأن أداءها هو نتيجة حتمية ملازمة مع التطور التاريخى للإسلام والتحقق الكامل لرسالته العالمية .

وبعد أن اقتنع بأنه الباب الذى أشرقت منه على العالم الرغبة المعصومة التى « للإمام المستور الذى يُعد المصدر الأول لكل حقيقة وهداية » سرعان ماجال فى روعه أنه أكبر من أن يكون أداة لإمام الوقت الذى يحيا ليعلم الناس ويهديهم رغم اختفائه عن الأنظار ، وقد رفع الله قدره على إمام الوقت اقتصاداً فى مراحل التطور الروحى واختصاراً لمراتب الهداية ، فاعتقد أنه المهدى الجديد الذى لابد من ظهوره على وجه التحقيق حوالى نهاية الألف الأول من السنين بعد ظهور الإمام الثانى عشر (٢٦٠ هـ — ١٢٦٠ هـ) ، ولكنه لايلى مرتبة المهدية وفاقا لنظرية الشيعة فى ظهور المهدى .

إن عند الباب أن المهدى ينبغى أن يكون مظهراً من مظاهر العقل الكونى ، « أن يكون محل ظهوره » (وهو فى هذا يتابع مبادىء فرقة الإسماعيلية) ، كما أنه هو أرفع مراتب الحقيقة التى حلت فى شخصه حلولا مادياً جثمانياً ، وقد اختلفت فى شكلها الظاهرى فحسب مع المظاهر السابقة لهذه المادة الروحانية المنبعثة من الله تعالى ، ولكنها فى حقيقتها وجوهرها تتماثل معها تماما ، فموسى وعيسى اتخذا من شخصية الباب سبيلا إلى العودة إلى الدنيا ، كما تجسد فى شخصه غيرهما من الأنبياء الذين تجلى العقل الكلى الإلهى فى صورهم الجثمانية منذ أقدم العصور والأحقاب .

وقد دعا الباب أتباعه ومريديه إلى بغض المُلاَّ (وهو الاسم الذى يطلق على علماء الدين فى فارس) ، بسبب نفاقهم وورعهم الكاذب وتكالبهم على الدنيا ، ولم يدخر وسعاً فى أن يرفع الوحى المحمدى درجة نحو النضج والكمال .

ففسر الجزء الأكبر منه تفسيراً مجازياً ، ولم يُعن بفرائض الإسلام وشرائط طهارته المرهقة وأبدل جزءاً منها بغيرها ، كما أوّل حساب الآخرة والجنة والنار تأويلا مخالفاً لما عرفه المسلمون . وقد سبقه فى هذا ، أصحاب الفرق السابقة التى أولت البعث بأنه مظهر دورى متجدد للروح الإلٰهية ؛ اللاحق فيه له علاقة بالسابق وينقل الحياة الجديدة إلى ما يليه ، وهذا عندهم هو معنى « لقاء الناس لربهم » ، وهو ما تسمى به الحياة الأخروية فى القرآن .

ولم تكن النظريات التى أتى بها هذا الشاب الفارسى المنجذب قاصرة على المسائل الاعتقادية والشرعية ، والتى قصد بها مناهضة فقه المُلاّ والتخلص من ضيقه وجموده ، بل إنه نفذ بتعاليمه إلى الظروف والأحوال الاجتماعية التى تحيط بإخوانه فى الدين ، وتغلغل فيها .

فأتى بنظريات أخلاقية تطابق العقل والذوق السليم ، طالب فيها بالإخاء بين كافة أفراد الجنس البشرى بدلا من إقرار الفوارق التى تفصل بين الطبقات والديانات ، ورغب فى أن يجعل المرأة على قدم المساواة بالرجل ، وذلك بانتشالها من الدرك الأدنى الذى وضعتها فيه تقاليد الحياة العملية باسم الدين والسنّة .

وقد بدأ بإلغاء الحجاب الذى فُرض عليها ، وإنكار ذلك الأسلوب الهمجى فى الزواج الذى أصبح جزءاً من تقاليد المجتمع الإسلامى مع أنه ليس من النتائج الضرورية للقواعد الدينية ، وأضاف إلى مذهبه فى توثيق الرابطة الزوجية أفكاراً تتعلق بواجبات الأسرة وإصلاح طرائق التربية* .

وإذاً ، فقد أدخل « الباب » فى نطاق إصلاحاته الدينية قواعد تبنى عليها الحياة

* يذكر عن الباب أنه أتى بنظريات أخلاقية تطابق العقل والذوق السليم ؛ كالإخاء بين كافة أفراد الجنس البشرى ، والتسوية بين الرجل والمرأة . وقد جاء الإسلام بالتسوية بين الجنس البشرى كافة ، ودعا الناس جميعاً إلى دين عام يجعلهم سواء : لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، والتفاوت بالتقوى والدين الحق لا سبيل إلى إنكاره فى العقل . فأما التسوية بين الرجل والمرأة فكأنه يعنى الميراث ؛ والذوق السليم ، والعقل الذى يدرك عظم تبعة الرجل فى كل حالاته ، يدرك حكمة التفريق فى هذا . وأما سائر الحقوق فالرجل والمرأة سواء ، إلا ما يضطلع به فريق وحده دون الفريق الآخر .

الاجتماعية ، لأنه ليس مصلحاً دينياً فحسب ، وإنما هو فى نفس الوقت مصلح اجتماعى . ومع أنه اعتمد فى مذهبه على مقدمات صوفية وغنوصية ، فقد ظلت هذه المقدمات تتخلل تعاليمه التى بنى عليها نظريته الكونية ، كما مزج آراء الثقافة العصرية بالدقائق الفيثاغورية ، ولعب كالحروفيين بتجميعات الحروف واهتم بما لها من خطر كبير من حيث قيمتها العددية ؛ وكان أخطرها شأناً فى تقديراته الرقم ١٩ تسعة عشر ، الذى جعل منه نقطة مركزية استند عليها فى حساباته التى تشغل جانباً كبيراً من مباحثه وأفكاره .

وكما أنه فيما بثه من التعاليم ، رأى فى شخصه الممثل الحقيقى للأنبياء السابقين ، والمعبر عن رسالاتهم — وهى فكرة ترجع فى أصلها إلى الغنوصية ، وجاءت بها الفرق المسيحية التى خرجت على الكنيسة قبل ظهور الإسلام(٢١) — فقد أعلن كذلك أن هذا التجلى للروح الإلهى الذى تجسد فى شخصه لهداية أهل عصره ، سوف يتجدد فى المستقبل .

وقد أودع الباب ، مجموعة نظرياته وآرائه فى كتاب دينى ، هو موضع تقديس البابيين وإكبارهم ، ألا وهو كتاب « البيان » . غير أن هذه الآراء بدت للسلطات القائمة على جانب عظيم من الخطورة ، سواءًا من الناحية الدينية أو من الناحية السياسية ، فاضطهدت صاحب الدعوة وأعوانه الذين التفوا حوله ، ومنهم البطلة « قرة العين » الجديرة بالشفقة والرحمة .

ثم نكلت بهم تنكيلا قاسياً من تشريد ومطاردة ثم أسلمت فريقاً منهم للجلاد . وأعدمت علىّ محمد نفسه فى يوليه سنة ١٨٥٠ م . أما أتباعه الذين فروا من الموت والتعذيب ، والذين اشتدت حماستهم وقوى تعلقهم بمذهبهم بسبب ما عانوه من الاضطهاد ، فقد أمكنهم أن يلتجئوا إلى الأراضى التركية .

وبعد وفاة صاحب الدعوة بقليل دبّ الشقاق فى جماعة البابية ، لأن التلميذين الذين اصطفاهما الباب وخصصهما لهداية الجماعة ، آمن بكل واحد منهما فريق من رجال البابية ، وأقر كل فريق لزعيمه بأنه المترجم الأمين عن رغبات الباب . وقد التفّت الأقلية حول « صُبْح أزَل » الذى اتخذ مركزه بمدينة « فاماجوستا » بجزيرة

قبرص ، وكان يرغب فى إبقاء البابية على الصورة التى تركها عليها مؤسسها ؛ فأتباعهم إذاً ، البابيون المحافظون .

أما الأغلبية فقد التفّت حول مذهب الرسول الآخر « بهاء الله » الذى رغب بعد سنة ١٨٦٠ م ، إبان إقامة البابيين المنفيين بأدرنة ، فى أن يبادر إلى تحقيق المرحلة التالية فى النظام الدورى التعاقبى ، فأعلن بأنه المظهر الأكمل الذى بشّر به أستاذه والذى يتيسر بواسطته إبلاغ رسالته إلى مرتبة أعلى من مراتب الكمال .

فعلى محمد كان السابق الممهد لبهاء الله ، وبهاء الله بالنسبة للباب كيوحنا المعمدان بالنسبة لعيسى ، وفى شخص بهاء الله عادت الروح الإلهية للظهور لكى تنجز على الوجه الأكمل العمل الذى مهّد له هذا الداعية الذى بعث قبله ؛ فبهاء الله أعظم من الباب ، لأن الباب هو القائم ، والبهاء هو القيُّوم «أى الذى يظل ويبقى» . ولا عجب ؛ فقد وصف الباب خليفته فى المستقبل قائلا : « إن الذى يجب أن يظهر فى يوم من الأيام لهو أعظم من ذلك الذى سبق ظهوره[٢٢] » .

وقد فضّل بهاء الله أن يتسمى باسم « مظهر » أو « منظر الله » الذى يجتلى فى طلعته جمال الذات الإلهية ، والذى يعكس محاسنها كصفحة المرآة ، وهو نفسه «جمال الله » الذى يشرق وجهه ويتألق بين السموات والأرض ، كما يتألق الحجر الكريم المصقول[٢٣] . وبهاء الله هو الصورة المنبعثة الصادرة عن الجوهر الإلهى ، ومعرفة هذا الجوهر لا تتأتى إلا عن طريقه[٢٤] .

وقد رأى فيه أتباعه أنه كائن فوق البشر ، وأضفوا عليه كثيراً من الصفات الإلهية ؛ ولنقرأ للتدليل على هذا ، الأناشيد الحماسية التى خصصها أتباعه لمدحه وتقريظه ، والتى نشرها الأستاذ برون[٢٥] .

وبسبب النزاع الذى شجر بين أتباع هذا الفريق الجديد والبابيين المحافظين ، نُفى بهاء الله مع أعوانه إلى عكا حيث بسط قواعد مذهبه وجعله نظاماً محدوداً لم يعارض به فحسب « ملة الفرقان » ، أى الذين يؤمنون بالقرآن ، وإنما عارض به أيضاً « ملة البيان » أى البابيين القدماء الذين يناوئون الإصلاح ولا يريدون أن يتجاوزوا كتاب البيان .

وقد بين بهاء الله مذهبه فى مجموعة من الكتب والرسائل باللغة العربية والفارسية وأشهرها « الكتاب الأقدس[٢٦] » . وفيها زعم بأن لموحياته المدونة أصلا إلٰهيًّا ، يقول : إن هذا اللوح هو كتابة خفية محفوظة منذ الأزل بين الكنوز الإلٰهية المكنونة التى رقمها أنامل القدرة الإلٰهية » .

وقد زعم فضلا عن ذلك بأنه لا يكشف عن كل ما يشتمل عليه مذهبه من درر نفيسة محققة لنجاة الإنسان وخلاصه ، ومن هذه الدرر بعض الأفكار الخفية ، ويظهر أنه احتفظ بها للنخبة المختارة من مريديه ، فلا يبوح بها لأحد سواهم .

كما قصد أن يبين للناس أنه يخفى عن خصومه قدراً معيناً من أفكاره وتعاليمه ، إذ يقول فى فقرة من فقرات كتبه : « لا نريد قط أن نعالج هذه المراتب ولا أن نفصلها ، لأن مسامع خصومنا مرهفة متيقظة ، تترقب شيئاً تتذرع به لمعاداتنا ، زاعمة أنه يناقض الذات الإلٰهية الحقة ويتعارض مع دوامها ؛ وهم لن يصلوا قط إلى خفايا العلم وكنوز الحكمة ، التى أحاط بها ذلك الذى تجلى مع إشراق سناء الذات الإلٰهية وبهائها » .

وهذا التجلى للعقل الكونى الذى ظهر فى شخص بهاء الله ، والذى قصد به إتمام ما بثه المؤسس الأول من تعاليم ، قد نسخ الرسالة البابية فى بعض نقطها الجوهرية ؛ فبينا البابية ، فى حقيقتها ترمى إلى إصلاح الإسلام ، يتقدم بهاء الله بفكرة واسعة النطاق وهى إيجاد ديانة عالمية يتحقق بواسطتها الإخاء الدينى بين الناس كافة !

وكما أنه فى آرائه السياسية يتشبث بالعالمية أو كما قال : « لا فضل لمن آثر وطنه بالمحبة وإنما الفضل لمن جعل العالم وطناً له[٢٧] » ، فقد تخلى كذلك فى ديانته عن أية عقيدة من العقائد الضيقة الجامدة ، وقد اعتبر نفسه مظهر العقل الكونى لكافة الجنس البشرى ، ولذلك بعث بكتبه الرسولية — التى تؤلف جزءاً من كتابه المنزل عليه — إلى الأمم والحكام فى أوربا وآسيا ، بل إن دعوته شملت أمريكا ؛ فدعا ملوك العالم الجديد ورؤساء جمهورياته « ليستمعوا إلى سجع الحمام على أفنان الأبدية » .

ومما ساعد بهاء الله على رفعة قدره بين أتباعه ، حتى بلغ عندهم مرتبة الكائن الإلٰهى ، ما فاض عليه من مواهب النبوة ونفحاتها ، فقد بعث لنابليون الثالث برسالة تنبأ له فيها بسقوطه الداهم قبل هزيمة سيدان ، بأربع سنوات .

وبسبب نزعته العالمية ، حسّن لأتباعه ومريديه أن يعنوا بدراسة اللغات الأجنبية حتى يتهيأ لهم الاستعداد لبعث البعوث التى تقوم بالدعوة إلى الديانة العالمية ونشرها ، وهى الديانة التى ينبغى أن تجمع شمل الإنسانية وأن تنتظم جميع الأمم .

« فهذه الكتب المترجمة إلى مختلف اللغات تبلغ الوحى الالٰهى أهل الشرق والغرب ، وتعمل على نشره بين دول العالم وأممه بما يحقق الألفة والمحبة بين أرواح الناس وقلوبهم ، وبما يبعث الحياة والقوة فى العظام البالية » ، و « هذا هو سبيل الاتحاد والدعامة الكبرى للوفاق والمدنية[٢٨] » .

وإن أمثل طريقة فى نظره لتحقيق الوئام العالمى هو إيجاد لغة عالمية واحدة ، وقد رغب فى أن يتمكن الملوك ووزراؤهم من الاتفاق على اتخاذ إحدى اللغات المستعملة كلغة عالمية ، أو على إيجاد لغة جديدة يفرض على الناس فى كافة أنحاء العالم أن يتعلموها فى مدارسهم[٢٩] .

وقد نبذ كل القيود الدينية : الإسلامية منها أو الخاصة بالبابية القديمة ، ومع ذلك فهو من حيث علاقته بالبابية لم يحرر تعاليمه من كافة النظريات الصوفية والحيل الحروفية والعددية التى اتصفت بها البابية الأولى ، ولكنه جعل فى المحل الأول كل مصلحة عامة ترمى إلى إقرار القواعد الخلقية والاجتماعية ؛ فحرّم الحرب تحريماً قاطعاً ولم يسمح باستعمال الأسلحة إلا « وقت الحاجة » ، كما حظر الرق حظراً باتاً ؛ ولا غرو ، فقد دعت البهائية إلى المساواة بين أفراد الجنس البشرى وجعلت من هذه المساواة لب تعاليمها[٣٠] .

وقد عنف بهاء الله فى سورة أنزلت عليه تسمى « سورة الملوك » سلطان تركيا ، تعنيفاً شديداً لأنه فرّق فى الحقوق والامتيازات بين طوائف السكان[٣١] . وعالج العلاقات الزوجية بغية تنظيمها وإصلاحها ، وهى التى سبق أن وجه « الباب » إليها الكثير من عنايته ، ومثله الأعلى هو الاقتصار على زوجة واحدة .

ولكنه مع ذلك وضع عدة استثناءات أباح فيها التزوج باثنتين ؛ وهذا عنده هو الحد الأقصى لتعدد الزوجات . وأقر الطلاق ولكن فى حدود الضرورات البشرية ، وأباح التزوج بالمطلقة ما دام لم يعقد لها من جديد . وهكذا ، نراه يخالف فيما ذهب إليه القواعد المتبعة فى الإسلام .

وترى البهائية أن الشريعة الإسلامية قد انقضى عهدها انقضاءاً تاماً وبطل مفعول أحكامها ، وأحلت مكانها أوضاعاً جديدة للصلوات والعبادات ؛ فنسخت صلاة الجماعة بمراسمها الخاصة وأمرت الناس بالصلاة فرادى ، ولم تحتفظ بصلاة الجماعة إلا فى الصلاة على الموتى ، وغيرت القبلة نحو مكة وجعلتها نحو المكان الذى يقيم فيه ذلك الذى جعله الله مظهراً من مظاهره ، فإذا ما غيَّر هذا اتجاهه تحركت معه القبلة حتى يستقر . وحبذت البهائية الطهارة الجثمانية كالوضوء والغسل ، وحضت عليها كأمور تعبدية ؛ لكنها حذَّرت غشيان الحمامات الفارسية التى تعدها البهائية من النجاسات .

وقد ألغى بهاء الله بجرة قلم — ولم يوضح ذلك تفصيلا — القيود التى يفرضها الإسلام على معتنقيه (وذلك ما عدا بعض القواعد الخاصة باللباس) ، وقرر لأتباعه أن « فى إمكانهم أن يعملوا كل ما لايخالف العقل البشرى السليم[٣٢] » . وقد كافح كسلفه الباب ، العلماء بلا تعب أو كلل ، ورأى أنهم يستهينون بالإرادة الإلـٰهية ويمسخونها ، ولكن حذَّر أتباعه من المناقشة مع خصومهم فى الدين .

والديانة البهائية لا تعرف الوظائف الكهنوتية ، وكل عضو فى هذه الديانة العالمية عليه أن يخصص نفسه لأداء عمل منتج نافع للهيئة الاجتماعية ، ومن يستشعر فى نفسه القدرة على الهداية الروحية فعليه أن يؤديها بلا مقابل[٣٣] . ويتضح من إبطال البهائيين للمنبر ، فى الأماكن التى يعقدون فيها اجتماعاتهم ، أنهم لا يرون أن يكون التعليم والهداية على يد هيئة خاصة[٣٤] .

ولعلنا نتوقع أن تكون آراء بهاء الله فى السياسة فى جانب الأحرار ، غير أننا نخطىء الظن ، بل يدهشنا أن نراه يقاوم الحرية السياسية ، إذ يقول : « إنا نرى كثيراً من الناس يتوقون للحرية ويمجدونها ولكنهم فى ضلال مبين ، إذ الحرية تجر فى ذيولها الفوضى التى لا يخبو ما تحدثه من نيران الفتن والاضطرابات .

واعلم أن الحرية بدأ ظهورها فى عالم الحيوان ، ولكن الإنسان يجب أن يخضع للقوانين التى تقيه شر همجيته وشر الأضرار والمفاسد التى يرتكبها الخونة والمجرمون ؛ وفى الحق ، إن الحرية تُقصى الإنسان عن مقتضيات الأخلاق والآداب » ، ويظل يسرد آراءه هكذا فى لهجة رجعية صريحة[٣٥] . كما أن أتباع بهاء الله لا يشايعون

التطور السياسى نحو الديمقراطية الذى حدث فى تركيا وفارس ، ولا يقرون خلع السلطان والشاه[٣٦] .

وانتقلت رسالة بهاء الله بعد موته فى ١٦ مايو سنة ١٨٩٢ إلى ولده وخليفته عباس افندى المسمى بعبد البهاء أو « غصن أعظم[٣٧] » ، وذلك دون أن تلاقى معارضة إلا من جانب نفر من أحبابه .

وقد زاد عبد البهاء على التعاليم التى ورثها عن أبيه زيادة كبيرة ، وسعى تدريجياً فى أن يوفق بينها وبين صور التفكير الغربى ومرامى الثقافة الحديثة ، وخفف بقدر الإمكان من وطأة الخزعبلات والخوارق التى كانت لا تزال عالقة بالمراتب الروحية السابقة ، إن لم يكن قد انتبذها كلها جانباً . وكثيراً ما استعان عباس بأسفار العهد القديم والجديد التى استشهد بالكثير من آياتها فى كتاباته وبياناته ، محاولا بذلك أن يؤثر فى بيئات أوسع مدى من تلك التى نشر فيها أبوه ديانته الجديدة .

وفى الواقع ، أتت الدعاية الواسعة التى قام بها البهائيون منذ تولية عبد البهاء بنتائج جليلة القدر ، فقد توجه عدد كبير من السيدات الأمريكيات (وقد دونت فى الحواشى أسماء بعضهن) للحج إلى مقر النبى الفارسى بجوار جبل الكرمل ، لكى يلتقطن من فيه حِكَمَ الهداية التى أنصتن لها على مقربة من الموحى إليه ، ثم يعملن على نشرها فى وطنهن الغربى .

وإنا ندين بأوفى مرجع يبحث فى آراء عباس افندى إلى الآنسة «لورا كليفوردبارنى» التى استطاعت أن تصحب عبد البهاء وقتاً طويلا ، وأن تدوّن تعاليمه اختزالا ليتسنى لها أن تضع للعالم الغربى ملخصاً دقيقاً للمذهب البهائى الجديد[٣٨] .

وأخيراً أصبحت الحركة البابية ، منذ ذلك الوقت لا تنسب إلى الباب ؛ فقد آثر الناس أخيراً أن يطلقوا على هذه الفرقة التى تفرعت عن مذهب « ميرزا على محمد » ، والتى انتشرت تعاليمها شيئاً فشيئاً حتى غطت على المذاهب الأخرى المنافسة لها ، اسم « البهائية » الذى يسمى أتباعه أنفسهم به ، كى يتميزوا عن البقية الباقية من البابيين المحافظين المتمسكين بكتاب البيان والذين ينهجون نهجاً آخر .

وإن النزعة العالمية الواسعة التى اتصفت بها البهائية قد جمعت حولها الأتباع

والأنصار لا من مساجد المسلمين فحسب ، بل من كنائس النصارى و بِيَع اليهود ونيران المجوس .

وقد أسسوا حديثاً فى أَشْقَباد من أعمال التركستان الروسية بجوار الحدود الفارسية ، بناءاً عاماً يعقدون فيه الاجتماعات لأداء شعائرهم الدينية التى أتى على وصفها « هيبوليت دريفوس » ، وهو من العلماء الأوربيين المولعين بشرح التعاليم البهائية(٣٩) .

كما أنه من جهة أخرى تطلق البهائية على ذوى النزعة الحرة فى التفكير الدينى ، وهى النزعة التى تنبذ العقائد الوضعية المحدودة فى الإسلام ؛ فكلمة « بهائى » أصبحت تشبه كلمة « زنديق » القديمة التى استُعملت من قبل فى هذا المعنى ، وكانت تطلق فى العصر العباسى على من ينحو من المسلمين فى تفكيره الدينى نحو العقائد الزرادشتية والمانوية ، كما أطلقت بعد ذلك كلمة « فيلسوف » ، وحديثاً كلمة « فران ــ ماسون » (أى بناء حر) ، على ذوى الفكر الحر عموماً ، من غير أن تدل هذه الألفاظ دلالة واضحة على نوع هذا الكفر بالإسلام أو تبين كيفيته .

وكذلك لا تفيد كلمة « بهائى » فى فارس فى الوقت الحاضر ، الاندماج فى هذا الفرع الأخير للبابية فحسب ، ولكنها تفيد أيضاً — كما لاحظ القس « جوردان » — أن كثيرين ممن يسمون بالبهائيين ليسوا فى الواقع إلا عقليين منكرين للديانات « irreligious rationalists »(٤٠) .

وبما أن من صالح البهائيين ، سواء أكانوا فى فارس أم فى البلاد الإسلامية الأخرى ، الابتعاد عن الجهر بمعتقداتهم المناقضة للدين الإسلامى مناقضة تامة ، مصطنعين التقية لكتمانها ، أصبح من العسير أن ندلى بإحصاء ولو تقريبياً عن عدد اتباع البابية بفرعيها .

ومع ذلك فالقس « إسحق آدمز » ، وهو أحدث من كتبوا عن البابية ، يقدّر عددهم — وقد يكون مغالياً فى تقديره — بثلاثة ملايين فى فارس وحدها ، وهو ما يقرب من ثلث مجموع السكان فى هذه البلاد .

وهكذا نشطت الحركة البابية ، ودخلت جدياً فى دور الدعاية عندما ترقت

وتحولت إلى البهائية . وقد اقتنع فقهاؤها وأتباعها بأنهم ليسوا فرقة من الفرق الإسلامية ، ولكنهم يمثلون مذهباً عالمياً ، ورحبوا بالنتائج المترتبة على هذه الفكرة ؛ فلم يوجهوا دعايتهم فحسب إلى المسلمين على نطاق واسع (إذ بلغوا بها الهند الصينية) ، ولكنهم روّجوا لها شيئاً فشيئاً حتى تخطت فى فوز ظاهر حدود العالم الإسلامى . فقد وجد نبي عكا فى أمريكا ، وفى أوربا أيضاً كما يقولون ، من يقبل على اعتناق ديانته فى حماسة ولهفة من بين المسيحيين[٤١] .

وإن ما أقيم من المؤسسات فى أمريكا ، وما اتخذ من المشروعات الأدبية ، قد ساعد البهائية الأمريكية على أن ترسخ قواعدها ؛ فلها « مجلة نجم الغرب *Star of the West* » التى تصدر منذ سنة ١٩١٠ فى تسعة عشر عدداً فى السنة ، وهذا هو الرقم المقدس لدى الباب ، وهى لسان حال البهائيين .

وقد انتشرت البهائية فى بقاع شاسعة من الولايات المتحدة ، واتخذت مركزها فى شيكاغو ، حيث يتأهب أنصارها لبناء دار سموها « مشرق الأذكار » ، كى يعقد البهائيون الأمريكيون اجتماعاتهم فيها . وقد تمكنوا بفضل ما اكتتب به الإخوان من المال الوفير من شراء قطعة أرض واسعة شمالى بحيرة مِتشيِغَن ، باركها عبد البهاء فى أول مايو سنة ١٩١٢ أثناء إقامته فى الولايات المتحدة[٤٢] .

وبلغ الأمر ببعض اليهود المتحمسين للبهائية أن استخلصوا من دفائن العهد القديم وتنبؤات أسفاره ، ما ينبىء بظهور بهاء الله وعباس ، وزعموا أن كل آية تشيد « بمجد يهوه » أنها تعنى ظهور مخلص للعالم فى شخص بهاء الله ، كما نسبوا جزءاً كبيراً من الإشارات والتلميحات التى فى الأسفار إلى جبل الكرمل الذى تجلى على مقربة منه نور الله وأضاء على الكون كله ، وذلك فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى .

وهذا ، فضلا عن أنهم لم ينسوا أن يستخرجوا مما يحتويه سفر دانيال[٤٣] من الرؤى ما ينبىء بقيام الحركة التى أوجدها « الباب » ، وأن يلتمسوا بتأويلها ما يدل على وقت حدوثها ؛ فالثلثمائة والألفان من الأيام (أى من السنين) التى بعد انقضائها « يتبرّأ القدُس » أى يتطهّر المعبد (إصحاح ٨ عدد ١٤) ، تنتهى تبعاً لتقديراتهم فى

سنة ١٨٤٤ بالنسبة للتقويم المسيحى ؛ وهى السنة التى ظهر فيها ميرزا على محمد ، وأوحى إليه أنه الباب الذى حل فيه العقل الكلى ، وذلك فى الدور الجديد لتجليه .

وقد تقدمت البهائية ، بظهور عباس افندى خطوة أخرى فى استعانتها بالتوراة والإنجيل ؛ فأسفارها سبق أن بشرت بظهور عباس من قبل ، وهو المقصود بالإمارة وسائر الألقاب الفاخرة العجيبة التى وردت فى عدد ٦ من الإصحاح التاسع من سفر أشعياء : « لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام » .

وفى اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور ، تيسّر لى أن أستمع إلى حجج كهذه مستمدة من الكتاب المقدس من أحد البهائيين المتفانين فى نشر مذهبهم ، وقد كان يشتغل إلى عهد قريب طبيباً بطهران ، ويقيم منذ عامين فى « بودابست » البلدة التى كنت أقطنها ، مشتغلا بالدعوة لعقيدته وكسب الأنصار لها ، وهو يشعر بأن العناية قد خصصته للدعاية لدينه فى وطنى ؛ وهذا دليل آخر على أن البهائيين الجدد لا يقصرون دعايتهم الإسلامية المغالية على القارة الأمريكية وحدها .

١١ — وتحتل الهند مكانا فريداً فى ظواهر النمو التاريخى للإسلام ، هذه الظواهر التى هى فى هذه البلاد ثمرة ظروف خاصة تتعلق بخصائص الأجناس البشرية التى تقطن هذا الإقليم الإسلامى ، وهى تهدى مؤرخ الأديان إلى شواهد جزيلة الفائدة ، واستنتاجات قيمة لا يمكننا أن نتبسط فيها هنا إلا بقدر .

إذا كان الفتح الغزنوى للهند قد أضاف جديداً للحضارة الهندية القديمة أو غير قديماً ، فإن الأشكال المختلفة للديانات الهندية لم يعتورها شىء يذكر من التبديل ؛ بل احتفظت بكيانها الكامل فى المجتمع الهندى إبان الحكم الإسلامى ، وظلت باقية على حالتها الأولى إلى وقتنا هذا .

ومع ما أفاده الإسلام من خروج عدد كبير من الهنود من الديانة البراهيمية واعتناقهم للإسلام ، فلم ينجم عن ذلك أن احتل القرآن فى نفوس المسلمين الجدد مركز « الفيدا » أو أنه استأثر استئثاراً بمكانتها .

بل على النقيض من ذلك ، لم يكن الإسلام فى أية بقعة من البقاع مكرهاً على أن

يتسامح بمثل هذا القدر مع الديانات الأجنبية كما صنع فى بلاد الهند ، فقد أرغمت أحوال الهنود الإسلام على أن يخفف من حدة حكمه الشرعى على الديانات الأخرى ، وهو حكم ألا يقر فى البلاد المفتوحة إلا الديانات الموحدة ، ويقضى بإبادة الوثنية بلا شفقة ولا رحمة .

على أن المعابد الوثنية فى الهند أمكنها أن تظل قائمة تحت السيادة الإسلامية ، على الرغم مما ألحقه بها من التدمير السلطان محمود الغزنوى الفاتح المسلم النشيط العالى الهمة ، واضطر المسلمون أن يعاملوا أصحاب الديانات الهندية معاملة أهل الذمة ، وأن يطبقوا عليهم الأحكام الشرعية الخاصة بالذميين[٤٤] .

وإن الخليط المشعّث المرقّش ، الذى تتألف منه ديانات قارة الهند ، ساعد على إيجاد عدة مبادلات بين هذه الديانات وبين الإسلام الذى نزح إلى هذه البلاد واستقر فى ربوعها[٤٥] ، إذ أن دخول الجماعات الهندية أفواجا فى الإسلام قد جرّ فى بعض البقاع إلى انتقال الكثير من آرائهم الاجتماعية إلى حياتهم الإسلامية الجديدة[٤٦] .

أما فى الحياة الدينية فإنا نصادف ظواهر فريدة لا نظير لها ؛ فالتعاليم الأساسية فى الإسلام عُدِّلت تعديلا يتفق مع فحوى العقائد الهندية ، وهاك مثالا يستوجب الدهش ، ولو أنه لا يمثل الروح العامة الغالبة ، وهو جملة تظهر أحيانا منقوشة على مسكوكات الأمراء المسلمين فى الهند وتكشف عن عقيدتهم الإسلامية المزدوجة ، وهى : اللامتناهى هو الواحد الفرد وقد تجسد فى محمد[٤٧] » .

وإن تقديس الأولياء فى الإسلام قد هيأ المجال للعقائد الشعبية الهندية لكى تؤثر على الشعائر الإسلامية ، ففشت فيها العناصر الهندية ، وتفاقم أثرها شيئاً فشيئاً ، حتى أنتجت ــ ولاسيما فى التشيع الهندى ــ ظواهر دينية فريدة تسترعى النظر ، فتحولت الآلهة الهندية القديمة إلى مجموعة من الأولياء ، وصبغت الأماكن المقدسة بالصبغة الإسلامية بطريقة تدريجية لا شعورية .

ولم يحدث فى أى قطر من الأقطار التى فتحها المسلمون ، أن زودنا الدين الإسلامى بأمثلة وفيرة كهذه تدل على استبقاء العناصر الوثنية والاحتفاظ بها كما حدث فى بلاد الهند وجزر الهند الشرقية المجاورة لها ، التى تشمل على ظواهر لا حصر لها فى دلالتها على امتزاج الديانات الوثنية بالإسلام .

فمع العبادة الظاهرية المحضة لله ، والتلاوة السطحية للقرآن ، واتباع السنن الإسلامية دون تبصر أو تمييز — تعيش جنباً إلى جنب ، بصورة جلية صريحة ، عبادة الشياطين والموتى ، وكذا التقاليد الوثنية الأخرى .

كما أن المظاهر الإسلامية ، فى عقائد سكان الأرخبيل الهندى ، تتيح لنا مجالا فسيحاً للبحث والملاحظة لدراسة هذا المزيج المنتقى من عديد الأديان ، ومما زادنا علماً بها ما وضعه « وِلْـكنسون[٤٨] » و « هيروجرونيه » من المؤلفات النفيسة الهامة عنها . أما فيما يتعلق بالقارة الهندية فقد أمدنا الأستاذ « أرنولد » ببحوث مفيدة عن بقاء عبادة الآلهة الهندية ، وما يتصل بها من طقوس ومناسك ، فى عقائد الدهماء فى الأمم الإسلامية التى تقطن أجزاء مختلفة من بلاد الهند[٤٩] .

وإن المسلمين المتعصبين للسنة ممن تأثروا بالآراء الوهابية ، وممن تدفعهم الغيرة الدينية لتطهير الإسلام مما علق به من الشوائب ، ليجدون فى الإسلام الهندى ميداناً رحيباً للعمل والإنتاج ؛ تصادفهم هنالك واجبات عظيمة من ناحيتين :
أولا — العمل على تنقية الإسلام من التعلق بالأولياء الذين ليسوا سوى صور منقولة عن آلهة الديانات الهندية ، ثم تطهيره من الطقوس التعبدية المتصلة بهؤلاء الأولياء .
ثانياً — القيام بدعاية واسعة النطاق بين الطبقات الهندية التى لم تتأثر بالإسلام إلا تأثراً سطحياً .

وقد شاهد الإسلام فى الهند منذ قرن حركات دينية من هذا القبيل فالحركة الوهابية انتشرت تعاليمها وانبعثت من بلاد العرب ، حتى بلغت هذا القطر الإسلامى . وإن ما يهيئه الحج إلى مكة ، من فرص الاختلاط والاتصال بين المسلمين ، لما يعمل على إيقاظ الهمم الدينية فى نفوسهم ، وتوحيد الأمانى التى تجيش بها قلوبهم ، وعلى السعى لتحقيقها فى الأقطار الإسلامية النائية .

وبعد إعداد فكرى صامت ، وجدت هذه الأمانى من يلبى نداءها فى الهند وهو « السيد أحمد البارىلى » الذى كان داعية قوياً لها ؛ فقد عمل خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر على نشر الأفكار الوهابية فى بقاع مختلفة من الهند الإسلامية كما جدّ فى تطهير الإسلام من أدران الشرك التى غشيته غشيانا ظاهراً بصورة صارخة

نابية ، وذلك فى عبادة الأولياء وما يتصل بها من التقاليد الخرافية ، ولم يدخر وسعاً فى نفس الوقت فى أن يقوم بدعاية دينية كبيرة بين الهنود لترغيبهم فى اعتناق الإسلام وقد وصف أتباعه هذه الدعاية بقوة أثرها وجزيل نفعها .

كان أحمد ذا حمية شديدة فى الدين ، وكان يرمى إلى إعادة الحياة الإسلامية إلى بساطتها الأولى ، وقد دفعته حميته إلى دعوة أعوانه العديدين إلى الجهاد وقتال المشركين ، ومهد له هذا نزاعه مع طائفة السيخ الذين يقطنون شمالى الهند . وفى خلال هذه الحملة المنكودة لاقى حتفه سنة ١٨٣١ م . ومع أن مغامرة الجهاد وما ارتبط بها من محاولات سياسية ، قد انتهت بموت أحمد ، فالحركة الدينية التى ابتعثها بين الجماعات الإسلامية ظلت بعد وفاته قوية الأثر فى الإسلام فى الهند .

ولو أن دعاة مذهب أحمد فى الهند لا ينضوون تحت لواء الوهابيين ، فهم — على اختلاف المسميات التى اتخذوها لحركتهم — لم يدخروا وسعاً فى العمل على نشر قواعد الإسلام الصحيحة نشراً كاملا ، بين الشعوب الهندية التى اعتنقت الإسلام اعتناقا سطحياً ، وظلت منغمسة فى تقاليدها الهندية الوثنية .

وقد حث الدعاة تلك الشعوب على اتباع أحكام الشريعة الإسلامية ، ووحدوا أيضاً بين الطوائف السّنية التى كانت أنواعها المختلفة تزيد من عدد الفرق الإسلامية فى الهند ومن هذه الطوائف طائفة هامة تسمى « بالفرائضية [٥٠] » واسمها قوى فى دلالته على ميولها ومراميها .

وهذه الحركة الإصلاحية الواسعة التى ترجع فى مبعثها إلى تعاليم الوهابيين السنية دونت أخبارها فى سفر أدبى لا يزال يقرأ إلى اليوم ، وضعه « مولوى اسماعيل الدهلوى » الذى كان صديقاً وفياً لأحمد الباريلى ، وعنوانه « تقوية الإيمان » ؛ وفيه يكافح المؤلف فى همة وغيرة كل صنوف الشرك ، ويهيب بالمسلمين أن يعتصموا بالتوحيد الصحيح [٥١] .

١٢ — وكما أن الإسلام فى الهند لم يستطع أن يتخلص من أثر الديانات المحلية ، فإن فكرة الوحدانية فى الإسلام لم تكن من جهة أخرى عديمة الأثر فى هذه الديانات التى تشتمل على عدة عناصر دينية لا شك فى أنها عناصر دخيلة منتحلة .

وإذا اعتبرنا هذه العناصر أعظم خطراً وأجل شأناً فى تطور الديانة الهندوكية ونحوها ، فهى مع ذلك نتيجة للأثر الإسلامى ، ولا يستطيع مؤرخ الديانة الإسلامية أن يغفلها .

وقد لوحظ أنه فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى وبداية القرن الخامس عشر ، اخترقت بعض النظريات الإسلامية عالم ديانات الهند ، وتسربت على الأخص بفضل مذهب نسَّاج يدعى « كبير » ، وهومن الرسل الاثنى عشرالتابعين لمدرسة « رامانانداRâmananda » ، الذى يرى فيه مسلمو الهند ولياً من الأولياء الأبرار ويقدسونه كما يقدسه تماماً أتباعه من البراهمة(٥٢) . كما ظهر فى نفس الوقت أثر الآراء الصوفية الإسلامية ، فعادت بذلك إلى البيئة الهندية التى كانت فى الأصل مصدراً من مصادر التصوف الإسلامى .

ومع ذلك ، فما لا يحسن إغفاله أن التحديد الدقيق لعمل هـذه المؤثرات لا يزال قيد البحث . والأستاذ « جريرسون » Grierson ، أحد العلماء الثقات ذوى الاطلاع الواسع فى شئون الهند ، يفسر هذه الظواهر بأنها نتيجة تسرب الأفكار المسيحية ، وينكر الفرض القائل بوجود مؤثرات إسلامية .

ولا يمكننا بطبيعة الحال أن ننحاز إلى إحدى النظريتين فى هذا البحث ، الذى كان موضوعاً للمناقشة فى الاجتماع السنوى الذى عقدته الجمعية الأسيوية(٥٣) الملكية سنة ١٩٠٧ ، وكانت هذه المناقشة من أمتع المناقشات وأطرفها . ولكن من المتعذر فى بحثنا هذا أن نغفل الشواهد والأدلة التى تستوجب الانتباه ، والتى تؤيد أثر الإسلام فى ديانات الهند(٥٤) .

فالديانة التى أسسها ناناك Nânak المتوفى سنة ١٥٣٨ م ، وهو من مريدى « كبير » ، تعد مزيجاً من الديانتين الهندوكية والإسلامية ، وهى ديانة السيخ فى الهند الشمالية ، ولم تتوافر مراجع البحث فى هذه الديانة إلا بظهور الكتاب القيّم الذى وضعه « ماكوليف » فى ستة مجلدات والذى نشرته مطبعة « كلارندُن » بأكسفورد سنة ١٩٠٩ .

كما أن مؤلِّف « أدى جرانث » تخيَّل مذهباً دينياً عالمياً ألّف فيه بين الهندوكية والإسلام ، وقد تأثر فيه بنظريات التصوف الإسلامى المصحوبة دون ريب بالزيادات

البوذية التى أضيفت إليها . وقد قال فيه پنكوت Pincott إنه قُصد به « أن يهيء وسيلة لتخطى الهوة السحيقة التى تفصل بين الهندوكيين والمؤمنين بمحمد[٥٥] » .

ويبدو لنا أن أهم عنصر من عناصر التوفيق والتقريب بين الديانتين كان فى العمل على محو الوثنية والقضاء عليها ، وذلك بانتحال نظرية وحدة الكون التى يدين بها متصوفة المسلمين .

وفى الحق ، إن خلفاء « ناناك » قد حرَّفوا عمله وبدَّلوه حتى من الناحية الاجتماعية ؛ ولا تسمح لنا المنازعات التى حمى وطيسها بين أشياع مذهبه والمسلمين ، خلال ما قام بينهم من صلات مشتركة فيما بعد[٥٦] ، أن نتبين إذا كان مؤسس ديانة السيخ قد ابتغى من عمله فى البداية محاولة التوفيق بين الملل والنحل المتعارضة .

وإلى عهد قريب لا يزال أثر الإسلام ظاهراً ملموساً فى الفرق الهندية ، ففى النصف الأول من القرن الثامن عشر نشأت فرقة هندية اسمها : « رام سانا كى Ram Sanaki » ، كانت تعمل على مكافحة الوثنية ، ونلمس فى عباداتها شبهاً قوياً بالعبادات الإسلامية[٥٧] .

وها نحن ذا نعود مرة أخرى إلى الفكرة التى نوهنا بها آنفاً ، وهى أن الهند ، بما تشتمل عليه من خليط مُرقَّش من عديد الديانات ، تتمثل للباحث كأنها مدرسة لعلم الأديان المقارنة ، بل كانت فى حقيقة أمرها هذه المدرسة .

وإن الفرصة التى أتاحتها البلاد الهندية للنظر فى الأديان نظراً مقارناً ، قد اتخذت ذريعة لابتداع مذاهب دينية جديدة . وبما أننا نؤرخ للديانة الإسلامية ، علينا أن نخص بالذكر هنا أحد هذه المذاهب ، الذى كان وحى الخاطر والتأمل ، والذى كان ثمرة التفكير فى جملة الديانات الكثيرة المزدهرة التى اكتظت بها بلاد الهند .

ومؤسس هذا المذهب هو الملك الهندى أبو الفتح جلال الدين محمد الذى اشتهر فى التاريخ بلقبه الجليل « أكبر » ، الذى وجد فى الآداب الأوربية من يترجم له ويؤرخ لعهده ، وذلك بالكتاب الذى وضعه فى سنة ١٨٨١ « فريدريك أغسطس الشلزفيجى الهولشتينى » كونت « نوير » كما عنى بدرسه الأستاذ «جاربه Garbe» فى خطاب العمادة الذى ألقاه بجامعة « توبنجن » .

بل إن « ماكس مولر » أطرى كثيراً الإمبراطور أكبر لأنه أول من عنى بدراسة علم الأديان المقارنة . وعلى كل حال فقد مهد له طريق الدراسة « أبو الفضل العلاَّمى » الذى أصبح وزيره فيما بعد ، والذى ألَّف فى تمجيد مليكه كتاب « أكبرنامه » .

وقد سبق أبو الفضل الإمبراطور « أكبر » فى بحث الملل والنحل المختلفة وأكبّ على دراستها ، وكان يتوق إلى إيجاد عقيدة تتخطى حدود الإسلام ومعالمه(٥٨) . ولكن « أكبر » كان لديه وحده القدرة بصفته حاكماً لدولة كبيرة وطيدة الأركان ، أن يخرج إلى حيز العمل مشروعاً دينياً هو وليد الدراسة المقارنة للأديان .

ومهما بدا من قلة استعداد « أكبر » لإدراك مسائل الثقافة العالمية(٥٩) بسبب نقص تعليمه الابتدائى ، فإن هذا الإمبراطور المغولى العظيم سليل أسرة تيمورلنك التى حكمت من سنة ١٥٢٧ م إلى سنة ١٧٠٧ ، والذى يُعد حكمه أزهى عصور الحضارة الإسلامية فى الهند ، ترتبط باسمه إحدى الحوادث الهامة فى تاريخ الإسلام الهندى التى حدثت فى أواخر القرن السادس عشر .

فقد سبق لهذا الأمير الموهوب أن أبدى اهتمامه بتفهم البواعث النفسية العميقة التى تحمل الإنسان على التدين ، وتجلى إحساسه بهذه البواعث فى الرحلة الطويلة التى قام بها متخفياً فى زى خادم حقير ليستمع للأشعار الدينية التى كان ينشدها « هاريداسا » Haridâsa المطرب الهندى بصوته العذب الرخيم .

ونجم عن هذه الحالة النفسية التى ملكت مشاعر « أكبر » أنه انتهز هذه الفرصة العجيبة ، التى أتاحتها له الديانات المتعددة فى إمبراطوريته ، فجدَّ فى الاستزادة من دراستها مستعيناً بفقهاء كل ملة فى استجلاء تعاليمها المختلفة .

وقد تسنى له فى المناقشات التى احتدمت بين فقهاء الملل والنحل المختلفة فى المجالس الدينية التى عقدها ، أن يكون فى ذهنه رأياً فيما يفصل بينها من الفروق الدقيقة ، وفى قيمة كل ملة ونحلة بالنسبة لغيرها ؛ وسرعان ما تزعزع إيمانه بفضل

ديانته الخاصة وهى الإسلام على غيرها من الديانات ، مع أنه ظل مؤمناً بالعقائد الصوفية الإسلامية التى كان يدفعه وجدانه إلى التعلق بها .

وبينا قد حقق « أكبر » لذوى الملل والنحل المختلفة فى إمبراطوريته الشاسعة حرية تعبدية لا حد لها ، وذلك حوالى سنة ١٥٧٨ ، نراه قد صور لنفسه مذهباً دينياً جديداً يتصل فى ظاهره بالإسلام ، ولكنه فى جوهره وحقيقته يقضى عليه قضاء مبرماً واستعان الإمبراطور بحقه فى استصدار فتاوى من العلماء المجتهدين ، وحمل طائفة من علماء البلاط الخاضعين له على إقرار مذهبه الدينى الجديد الذى جرد فيه شعائر الإسلام وعقائده من معانيها ومقاصدها ، وأوجد مكانها كأساس للديانة الإمبراطورية فلسفة عقلية خلقية سماها « توحيد إلهى » ، وصلت فى ذروتها إلى النظرية الصوفية وهى اتحاد النفس البشرية بالذات الإلهية .

ويلاحظ فى عبادات المذهب الجديد ، ما كان لمستشارى الإمبراطور من الزرادشتيين من أثر قوى عليه ؛ وهم بقايا أصحاب الديانة الزرادشتية التى لما اشتد اضطهادها فى وطنها الفارسى نزحت إلى بلاد الهند ورقشت فُسَيْفساء الديانات الهندية وزادت من تنوع ألوانها ، وكذلك من العسير أن نغفل السمة البارزة فى ديانة « أكبر » ، الذى جعل نفسه كاهنها الأعظم ، وهى عبادة النور والشمس والنار .

وديانة «أكبر» لا يمكن أن تسمى إصلاحاً ، ولكنها تعد نفياً وإنكاراً للإسلام وخروجاً على تقاليده خروجاً قاطعاً لم يقو على مثله مذهب الإسماعيلية ؛ غير أنا لا نلاحظ أنه كان لها أثر عميق فى تطور الإسلام . ويبدو أنها لم تتخط بيئة الإمبراطور والطبقة العالية المستنيرة ، فضلا عن أنها لم تعش بعد وفاة مؤسسها .

وكما هو الحال فى العصور القديمة عندما قام الفرعون المستنير أمنحتب الرابع بإصلاح الديانة المصرية ، وبقى هذا الإصلاح قائماً مابقى هو فى الحكم ، ثم تلاشى بعد موته وعادت الديانات القديمة المتوارثة إلى مكانتها الأولى ، كذلك كان حال الديانة الجديدة التى أوجدها أكبر ، فإنها لم تعش بعد انقضاء حكمه ، واستعاد الإسلام السنى وحدته السالفة ونفوذه السابق بعد وفاة «أكبر» سنة ١٦٠٥م ، على الرغم مما صادفه من العقبات اليسيرة بسبب الموقف العدائى للإسلام الذى وقفه ابنه وخليفته « جاهانجير Djahangri .

ولم يطلق على «أكبر» أنه الرائد الأول فى تحقيق الآمال ، التى ترمى إلى التقريب بين البرهمية والزرادشتية والإسلام[٦٠] ، إلا خلال الحركات العقلية الأخيرة والنزعات الفكرية الحرة ، التى دعا لها متنورو البراهمة والمسلمين فى عهد الحكم الإنجليزى للهند.

١٤ — وهذا يقودنا إلى مرحلة عصرية حديثة من مراحل تطور الإسلام فى الهند.

إن اتصال المسلمين الوثيق بالمدنية الغربية ، وخضوع الملايين الفقيرة منهم لدول غير إسلامية ، وذلك بسبب ماقام به الأوربيون من الفتح والاستعمار ، وكذا مساهمتهم فى المظاهر العصرية للحياة الاجتماعية ، نتيجة لغزو المدنية الغربية لبلادهم — كل هذه العوامل قد أحدثت أثراً عميقاً فى الطبقات الإسلامية المستنيرة ، وفى علاقتها بما توارثته من نظريات وتقاليد دينية ، وكانت هذه النظريات والتقاليد فى حاجة شديدة ملحة إلى التقريب والملاءمة بينها وبين الظروف الجديدة .

وقد اهتدت هذه الطبقات المستنيرة إلى العمل على نقد التعاليم الإسلامية ، والتفرقة بين معالم الإسلام الأصلية والزيادات التاريخية التى أضيفت إليه عن طريق الإجماع ، والتى يسهل تضحيتها فى سبيل حاجات المدنية ومقتضيات العمران .

ولكن كانت الحاجة ، من جهة أخرى ، ماسة إلى الدفاع عن الإسلام والإشادة به ، لصد الحملات الأجنبية التى سددت للطعن فى الإسلام والغض من مآثره الثقافية ، كما كانت الحاجة ماسة أيضاً إلى أن تزول عن تعاليمه وصمة مناقضتها للحضارة وإثبات مرونة الأحكام والأوضاع الإسلامية وسهولة تشكلها ، كى تطابق حاجات الجنس البشرى فى كل زمان ومكان .

ومع أن هذه الجهود ، التى بُذلت للدفاع عن الإسلام والإشادة به ، كانت مصحوبة دائماً بسعى محمود للتفرقة بين الغث والسمين ، فهى لا تتردد فى أن تنزع إلى تحكيم العقل ، وأن تجعل النزعة العقلية غالبة عليها ، مما لا يتفق دائماً مع مقتضيات النظر التاريخى .

وإن هذه الميول العقلية التى رمت إلى التوفيق بين الحياة والفكر الإسلاميين ، وبين مطالب الحضارة الغربية التى نفذت إليهما ، شايعها على الأخص المستنيرون من مسلمى الهند ، وعضدوا نشاطها الاجتماعى والأدبى ، وساهموا فى جهودها الخصبة

المنتجة ؛ فالسيد أميرعلى ، والسيرسيد أحمدخان بهادور ، وأضرابهما من الشخصيات البارزة الأخرى فى العالم الاسلامى ، كانوا قادة هذه الحركة الروحية التى ترمى إلى إحياء الإسلام وإعادة تنظيمه .

وقد تحققت نتائج هذه الحركة فى الحياة الروحية الجديدة للإسلام الهندى ، الذى يتقدم شيئاً فشيئاً فى همة ومثابرة فى طريق الثقافة ، مبرراً لحق الإسلام فى البقاء ؛ وهو إسلام عقلى ، حكّم هؤلاء المستنيرون عقولهم فى فهم تعاليمه ، متأثرين بالتيارات الفكرية فى المدنية الحديثة .

ومال أشياع الماضى المستمسكون به إلى تسمية هذه الجهود بالاعتزال الجديد . وتتجلى هذه الجهود فيما ينشره المعتزلة الجدد من المؤلفات الكثيرة والأبحاث والكتب والمجلات الدينية والتاريخية باللغة الإنجليزية أو باللغات المحلية ، وفيما أسسوه من جمعيات هامة حققت ما استحدثوه فى الإسلام من تجديد وإصلاح .

وقد عملت هذه الجمعيات على تأسيس المدارس العديدة لكافة مراتب التعليم ، وأهمها مدرسة عليكره العالية التى حباها الأمراء المسلمون بتشجيعهم ومالهم ، وظهرت بالهند حركة قوية منذ بضع سنوات تبغى تحويلها إلى جامعة إسلامية كبيرة . ومن بين المحسنين والمشجعين ، لهذه المؤسسة التعليمية الكبيرة وغيرها من المؤسسات والمشروعات ، أغا خان الرئيس الحالى لبقايا فرقة الإسماعيلية الذى ورد ذكره آنفاً .

وهذه الروح العصرية التى بدأ ظهورها فى الهند ، قد أثرت فى التفكير الدينى فى البلاد الإسلامية الأخرى ، مصحوبة بغيرها من المؤثرات ، ومع ذلك فالأثر الهندى لا يزال ضعيفاً إلى اليوم . ومن البلاد الإسلامية التى تأثرت بنزعة التجديد مصر وتونس والجزائر والأقطار التتارية الخاضعة للحكم الروسى (٦١) .

وعلى كل حال ، فإن الجهود التى بذلها المسلمون فى البقاع الإسلامية المختلفة للأخذ بأسباب الحضارة ، واتصال هذه الجهود بحياتهم الدينية اتصالا وثيقاً ، لما يُعدّهم إلى مرحلة جديدة فى تطور الإسلام ؛ فيعمدوا فى المستقبل ، نتيجة لهذه المحاولات ، إلى أن ينقدوا مصادر الفقه والعقائد الإسلامية نقداً تاريخياً علمياً ،

١٥ — وفى ثنايا هـذه التيارات العقلية نشأت فى بلاد الهند أحدث فرقة إسلامية ، تلاقى الدراسة الجدية لها فى هـذه الآونة بعض المصاعب ، ومؤسسها ميرزا غلام أحمد القاديانى ، نسبة إلى قاديان من أعمال البنجاب .

لقاديانية

وهذه الفرقة مبنية على الحقيقة التى كشفها مؤسسها أحمد ، وهى أن القبر الحقيقى لعيسى ابن مريم يقع فى شارع خانيار بسرنجار قرب كشمير ، وهو قبر ينسب لولى من الأولياء يدعى « يوس أساف » وربما كان قبراً بوذياً .

ويقول كذلك غلام أحمد بأن عيسى فر من مضطهديه ببيت المقدس ، وأن الموت أدركه فى هذا المكان الذى أبلغته إياه أسفاره البعيدة فى البلاد الشرقية . وأراد غلام أحمد بهذا الكشف ، الذى دعمه بالشواهد التاريخية ، أن يدحض الروايات المسيحية والإسلامية على حد سواء ، وهى الروايات المتعلقة بخلود عيسى . ورأى أحمد فى نفسه أنه المهدى الذى ظهر فى « روح عيسى وقوته » ، وذلك فى الألف السابع من السنين منذ خلق الدنيا ، كما اعتبر نفسه المهدى الذى ينتظره المسلمون* .

وقد روى عن النبى أنه قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . ولهذا يميل أهل السُّنة والشيعة إلى سرد أسماء فقهائهم الأعلام الذين بعثهم الله على رأس كل قرن لتثبيت دعائم الدين وإحياء ما درس من سنته ، ويعتقدون أن ظهور هؤلاء الأئمة سوف ينتهى بظهور المهدى فى آخر الزمان ؛ واستناداً على هذه الدعوى زعم أحمد أن الله بعثه على رأس القرن الرابع عشر الهجرى ليكون مجدداً للدين عاملا على إحيائه .

وقد أضاف إلى دعواه المزدوجة — بأنه عيسى المبعوث وأنه المهدى المنتظر — زعماً ثالثاً زاده من أجل إخوانه الهنود وهو أنه « الأفاتار » * ، أى أن الألوهية حلت فى جسده ، وهو لا يرمى فحسب إلى تحقيق آمال الإسلام فى فوزه الشامل على سائر الأقطار المعمورة فى آخر الزمان ، وإنما يعبر عن رسالته العالمية التى يتوجه بها إلى الإنسانية جمعاء .

---

* يقصد بهذه الكلمة (Avatar) فى الأساطير الهندية ، نزول إله من الآلهة إلى الأرض وحلوله فى جسم إنسان أو حيوان .

وقد جهر بدعوته للمرة الأولى سنة ١٨٨٠ ، ولكن لم يكثر أتباعه كثرة ظاهرة إلا منذ سنة ١٨٨٩ . وقد برهن [فى زعمه] على صحة رسالته النبوية بالآيات والمعجزات والتنبؤات التى ظهر صدقها ، وحدث كسوف للشمس وخسوف للقمر فى رمضان سنة ١٣١٢ هـ — ١٨٩٤ م فاستعان بهما لإثبات مهديته ، إذ ورد فى الأحاديث والآثار أن ظهور المهدى سيكون مصحوباً بمثل هذه الظواهر الفلكية .

غير أن مهدية أحمد تخالف نظرية المهدية كما جاءت فى الروايات الإسلامية ؛ فهى تتسم بالطابع السلمى ، أما السُّنة الإسلامية فتصور المهدى قائداً حربياً يقاتل الكفار بالسيف وتلوث طريقه بقع الدماء ، ويطلق عليه الشيعة مع ماله عندهم من ألقاب أُخَر لقب صاحب السيف [٦٢] » .

غير أن النبى الجديد أمير من أمراء السلام ، إذ أنكر الجهاد وأسقطه من الفرائض الإسلامية ؛ وحبب إلى أتباعه السلم والتسامح ونهاهم عن التعصب ، وجدَّ فى أن يبعث فى نفوسهم ميلا للعلم والثقافة [٦٣]

وجعل من واجب المسلم فى التحلى بالفضائل الخلقية أصلا من الأصول الإيمانية التى قررها لأتباعه ، وعمل على أن يبعث فى الإنسانية حياة جديدة ، بتقوية إيمانها بالله وتخليصها من أغلال الإثم وقيود المعصية ، ولهذا كان يتطلب من المسلم أيضاً أن لا يتهاون فى أداء فرائضه .

وكان يستشهد فى تعاليمه بشواهد من العهد القديم والجديد ، وآيات من القرآن والصحاح من الأحاديث ، ودأب على أن يكون دائماً على وفاق ظاهرى مع ماجاء به فى القرآن . أما الأحاديث فكان كثير الشك فيها ، دائب النقد لها لاختيار نصيبها من الصحة ، وترتب على ذلك أنه ابتعد فى نقط كثيرة عن المعالم الرسمية للإسلام السنى بالقدر الذى تستند فيه هذه المعالم على الحديث . واشتملت دعوته أيضاً على العناية بالتربية والتعليم ، ووجدت اللغة العبرية ذاتها مكاناً فى برنامج المواد التى حبذ دراستها .

وقد بلغ أنصار المهدى الجديد فى سنة ١٩٠٧ زهاء سبعين ألف نسمة ، وقد آمن به على الأخص المسلمون الذين تثقفوا بالثقافة الأوربية وكانوا ممن تأثروا بدعوته وكان المهدى كاتباً مجيداً وافر الإنتاج ، فقد بسط مذهبه للمسلمين فى أكثر من ستين

كتاباً دينياً فى الفقه والعقائد باللغتين العربية والأوردية ، وساق فيها الأدلة على صدق رسالته ، وجد فى التأثير فى الجاليات الأجنبية فى الشرق بإصدار مجلة شهرية باللغة الإنجليزية اسمها « مجلة الأديان » Review of Religions (٦٤)

(توفى أحمد القاديانى فى لاهور ، فى ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨ ، ونقش على ضريحه بقاديان — التى تبعد ستين ميلا إنجليزيا عن لاهور — هذه الكلمات : « ميرزا غلام أحمد موعود » ، ومعنى « موعود » المهدى المنتظر . وأشار إلى رغباته الأخيرة فى الوصية التى تركها ، فقد أوصى بالحكم فى الجماعة الأحمدية إلى مجلس (إنجو من : endjumen) تنتخبه الجماعة انتخاباً حراً ، وعلى هذا المجلس أن ينتخب الخليفة ، وهو الرئيس الروحى للأحمدية ، وأول خليفة لهذه الفرقة بعد وفاة مؤسسها هو « مولوى نور الدين » وسوف يظهر فى آخر الزمان مهدى جديد من أسرة أحمد » .

وهذه هى أحدث فرقة ظهرت فى الإسلام إلى اليوم (٦٥) ، وختاماً لبحثنا بقى أن نشير إلى حركة توجد فى بعض البيئات الإسلامية .

إن محاولة رأب الصدع بين أهل السُّنة والشيعة ليست بجديدة فى نوعها ، فالإسلام فيما مضى لم يعدم جهوداً بذلت فى هذا السبيل . ونظراً لوجود الفوارق العديدة القائمة بين شكلى الإسلام السنى والشيعى فإن النتائج العامة لهذا الانشقاق لا تتضح إلا إذا أخذت بمبادىء التشيع حكومة ثيوقراطية قائمة ، وبعبارة أخرى دولة شيعية .

غير أنه لم يظهر عدد كبير من الدول الشيعية فى التاريخ الإسلامى ، لكن قد استطاع الشيعة ، فى ظل حكومات كهذه ، أن يكونوا إزاء الحكومات السنية فى البلاد الأخرى ، جماعة دينية متمردة على البيئة المحيطة بها ، موصدة المنافذ فى وجه الغرباء عنها .

وإذا كانت فارس فى الوقت الحاضر أكبر دولة شيعية ، فإن هذا يرجع الى الدولة الصفوية التى حكمتها من سنة ١٥٠١ إلى سنة ١٧٢١ ، والتى أفلحت بعد المحاولات العقيمة التى بذلت من قبل (٦٦) فى أن تجعل التشيع ديناً رسمياً للدولة ، مما جعل الدولة الفارسية مخالفة فى مذهبها للدولة العثمانية المتاخمة لها .

ولكن بعد سقوط الدولة الصفوية جد الفاتح الكبير « نادر شاه » بعد عقده

للصلح مع تركيا ، فى أن يوحد مذهبي الفريقين،وهو مشروع حالت وفاته التي حدثت بعد ذلك سنة ١٧٤٧ دون تحقيقه . ولدينا فيما اشتملت عليه كتابات الفقيه السنى عبد الله بن حسين السُّوَيْدِى (٦٧) (الذى ولد سنة ١١٠٤ و/١٦٩٢ م والمتوفى سنة ١١٧٤ ه / سنة ١٧٦٠) التي طبعت حديثاً ، وثيقة هامةمعاصرة عن مجمع دينى عقده نادر شاه وجمع فيه بين فقهاء الفريقين .

فى هذا المجمع انتهوا إلى اتفاق يقضى بضم التشيع إلىالمذاهب السنيةالأربعة وجعله مذهباًسنياً خامساً . وصار من السهل بعد قليل ، بموجب هذا الاتفاق أن يخصص مقام خامس للمذهب الجعفرى (٦٨) فى دائرة الحرم المكى بجوار مقامات المذاهب الأربعة السنية ، وصار لزاماً منذ ذلك الوقت الإقرار بسنية هذا المذهب .

وما أبدعها من طريقة ضم بها الإسلام الشيعى إلى مذهب أهل السنة . ولكن سرعان ماظهرأن هذا كله كان حلماً براقاً وأمنية بعيدة ، فالحقد المتوارث الذي يحمله كل من الفريقين للآخر . والضغائن التي شطرت فقهاء المذهبين إلى شطرين ، جعلتهم بعد موت نادر شاه لايستصوبون سياسة التسامح والوفاق .

ونرى أن الفريقين فيما بعد ، فى النصف الأول من القرن الماضى ، يتحدان من جديد برهة وجيزة للدفاع عن أمنيتهم المشتركة فى استقلال وطنهم القوقاز ، ومقاومة طغاته الغاصبين ، وذلك بزعامة شامل (وصحة نطقها شمويل أى صمويل) ومريديه ، غير أن مظهر هذا الاتحاد كان وطنياً ، ولم يكن اتحاداً فى المذهب الدينى .

أما الحركة التي لا كتها الألسنة كثيراً فى السنين الأخيرة وتعرف باسم الجامعة الإسلامية ، التي يصورها الكتاب عادة كخطر داهم حيناً وكشبح وهمى تارة أخرى ، فقد روّجت كثيراً فى البيئات الإسلامية لفكرة إزالة الخلافات القائمة بين الفرق الإسلامية ، تمهيداً لإيجاد تحالف تماهدى يجمع بين الأمم الإسلامية . وهناك آراء كهذه ترمى إلى التوفيق والاتحاد وليست من الآراء الخاصة بمشروع الجامعة الإسلامية، ويقصد بها تقوية الأمل فى الأخذ بأسباب المدنية الحديثة .

وقد ظهرت نزعة التوفيق فى البلاد الإسلامية الروسية ، حيث يتجلى فى هذه

الأيام الأخيرة كثير من العلامات الدالة على وجود رقي متزن وتقدم مطرد بين السكان المسلمين ؛ فالسنيون يصلون بالمساجد الشيعية ، ويسمعون الخطيب الواعظ بأستراخان ، يقول : « لا يوجد سوى إسلام واحد ، غير أن ما أحدثته الفلسفة والأساليب اليونانية فى الفكر من أثر سيء ، هو وحده الذىأدى إلى مجادلات الفقهاء وتأويلات المفسرين التى أثارت الانقسام والتفرقة » .

وفى حفل دينى آخر دعا الإمام للحسن والحسين وشهداء الشيعة كما دعا للخلفاء الذين ألف الشيعيون إلى ماقبل هذه اللحظة أن يلفظوا أسماءهم مصحوبة بعبارات السباب واللعنات ، وأن يشعروا نحوهم بشعور جامح من التعصب والحقد[٦٩] .

وفى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٦ عقد مؤتمر إسلامى فى « قازان » وبحث فى مسألة التعليم الدينى لشباب المدارس ومعاهد العلم ، وأقر الاقتراح بأن لايتعلم الطلاب السنيون والشيعة إلا فى كتب مدرسية واحدة ، وأنه يمكن انتقاء المدرسين إما من أهل السنة أو الشيعة[٧٠] . ومنذ ذلك الوقت دخل التعليم الدينى المشترك للشباب السنى والشيعى فى دور التنفيذ .

وقد ظهر أخيراً فى العراق ، فى نطاق الحياة الاجتماعية ، دلائل مشابهة لهذه الحركة تدل على الرغبة فى التقريب والتوفيق بين الفريقين المتعاديين ، وذلك بموافقة السلطات الشيعية فى النجف[٧١] .

غير أن هذه ليست سوى حالات فردية ، ولا يزال من المستبعد كثيراً أن تستدل من الظواهر الأخرى أنها تكشف عن حالة عقلية ، ترمى إلى أن تجمع شمل بيئات إسلامية أوسع من هذه نطاقاً وأوفر عدداً .



حواشى القسم الأول

محمد صلى الله عليه وسلم

(١) Inleiding tot de Godsdienstwetenschap[1] السـلسلة الثانية المحاضرة التاسعة (طبعة هولندية — أمستردام سنة ١٨٩٩) ١٧٧ ومابعدها .

(٢) إن طابع الجمع والانتقاء syncrétipue من المذاهب قد بينه أخيراً (ك . ڤولرز) فى تحليله « لقصة الخضر » ، إذ عثر فيها على أصداء متأخرة من الأساطير البابلية واليونانية بجانب ما تشـتمل عليه من العناصر اليهودية والمسيحية[2] Archiv für Religionswissenschaft سنة ١٩٠٩ مجلد١٢ ص٢٧٧ وما بعدها .

(٣) علق أخيراً (هوبرت جريمه) أهمية كبرى على أثر الأفكار المتداولة فى بلاد العرب الجنوبية ، وخاصة فى كتابه « محمد » (ميونيخ سنة ١٩٠٤) Weltgeschichte in Charakterbildern[3] وفى Orientalische Studien[4] مجموعة نولدكه ص ٤٥٣ وما بعدها .

(٤) هارناك[5] die Mission und Ausbreitung des Christentums الطبعة الأولى ملحق ٩٣ .

(٥) هـذا الرأى أثبته (سنوك هيرجرونيه) فى أول مؤلفاته Het Mekkaansche Feest[6] (ليدن سنة ١٨٨٠) .

(٦) هذه الحقيقة لم يغفل عنها المسلمون أنفسهم وهو ما يدل عليه الخبر التالى المنسوب إلى أبى رُهم الغفارى أحد الصحابة ، فقد ركب ناقة فى إحدى الغزوات

---

(١) مقدمة فى علم خدمة الرب . — (٢) مصادر وسجلات لعلم الديانات . — (٣) تاريخ العالم فى دراسـة الشخصيات . — (٤) دراسات شرقية . — (٥) الإرساليات المسيحية وانتشارها . — (٦) أعياد مكة .

وكان بجوار النبي ، واقترب الراكبان حيناً اقتراباً شديداً حتى وقع حرف نعل أبى رُهم الغليظة على ساق النبي فأوجعه ، فبدأ الغضب على النبي وقرع رجل أبى رهم بسوطه ؛ فساور هذا قلق شديد ، وقال : وخشيت أن يُنزَّل فىَّ قرآن لعظيم ماصنعت ».
(طبقات ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ٤) .

(٧) انظر أيضا نولدكه [١] *Geschichte des Korans* (جوتنجن سنة ١٨٦٠) ص ٤٩ (والطبعة الجديدة لشولى — ليبزج سنة ١٩٠٩ ص ٦٣) .

(٨) ومع ذلك فمتكلمو المسلمين لا يرفضون الفكرة القائلة بأن بعض أجزاء القرآن تعد فى جوهرها أهم من غيرها ، والسُّنة ذاتها تقر هذا الرأى الذى أثبته تقى الدين ابن تيمية ـ وسيرد اسمه خلال هذا البحث ـ وذلك فى رسالة خاصة عنوانها : جواب أهل الإيمان فى تفاضل آى القرآن » طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ (بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ج ٢ ص ١٠٤ رقم ١٩) .

(٩) انظر أيضاً (ر . جيير R. Geyer فى *W.Z.K.M.* (سنة ١٩٠٧) م ٢١ ص ٤٠٠ .

(١٠) فيما يتعلق بالعناصر اليهودية انظر حالياً بحث (الأستاذ ا . ح . ڤنسِنْك) [٢] *Mohammed en de Joden te Medina* (ليدن سنة ١٩٠٨) ولو أن كتاب [(بكَر) [٣] *Christentum un dIslam* Mohr *Religionsgeschichtliche Volksbücher* [٤] المجموعة ٣ ملزمة رقم ٨)] يتعلق بالتطور التالى إلا أنه يتضمن بيانات مفيدة عن البدايات الأولى .

(١١) هذا التلخيص للفرائض الخمسة الرئيسية يوجد فى البخارى كتاب الإيمان رقم ٣٧ ، كتاب التفسير رقم ٢٠٨ حيث توجد أيضاً أقدم صيغة للعقائد الإسلامية . ومن الدراسات المجدية ـ إذا كنا بصدد الوقوف على أقدم مراحل التطور لفرائض الإسلام ومبادئه ـ أن نعنى بالبحث فى الوثائق القديمة عما يعتبر فريضة من الفرائض

---

(١) تاريخ القرآن . — (٢) محمد ويهود المدينة . — (٣) المسيحية والإسلام . —
(٤) الكتب الشعبية فى تاريخ الديانات .

أو حكما من الأحكام من عصر إلى آخر . وعما ينظر إليه كدعامة من دعائم الإيمان والأحكام الشرعية العملية . ونشير هنا فحسب ـ تبعاً لما ورد فى حديث منسوب للنبى بصدد الأركان الخمسة التى ذكرناها فى صلب الكتاب والمعتبرة أسساً للإسلام منذ أقدم العصور ـ إلى أنه ينبغى أن نضيف إليها فرضاً سادساً هو : « وما تحب أن يفعله الناس بك فافعله بهم ، وما تكره أن يأتى إليك الناس فذر الناس منه » (ابن سعد ج ٦ ص ٣٧ ، أسد الغابة ج ٣ ص ٢٦٦) .

وانظر أيضاً نفس الأركان ج ٣ ص ٢٧٥ . والمبدأ الأخير يوجد كثيراً منفصلا عن الأركان الأخرى ، ويروى مستقلا كحديث للنبى ، كما هو الحديث الثالث عشر من الأربعين النووية : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (رواه البخارى ومسلم) ، وانظر أيضاً ابن قتيبة طبعة فستنفلد ص٢٠٣ . ويشبهه حديث لعلى بن حسين أورده اليعقوبى فى حولياته طبعة هوتسماج ٢ ص ٣٦٤ .

(١٢) انظر (مارتن هارتمان) *Der Islam* (ليبزج سنة ١٩٠٩) ص ١٨ .

(١٣) لدراسة هذه النقطة انظر مذكرتى *Die Sabbathinstitution im Islam*[1] (لذكرى (د . كوفمان) — برسلو سنة ١٩٠٠ ص ٨٩ ، ٩١) .

(١٤) *Revue critique et littéraire* سنة ١٩٠٦ ص ٣٠٧ .

(١٥) انظر ملاحظات (س . ه . بكر) القيمة فى مقاله : « هل الإسلام خطر على مستعمراتنا ؟ » فى (*Koloniale Rundschau*[2] مايو سنة ١٩٠٩ ص ٢٩٠ وما بعدها) . انظر أيضاً : « الإسلام والدولة المراكشية » . بقلم (ا . ميشوبلير) فى مجلة العالم الإسلامى سنة ١٩٠٩ م ٨ ص ٣١٣ وما بعدها ، وذلك كدحض للاعتقاد الشائع بأن مبادىء الإسلام تحول دون الرقى السياسى .

(١٦) (تِزْدول) Tisdall « ديانة الهلال » طبعة ثانية (لندرة ١٩٠٦ جمعية ترقية المعارف المسيحية (Sciety for promoting Christian knowledge ص ٦٢ .

---

(١) نظام السبت فى الإسلام . (٢) المجلة الاستعمارية .

(١٧) (سبروت) Sproat : « مشاهد ودراسات لحياة المتوحشين » ، وقد استشهد به الأستاذ (وسترمارك) وأورد معه أمثلة كثيرة فى كتابه « أصل الآراء الخلقية وتطورها » ج ٢ ص ١٦٠ (لندرة سنة ١٩٠٨) . ونظراً لأنه لا يوجد فى اللغة التركية والعربية ما يقابل كلمة intéressant (= شيق) فقد استُنتج أيضاً خطأً انعدام أى شغف بالمعرفة والاستطلاع عند الترك والعرب (دنكان ب . مكدونلد : « الموقف الدينى والحياة فى الإسلام » شيكاغو سنة ١٩٠٩ ص ١٢١ ، ١٢٢ . وهذا الاستشهاد مأخوذ من كتاب « تركية أوربة » للكاتب المتخذ لنفسه اسم أوديسيَس Odysseus .

(١٨) (أولدنبرج) : « ديانة الڤيدا » برلين سنة ١٨٩٤ ص ٣٠٥ .

(١٩) كتاب البخلاء للجاحظ طبعة ج . فلوتن . ليدن سنة ١٩٠٠ ص ٢١٢ .

(٢٠) انظر « حديثاً » شارل لَيَلْ فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩١٤ ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢١) تزدول ، المصدر السابق ص ٨٨ .

(٢٢) إن محاكاة النبى والتأسى به حتى فى أدق التفاصيل — والرواية تمثله حائزاً لأسمى الصفات والكمالات — هى الغاية التى يتجه نحوها المسلمون الأتقياء فى همة وحماسة زائدة . وفى البداية كان الغرض من هذه المحاكاة أداء الأوضاع التعبدية العملية والعادات والأعمال الظاهرة فى الحياة أكثر مما هو للاقتداء بالنواحى الخلقية . وعبد الله بن عمر الذى التزم بهذا النوع من التقليد للنبى (حتى اعتُبر أشد الناس تدقيقاً وملاحظة « للأمر الأول » — ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ٢٠٦) ؛ قد اجتهد فى أسفاره أن ينزل دائماً حيث كان ينزل النبى ، وأن يصلى حيث كان يصلى ، وأن ينيخ راحلته فى الأمكنة التى أناخ النبى فيها ؛ ونقلوا أن النبى نزل تحت شجرة فكان يتعهدها بالماء لئلا تيبس (تهذيب النووى ص ٣٥٨) .

كذلك يدأب المسلم على الاقتداء بالصحابة والتحلى بصفاتهم ، وسجاياهم هى مما يحتذيه المؤمن الصادق (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر النمرى — القاهرة طبعة المحمصانى سنة ١٣٢٦ هـ . ص ١٥٧) ، ففى هذا كل السُّنة . والتصوير الدينى

لسيرة الرسول يبين أن النبي لم تغب عنه الفكرة بأن أبسط تفصيلات سلوكه فى المسائل التعبدية سوف تعد سنة فيما بعد ، ولهذا كان يهمل أحيانا وضعاً من الأوضاع لكيلا يجعل المؤمنون منه سنة : (ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٣١) .

ومن الغريب أن محمداً لم ينظر إليه فى العصور الإسلامية الأولى كأنموذج أخلاق ، وقد كتبت مؤلفات كثيرة فى هذا الموضوع . والفقيه القرطبى أبو محمد على بن حزم (المتوفى عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٩ م) ، المعروف باستمساكه الشديد بالسنن الشرعية والاعتقادية ، قد لخص هذا المطلب الخلقى فى بحث أسماه : الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » . وهو كتاب جدير بأن نشير إليه لأن المؤلف أضاف إليه بعض الاعترافات : « من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه . أعاننا الله على الاتساء به بمنه آمين » . (القاهرة سنة ١٩٠٨ طبعة المحمصانى ص ٢١) .

وقد ذهب بعض الكتاب إلى أبعد من هذا . وهذه النقطة ، مع أنها تتصل بطائفة من الأفكار ، ستعالج فى موضع تال ، غير أننا نبادر بأن نزيد عليها ما نضيفه لهذا البحث : وهو أنه عندما يبلغ التطور الخلقى للإسلام درجة سامية رفيعة وذلك بتأثير الحركة الصوفية (الفصل ٤) سينحصر المثل الأعلى الخلقى المنشود فى الدأب على أن تكون الصفات الإلهية أساساً للسلوك العملى فى الحياة ، أى « التخلق بأخلاق الله » .

[انظر أيضاً *la-halâkh akhar middow chel haqqâdoch b.h.* (سفر التثنية ٤٩ طبعة فريدمان ٨٥ أ ، ١٦) .]

وسبق أن اقترح الصوفى القديم (أبو الحسين النورى) نفس هذه الغاية الخلقية (تذكرة الأولياء للعطار طبعة ر . ا . نيكلسون لندن سنة ١٩٠٧ ج ٢ ص ٥٥) .

ولكى يدعو ابن عربى إلى الفضيلة التى يقصرها على أن يفعل الإنسان الخير لأعدائه يبنى دعوته على الاقتداء بالله (مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٠٦ ص٨١٩) . وأخرج الغزالى فى مقدمة كتابه « فاتحة العلوم » (القاهرة سنة ١٣٢٢هـ)

(١٧) (سپروت) Sproat : « مشاهد ودراسات لحياة المتوحشين » ، وقد استشهد به الأستاذ (وسترمارك) وأورد معه أمثلة كثيرة فى كتابه « أصل الآراء الخلقية وتطورها » ج ٢ ص ١٦٠ (لندرة سنة ١٩٠٨) . ونظراً لأنه لا يوجد فى اللغة التركية والعربية ما يقابل كلمة intéressant (= شيق) فقد استُنتج أيضاً خطأً انعدام أى شغف بالمعرفة والاستطلاع عند الترك والعرب (دنكان ب . مكدونلد : « الموقف الدينى والحياة فى الإسلام » شيكاغو سنة ١٩٠٩ ص ١٢١ ، ١٢٢ . وهذا الاستشهاد مأخوذ من كتاب « تركية أوربة » للكاتب المتخذ لنفسه اسم أوديسيَس Odysseus .

(١٨) (أولدنبرج) : « ديانة الڤيدا » برلين سنة ١٨٩٤ ص ٣٠٥ .

(١٩) كتاب البخلاء للجاحظ طبعة ج . فلوتن . ليدن سنة ١٩٠٠ ص ٢١٢ .

(٢٠) انظر « حديثاً » شارل لَيَلْ فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩١٤ ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢١) تزدول ، المصدر السابق ص ٨٨ .

(٢٢) إن محاكاة النبى والتأسى به حتى فى أدق التفاصيل — والرواية تمثله حائزاً لأسمى الصفات والكمالات — هى الغاية التى يتجه نحوها المسلمون الأتقياء فى همة وحماسة زائدة . وفى البداية كان الغرض من هذه المحاكاة أداء الأوضاع التعبدية العملية والعادات والأعمال الظاهرة فى الحياة أكثر مما هو للاقتداء بالنواحى الخلقية . وعبد الله بن عمر الذى التزم بهذا النوع من التقليد للنبى (حتى اعتُبر أشد الناس تدقيقاً وملاحظة « للأمر الأول » — ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ٢٠٦) ؛ قد اجتهد فى أسفاره أن ينزل دائماً حيث كان ينزل النبى ، وأن يصلى حيث كان يصلى ، وأن ينيخ راحلته فى الأمكنة التى أناخ النبى فيها ؛ ونقلوا أن النبى نزل تحت شجرة فكان يتعهدها بالماء لئلا تيبس (تهذيب النووى ص ٣٥٨) .

كذلك يدأب المسلم على الاقتداء بالصحابة والتحلى بصفاتهم ، وسجاياهم هى مما يحتذيه المؤمن الصادق (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر النمرى — القاهرة طبعة المحمصانى سنة ١٣٢٦ هـ . ص ١٥٧) ، فى هذا كل السُّنة . والتصور الدينى

لسيرة الرسول يبين أن النبي لم تغب عنه الفكرة بأن أبسط تفصيلات سلوكه فى المسائل التمبدية سوف تعد سنة فيما بعد ، ولهذا كان يهمل أحيانا وضعاً من الأوضاع لكيلا يحمل المؤمنون منه سنة : (ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٣١) .

ومن الغريب أن محمداً لم ينظر إليه فى العصور الإسلامية الأولى كأنموذج أخلاق ، وقد كتبت مؤلفات كثيرة فى هذا الموضوع . والفقيه القرطبى أبو محمد على بن حزم (المتوفى عام ٤٥٦ ه / ١٠٦٩ م) ، المعروف باستمساكه الشديد بالسنن الشرعية والاعتقادية ، قد لخص هذا المطلب الخلقى فى بحث أسماه : الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » . وهو كتاب جدير بأن نشير إليه لأن المؤلف أضاف إليه بعض الاعترافات : « من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه . أعاننا الله على الاتساء به بمنه آمين » . (القاهرة سنة ١٩٠٨ طبعة المحمصانى ص ٢١) .

وقد ذهب بعض الكتاب إلى أبعد من هذا . وهذه النقطة ، مع أنها تتصل بطائفة من الأفكار ، ستعالج فى موضع تال ، غير أننا نبادر بأن نزيد عليها ما نضيفه لهذا البحث : وهو أنه عندما يبلغ التطور الخلقى للإسلام درجة سامية رفيعة وذلك بتأثير الحركة الصوفية (الفصل ٤) سينحصر المثل الأعلى الخلقى المنشود فى الدأب على أن تكون الصفات الإلهية أساساً للسلوك العملى فى الحياة ، أى « التخلق بأخلاق الله » .

[انظر أيضاً *la-halâkh akhar middow chel haqqâdoch b.h.* (سفر التثنية ٤٩ طبعة فريدمان ٨٥ ا ، ١٦) .]

وسبق أن اقترح الصوفى القديم (أبو الحسين النورى) نفس هذه الغاية الخلقية (تذكرة الأولياء للعطار طبعة ر . ا . نيكلسون لندن سنة ١٩٠٧ ج ٢ ص ٥٥) .

ولكى يدعو ابن عربى إلى الفضيلة التى يقصرها على أن يفعل الإنسان الخير لأعدائه يبنى دعوته على الاقتداء بالله (مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٠٦ ص٨١٩) . وأخرج الغزالى فى مقدمة كتابه « فاتحة العلوم » (القاهرة سنة ١٣٢٢هـ)

التعبير التالى على شكل حديث : « التخلق بأخلاق الله » . وهو بتأثير نظرته الصوفية الدين صاغ المبدأ التالى مُلَخصاً بذلك أدوار النمو والتطور الطويلة السابقة وهو : « أن كمال العبد وسعادته هو فى التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلى بمعانى صفاته وأسمائه » ويبدو أنه يقصد بهذا التعمق فى معانى أسماء الله الحسنى . « والمقصد الأسنى » (القاهرة مطبعة التقدم سنة ١٣٢٢ هـ ص ٢٣ وما بعدها) .

وإن ما كتبه إسماعيل الفارانى (حوالى سنة ١٤٨٥م) فى هذا الموضوع فى شرحه: « للثمرة المرضية فى بعض الرسالات الفارابية » (طبعة هورتن Horten مجلة الآثار الأشورية م ٣٠ ص ٣٥٠) ليس سوى صورة من آراء الغزالى ، ومع ذلك فهذا التصوير للمثل الأعلى الخلق سيتأثر عند الصوفية بالفكرة الأفلاطونية التى ترى أن التخلص المنشود من الطبيعة الجثمانية ينحصر فى التشبه بالله فى حدود الإمكان (تيتيت Théététe ١٤٦ ب جمهورية ٦١٣ ا) : وإن الفلاسفة العرب الذين تأثروا بالمؤلفات اليونانية التالية قد وضعوا للفلسفة غاية عملية هى « التشبه بالخالق عز وجل فى حدود الطاقة البشرية » (مباحث فلسفة الفارابى) طبعة (ف . ديتريصى . ليدن سنة ١٨٩٠ ص ٥٣) وترد كثيراً فى كتابات « إخوان الصفا » ومع ذلك فالصوفية تتقدم خطوة أخرى فى تعريفها « لغاية الغايات » summum bonum (انظر فيما يلى الفصل الرابع نهاية الفقرة ٦) .

(٢٣) انظر[1] *Oriens Christianus* سنة ١٩٠٢ ص ٣٩٢ .

(٢٤) البخارى كتاب التوحيد رقم ١٥ ، ٢٢ ٢٨ ، ٥٥ . وهذا الحديث هو مما استشهد به (چ . بارت) *(Mélanges Berliner* — فرنكفورت على المين سنة ١٩٠٣ ص ٣٨ رقم ٦) فى مختصر شامل عن العناصر « المدراشية » midraschiques فى الحديث الإسلامى .

(٢٥) بعض المفسرين يحمل معناها شبيهاً بمعنى الآية ١٤ من سورة الرعد : « وهو شديد المحال » . انظر أمالى القالى طبعة بولاق سنة ١٣٢٤هـ ج ٢ ص ٢٧٢[2] .

---

(١) الشرق المسيحى .

(٢) فى هذا الموضع : وحدثنا أبو بكر عن أبى حاتم عن ابن الأثرم عن أبى عبيدة قال : معنى قوله عز وجل « وهو شديد المحال» شديد المكر والعقوبة ؛ ويلى هذا استشهادات مختلفة من الشعر.

(٢٦) انظر أيضاً : (هوپلفدريم) Hupfeld-Riehm, *Commentaire du ps. 18* ص ١٨ .

(٢٧) وبهذا التخريج تُفسَّر الجملة المألوفة : « الله يخون الخائن » وانظر أيضاً عبارة وردت فى ابن سعد ج ٨ ص ١٦٧ : « خدعتنى خدعها الله » : والآية ١٤١ من سورة النساء[1] . وينسب إلى معاوية فى خطبته التى توعد فيها أهل العراق على ثوراتهم قوله : « وإن الله ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به » تاريخ الطبرى طبعة ليدن ج ١ ص ٢٩١٣) .

وإذا كان « المكر والكيد » المنسوبان لله لا يُقصد بهما سوى أن الله يُحبط كيد خصومه ، فإن عبارة مكر الله لم يحل حائل دون انتقالها من القرآن إلى اللغة العادية المألوفة فى الأدعية ، ومن البيّن أن هــذا الانتقال يقصد به إيداعها فى صيغ لا يمكن أن تتفق مع هذا التفسير ، ومن الأدعية الأثيرة المستحبة كثيراً عند المسلمين الدعاء : « نعوذ بالله من مكر الله » . وفى كتاب « الروض الفائق فى المواعظ والرقائق » للشيخ الحريفيش ما يشبه صيغة مثل هذا الدعاء حينما يطلب العون من الله ضد الله : أعوذ بك منك (القاهرة سنة ١٣١٠ هـ ص ١٠ ، ص ١٣) انظر أيضاً « تذكرة الأولياء » للعطار ج ٢ ص ٨٠ . كذا عبارة « منك إليك » فى *Z. D. M. G.*[2] م ٤٨ ص ٩٨ .

ومن أذكار النبى التى يستحب للمسلم تلاوتها الدعاء التالى : « رب أعنى ولا تعن علىّ ، وانصرنى ولا تنصر علىّ ، وامكر لى ولا تمكر علىّ » (« الأذكار » للنووى — القاهرة سنة ١٣١٢ هجرية ص ١٧٥ . وكما ورد أيضاً فى صحيح الترمذى ج ٢ ص ٢٧٢) . وتوجد أيضاً هذه الصيغة أكثر وضوحاً فى مجموعة أدعية شيعية اسمها : « صحيفة كاملة » (انظر مجموعة نولدكه الآنفة الذكر ص ٣١٤ من أسفل) ص ٣٣ : « وكِدْ لنا ولا تكد علينا ، وامكر لنا ولا تمكر بنا » . وقارن ماذكر بالعبارة التالية . قال عمر رضى الله عنه : لو أن رجلى الواحدة داخل الجنة والأخرى

---

(١) يريد قوله تعالى : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) .
(٢) مجلة المستشرقين الألمانية .

خارجها ماأمنتُ مكر الله » . (طبقات الشافعية للسبكى ج ٣ ص ٥٦ من أسفل) . انظر أيضاً تذكرة الأولياء للعطارج ٢ ص ١٧٨ . والمسلمون أنفسهم لا يفهمون من هذه التعبيرات سوى دلالتها على شدة عقاب الله وصرامته .

(٢٨) انظر على الأخص ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ٣١[١] .

(٢٩) ابن سعد ج ٤ق ١ص ٢٦ .

(٣٠) من هذه الوجهة نظر (ليونى كايتانى) فى كتابه (« حوليات الإسلام » ج ٢ فى مواضع متفرقة) للحروب الإسلامية الأولى .

(٣١) انظر « لا مانس » « دراسات عن حكم الخليفة الأموى معاوية الأول » ج ١ ص ٤٢٢ (فى مجموعة الكلية الشرقية بجامعة القديس يوسف ج٣ص٢٨٦ [سنة ١٩٠٨] ؛ حيث لا يأخذ فيه بالنظرية الإسلامية القديمة ، وهى أن الإسلام ديانة عالمية .

(٣٢) إنى فى هذا متفق مع رأى نولدكه فيما يتعلق بكتاب كايتانى W. Z. K. M. م ٢١ ص ٣٠٧ سنة ١٩٠٧ . ويعلق نولدكه أهمية كبرى على الآيات القرآنية المنزلة بمكة والتى تمثل النبى رسولا ونذيراً بعث « كافة للناس » .

(٣٣) أى إنه بعث للعرب والعجم (دراسات إسلامية) ج ١ ص ٢٦٩ . غير أن مجاهداً أحد متقدمى المفسرين يذكر أن كلمة « أحمره » تشير إلى الناس «وأسوده» تشير إلى الجن (مسند أحمد ج ٥ ص ١٤٥ من أسفل) .

(٣٤) يفرد الحديث الإسلامى لهذه العالمية ميدانا يتخطى الإنسانية ذاتها ؟ فلا يشمل الجن فحسب ، وإنما يشمل الملائكة أيضاً بوجه من الوجوه . وقد أورد ابن حجر الهيثمى فى كتابه « الفتاوى الحديثية » (القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ ص ١١٤ وما بعدها) بحثاً مفصلا للآراء الإسلامية فى هذه المسألة[٢] .

---

(١) يريد : مكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بالمشركين ، وكان ذلك أول يوم مكر فيه .

(٢) جاء فى هذا الموضع : (وخبر مسلم ، الذى لا نزاع فى صحته صريح ، فى ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم : وأرسلت إلى الخلق كافة. فهو صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع المخلوقات ، حتى الجمادات ، بأن ركب فيها فهم وعقل مخصوص حتى عرفته وآمنت به .

(٣٥) ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ٨٣[1].

(٣٦) وأياً ما يكن الحكم الذى يمكن أن يكون للقيمة الأدبية للقرآن ، فإن مما لا جدال فيه فى رأى الخالى من التعصب ، أن الذين اشتغلوا فى عهد الخليفتين أبى بكر وعثمان بكتابة القرآن قد قاموا بعملهم أحياناً على صورة غير مرضية .

إن أقدم السور المكية المتميزة بقصرها ، والتى سبق أن اتخذها النبى نصوصاً تعبدية (تتلى فى الصلاة ، وذلك قبل هجرته إلى المدينة ، والتى تؤلف كل مقطوعة منها جزءاً كاملا من التنزيل ، كانت بسبب إيجازها أقل تعرضاً للتصحيف عند جمعها وكتابتها .

أما بقية سور الكتاب ، وخاصة فى بعض السور المدنية ، فيتجلى فيها عدم النظام والارتباط ، ذلك ما سبب كثيرا من المتاعب وأقام عديد الصعاب فى وجه المفسرين فى العصور التالية ، الذين كان عليهم أن ينظروا لترتيب السور والآيات على اعتبار أنه ترتيب أساسى ونظام جوهرى لا يمكن أن يمس .

ولو تحقق فى وقت من الأوقات وفاقاً لرغبة (رودلف جيير) (جوتنجن Gel Anz سنة ١٩٠٩ ص ٥١) التى أفصح عنها حديثاً ، ونوه بمسيس الحاجة لها وهى أن تنشر طبعة للقرآن « انتقادية حقاً ومتضمنة استيفاءاً كاملا وتمحيصاً وافياً للنتائج العلمية » ، ينبغى أن تغير مواضع بعض الآيات المتقطعة من سياقها الأول وعدم إبقاء التنقيحات والتحشيات المختلفة (انظر أيضاً « أوجست فيشر » فى مجموعة نولدكه ص ٣٣ ومابعدها) وإن حقيقة التغييرات التى حدثت أثناء جمع القرآن وتحريره قد أوضحها نولدكه جيداً فى البحث الذى أفرده عن ترتيب بعض السور فى كتابه (تاريخ القرآن) (الطبعة الأولى ص ٧٠ : ١٤٠ ، الثانية ص ٨٧ : ٢٣٤) .

وعندما نفترض وجود زيادات لامبرر لها يكون من الميسور أن نصل أحياناً إلى أن نحل بسهولة كثيراً من مصاعب فهمنا للمتن ؛ وأرغب فى تقريب هذا بمثال :

(١) فيه : أخبرنى عبد الرحمن بن أبى ليلى فى قوله : (وأثابهم فتحاً قريباً) قال خيبر ؛ (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها) ، قال فارس والروم .

فى السورة الرابعة والعشرين (النور) من الآية ٢٦ نجد بيان الطريقة التى يؤدى بها المسلمون الصالحون الزيارة ؛ التى ينبغى أن يستأذنوا لها ، وأن يحيوا أهل المنزل ، وأن يسلكوا مسلكا خاصاً مع النساء والأطفال . والأحكام المتعلقة بهذه الظروف قد أصبحت مضطربة بسبب اعتراض استطرادات خارجة عن الموضوع الأصلى ، وذلك فى الآيات ٣٢ - ٣٤ — ثم مابين ٣٥—٥٦ ، وهى لاتتصل بالفكرة الأصلية إلا من بعيد (انظر نولدكه وشولى ص ٢١١)[١] .

وأخيراً فى الآية ٥٧ نعود لموضوع الاستئذان فى الزيارة حتى الآية ٥٩ . ثم يرد فى الآية ٦١ : « ليسَ على الأعمى حَرَجٌ وَلَا عَلى الأعْرَجِ حَرَجٌ ولاَ على المَريضِ حَرَجٌ ولا عَلى أَنفُسكم أَنْ تَأْكلُوا مِنْ بُيوتكم أَو بُيُوتِ آبائِكم أَو بيُوتِ أُمهَاتِكم أَو بيُوتِ إخْوانِكم أَو بيُوتِ أَخَواتِكم أَو بيُوتِ أَعمامِكم أَوْ بيُوتِ عَمَّاتِكم أَو بيُوتِ أَخْوالِكم أَو بيُوتِ خَالاتِكم أَو مَا مَلَكْتُم مَفَاتِحَهُ أَو صَدِيقِكم ليسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جميعاً أَو أَشْتَاتاً ، فإذَا دَخَلتُم بيُوتاً فَسَلّموا على أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبة » .

فالنبى يأذن هنا للمؤمنين بحرية الجلوس على موائد ذويهم وأقربائهم ، بل يأذن لهم بقبول ضيافة قريباتهم ، فيتبادر إلى الذهن أول وهلة أن الكلمات الأولى فى الآية الستين التى تزيد فى هذه الإباحة فتشمل العُميان والعرجى والمرضى لاتلتئم كثيرا مع السياق الطبيعى لبيان الفكرة وتفصيلها .

وقد عالج أحد الباحثين موضوع (الطب فى القرآن) فاعتمد بصورة جدية هذه العبارة المنتزعة من مكانها الأصلى وصاغ لدحضها هذا النقد : وهو « أنه إذا كان وجود جماعة العميان والعرج لا يسبب شيئاً من المضايقة عند تناول الطعام ، فان أكلة واحدة مع أحد المرضى يمكن أن تكون خطرة على الصحة ، وأن النبى كان يحسن

---

(١) قال البيضاوى : الذى استشهد به المؤلف فى آخر هذا القسم ، فى الآية رقم ٥٩ « رجوع إلى تتمة الاحكام السالفة بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها ، والوعد عليها والوعيد على الإعراض عنها . ثم الاستطراد ، الذى يعيبه المؤلف وبنى عليه افتراض زيادات فى القرآن الكريم ، فن من فنون البلاغة العربية ، فكان عليه أن يرجع إلى هذا الفن قبل أن يحكم ذوقه ولغته .

به ألا يقاوم الاشمئزاز الذى تحدثه مثل هذه المشاركة » [(أوبتز) opitz « الطب فى القرآن » شتوتجرت سنة ١٩٠٦ ص ٦٣] .

غير أن فحصاً أعمق من هذا يثبت لنا أن هذه القطعة الغريبة عن سياق الفكرة وبسطها قد نقلت من مجموعة أخرى من الحكم والتعاليم ، إذ هى تنطبق فى الأصل لا على مشاركة الإنسان فى تناول الطعام فى غير منزله ، ولكن تنطبق على الاشتراك فى الغزوات عندما كان الإسلام فى بدايته .

إن النبى فى سورة الفتح من الآية ١١ إلى ١٦ يغلظ القول ويعنف « المخلفين من الأعراب » الذين لم يشتركوا فى الغزوة السابقة ، وينذرهم بعقاب صارم من ربهم ثم يضيف الآية ١٧ : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » ، وهى كنص الآية ٦١ فى سورة النور : أى أن تخلف هؤلاء الأشخاص أو غيرهم ممن يعوقهم عائق قهرى يقبل عذرهم . فهذه الجملة قد أدخلت فى هذا السياق الآخر الذى كانت غريبة عنه ، وقد أثرت أثراً واضحا فى تحرير الآية التى لا يمكن إعادة بدايتها الأصلية على وجه الدقة .

وقد حاول بعض المفسرين المسلمين أنفسهم — حقيقة دون أن يفترضوا وقوع مثل هذه التحشية — أن يشرحوا هذه الكلمات تبعاً لمعناها الظاهر ، وهو بيان العذر فى جانب القوم العاجزين جثمانياً عن الاشتراك فى الحرب ولكنهم اضطروا للاعتراف أن هذا التفسير غير مقبول ، لأن الجملة المشتبه فيها إن أخذت بهذا المعنى ، فهى لاتلائم « ماقبله وما بعده » (البيضاوى طبعة فليشرج ٢ ص ٣١[1])

---

(١) يكفى فى الرد على كل ما أثاره المؤلف هنا من شبهات أن تقرر أن هؤلاء الضعفاء كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء يخشون من استقذارهم ؛ وكانوا كذلك يتحرجون من دخول بيوت المجاهدين فى غيبتهم مع أنه أذنوا لهم فى دخولها ، فرفعت الآية (٦١) الحرج عنهم فى الحالين جميعاً ؛ ولا شك أن كلا التفسيرين ملائم لما قبله ولما بعده ، وكلاهما أثبته البيضاوى . كان الإنصاف إذاً يقضى على المؤلف أن يعرضهما معاً ، لكنه اختار معنى آخر مردوداً هنا (وهو الترخيص لهؤلاء الضعاف فى القعود عن الجهاد) ليبنى عليه افتراضه الخيالى ، وهو أن هذه القطعة قد نقلت من سورة الفتح ، ولا صحة له إلا تشابه اللفظين .

حواشى القسم الثانى

تطور الفقـــه

(١) « الديانات القومية والديانات العالمية » لأبراهام كونن (محاضرات هبرت سنة ١٨٨٢) ص ٢٩٣ .

(٢) انظر مثلا ابن سـعد ج ٤ ق ٢ ص ٧٦[١] . وتوجد الأحاديث والروايات المأثورة عن مقادير الزكاة فى « دراسات إسلامية » ج ٢ ص ٥٠ هـ ٣ . وفيما خلا هذا البيان بمقادير الزكاة tarif تسلم الجباة (المصدِّقون) تعليمات مكتوبة ذا طابع عملى ، تتعلق بالتدابير التى تستخدم عند التطبيق . المصدر نفسه ج ٦ ص ٤٥[٢].

(٣) « لم يكن العرب فى العصور الإسلامية الأولى متعصبين ، بل ائتلفوا مع الساميين المسيحيين وكادوا يتآخون معهم ، ولما اعتنق هؤلاء الإسـلام حدث عقب ذلك مباشرة أن أدخلوا فى الديانة الجديدة هذه الصلابة والعداء الأعمى الذى ناهضوا به مذهب بيزنطة مما ساعد من قبل على اضمحلال المسيحية الشرقية » . الدراسة التاريخية للإسلام » لليونى كايتانى (برلين سنة ١٩٠٨ مكاتبة للمؤتمر التاريخى الدولى ببرلين) ص ٩ .

(٤) انظر تطبيق عمر لهذا المبدأ إزاء عبده المسيحى : ابن سعد ج ٦ ص ١١٠[٣] .

---

(١) فى هذا الموضع : « وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم للعلاء كتاباً فيه فرائض الصدقة ، فى الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال ، يصدقهم على ذلك ، وأمره أن يأخذ الصدقة من أغنيائهم فيردها على فقرائهم » .

(٢) لقد جاء فى هذا الموضع « عن سويد بن غفلة ، قال : أتانا مصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت بيده فقرأت فى عهده ؛ فإذا فيه ألا يفرق بين مجتمع ، ولا يجمع بين متفرق ، فأتاه رجل بناقة عظيمة ململمة ، فأبى أن يأخذها ، ثم قال : أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن أتيت رسول الله وقد أخذت خيار إبل امرىء مسلم » !

(٣) عن أسف ، قال : « كنت مملوكا لعمر بن الخطاب وأنا نصرانى ، فكان يعرض علىّ الإسلام ويقول إنك لو أسلمت استعنت بك على أمانتى ، فإنه لا يحل لى أن أستعين بك على أمانة المسلمين ولست على دينهم ، فأبيت عليه ، فقال : لا إكراه فى الدين . فلما حضرته الوفاة أعتقنى وأنا نصرانى ، وقال: اذهب حيث شئت » .

ولا ينسب إلى النبي أنه حمل أحداً على اعتناق الإسـلام ، المصدر نفسه ص ٣٠[1] .

(٥) نقلا عن « تراجم الحكماء » للقفطى طبعة « لِبِّرت » ص ٣١٩ . اضطر موسى بن ميمون قبيل مغادرته لوطنه الأندلس أن يتظاهر هنالك باعتناق الإسـلام ، ولـكنه ضويق فى مصر حيث كان على رأس اليهودية ، فقد ابتلى فى آخر زمانه برجل من الأندلس فقيه يدعى « بأبى العرب » بن معيشة ، وصل إلى مصر واجتمع به وحاققه على إسلامه بالأندلس ، وشنع عليه ورام أذاه ، فمنعه عنه عبد الرحيم بن على الشهير باسم القاضى الفاضل ، وقال : « رجل مكره لا يصح إسلامه شرعاً » ، ولذا لم يتيسر إثارة مسألة الردة .

وقد أفتى مفتى القسطنطينية بهذا الحكم نفسه حوالى نهاية القرن السابع عشر الميلادى فى قضية الأمير المارونى يونس الذى أرغمه والى طرابلس الشام على اعتناق الإسلام ، ثم عاد جهرة إلى عقيدته المسيحية ، فأوضح المفتى الرأى القائل بأن الاعتراف بالإسلام إذا كان مبنياً على العنف والإكراه فهو باطل وغير صحيح ، وقد صادق السلطان على هذه الفتوى .

وكتب بطريق أنطاكية المعاصر ستيفانوس بتروس Stephanus Petrus فى هذا الصدد فى منشور له : أن يونس هذا عنى بأن يبعث عن طريق سلطان الترك العظيم بالرسائل وأحكام القضاة التى أكدت أن الارتداد عن الدين الذى أكره على اعتناقه باطل ولا قيمة له (رحلة إلى سوريا وجبل لبنان لـ « دى لاروك » باريس سنة ١٧٢٢ ج ٢ ص ٢٧٠ — ٢٧١) . انظر أيضاً كتاب « الإصلاحات السياسية والشرعية والاجتماعية المقترحة فى الأمبراطورية العثمانية » لمولوى سراج على — بومباى سنة ١٨٨٣ وذلك فى موضوع معاملة المرتدين فى الإسلام : ص ٥٠ : ٥٨ .

(٦) الواقدى طبعة ڤِلهوزن (لمحات وتمهيد) ج ٤ متن ٧٧ .

(٧) كتاب فتوح البلدان للبلاذرى طبعة دى غويه ص ٧١ .

---

(١) عن بجمع بن عتاب بن شمير عن أبيه قال : « قلت للنبى صلى الله عليه وسلم يا رسول الله : إن لى أباً شيخاً كبيراً وإخوة ، فأذهب إليهم ، فعسى أن يسلموا فآتيك بهم ؟ قال : إن هم أسلموا فهو خير لهم ، وإن هم أقاموا فالإسلام واسع أو عريض » .

(٨) انظر « مذكرة فى فتح سوريا » (الطبعة الثانية) لدى غويه (ليدن سنة ١٩٠٠) ص ١٠٦ ، ١٤٧ .

(٩) للوقوف على أبحاث تتصل بهذه النقطة ونقد قيمتها انظر حوليات الإسلام لـكايتانى ج ٣ ص ٣٨١ ، ٩٥٦ — ٥٩ .

(١٠) مثلاً إذا كان المسلمون حقاً بُعيد فتحهم للشام قد فرضوا على المسيحيين أن لا يُسمعوهم نواقيسهم فالقصة التى رواها ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » (طبعة بروكلمان ص ١٣٨) عن الخليفة معاوية تصبح مستحيلة ؛ لقد زعم فيها أن ضجيج هذه النواقيس كان يقضّ الخليفة الـكهل فى نومه ، فأرسل رسولا إلى بيزنطة ليبطلها . أما عن تشييد الـكنائس فانظر مجلة المستشرقين الألمانيين م ٣٨ ص ٦٧٤ .

(١١) تاريخ الطبرى ج ١ ص ٢٩٢٢ . لقد نها عمر عن إرهاق الأهـالى الخاضعين للخراج (أهل الذمة) ، وأنـكر إثقال عاتقهم . وروى عن النبى أنه قال : « من آذى ذميًّـا فأنا خصمهُ ، ومنْ كنتُ خصمهُ خصمتهُ يومَ القيامة » تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسما ج ٢ ص ١٦٨ انظر أيضاً التعليمات المعطاة لعامل حمص (ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ١٤)[1] .

(١٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٦٢ . وإن عبارات كهذه جالت بلا شك فى ذهن شيخ الإسلام جمال الدين عند ما أوضح المساواة بين الأديان فى الدستور التركى الجديد ؛ إذ قال لمراسل جريدة الديلى نيوز (٨ أغسطس سنة ١٩٠٨) : « لـكم أن تثقوا بأن الدستور إذا كان حراً فالإسلام أعظم منه حرية وأوسع ديمقراطية » .

غير أن شعور التعصب نحو الـكفرة قد خلق روايات عن النبى — وسنستشهد لبيان ذلك فيما بعد بمثال — تشجّـع أخذ غير المسلمين بالشدة ومجافاتهم ، وما ورد منها عن النبى فى النهى عن تحية الـكفار والرد عليهم بعبارات ذات توريات مبهمة قد وثقه المسلمون واعتمدوه ، بل ورد فى كتب الأحاديث الصحيحة .

---

(١) حدثنا سعيد بن عبد الرحمن الجمحى قال : « لما مات عياض بن غنم ولى عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن جذيم عمله ، وكان على حمص وما يليها من الشام ؛ وكتب إليه كتاباً يوصيه فيه بتقوى الله والجد فى أمر الله والقيام بالحق الذى يجب عليه ، ويأمره بوضع الخراج والرفق بالرعية » .

(البخارى : كتاب الجهاد رقم ٩٧ ، وباب الاستئذان رقم ٢٢ ؛ وباب الدعوات رقم ٦٧)[1]

انظر أيضاً ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ٧١ ؛ وكذا ج ٥ ص ٣٩٣ ، غير أنا مهما قلبنا الموضوع على وجوهه ، لا نستطيع أن نوفق بين هذا التعصب وروح الإسلام التى يشهد بها ما أورده ابن سعد ج ٥ ص ٣٦٣ ، ج ٦ ص ٢٠٣[2] .

ومن هذا القبيل توجد أحاديث أخرى لم تعتمد لأنها من الأحاديث الموضوعة ، كالذى أورده ابن حجر الهيثمى فى كتابه الفتاوى الحديثية (القاهرة سنة ١٣٠٧ ص ١١٨) لحديث موضوع لا أصل : « من بَشَّ فى وجه ذمىّ فكأنما لكزنى فى جنبى » . وما أورده الذهبى فى ميزان الاعتدال (طبعة لكنو سنة ١٣٠١ ج ٢ ص ٣٣٢ : « استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبرائيل فناوله يده فلم يصافحه ، قال يا جبرائيل ما منعك أن تأخذ بيدى ؟ قال إنك مسست يد يهودى ، فتوضأ نبىّ الله وناوله يده فتناولها » .

وهناك مثال أشد وضوحاً ورد فى نفس الجزء ص ٢٧٥ وأثبته الذهبى على اعتبار أنه « خبر باطل » : « من شارك ذمياً فتواضع له ، إذا كان يوم القيامة ضُرب بينهما وادٍ من نار ، فقيل للمسلم : خُض إلى ذلك الجانب حتى تحاسب شريكك » . وفى الحق أن عقود الارتباط والاشتراك بين المسلمين واليهود كانت متوافرة فى العصر الذى ظهر فيه هذا الحديث ، وإن ما ينشأ عن هذه العقود من علاقات يؤلف الفكرة الغالبة فى الأبحاث الشرعية لدى متكلمى اليهود (انظر كتاب *Geonica* للويس جِنْزبرج — نيويورك سنة ١٩٠٩ ج ٢ ص ١٨٦) وهذا الحديث المتعصب

---

(١) فى هذا الموضع أن عائشة رضى الله عنها قالت . (كانت اليهود يسلمون على النبى صلى الله عليه وسلم تقول : السامّ عليك ، ففطنت عائشة إلى قولهم فقالت : عليكم السام واللعنة ، فقال النبى مهلا يا عائشة ! إن الله يحب الرفق فى الأمر كله ، فقالت يا نبى الله ، أو لم تسمع ما يقولون ؟ قال أو لم تسمعى أنى أرد ذلك عليهم فأقول عليكم) .

(٢) فيه أن سناناً بن حبيب السلمى قال : (خرجت مع عبد الرحمن بن الأسود إلى القنطرة ، فكان لا يمر على يهودى ولا على نصرانى إلا سلم عليه ؛ فقلت له تسلم على هؤلاء وهم أهل الشرك ! فقال إن الإسلام سيماء المسلم ، فأحببت أن يعلموا أنى مسلم) .

يقصد به — من وجهة النظر الإسلامية — التحذير من مثل هذه الارتباطات في الأعمال المادية .

فكل اتجاه أو ميل يدّعم تدعيما قوياً على هيئة أحاديث منسوبة للنبي . وإن طائفة كالحنابلة ، الذين يتجردون من عناصر التسامح الاجتماعى حتى إزاء المسلمين المخالفين لهم فى الرأى ، (مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٢ ص ١٢ وما بعدها) ليسوا بطبيعة الحال أقل شدة وجفاء نحو أصحاب النحل الأخرى من معتنق الديانات الأجنبية وهم يُقرون راغبين مختارين الأحاديث الحاملة على التعصب والحقد ، عاملين بذلك على تقويض أركان مبادىء التسامح .

غير أنه مما يسترعى الانتباه أنه نُسب للإمام أحمد بن حنبل أنه أنكر — وأتباعه هم الذين ينسبون له هذه الفكرة — صحة الحديث المشهور : « من آذى ذميًّا فكأنما آذانى » (طبقات الشافعية للسبكى ج ١ ص٢٦٨) . ولكن المبدأ السائد فى الإسلام كان ينبذ دائماً مثل هذه التعاليم والنزعات ، كما أنه كان يرفض ما يعتمد عليه أصحابها من وثائق وأسانيد .

(١٣) پورتر : خمس سنوات بدمشق ، الطبعة الثانية (لندرة سنة ١٨٧٠) ، ص ٢٣٥ .

(١٤) مثلاً مسألة ما إذا كان مباحاً نقل جثة الميت من مكان الوفاة إلى مكان آخر ، التى أحلّها الزهرى مستشهداً بالسابقة التالية : . . . سئل ابن شهاب : هل يكره أن يُحمل الميت من قرية إلى قرية ، فقال : « قد حُمل سعد بن أبى وقّاص من العقيق إلى المدينة » . ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(١٥) مجلة المستشرقين الألمانية م ٦١ ص ٨٦٣ وما بعدها .

(١٦) من قطعة مهمة عن فكرة السُّنَّة ، وردت فى ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١٣٥[1] ، يستنتج أنه فى القرن الأول كان لا يزال يوجد أنصار للفكرة القائلة

(١) يشير إلى ما رواه ابن سعد ، عن صالح بن كيسان ، قال : « اجتمعت أنا والزهرى ، ونحن نطلب العلم ، فكنا نكتب السنن . قال وكتبنا ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ثم قال نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سنة ، قال قلت إنه ليس بسنة فلا نكتبه ، قال فكتب ولم أكتب ، فأنجح وضيعت » .

بأنه لايعد سُنة إلا ماصح عن النبيّ وليس ماصحّ عن الصحابة ، غير أن هذا التحديد لم يتسنّ له الذيوع فيما بعد .

(١٧) نهج البلاغة (مجموعة خطب منسوبة لعلى بن أبى طالب) ج ٢ ص ٧٥ (طبعة محمد عبده بيروت سنة ١٣٠٧) .

(١٨) « شتينشنيدر » : « الترجمات العبرية فى العصور الوسطى » ص ٨٥٢ هـ ٤٣ . ولنفس المؤلف : مصادر عن الاختلافات والمناقشات » (ڤينا سنة ١٩٠٨ . تقارير وجلسات مجمع الفلسفة التاريخى العلمى م ١٥٥ ص ٥٨) وتوجد مراجع كثيرة شبيهة بهذا جمعها (ا . جالتييه) فى « فتوح البهنسا » (مذكرة المعهد الشرقى الفرنسى للآثار بالقاهرة م ٢٢ سنة ١٩٠٩ ص٢٠ هـ ١) (انظر أيضاً « مجلة الأدب الشرقى » سنة ١٩١٢ ص٢٥٤ ، ٤٤٩ . وأيضاً سنة ١٩١٣ ص٢١٣) .

(١٩) نقلا عن ابن قيم الجوزية : « كتاب الروح » (حيدر أباد سنة ١٣١٨) ص٢٩٤[1] .

(٢٠) .Bab سانهدرين ١٩١ فى النهاية .

(٢١) البخارى : كتاب الأدب رقم ١٨ .

(٢٢) البخارى : كتاب الأدب رقم ٢٤ ، ٢٥ .

(٢٣) ابن سعد ج ٤ ق ١ ص١٦٨ .

(٢٤) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (القاهرة سنة ١٣٢٤) ج ٢ ص٣٤٢.

(٢٥) كما ورد فى الإصابة لابن حجر طبعة كلكتا ج ٢ ص٣٩٦ : « كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر » .

(٢٦) الأربعون النووية . حديث رقم ٣٨ .

---

(١) نقل ابن الجوزى اختصام الروح والجسد بين يدى الله يوم الدين . وكل منهما يلقى التبعة على الآخر ، وأخيراً يقول الله : (أخبرانى عن أعمى ومقعد دخلا حائطاً ؟ فقال المقعد للأعمى : إنى أرى ثمراً ، فلو كانت لى رجلان لتناولت ؟ فقال الأعمى أنا أحملك على رقبتى ؟ فحمله فنال من الثمر ، فأكلا جميعاً ؟ فعلى من الذنب ؟ قالا عليهما جميعاً ؟ فقال : قضيتما على أنفسكما) .

(٢٧) وقد فطن النقادة المسلمون أحياناً إلى الأخطاء التاريخية فى الحديث ، ولكنهم إذا كانوا قد كرهوا رفض الأحاديث المعتمدة رسمياً بسبب ما يحول دون ذلك من عقبات جوهرية ؛ فقد وجدوا مع ذلك فى سهولة طريقة لإقرارها واعتمادها ، وهى : أنه يجوزأن تتنبأ الأحاديث القديمة بالحوادث التالية وتسبق إلى الإخبار بوقوعها فى المستقبل . ففى مسند أحمد بن حنبل أن امرأة تدعى « أم الدرداء » روت أن النبى رآها فى الطريق فسألها من أين أتت ، فأجابت « من الحمام » . ولم يتردد ابن الجوزى الذى ألّف كتاباً خاصاً فى الأحاديث الموضوعة فى أن يرفض رفضاً مطلقاً هذا الحديث والحكم الذى تضمنه ؟ لأنه لم تكن فى هذا العصر حمامات بالمدينة . وللوقوف على الطريقة التى ينتهجها النقادة المسلمون الآخرون ، لكى يدعوا جانباً تدقيقاً كتدقيق ابن الجوزى ، انظر كتاب « القول المسدد فى الذب عن المسند » لابن حجر العسقلانى (حيدر آباد سنة ١٣١٩) ص ٤٦ .

(٢٨) تلمود أورشليم « خجيجة » ١ : ٨ عند النهاية .

(٢٩) انظر أيضاً : دراسات إسلامية ج ٢ ص ٥٢ وما بعدها .

(٣٠) المحاسن والمساوى للبيهقى طبعة شولى ص ٣٩٢ = شبيه الجاحظ طبعة فان فلوتن ص ١٨١ من أعلى .

(٣١) انظر مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٢ ص ٢ هامش .

(٣٢) للحكم على هذه العقلية تعد كلمة يحيى بن سعيد (المتوفى سنة ١٤٣هـ/٧٦٠م) على جانب كبير من الأهمية : « عن يحيى بن سعيد قال : أهل العلم أهل توسعة . وما برح المفتون يختلفون فيحلل هذا ويحرم هذا ، فلا يعيب هذا على هذا ، ولا هذا على هذا . وإن المسألة لترد على أحدهم كالجبل فإذا فُتح له بابها قال ما أهون هذه » (تذكرة الحفاظ للذهبى ج ١ ص ١٢٤) . وإن كلمة يحيى بن سعيد شبيهة بكلمة « إلعازار بن عزاريا » (ب . خجيجة — ٣ ب) عن اختلاف الآراء فى الشريعة اليهودية (مشيراً إلى « كوهل » ص ١٢) : « ولو أن هؤلاء يرون طاهراً ما يراه أولئك نجساً ، ويبيحون ما يحرمه أولئك ويرفضون ما يقرّونه . . . » فكلها (هذه الآراء المتضاربة) . على تباينها « قد وهبها الناس راع واحد » . « تكلم الله

بجميع هذه الـكلمات » (سفر الخروج ٢٠ — ١) .

وكذلك فيما يتعلق خاصة بخلافات المدارس المختلفة المتعارضة ، كمدارس شمّايس وهلّيل ، التى جعلت من مبادئها أن « هذا وذاك (من المذاهب والآراء) هو كلام الله الحىّ » (ب عيروبهين ١٣ ب) . أمام الحبر سيمون ابن يوخاى ، فيعد هذه الاختلافات المذهبية فى الشريعة دليلاً على نسيان التوراة (سفر التثنية § ٤٨ طبعة فريدمان ٨٤ ب — ١١) .

(٣٣) نجد فى عصر متأخر رأياً على جانب كبير من الأهمية لتاج الدين السبكى ذكره فى كتابه معيد النعم ومبيد النقم . طبعة ميهرمان (لندرة سنة ١٩٠٨) ص ١٠٦ — ١٠٩[1] : وهذا يعد فى نفس الوقت دليلا على أنه فى عهد المؤلف ، وقد توفى سنة ٧٧١ هـ سـنة ١٣٧٠ م ، كانت هذه العقلية المتعصبة هى الغالبة على فقهاء الشام ومصر .

(٣٤) عن هذا المبدأ انظر بحثى عن « الظاهرية : تعاليمها وتاريخها » ص ٩٤ وما بعدها . وقد كان الاختلاف فى الفقه منذ نشوبه موضعاً للوم . ويستفاد هذا من خبر عن المأمون يتعلق بهذا الموضوع أورده طيفور فى كتابه عن بغداد طبعة « كِكَار » ص ٦١ ، ومن قطعة على جانب كبير من الأهمية من رسالة للخليفة منسوبة إلى ابن

---

(١) يشير إلى هذه الجمل من كلام السبكى فى كتابه المذكور : « ومنهم — يريد الفقهاء — من يأخذ فى الفروع الحمية لبعض المذاهب ، ويركب الصعب والذلول فى العصبية ، وهذا من سوء أخلاقهم ، ولقد رأيت فى طوائف المذاهب من يبالغ فى التعصب بحيث يمتنع بعضهم عن الصلاة خلف بعض ، إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره ... وليت شعرى ، لم لا تركوا أمر الفروع التى فيها العلماء على قولين : من قائل كل مجتهد مصيب ، ومن قائل : المجتهد واحد ولـكن المخطىء يؤجر ؛ واشتغلوا بالرد على أهل البدع والأهواء ! ... فقل لهؤلاء المتعصبين فى الفروع ، ويحكم ! ذروا التعصب ، ودعوا عنكم هذه الأهوية ، ودافعوا عن دين الإسلام ... » .

« وأما تعصبكم فى فروع الدين ، وحملكم الناس على مذهب واحد ، فهو الذى لا يقبله الله منكم ، ولا يحملكم عليه إلا محض التعصب والتحاسد ، ولو أن الشافعى وأبا حنيفة ومالكا وأحمد أحياء يرزقون ، لشددوا النكير عليكم ، وتبرءوا منكم فيما تفعلون . فلعمر الله لا أحصى عدد من رأيته يشمر عن ساق الاجتهاد فى الإنكار على شافعى يذبح ولا يسمى ، أو حنفى يلمس ذكره ولا يتوضأ ، أو مالكى يصلى ولا يبسمل ، أو حنبلى يقدم الجمعة على الزوال ، وهو يرى من العوام ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى يتركون الصلاة (التى جزاء من تركها عند الشافعى ومالك وأحمد ضرب العنق) ولا ينكرون عليه ... » .

أقفغ (مجلة المقتبس العربية ج ٣ ص ٢٣٠ — رسائل البلغاء القاهرة سنة ١٩٠٨ ص ٤٥[1] .

(٣٥) ميزان الاعتدال للذهبي ج ٢ ص ٣٧٠[2] .

(٣٦) خلاصة الأثر فى القرن الحادى عشر للمحبى (القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ) ج ١ ص ٤٨ : إبراهيم بن مسلم الصمادى (توفى سنة ١٦٦٢ م)[3] .

(٣٧) مثلا فى تاريخ دمشق لابن القلانسى طبعة أمِدْروز ص ٣١١ (ابتداءً من القرن السادس الهجرى) : والقاضى الذى ذكره المؤلف وساقه كمثل كان يصدر فتاوى مبنية على المذهبين الحنفى والحنبلى . وقارن بين هذا وبين لقب شائع هو « مفتى الفرق » أى مفتى الأحزاب المختلفة ، وهو يستطيع أن يفتى لكل حزب فتاوى مبنية على مذهبه .

(٣٨) كنز العمال ج ٦ ص ٢٣٣ رقم ٤١٥٧ من مسند أحمد .

(٣٩) « إن إجماعهم لا يكون إلا معصوماً » ؛ « فإجماعهم معصوم » . (مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ج ١ ص ١٧ ، ص ٨٢) . ولفظ « معصوم » مرادف تقريباً لكلمة infaillible ، ويستعمل هذا اللفظ ذاته عند الكلام على عصمة النبى وعصمة الأئمة (انظر القسم الخامس — ١٠) .

---

(١) هذه القطعة هى : « ومما ينظر أمير المؤمنين فيه ، من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحى ، اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التى قد بلغ اختلافها أمراً عظيما : فى الدماء والفروج والأموال ؛ فيستحل الدم والفرج بالحيرة ، وهما يحرمان بالكوفة ؛ ويكون مثل ذلك الاختلاف فى جوف الكعبة : فيستحل فى ناحية مايحرم فى ناحية أخرى ؛ غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين فى دمائهم وحرمهم ، يقضى به قضاء جائز أمرهم وحكمهم . مع أنه ليس مما ينظر فى ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لج بهم العجب بما فى أيديهم ، والاستخفاف ممن سواهم ، فأقحمهم ذلك فى الأمور التى يشنع بها من سمعها من ذوى الألباب » .

(٢) لقد جاء فيه : « محمد بن محمد بن خلف ، أبو بكر البنديتجى حنفش الفقيه ؛ تحنبل ثم تحنف ثم تشفع ، فلذا لقب حنفش . ولد سنة ٤٥٢ وتوفى سنة ٥٣٠ هـ » .

(٣) جاء فى هذا الموضع عن إبراهيم المذكور : « ... كان من سادات الصوفية بدمشق وكبرائهم ... وكان يدعو الله تعالى أن يرزقه أربعة أولاد ، ليكون كل واحد منهم على مذهب من المذاهب الأربعة ؛ فولد له أربعة أولاد ، وهم : مسلم وكان مالكياً ، وعبد الله وكان حنبلياً ، وموسى وكان شافعياً ، ومحمد وكان حنفياً ، وتوفى سنة ١٠٧٣ هـ » .

(٤٠) «ونصليه» ترجمها إ. بالمر We will make him reach hell على اعتبار أن الصيغة الأولى فى تصريف فعل « صلا » ، وليس الصيغة الرابعة ، لها معنى الشئ والحرق والتسخين ؛ وقد بيّن البيضاوى هذه الفروق المعنوية بصدد هذه الآية[1] .

(٤١) طبقات الشافعية للسبكى ج ٢ ص ١٩ — ٢٠ ولا يبدو أن الشافعى فى المسائل الأخرى كان يتكلف مثل هذه المشقة لاستنباط الحجج من القرآن ؛ فقد وجد مثلا فى سورة البينة الآية الخامسة أقوى حجة لدحض مذهب المرجئة[2] (طبقات الشافعية للسبكى ج ١ ص ٢٢٧) . وقد استنبط العلماء فيما بعد أدلة من القرآن لتأييد مذهب الإجماع ، فاستدل عليه فخر الدين الرازى من الآية ١٠٥ من سورة آل عمران[3] (مفاتيح الغيب ج ٣ ص ٣٨) . وللوقوف على حجج أخرى مستمدة من القرآن ، انظر سنوك هيرجرونيه فى مجلة تاريخ الأديان م ٣٧ (سنة ١٨٩٨) ص ١٧ .

(٤٢) سنن أبى داود ج ٢ ص ١٣١ ، الترمذى ج ٢ ص ٢٥ ، مصابيح السُّنة للبغوى ج ١ ص ١٤[4] .

(٤٣) فيما يختص بهذه المسألة والمواد القرآنية المتعلقة بها انظر « سنوك هيرجرونيه » فى نقده لكتاب « فاندنبرج » . وانظر كتاب الشريعة الإسلامية « يوينبول » (ليدن سنة ١٩٠٨) ص ١٧٥ وما بعدها .

(٤٤) انظر المسائل الجدلية التى سئل فيها الشعبى وبعضها هُراء بحت . وذلك فى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٥٢[5] . وقد ذهب الشعبى استناداً

---

(١) فى تفسير البيضاوى : « (ونصله جهنم) وندخله فيها . وقرىء بفتح النون من صلاة » . ج ١ ص ١٧٣ .

(٢) هى قوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » ، كما ذكر الشافعى نفسه للحميدى .

(٣) ذلك قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

(٤) فقد جاء فيها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال . « لا تجتمع هذه الأمة ، أو قال أمة محمد على ضلالة ، ويد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ فى النار » .

(٥) جاء فيه مثلا : « ... وسئل عن لحم الشيطان ، فقال : نحن نرضى منه بالكفاف ؛ فقال له قائل : ماتقول فى الذبان ؟ قال : إن اشتهيته فكله ! » .

على الآية ١٤٥ من سورة الأنعام : « قُلْ لا أجد فيما أوحى إلىّ محرّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » ، إلى أن الفيل يُؤكل لحمه .

(٤٥) الدميرى فى موسوعته الحيوانية (حياة الحيوان الكبرى) يعالج فى نهاية كل مادة مسألة حالة الحيوان ؛ من حيث علاقته بالشريعة ، واختلاف المذاهب فيه .

(٤٦) انظر بحثى عن « الظاهرية » للوقوف على هذه الأنواع ، ص ٦٦ وما بعدها ؛ وكذا كتاب « الشريعة الإسلامية » « يوينبول » ص ٥٦ وما بعدها .

(٤٧) انظر على الأخص الزرقانى على الموطأ (القاهرة سنة ١٢٧٩ — ٨٠ ﻫ) ج ٣ ص ١٨٤[1].

(٤٨) إن ما يتصل بهذا الفرع من فروع الشريعة الإسلامية قد عالجه مع بسط وتفصيل « فريدريك كِرْن » فى مجلة المستشرقين الألمانية م ٥٥ ص ٦١ وما بعدها ، وفى مقدمة طبعته لكتاب « اختلاف الفقهاء » للطبرى (القاهرة سنة ١٩٠٢) ص ٤ — ٨ . ومن أشهر الكتب الموجزة التى تلخص الخلافات المذهبية كتاب « الميزان » الكبير للصوفى المصرى عبد الوهاب الشعرانى (المتوفى سنة ٩٧٣ ﻫ سنة ١٥٦٥ م) . وقد نقل « بِرُّون » جزءاً منه إلى الفرنسية ونشرته الحكومة العامة لبلاد الجزائر سنة ١٨٩٨ .

(٤٩) البخارى : كتاب الإيمان رقم ٢٨ ؛ وقد استُشهد بهذه العبارة كآية قرآنية . (تاريخ القرآن) لنولدكه وشولّى ص ١٨١ .

---

(١) جاء فى هذا الموضع من الكتاب المذكور أن النبى صلى الله عليه وسلم قضى باليمين مع الشاهد ؛ وقد أجمعوا على القضاء بإقرار المدعى عليه ، كما قضوا بنكول المدعى عليه عن اليمين ، وليس ذلك فى الآية . واليمين مع الشاهد أولى بذلك ؛ لأنه بالسنة انتهى ملخصاً .

(٥٠) البخارى : كتاب العلم رقم ١٢[١] . كتاب الوضوء رقم ٦١[٢] . كتاب الأدب رقم ٧٩[٣] .

(٥١) ابن سعد ج ٦ ص ١٢٦ .

(٥٢) جامع بيان العلم وفضله لعبد البرالنمرى (القاهرة سنة ١٣٢٠) ص ١١٥ . وازن بين هذه الفكرة والمبدأ التلمودى (كوعاخ دي هاتيرا عديف) « أى أن قوة الإباحة لها قيمة أكبر » . باب بيراخوث ٦٠ ا وفى مواضع أخرى .

(٥٣) حياة الحيوان للدميرى ؛ انظر مادة سنجاب ج ٢ ص ٤١ .

(٥٤) يتصل بهذا حديث أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام رقم ١٦[٤] .

(٥٥) سنن الدارمى (كونبور سنة ١٢٩٣ هـ) ص ٣٦ . والقصة لا معنى لها إلا إذا أبدلنا — كما فعلت — كلمة « حلال » فى المتن بكلمة « واجب » . أى « مأمور به بصفة قاطعة » .

(٥٦) ابن سعد ج ٦ ص ٢٤٤ .

(٥٧) ينبغى تبعاً لما جاء فى « مجموعة القوانين الكنسية Nomokanon » لبارهبرايوس « أن يلفظ باسم الله الحى عند ذبح الحيوان » (انظر الفقرات التى أوردها « بيكنهوف » فى « قوانين الطعام على الطريقة الموسوية فى المصادر القانونية الكنسية فى العصور الوسطى » منستر سنة ١٩٠٧ ص ٤٩) وتراجع مجموعة القوانين الكنسية ا « س . فرنكل ، الأدب الألمانى » سنة ١٩٠٠ ص ١٨٨ للوقوف على آراء ونظريات شبيهة بهذه .

(٥٨) انظر ابن سعد ج ٦ ص ١٦٦[٥] .

(٥٩) الموطأ ج ٢ ص ٣٥٦ . وانظر مادتى (بسم الله) فى دائرة معارف الدين

---

(١) عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

(٢) ـ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصبى فبال على ثوبه ، فدعا بماء فأتبعه إياه » .

(٣) عن سعيد ... عن جده قال : « لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ بن جبل قال لهما . يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا » .

(٤) هذا الحديث هو : « صنع النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ترخص فيه وتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ثم قال : مابال قوم يتنزهون عن الشىء أصنعه ؟ فوالله إنى أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية! » .

(٥) جاء فى هذا الموضع أن أبا راشد السلمانى قال : «أتيت علياً داره فناديت ياأمير المؤمنين،

والأخلاق لهيستنجزم ٢ ص ٦٦٧ ب[1] .

(٦٠) انظر معيد النعم للسبكى طبعة ميهرمان ص ٢٠٣ .

(٦١) هذه الفكرة عالجها كايتانى بإسهاب واستقصاء فى كتابه حوليات الإسلام ص ٤٤٩ — ٤٧٧ تحت عنوان : « الخمر عند العرب القدماء وفى عصور الإسلام الأولى » .

(٦٢) دراسات إسلامية ج ١ ص ٢١ وما بعدها . انظر أيضاً « دراسات عن حكم الخليفة الأموى معاوية الأول » للأب لامانس ص ٤١١ .

(٦٣) يعمد أحياناً شعراء العصر الأموى إلى وصف النبيذ بأنه « حلال » : جميل العُذرى (الأغانى ج ٧ ص ٧٩)[2] وابن قيس الرقيات (طبعة رودوكانا كس ص ٥٧ : أحله الله لنا) . ولا محل لأن نفترض بأن هنا إشارة إلى تفريعات الفقهاء (خزانة الأدب ج ٤ ص ٢٠١) .

(٦٤) أسد الغابة ج ٥ ص ١٦١[3] ، والسهيلى على ابن هشام طبعة فستنفلد ج ٢ ص ١٧٥ .

= يا أمير المؤمنين ! قال لبيكاه ، لبيكاه ! فقلت يا أمير المؤمنين إنى كنت فى منائح لأهلى أرعاها ، فتردى بعير منها فخشيت أن يسبقنى بنفسه ، فخرقت وبطرت ، فوجأته بحديد إما فى جنبه وإما فى سنامه وذكرت اسم الله ، وإنى جئت بلحمه مفرقاً على سائر إبلى لأهلى فأبوا أن يأكلوه وقالوا لم تدركه ؟ فقال ويحك ! أهد لى عجزه ، أهد لى عجزه » .

(١) جاء فى الدائرة فى هذا الموضع أن للتسمية قبل الذبح أهمية خاصة عند المسلمين ، وأن هذا تقليد أوحى به بلا ريب التشريع اليهودى الذى يأمر بالنطق (بالبراخة) قبل الذبح والأكل ، وأن مايشبه هذا فى القرآن قوله تعالى فى سورة الأنعام الآية ١١٨ « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » والآية ١٢١ « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » ومن هاتين الآيتين استدل على وجوب التسمية قبل الذبح والأكل ؛ وإن كان بعض المذاهب يجعل التسمية أمراً حسناً مندوباً إليه ، فلو تركت سهواً عند ذبح الحيوان لما كان فى ذلك مايدعو إلى تحريم تناول لحمه لأن قلب المؤمن لايغيب عن ذكر الله دائماً . على أن هذا التأويل يخالف نص القرآن ، وذلك ماجعل المفسرين المتشددين النصيين يستمسكون بالنص ويستبعدون هذا التأويل .

(٢) حيث يقول :

فتأطرن ثم قلن لها أكرميه ، حييت ، فى نزله
فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

(٣) الذى فى أسد الغابة فى هذا الموضع هو بنصه : (وذكر عبدالرازق عن ابن جريج قال : =

(٦٥) معيد النعم للسبكى طبعة ميهرمان ص ١٤٧ .

(٦٦) سنن النسائى (طبعة شاهدرا سنة ١٢٨٢) ج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٦٩ .

(٦٧) يطلق النبيذ أيضاً على شراب كان النبى يتناوله . ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٣١(١).

(٦٨) تبين القصة التالية أن كثيراً من الناس لم تسترح ضمائرهم لهذا . فالخليفة المأمون الذى سمح للقاضى يحيي بن أكثم أن يؤاكله — وكان المأمون يشرب النبيذ فى وجبات طعامه — لم يدع قط القاضى إلى شربه قائلا : « إنى لا أترك قاضىّ يشرب النبيذ » كتاب بغداد لطيفور ص ٢٥٨ وما بعدها وتكلم المأمون بأسلوب كهذا لقاضى دمشق الذى رفض أن يشرب من نبيذ البلح المقدم إليه . (الأغانى ج ١٠ ص ١٢٤) .

(٦٩) ابن سعد ج ٥ ص ٢٧٦(٢) ،

(٧٠) معجم الأدباء لياقوت طبعة مرجليوث ج ٢ ص ٢٦١(٣) .

= أخبرت أن أبا عبيدة بالشام وجد أبا جندل بن سهيل وضرار ابن الخطاب وأبا الأزور ، وهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، قد شربوا الخمر ، فقال أبو جندل . « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا ... » الآيات كلها ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر أن أبا جندل خصمنى بهذه الآية ، فكتب إليه عمر . الذى زين لأبى جندل الخطيئة زين له الخصومة ، فاحدهم . فقال أبو الأزور . دعونا نلق العدو غداً ؟ فإن قتلنا فذاك ، وإن رجعنا إليكم فحدونا . فلقى أبو الأزور وضرار وأبو جندل العدو ، فاستشهد أبو الأزور ، وحد الآخران)

هذا هو النص ، ومنه يتبين أن المؤلف لم يكن أميناً فى نقله ، إذ ترك منه آخره الذى يقرر أن اعتذار أبى جندل لم يقبله عمر ، لأنه لا يتفق والدين !

(١) ومما لاشك فيه أن هذا النبيذ الذى يروى أن الرسول تناول منه ليس هو النبيذ المحرم ، وذلك معروف لا يحتاج إلى دليل ، ومن المعروف أن النبيذ فى اللغة يطلق على كل ما يعمل من الأشربة ، سواء كان مسكراً أو غير مسكر .

(٢) فى هذا الموضع أن كتاباً لعمر بن عبد العزيز قرئ فى مسجد الكوفة جاء فيه . (والنبيذ حلال فاشربوه فى السعن) . نقول . والسعن ، بفتح السين ، شىء يتخذونه من أدم شبه دلو إلا أنه مستطيل مستدير وربما جعلت له قوائم ، ينتبذ فيه .

(٣) فيه أن إسماعيل (القاضى) دخل على الموفق فقال ماتقول فى النبيذ ؟ فقال أيها الأمير ! إذا أصبح الإنسان وفى رأسه شىء منه يقال له ماذا ؟ فقال الموفق يقال هو مخمور قال فهو كاسمه .

(٧١) مروج الذهب للمسعودى طبعة باريس ج ٨ ص ١٠٥ .

(٧٢) أمالى القالى طبعة بولاق سنة ١٣٢٤ ج ٢ ص ٤٨ .

(٧٣) عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص ٣٧٣ . وما ذكره ابن قتيبة فى كتابه عن البحث الذى أفرده للأشربة ، والذى توجد منه مختارات فى العقد الفريد ، قد نشره حديثاً (ا . جى) فى المجلة العربية الشهرية المقتبس التى تصدر بالقاهرة م ٢ (١٣٢٥ هجرية / ١٩٠٧ م) ص ٢٣٤ — ٢٤٨ ، ٣٨٧ — ٣٩٢ ، ٥٢٩ — ٥٣٥ .

(٧٤) ابن سعد ج ٦ ص ٦٧ .

(٧٥) تذكرة الحفاظ للذهبى ج ١ ص ٢٨١[1] .

(٧٦) وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة ڤستنفلد رقم ٢١٧ .

(٧٧) وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة فستنفلد رقم ٢٩٠ .

(٧٨) ابن خلكان طبعة فستنفلد رقم ٧٣٣ .

(٧٩) ابن سعد ج ٦ ص ٦٤ .

(٨٠) أسد الغابة ج ٥ ص ١٢ .

(٨١) البخارى كتاب الأشربة رقم ٦ .

(٨٢) تضاءل شأن التوحيد (الذى ينحصر فى الاشتغال بمسائل تتعلق بالإيمان) بالعراق . وشغل الفقه المحل الأول (تذكرة الأولياء للعطار ج ٢ ص ١٧٥ ملحق) .

(٨٣) ابن خلكان رقم ٨٠٣ .

(٨٤) انظر مادة « أكدرية » فى دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٢٤٢ بقلم (ت . و . يوينبول) كانت مسألة توريث الجد منذ أقدم العصور الإسلامية مثاراً لجدال فقهى (ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١٠٠) وخلاف فى الرأى (الدميرى ج ١ ص ٣٥١ مادة

---

(١) جاء فى ترجمة وكيع بن الجراح أن مسلم بن جنادة قال : (ما فيه إلا شربه لنبيذ الكوفيين وملازمته له ... وقال يحي بن معين . سأل رجل وكيعاً أنه شرب نبيذاً فرأى فى النوم كأن من يقول له شربت خمراً ، فقال وكيع ذلك شيطان) .

« حية » . وانظر أيضاً كتاب الإمامة والسياسة (القاهرة ١٩٠٤) ج ٢ ص ٧٦ . وإن البحوث والمعلومات المتعلقة بمسائل الوراثة هذه التى جُمعت فى كنز العمال ، ج ٦ ص ١٤ — ١٨ ، يتألف منها موجز عظيم الفائدة يلخص الأحوال والظروف التى ظهرت فيها هذه التنظيمات الشرعية فى عصور الإسلام الأولى .

(٨٥) الدميرى ج ٢ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ ، مادة « قرد » .

(٨٦) الدميرى ج ١ ص ٢٦٥ مادة « جن »[1] .

(٨٧) العلاقات الجنسية بين الإنس والجن *(**Ardat** lili)* هى ضرب من الأساطير انتقل بطريق غير مباشر من الأفكار البابلية إلى القصص الشعبي عند العرب ، ومن ثم إلى الخرافات الإسلامية ، فتذكر فيها الشخصيات العربية القديمة وغيرها من الأمم الأخرى التى كانت ثمرة هذا الاتحاد المختلط . والجاحظ فى الحيوان ج ١ ص ٨٥ وما بعدها يسفه هذه الخرافات وينكرها ، ويسمى الأشخاص الذين يسلمون بصحتها : « علماء السوء » ، ويعمد إلى إغفالهم ولا يذكرهم إلا فى حذر وحيطة . (انظر أيضاً الدميرى ج ٢ ص ٢٥ — مادة سعلاة) .

وقد وردت فى أعمال جمعية البحث الأثرى الخاص بالتوراة « م ٢٨ ص ٨٣ بقلم ر . كامبل ثومبسون . » وفى كتاب « الفوكلور » ج ٢ ص ٣٨٨ (سنة ١٩٠٠) « لسايس أمثلة عن المعتقدات الشعبية الإسلامية . وإن حقيقة مثل هذا الزواج مستمد من القرآن : (الإسراء — ٦٤[2] وغيرها من الآيات الأخرى) .

ومن وجهة نظر الشرع الإسلامى أثبت بعض العلماء بطلان هذا الزواج استناداً على الآية ٧٢ من سورة النحل : « والله جعلَ لكم منْ أنفسكم أزواجاً » واستنادا على أن اختلاف الجنس مانع يحول دونه . غير أن هذا لا يقره جمهور العلماء (طبقات الشافعية للسبكى ج ٥ ص ٤٥) .

ومما هو مثار الخلاف استحالة هذا الزواج شرعا ، ومما يؤيد ذلك أن يحيى بن معين وفقهاء آخرون من أهل السنة ، ينسبون ما كان عليه بعض العلماء الذين ذكروا

---

(١) « يصح انعقاد الجمعة بأربعين مكلفاً ، سواء كانوا من الجن أو من الإنس أو منهما » .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وشاركهم فى الأموال والأولاد » .

أسماءهم من الذكاء وسرعة الخاطر إلى أن واحداً من آبائهم كان من الجن كما يقال . (تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٣ ص ١٤٩) . وقد ذكر ابن خلكان (وفيات رقم ٧٦٣) شخصاً كان أخاً لجنيٍّ في الرضاع ، وانظر أيضاً : « أبحاث في فقه اللغة العربية » (لجولدزيهر) ج ٢/١٠٨ ، وحديثاً كتاب مكدونالد « الموقف الديني والحياة في الإسلام » ص ١٤٣ وما بعدها ، ص ١٥٥ .

ويحكي « الفردبل » أن أهل تلمسان يعتقدون أن واحداً من أهل مدينتهم — توفي حديثاً سنة ١٩٠٨ — كانت له فضلا عن زوجته الشرعية علاقات جنسية مع جنية « أهل تلمسان المسلمين » (مستخرج من مجلة الدراسات البشرية والاجتماعية سنة ١٩٠٨) . وقد بحث العلماء من الوجهة الشرعية مسألة ما إذا كان للملائكة والجن حق المِلْك (طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٧٩) .

(٨٨) انظر أيضاً « أبحاث في فقه اللغة العربية » ج ١ ص ١٠٩ . ويمكننا هنا أن نشير إلى الشافعي ، الذي خالف النزعة الغالبة على جمهور الفقهاء ، فمدرسته تروى عنه هذا المبدأ : « من زعم من أهل العدالة أنه يرى الجن أبطلنا شهادته لقول الله تعالى إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إلا أن يكون نبياً » . (طبقات السبكي ج ١ ص ٢٥٨) .

(٨٩) ديوان جرير (طبعة القاهرة سنة ١٣١٣) ج ٢ ص ١٢٨ ، النقائض طبعة بيفان ص ٧٥٤ .

(٩٠) مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٠ ص ٢٢٣ . سبق أن وضع أبو يوسف بحثاً في « الحيل » (الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ٤) ونظرية الحيل تؤلف ركناً من أركان الفقه العملي ولا سيما في المذهب الحنفي . وكتاب أبي بكر أحمد الخصّاف (المتوفى عام ٢٦٠ هـ — ٨٧٤ م) الذي كان فقيه بلاط الخليفة المهتدي ، من أقدم المؤلفات في هذا الموضوع ويعد الكتاب الأساسيّ في هذه الناحية . وهو الآن في متناول اليد في طبعة ظهرت بالقاهرة عام ١٣١٤ هـ .

(٩١) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٤١١ — ٤١٣ .

حواشى القسم الثالث

نحو العقيدة وتطورها

(١) هذه الفكرة يعبر عنها فى الإسلام بهذه العبارة . « العلماء ورثة الأنبياء » .

(٢) انظر الأحاديث المتعلقة بذم هذا الموقف : ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ١٤١ ، ومجلة المستشرقين الألمانية م ٥٧ ص ٣٩٣ وما بعدها . وانظر أيضاً كتاب التفسير فى البخارى حديث رقم ٢٣٧ فى سورة « فصلت » حيث ذكرت مسائل فى الآيات المتشابهة سئل فيها ابن عباس .

(٣) ابن سعد ج ٥ ص ١٧٤ : كان عبد الملك عابداً ناسكا قبل الخلافة . وانظر بهذا الصدد كتاب « الإمبراطورية العربية وسقوطها » لفلهوزن ص ١٣٤ ، وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب خطأ لابن قتيبة (القاهرة سنة ١٩٠٤) حيث يورد من الوقائع ما يثبت تقوى الأمويين وتدينهم . وانظر فوق ذلك مقال « دى غويه » فى مجلة الدراسات الشرقية م ١ ص ٤١٥ — ٤٢١ .

وقد ورد فى مصدر آخر (ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١١٧) أن مروان الأول والد عبد الملك كان يجتهد فى تأييد الشريعة ، وقد وجده القوم الذين أتوا لمبايعته يتلو القرآن على مصباح صغير (ابن سعد ج ٢ ص ٢٢) كما أن عبد الملك دعا الناس لإحياء الكتاب والسنة ، وقد أجمعوا على تقواه (ابن سعد ج ٢ ص ٢٥) . بل إن الحجاج ، على شدة بغض الأتقياء له ، وصف بالورع والتقوى (ابن سعد ج ٢ ص ٧٢ ، ص ٧٤ . وانظر أيضاً الطبرى ج ٣ ص ١١٨٦ عن تنظيم أوقات التوبة والاستغفار وأداء الصلاة بالمساجد . ويذكر الجاحظ ، فى كتابه الحيوان ج ٥ ص ٦٣ ، أن الحجاج كان « يدين على القرآن » وهو ما يخالف انهماك البيئات الأموية فى الشعر والأنساب .

أما القصائد التى تشيد بذكر الخلفاء كأئمة للدين والهدى ، فهى تدل على أن قائليها قصدوا بها التقرب إلى الخلفاء ورجال الدولة ، ونيل الحظوة لديهم ، مثلما ورد فى ديوان جرير (القاهرة سنة ١٣١٣) ج ١ ص ١٦٨ ، ج ٢ ص ٩٧ ؛

(فلمدح الخليفة عمر الثانى سمى جده مروان بذى النور)[1] ، كما سمى جرير الخليفة « إمام الهدى » فى النقائض طبعة بيفان ص٩٩٤ رقم ١٠٤ بيت ١٩[2]. انظر أيضاً « عجّاج » ذيل ٢٢ — ١٥ ، كذلك « دراسات إسلامية » ج ٢ ص ٣٨١ .

(٤) بكر — برديات شوت رينهارت ج ١ (هيدلبرج سنة ١٩٠٦) ص ٣٥ .

(٥) ابن سعد ج ٤ ق ١ ص١٣٧ — يزيد بن معاوية حارب الحسين وأشياعه باعتبار أنهم قوم : « مرقوا من الدين وخالفوا الإمام » (الطبرى ج ٢ ص ٣٤٢) .

(٦) هكذا وصفها ڤلهوزن فى « الأحزاب الدينية السياسية المعارضة . فى الإسلام القديم » (برلين سنة ١٩٠١) بحوث الجمعية الملكية للعلوم — جوتنجن ، فلسفة وتاريخ رقم ٢ ص ٧ .

(٧) الطبرى ج ١ ص ٢٩٠٩ .

(٨) مَجّد جرير فى ديوانه (ج ١ ص ٦٢) إخضاع الأمويين للثوار ، وعدّه نصراً على « المبتدعين فى الدين » .

(٩) « أبحاث فى السيادة العربية .. الخ » لفان فلوتن (أمستردام سنة ١٨٩٤) ص ٣٦ (ترجمة حسن إبراهيم وآخر ص ٧٠) .

(١٠) دراسات عن معاوية للامانس ص ١٥٤ وما بعدها .

(١١) هذا هو ما يفهم من ابن سعد ج ٥ ص ٦٨[3].

(١٢) يستشهد بهذا على أنه عيب من عيوبهم « واستئثارهم بالفىء » ورد فى كثير من الأخبار : ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ١٦٦ ، وسنن أبى داود ج ٢ ص ١٨٣ .

(١٣) الطبرى ج ٢ ص ٣٠٠ .

(١٤) عن بدع الأمويين انظر هاشميات الكميت ، طبعة هورڤتز ص ١٢٣ فهى عظيمة الأهمية .

---

(١) حيث يقول :

لم تلق جداً كأجداد يعدهم ... مروان ذو النور والفاروق والحكم

(٢) حيث يقول :

فذو العرش أعطانا على الكره والرضا ... إمام الهدى ذا الحكمة المتخيرا

(٣) يشير إلى قول ابن الحنفية : (أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أنداداً من دون الله ؛ نحن وبنو عمنا هؤلاء ؟ يعنى بنى أمية) .

(١٥) سعيد بن المسيب مثلا كان يدعو على بنى مروان فى كل صلاة ، ابن سعد ج ٥ ص ٩٥ .

(١٦) وهذا لا يمنع قيام المرجئة فى وجه الحجاج واستنكار فظائعه (ابن سعد ج ٦ ص ٢٠٥) ، ولكن المرجئة فى نفس الوقت لم يحكموا على الخلافة الأموية بأمر من الأمور ولم يروا فيها رأياً .

(١٧) وفى اصطلاح آخر شبيه بهذا : « كان ابن سيرين من أرجى الناس لهذه الأمة وأشدهم أزراً على نفسه » ، أى أنه أعظمهم تسامحاً فى حكمه على أقرانه ، وأشدهم فى حكمه على نفسه (تهذيب النووى ص ١٠٨) .

(١٨) وفى رواية بعض المرجئة أن الخليفة التقى عمر الثانى ، الذى بحث معهم هذه المسائل ، كان موافقاً لهم فى هذا الرأى . (ابن سعد ج ٦ ص ١٢٨)

(١٩) المرجئة الأولى : ابن سعد ج ٦ ص ٢١٤[١] . ويدل على هذا الميل رأى بريدة الأسلمى (ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ١٧٩[٢]) .

(٢٠) المرجئة أعداء الشيعة على . انظر دراسات إسلامية ج ٢ ص ٩١ رقم ٥ ، وانظر ماجاء أيضا فى المقابلة بين السبأى الشيعى المتعصب (من أنصار عبد الله بن سبأ) والمرجىء : ابن سعد ج ٦ ص ١٩٢[٣] . وهذه المعارضة ستبقى حتى العهد الذى لايكون فيه لعقائد المرجئة سوى أهمية نظرية تاريخية كما جاء فى كتاب البيان للجاحظ (طبعة القاهرة سنة ١٣١١ — ١٣ ج ٢ ص ١٤٩ من النهاية) . ومن هجاء لبعض الشيعة الروافض .

---

(١) جاء فى هذا الموضع : (وتوفى محارب بن دثار فى ولاية خالد بن عبد الله القسرى ، وذلك فى خلافة هشام بن عبد الملك ، قال وله أحاديث ولا يحتجون به ، وكان من المرجئة الأولى ؛ الذين كانوا يرجون علياً وعثمان ، ولا يشهدون بإيمان ولا كفر) .

(٢) (... كنت مع بريدة الأسلمى بسجستان ، فجعلت أعرض بعلى وعثمان وطلحة والزبير لاستخرج رأيه ، قال . ... قوم سبقت لهم من الله سوابق ؛ فإن يشأ يغفر لهم بما سبق لهم فعل وإن يشأ يعذبهم بما أحدثوا فعل ؛ حسابهم على الله) .

(٣) عن أبى المنجاب البصرى أن رجلا كان يأتى إبراهيم النخعى فيتعلم منه فيسمع قوماً يذكرون أمر على وعثمان . فقال أنا أتعلم من هذا الرجل وأرى الناس مختلفين فى أمر على وعثمان! فسأل إبراهيم النخعى عن ذلك ، فقال : ما أنا بسبأى ولا مرجئى) .

إذا المرجى سرك أن تراه يموت بدائه من قبل موته
فجدد عنده ذكرى على وصل على النبى وآل بيته

(٢١) فى الأغانى ج ٢٠ ص١٠٦ مايبين بوضوح حكم الخوارج ، الأتقياء المتعصبين ، على الخلفاء الأمويين . هؤلاء الأتقياء المتشددون كانوا يقتلون شر قتلة كل رجل يروى حديثاً يحذر فيه الناس من القيام بالثورة ويحبذ الطاعة السلبية ، ابن سعد ج ٥ ص ١٨٢

(٢٢) هذا لا يتنافى مع ماذهب إليه « فان فلوتن » فى الإرجاء ، مجلة المستشرقين الألمانية م ٤٥ ص ١٦١ وما بعدها .

(٢٣) ابن خلكان طبعة فستنفلد رقم ١١٤ (بشر المريسى)[١] .

(٢٤) فى موضوع الخلافات بين أهل السنة (كالأشاعرة والأحناف) فى هذه المسألة انظر « ف . كرن » : « أبحاث معهد دراسات اللغات الشرقية » السنة ١١ سنة ١٩٠٨ ج ٢ ص٢٦٧ ومما هو جدير بالملاحظة الحديث الذى أورده ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ٩٢ وهو عن صحابى عرض لنظرية « زيادة الإيمان ونقصانه » [٢] .

(٢٥) وأخيراً يمكن أن يطلق بحق اسم المرجئة على الجماعات الإسلامية التى تعتبر أن المبدأ الأساسى فى الإسلام هو الإيمان بإله واحد ولكنهم يهملون الفرائض فاحتقار « العمل » هو أخص مايميزهم . ويطلق المقدسى (الذى كتب فى سنة ٣٧٥ هـ سنة ٩٨٥ م) هذا الاسم على المسلمين الإسميين الذين شاهدهم فى إقليم دوماند والذين ذكر عنهم أنه ليس فى بلادهم مساجد ، فهم ينبذون أحكام الإسلام ، قانعين بالتوحيد وبتسديد ما عليهم من الضرائب للحكومة[٣] . (المقدسى : أحسن التقاسيم . المكتبة الجغرافية العربية طبعة دى غويه م ٣ ص ٣٩٨) .

---

(١) « أخذ الفقه عن القاضى أبى يوسف الحنفى ، إلا أنه اشتغل بعلم الكلام ، وجرد القول بخلق القرآن ، وحكى عنه فى ذلك أقوال شنيعة . وكان مرجئاً ، وإليه تنسب الطائفة المريسية من المرجئة . وكان يقول إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر . ولكنه علامة الكفر . »

(٢) هذا الحديث هو ما رواه ابن خماشة قال . (إن الإيمان يزيد وينقص ، فقيل له وما زيادته وما نقصانه ؟ قال . إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته ، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نسيانه) .

(٣) عبارة المقدسى هى . (... وهم قوم مرجئة بلا خلاف ؟ لا يغتسلون من جنابة ، ولا رأيت فى قراهم مساجد . وجرت بينى وبينهم مناظرات ، فقلت : ألا يغزوكم المسلمون وأنتم تعتقدون هذا المذهب ؟ قالوا . ألسنا موحدين ؟ قلت . كيف ! وقد أنكرتم فرائض ربكم ، وعطلتم الشريعة ! قالوا . إنا ندفع إلى السلطان فى كل سنة أموالا جمة) .

(٢٦) مسند أحمد (جابر) . وقد استشهد به ابن قيم الجوزية فى كتاب الصلاة وأحكام تاركها (القاهرة طبعة النعسانى سنة ١٣١٣) ص ٤٦ .

(٢٧) الترمذى ج ٢ ص ٢٦١ من النهاية . ومن الأدعية المستحبة كثيراً دعاء مطلعه : « اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا فنعجز » . وقد أورد بهاء الدين العاملى فى المخلاة (القاهرة سنة ١٣١٧) ص ١٢٩ طائفة كبيرة من الأدعية المشابهة لهذا .

(٢٨) من أمثال صيغ هذه «البراءة» أو القسم يوجد فى مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٢٩٧ ، وفى تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسماج ٢ ص ٥٠٥ ، ٥٠٩ والفخرى لابن الطقطق طبعة ألفرت ص ٢٣٢[1] .

(٢٩) أرى الآن أنى أشارك كارادى ڤو فى هذه الفكرة التى ذكرها فى كتابه « دين الإسلام » (باريس سنة ١٩٠٩) ص ٦٠ .

(٣٠) محمد «لهيوبرت جريمة» م ١ ص ١٠٥ ومابعدها (مونستر سنة ١٨٩٥) .

(٣١) الخصائص الأساسية لتاريخ الحضارة فى البلاد الإسلامية لألفردفون كريمر (ليبزج سنة ١٨٧٣) ص ٧ وما بعدها .

(٣٢) انظر فوق ذلك مجلة المستشرقين الألمانية م ٥٧ ص ٣٩٨ :

(٣٣) الأمبراطورية العربية وسقوطها « لفلهوزن » ص ٢١٧ ، ٢٣٥ ويعلل « ڤلهوزن » هذا الموقف بواعث سياسية وليست اعتقادية ، يروى القدرية أن الحسن البصرى بعث لعبد الملك والحجاج برسائل حاول فيها هذا الورع أن يقنع الحكام الأمويين بسخف أخذهم بمبدأ الجبر . انظر أيضا أحمد بن يحيى : كتاب الملل والنحل (طبعة ت . و . أرنولد ـ « المعتزلة » ـ ليبزج سنة ١٩٠٣) ص ١٢ وما بعدها .

(٣٤) مجلة المستشرقين الألمانية م ٥٧ ص ٣٩٤ ، وبها أيضا ٦٠ ص ٢٥ أشعار جبرية للفرزدق جديرة بالملاحظة .

---

(١) جاء فى الفخرى أنه لما أمن الرشيد يحي بن عبد الله وأطلقه سعي به لدى الرشيد رجل من آل الزبير بن العوام بأنه لا يزال يدعو إلى نفسه ، فجمع بينهما ، فأراد الزبيرى أن يحلف بالله الطالب الغالب أنه صادق ، فقال له يحي دع هذه ، ولكن احلف يمين البراءة ، وهى يمين عظمى صورتها أن يقول عن نفسه : (برئ من حول الله وقوته ، ودخل فى حول نفسه وقوته إن كان كذا وكذا) فحلف بعد ارتياع وتردد ، فما خرج من المجلس حتى ضرب برجله ومات .

(٣٥) الأغانى ج ١٠ ص ٩٩ .

(٣٦) المعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥

(٣٧) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤١

(٣٨) ابن سعد ج ٦ ص ٢٣٦ ويعد بعض الرواة أن محمد بن الحنفية أول من عبر عن فكرة الإرجاء (ابن سعد ج ٥ ص ٦٧) .

(٣٩) عن مدلول كلمة « معتزلة » انظر مجلة المستشرقين الألمانية م ٤١ ص ٣٥ هامش ٤ . وانظر أيضا ابن سعد ج ٥ ص ٢٢٥ ؛ ففى هذا الموضع من ابن سعد استعملت كلمة معتزلى كمرادف لكلمة « عابد » و « زاهد » ، فالاعتزال صفة يوصف بها الزهد . وقد عُرِّبت كلمة « فريسىّ » (ومعناها الذى ينزوى) إلى كلمة « معتزل » وذلك فى ترجمة عربية قديمة للعهد الجديد (مطبوعة سنة ١٢٣٣) وهى ذات أصل نسطورى (مجلة المشرق م ١١ ص ٩٠٥) .

(٤٠) أحدث من هذا ، كتاب هنرى جالآن : » بحث فى المعتزلة ، العقليون فى الإسلام » (جنيف سنة ١٩٠٦) .

(٤١) انظر ترجمته فى كتاب « المعتزلة » بقلم « ت . و . أرنولد » ص ١٨ .

(٤٢) المحاسن للبيهقى طبعة شولىّ ص ٣٦٤ . أما صفة الزهد ففى كتاب « أرنولد » السابق الذكر ص ٢٢ .

(٤٣) وإلى القرن الرابع كانت صفة الزهد لاتزال من صفات المعتزلة : ياقوت طبعة « مرجوليوث » ج ٢ ص ٣٠٩[1] .

(٤٤) كريمر : « تاريخ الحضارة فى الشرق فى عهد الخلفاء » ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٤٥) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٨ (وعن الشكاك انظر ج ٦ ص ١١) . وقد أثرت مثل هذه المبادىء على رأى الغزالى ، المخالف لوجهة نظر المعتزلة . ويتجلى أثرها فى عبارته : « ميشلو بيسبِّق لو بيمايِّن » ، أى أن كل من لا يشك لا يستطيع أن يبحث وأن ينظر بطريقة عقلية (موزنى صِدِق ـ طبعة عبرية ـ جولدِ نْتال) . والأصل

---

(١) فقد جاء فيه فى الحديث عن إسماعيل بن عباد : « ... فدخل عليه شيخ من زهاد المعتزلة ، يعرف بعبد الله بن إسحق) .

العربى لعبارة الغزالى هذه استشهد به ابن طفيل فى كتابه : « حى بن يقظان » (طبعة جوتييه بالجزائر سنة ١٩٠٠) ص ١٣[١] .

(٤٦) شرح الفقه الأكبر للماتريدى (حيدر أباد سنة ١٣٢١ ويشك كثيراً فى صحته نسبته لمؤلفه) ص ١٩ .

(٤٧) الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٩٥ . ويقابل هذا النشاط العقلى الحر ، التقليد والتقيد بالعادات والأفكار الموروثة ، وهو الغالب على العقول المتوسطه (ص٩٦)

(٤٨) انظر دلالة الحائرين لابن ميمون ج ١ ف ٧٣ مطلب ١٢ وعن شك المتكلمين انظر مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٢ ص ٢ .

(٤٩) كتاب جوهر النفس (بالألمانية) ص ١٣ هوامش ٤ ، ٥ وما بعدها .

(٥٠) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى ج ٥ ص ٣٠١ طبع المطبعة الأزهرية .

(٥١) تاريخ دمشق لابن عساكر كراسة ٣٤٠ مخطوطة لاندبرج ، الموجود حالياً بمكتبة جامعة « ييل » — « نيوهيڤن كنكتى » .

(٥٢) للمتكلم الحنبلى موفق الدين عبد الله بن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠ هـ سنة ١٢٢٣ م كتاب « ذم التأويل » ، ومنه نسختان خطيتان اقتنتهما مكتبة الجمعية الأسيوية للبنغال (قائمة المخطوطات العربية والفارسية المقتناه سنة١٩٠٣ إلى سنة١٩٠٧ رقم ٤٠٥،٧٩٥ ، ويكمل ما بكتاب بروكلمان ج١ ص ٣٩٨ فى هذا الصدد)وابن تيمية (انظر عنه القسم السادس) فى كتاباته المختلفة يورد الكثير من الحجج لدحض تأويل المتكلمين ، ويرسم له حدوداً يتسنى معها استخدامه تبعاً لما جاء فى السنن والآثار ؛ (مثل تفسيره لسورة الإخلاص ص٧١ وما بعدها ، ورسالة الإكليل فى المتشابه والتأويل فى مجموعة الرسائل الكبرى (القاهرة سنة ١٣٢٣) ج ٢ .

(٥٣) أبو معمر الهذلى المتوفى ببغداد سنة ٢٣٦ هـ سنة ٨٥٠ م تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٥٦ .

---

(١) يريد قوله : (ولو لم يكن فى هذه الألفاظ إلا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعاً ؛ فإن من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة) تقول وقد كان للمؤلف غنية عن هذا الدوران ، فى سبيل الاستشهاد على الشك وقيمته عند الغزالى ، بما جاء عن ذلك فى كتابه (المنقذ من الضلال) مما سجل به سبقه (لديكارت) فيلسوف الشك المعروف .

(٥٤) أحمد بن حنبل والمحنة (بالإنجليزية) (ليدن سنة ١٨٩٧) ، وانظر أيضاً مجلة المستشرقين الألمانية م ٥٢ ص ١٥٥ وما بعدها .

(٥٥) دراسات إسلامية ج ٢ ص ٥٩ .

(٥٦) الشهرستاني طبعة كيورتن ص ٦٨ .

(٥٧) مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٢ ص ٨ .

(٥٨) كتاب الإبانة عن أصول الديانة (حيدر أباد سنة ١٣٢١) ص ٤١ .

(٥٩) توجد بيانات مقنعة مفصلة في مجلة المستشرقين الألمانية م ٥٢ ص ١٥٨ وهوامشها ، ومقدمتي لكتاب محمد بن تومرت (الجزائر سنة ١٩٠٣) ص ٦١ — ٦٣ ، ٧١ — ٧٤ .

(٦٠) الشهرستاني طبعة كيورتن ص ٥١ .

(٦١) الأحكام السلطانية للماوردي طبعة إنجيه ص ٦١ وما بعدها . والإمام الشافعي لا يفرق بين المنطقتين : دار الإسلام ودار الحرب ؛ وعن المسائل المترتبة على هذا الرأي تنشأ الخلافات التي تفرق بين الشافعي والمذاهب الأخرى . انظر أيضاً كتاب « تأسيس النظر » لأبي زيد الدبوسي (القاهرة — ليس به تاريخ الطبع) ص ٥٨

(٦٢) « المعتزلة » بقلم « ت . و . أرنولد » ص ٤٤ ، ٥٧ .

(٦٣) عن العنوان انظر هامش رقم ٥٨ .

(٦٤) م. شرَيْنر « في تاريخ الأشاعرة » أعمال المؤتمر الدولي الثامن للمستشرقين ق ١ حرف ا ص ١٠٥ .

(٦٥) وفي « الهجّادة » الربانية ذكرت الفكرة القائلة بأن المسائل الشرعية تدرُس ويتناقش فيها مناقشات جدلية : باب بيزاخيم ١٥٠ ا ، خجيجة ١٥ ب ، جِتّين ٦ ب ؛ وإن الله تعالى يعني بفحص الخلافات في الرأي بين فقهاء القانون الرباني وأنه تعالى يفحص الشريعة ويستوعبها . والفكرة الأخيرة ترد كثيراً في (سِدِر إليّاهو ربّا) طبعة فريدمان — فينا سنة ١٩٠٠) ص ٦١ قبل آخرها .

(٦٦) مسند أحمد ج ٤ ص ٦٦ .

(٦٧) الموطأ (طبعة القاهرة) ج ١ ص ٣٨٥ . وقد استشهدت بأمثلة أخرى عن التأويل في كتابي عن الظاهرية ص ١٦٨ وقد صنّف حسن بن علي الأهوازي

المتوفى بدمشق سنة ٤٤٦ هـ سنة ١٠٥٥ م كتاباً جمع فيه من الأحاديث ما يؤيد التجسيم والتشبيه فى أغاظ صورة له ، انظر فى هذا الصدد ياقوت طبعة مرجوليوث ج ٣ ق ١ ص ١٥٣ . انظر أيضاً البخارى ، كتاب التوحيد رقم ٣٥

(٦٨) وفى رواية لابن سعد ج ٦ ص ٣٧ كلمة « يهبط » وفى نهايتها : حتى إذا طلع الفجر ارتفع[1] .

(٦٩) حاول الفقهاء أن يأتوا بتأويلات أخرى ، لحذف ما يشتمل عليه هذا النص من تجسيم ، وقد أوردها مرتبة أبو محمد بن السيد البطليوسى فى كتابه « الإنصاف » (طبعة عمر المحمصانى ـ القاهرة سنة ١٣١٩) ص ١٢٠ وما بعدها (وهذا الكتاب على جانب كبير من الأهمية لدراسة المسائل التى نعالجها هنا) . وانظر كتاب المدخل لمحمد العبدرى (اسكندرية سنة ١٢٩٣هـ) ج ٢ ص ٢٥ وما بعدها[2] ، وقارن أيضاً طبقات الشافعية للسبكى ج ٢ ص ١٣٥[3] .

(٧٠) البخارى كتاب التفسير رقم ٢٦٤ (الأحاديث الخاصة بسورة « ق » آية ٣٠ ، وكتاب التوحيد حديث رقم ٧) طبعة يوينبول ج ٤ ص ٤٤٨) ، وكذلك النهاية لابن الأثير ج ١ ص ١٤٢ مادة (ج ب ر) .

(٧١) انظر بصدد هـذا العبارة الحاسمة الواردة فى كتاب معالم أصول الدين لفخر الدين الرازى الباب الأول المسألة العاشرة (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٣ ص ٩) ، فالمؤلف بعد أن عدّد العناصر الذاتية التى تشتمل عليها البراهين النقلية المبنية على الروايات يقول : « وإذا ثبت هذا ظهر أن الدلائل النقلية ظنية وأن العقلية قطعية

---

(١) النص كاملا هكذا : « عن ثوير قال : سمعت رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له أبو الخطاب ، وسئل عن الوتر ، قال : أحب أن أوتر نصف الليل ؛ إن الله يهبط من السماء السابعة إلى السماء الدنيا ، فيقول هل من مذنب ؟ هل من مستغفر ؟ هل من داع ؟ حتى إذا طلع الفجر ارتفع » .

(٢) يشير إلى ماجاء فيه من نهى الإمام مالك عن التحديث بما جاء من اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ وبما روى من أن الله خلق آدم على صورته ... لما فى ذلك من التغرير . كما يشير إلى تأويل العلماء لهذا الحديث ولآية الاستواء ولما قيل من اهتزاز العرش ونحو ذلك مما يوهم التجسيم أو التشبيه .

(٣) يريد مارواه ابن خزيمة من « أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يضرب وجه رجل فقال . لاتضرب على وجهه فإن الله خلق آدم على صورته » .

والظن لايعارض القطع ». والأساس فى علم الكلام هو دائماً أن « الدلائل النقلية لا تفيد اليقين » المواقف للأيجى والجورجانى (طبعة استامبول سنة ١٢٣٩ هـ) ص ٧٩ .

(٧٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (القاهرة — ليس به تاريخ الطبع ولكنه مطبوع بعد وفاة المؤلف سنة ١٩٠٥) ص ٥٦ .

(٧٣) « شرَيْنر » : إيضاحات لتاريخ الحركات اللاهوتية فى الإسلام ليبزج سنة ١٨٩٩) ص ٦٤ — ٧٥ ، انظر أيضاً مجلة المستشرقين الألمانية م ٥٢ ص ٥٢٨ — ٥٣٩ .

(٧٤) كما جاء فى « العقيدة الحموية الكبرى » لابن تيمية : مجموعة الرسائل ج ١ ص ٤٦٨ فى آخرها .

(٧٥) طبقات السبكى ج ١ ص ٢٤١[1] .

(٧٦) وضع أبو سليمان الخطّابى البُستى (المتوفى سنة ٣٨٨ هـ سنة ٩٩٨ م) المحدث الشهير كتاباً اسمه الغنية عن الكلام وأهله طبقات السبكى ج ٢ ص ٢١٨ .

(٧٧) علينا أن نشير لدراسات « س . هوروڤتز » فى كتابه : « فى أثر الفلسفة اليونانية فى نمو الكلام وتطوره » (بالألمانية) ، إذا أدرنا الوقوف على المصادر الخاصة بفلسفة الطبيعة وما وراء الطبيعة عند المعتزلة (برزلاو سنة ١٩٠٩) . انظر أيضاً ملاحظات « م . هورتن » فى جريدة الآداب الشرقية م ١٢ ص ٣٩١ وما بعدها . والكتاب الحديث لنفس هذا الكاتب وهو : « المسائل الفلسفية فى اللاهوت النظرى فى الإسلام » (بون سنة ١٩١٠ . « النهضة والفلسفة » ج ٣) .

(٧٨) كتاب الحيوان ج ٢ ص ٤٨

---

(١) يريد ما حدث به أبو إبراهيم المزنى قال : « كنت يوما عند الشافعى أسائله عن مسائل بلسان أهل الكلام ، قال فجعل يسمع منى وينظر إلى ثم يجيبنى عنها بأحضر جواب ؛ فلما اكتفيت قال لى . يابنى أدلك على ماهو خير لك من هذا ؟ . قلت نعم ، فقال يابنى ! هذا علم إن أنت أصبت فيه لم تؤجر وإن أنت أخطأت فيه كفرت ؛ فهل لك فى علم إن أصبت فيه أجرت ، وإن أخطأت لم تأثم ؟ قلت وماهو ؟ قال : الفقه فلزمته وتعلمت منه الفقه ودرست عليه » .

(٧٩) المواقف طبعة استامبول ص ٤٤٨ .

(٨٠) انظر س . « هوروفتز » فى كتابه السابق ص ١٢ ، و « هورتن » فى مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٣ ص ٧٨٤ وما بعدها .

(٨١) انظر هامشى رقم ٤٨ ، ٤٩ السابقين .

(٨٢) دلالة الحائرين لابن ميمون ج ١ ف ٦٩ فى النهاية .

(٨٣) الجورجانى على المواقف ص ٥١٢ .

(٨٤) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمى (القاهرة سنة ١٣٠٧) ص ٣٥ .

(٨٥) فى إتحاف السادات المتقين (طبعة القاهرة سنة ١٣٠٢) ج ١٠ ص ٥٣ .

(٨٦) المواقف ص ٥٠٦ .

(٨٧) إن الحجج والبراهين الخاصة بدحض مبدأ العلية جمعها السنوسى (حوالى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى) فى كتابه « المقدمات الاعتقادية » الذى نشره « ج . د . لوسيانى » مع ترجمة فرنسية (الجزائر سنة ١٩٠٨) ص ١٠٨ — ١١٢ . والسنوسى فى العقائد السنية ، قد انفرد لنقض مبدأ العلية كتاباً خاصاً ، وذلك كما يدل عليه ثبت مؤلفاته (فى « تراجم علماء المسلمين بالجزائر » ج ١ ص ١٨٥) ؛ وقد « دفع فيه بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة القامعة فكرة العلة وفعل العلل الأزلية » .

حواشي القسم الرابع

الزهد والتصوف

(١) ابن سعد ج ١ ق ١ ص ١٤٥ .

(٢) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٧٧ .

(٣) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٥٨ .

(٤) انظر مقال « الأعمال اليدوية عند العرب » فى مجلة « *Globus* » مجلد ٦٦ رقم ١٦ .

(٥) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١١٧ .

(٦) تهذيب النووى ص ٢١٧ ؛ وانظر أيضاً سعيد بن المسيّب ص ٢٨٤ ؛ وقارن ابن سعد ج ٥ ص ٣٠٥ . و « لامانس » فى كتابه : « دراسات عن حكم الخليفة معاوية » قد أورد أمثلة قوية فى دلالتها من وجوه أخرى ، ج ١ ص ١٤٨ ؛ ١٥٣ هامش نمرة ٥ ؛ ١٦٥ وما بعدها ؛ ١٧٧ ؛ ٢٣٣ وما بعدها (= « مجموعة بيروت »[1] ج ٢ ص ٤٠ ؛ ٤٤ ؛ ٥٧ وما بعدها ؛ ٦٩ ؛ ١٢٥ وما بعدها) . وانظر أيضاً مروج الذهب للمسعودى ج ٤ ص ٢٥٤ وما بعدها .

(٧) « حوليات الإسلام » لـكايتانى ج ٢ ص ٣٩٩ ، ٤٠٥ ، ٥٤٣ .

(٨) المصدر نفسه ص ١٠٨٠ وما بعدها .

(٩) ابن سعد ج ٥ ص ٥٠[2] وانظر أيضاً البواعث المتعددة للحر الحربية ،

---

(١) *Mélanges Beyrouth.*

(٢) النص الذى يستشهد به المؤلف هو : (عن إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت قال : يقول محمد بن عمرو يومئذ رافعاً صوته يا معشر الأنصار ! اصدقوهم الضرب فإنهم قوم يقاتلون على طمع الدنيا وأنتم قوم تقاتلون على الآخرة . قال ثم جعل يحمل على الكتيبة منهم فيفضها حتى قيل) . تقول : ذلك كان يوم الحرة ، ووصف ابن عمرو لخصومه بأنهم يقاتلون على طمع الدنيا ، يعتبر فى الحق رأى خصم فى خصمه ، فلا يكون من العدل إعتباره معبراً عن الحق فى نفسه ، وإذاً فلا يكون دليلا للمؤلف على ما ذهب إليه .

ونقد « نولدكه » لـكتاب « كايتانى » فى *W. Z. K. M.*[1] م ٢١ ص ٣٠٥ .

(١٠) تهذيب النووى ص ٣٦٢ .

(١١) المصدر نفسه ص ٥١٩ . والحديث رقم ٣٦ فى كتاب الجهاد بالبخارى له أهمية كبيرة ؛ إذ فيه يبدى النبي قلقه من أجل « طيبات الدنيا ومتع العالم » التى سيصيبها المؤمنون من بعده ، وإن كان يسكّن من هذا القلق ما يرجى من أن هذه الـكنوز التى سينالونها ستنفق فى الأعمال الصالحة .

(١٢) ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ١٦٦[2] .

(١٣) ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ١٦٩ . وكان أبو الدرداء يقول : « إن ذا الدرهمين يوم القيامة أشد حسابا من ذى الدرهم » . (ابن سعد ج ٦ ص ٢٠٠) .

(١٤) ابن قُتَيْبَة : عيون الأخبار ص ٣٧٥ .

(١٥) انظر أيضاً ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١٢٥ .

(١٦) ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ٩ وما بعدها ، روايات مختلفة . (وقاعدة النبى هذه تنسب لهذا أو ذلك من الصحابة حسب الروايات ؛ مثلا لعثمان بن مظعون : ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٨٧ ؛ أو لعبد الله بن عمر : *Muh. Stud*[3] (ج ٢ ص ٣٩٦ هامش رقم ١) . والرواية الخاصة بابن عمرو تفترض سبق جمع القرآن ؛ مادام عبد الله كان يرغب فى تلاوته كله مرة كل يوم ، غير أن النبي رأى كفاية تلاوته كله مرة كل شهر أو على الأكثر فى عشرة أيام أو ستة (وانظر فى ابن سعد ج ٦ ص ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٠ مثالا لبعض الأتقياء الذين كانوا يقرءون القرآن كله فى خمسة وستة وسبعة أيام ، وأنه فى رمضان كان من المعتاد أنه يتلى كله كل ليلتين) . وقد نجد فى ملاحظة ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ١١ بأن عبد الله بن عمرو كان يعرف

---

(١) مجلة « ڤينا » لمعرفة الشرق .

(٢) يريد ما رواه أبو ذر ، قال : (قال النبي صلى الله عليه وسلم كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثرون بالفىء ؟ قال ، قلت : إذن والذى بعثك بالحق أضرب بسيفى حتى ألحق بك ؛ فقال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك ! اصبر حتى تلقانى) وعن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة فإذا أنا بأبى ذر ، قال فقلت ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، وقال معاوية نزلت فى أهل الـكتاب ؛ قال فقلت نزلت فينا وفيهم ؛ قال فـكان بينى وبينه فى ذلك كلام ....) .

(٣) (دراسات إسلامية) .

القراءة بالسريانية مما قد يدل على الأثر المسيحي فى ميوله الزهدية .

(١٧) مسند أحمد ج ٢ ص ٦٤ (لا صام من صام الأبد) .

(١٨) الماوردى : أعلام النبوة (القاهرة سنة ١٣١٩ ﻫ) ص ١٥٣ .

(١٩) « دراسات إسلامية » ج ٢ ص ٣٩٥ .

(٢٠) أسدالغابة ج ٥ ص١٣٢ ؛ وانظر أيضاً ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ١٧ . وعن موضوعه وسياق هذا القول انظر الأحاديث التى أوردها « ج . هوروفتز » فى « آثار المسرح الأغريقى فى الشرق الشرق *Spuren grieschicher Mimen im Orient* » (برلين سنة ١٩٠٥) ص ٧٨ — ٧٩ .

(٢١) هذه هى دائماً فكرة السنة التى تُنشر بتحبيذ الحياة الزوجية : والعزوبة مخالفة للسنة ، والرهبانية ترجع إلى البدعة (انظر القسم السادس) . ابن سعد ج ٥ ص ٧٠ ؛ الرهبانية المبتدعة : ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » ص ٣٧٥ (ج ٤ص١٨ طبعة دار الكتب) . وانظر أيضاً *Muh. Stud.* ج ٢ ص ٢٣ هامش رقم ٣ ؛ والزاهد العازب برغم ورعه وتقواه يُلام من ناحية أخرى لأنه تارك للسنة (اليافعى : روض الرياحين ، ص ٢٨ من طبعة القاهرة عام ١٢٩٧ ﻫ) .

ومما يسترعى الانتباه كثيراً أن عبد الله بن عمر — الذى لولا هذا لعُدَّ المثلُ الأعلى للاستمساك بالسُّنة — اعتزم فى مبدأ أمره أن يعيش عيشة العزوبة (ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ١٢٥) . وأورد ابن الجوزى عن الصحابى أبى بِرْزة كلمة أسىء فهمها يقول فيها إنه لو لم يبق له فى الدنيا إلا يوم واحد لم يحب إلا أن يلاقى الله متزوجاً ، لأنه سمع النبى يقول : « شراركم عُزَّابكم » . وهذه العبارات ، وإن كان علم مصطلح الحديث لا يعدّها صحيحة ، إلا أن ما ترمى إليه مسلم به ، وبمقتضاها لا يرى المسلمون العزّاب أهلاً للإمامة فى الصلاة[1] (مجلة العالم الإسلامى (بالفرنسية) م ٥ ص ٣٢) .

ويجب ملاحظته أن تستبعد دائماً فى هذه الناحية مما فكرة الغض من الحياة الزوجية فى نظام الزهد فى الإسلام (انظر المعلومات والحقائق التى جمعها « لامانس » فى كتابه «معاوية » ص ١٦٥) والأمثلة المستخرجة من قصص الأولياء فى كتاب :

---

(١) غير صحيح أن العازب ليس أهلا للإمامة فى الصلاة ، بل قد يكون مفضولا بالنسبة إلى غيره .

« الجزائر الخرافيـة » *L'Algérie légendaire* » .. للأستاذ « ترومليليه C. Vrumelct » ، طبع الجزائر عام ١٨٩٢ م ص ٤٣٦ ، ٤٤٢ .

ومن الهام جداً فى هذا الموضوع الرجوع إلى طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٨٩ ، حيث نعرف ما دعا به الله فى الكعبة رجل معروف بالزهد[1] . وقارن بذلك الحقائق الشيّقة فى كتاب « المرابطون *Les Marabouts* » للأستاذ « دُوتّيه E. Duotté » (بباريس سنة ١٩٠٠ م) ص ٨٤ وما بعدها ، وبحث « تقديس الأولياء المسلمين فى أفريقية الشمالية وخاصة فى مراكش » للأستاذ مونتيه — E. Montet ، جنيف عام ١٩٠٩ م ، فى الكتاب « اليوبيلى » لجامعة جنيف ص ٣٩ ، ٦٦ .

(٢٢) والمبرّرات ذكرتها فى مقالى « الزهد فى عصور الإسلام الأولى » بمجلة تاريخ الأديان (بالفرنسية) عام ١٨٩٨ م ، م ٣٧ ص ٣١٤ وما بعدها .

(٢٣) دراسات إسلامية ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٢٤) مخطوطات « جوتا » العربية رقم ١٠٠١ ورقة ٩٣ .

(٢٥) ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ١٩ ، وهو يعطى بيانات قوية فى دلالتها .

(٢٦) انظر فيما سبق مجلة تاريخ الأديان م ٢٨ ص ٣٨١ .

(٢٧) إن الحديث رقم ٣١ فى الأربعين النووية اشتمل على تعليم هام للنبى ، وهو : « جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ! دُلّنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس ، فقال : ازهد فى الدنيا يُحبُّك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك النـاس » . وهذا الحديث لم يخرجه إلا ابن ماجه فى سننه ، وهذا ما يثبت أنه فى القرن الثالث للهجرة لم يكن قد اعترف بصحة صدوره عن الرسول .

(٢٨) الجاحظ ، *Tria Opuscula* ، طبعة فان فلوتن ص ١٣٢ وما بعدها (— ص ١٢٥ من الرسائل طبعة القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ) ، يرى أهمية خاصة لطبيعة النبى الميالة إلى المزاح . وقد ألّف الزبير بن بكار (المتوفى عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ، بحثاً فى مزاح النبى (الفهرست ص ١١٠) ، وقد اقتبس منه القسطلانى فى شرحه للبخارى ج ٩ ص ٥٠٠ .

---

(١) يريد أبا الحسن الاستراباذى الذى سأل الله فى الكعبة كمال القدرة على قراءة القرآن وإتيان النسوان ، فاستجيب له الدعوتان .

(٢٩) انظر أيضاً نولدكه وشْفَلّى *Geschichte des Korans*[1] ، ص ١٧٠ هامش . ونجد معلومات هامة جداً فى كتاب « الجواب الكافى » لابن قيم الجوزية ص ١٧١ طبع القاهرة (دون تاريخ الطبع) .

(٣٠) لقد كان لابن سعد مثلا غرض يرمى إليه حين يخصص فى البيانات التى أكدها عن أبى بكر ثلاث صفحات كاملة (ج ٣ ق ١ ص ١٣٣ — ١٣٦) لكى يثبت ، معتمداً على وثائق عدة لا أهمية لها فى ذاتها ، أن الخليفة الورع اعتاد أن يعنى بلحيته بوسائط التزين . (وهذه الناحية تعالج بإسهاب فى تراجم بعض الصحابة الآخرين أيضا) والمراد من هذا كله واضح كل الوضوح حينما يؤكد ابن سعد (ج ٣ ص ١٥٠) أن « أناساً من حمقى قرائكم يزعمون أن خضاب اللحى حرام » وهكذا عورض هؤلاء الأتقياء بأحاديث قوية قاطعة . على أنه يوجد أيضاً أحاديث أخرى لتأييد وجهة النظر المعارضة (ابن سعد ج ٦ ص ٢٠١ ، ٢٣١ الخ)[2] .

(٣١) ابن سعد ج ٣ ق ٢ ص ١٠٣ .

(٣٢) ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ٢٩ ، ج ٦ ص ١٧[3] .

(٣٣) ابن سعد ج ٥ ص ٨٥ .

(٣٤) ارجع إلى بحث « هوبرت باننج — Hubert Banning » محمد بن الحنفية ، (إرلانجن عام ١٩٠٩ م) ص ٧٣ ملحق ، وطمعه ، فى المصدر نفسه ص ٦٨ ، فقد رغب أن يجد تعويضاً عن تنازله عن مطالبه لكى يشبع طمعه هذا .

(٣٥) إنهم يُسمون عادة بالقراء : أى الذين يقرءون القرآن . وذكرت الروايات أن فريقاً منهم كان فى صحبة النبى ، واختصوا بأنهم كانوا يقضون نهارهم يستقون الماء ،

---

(١) تاريخ القرآن .

(٢) يشير إلى ما رواه خيثمة بن عبد الرحمن قال : « إنه أدرك ثلاثة عشر رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد غير شيباً » . وما رواه الحكم بن عتيبة عن فطر قال : « رأيت الحكم أبيض اللحية » .

(٣) يريد هذين الحديثين : عن أبى رجاء العطاردى قال : « خرج علينا عمران بن حصين فى مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد ، فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله إذا أنعم على عبد نعمته يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ؛ أنبأنا أبو إسحاق قال سمعت أبا الأحوص يحدث عن أبيه قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا قشف الهيئة فقال هل لك مال ؟ قلت نعم ، قال فما مالك ؟ قلت من كل المال من الخيل والإبل والرقيق والغنم ، فقال إذا آتاك الله مالا فلير عليك » .

ويحتطبون للنبى ، (انظر أيضاً سِفْر يشوع الإصحاح التاسع ، أعداد ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧) ، ويلازمون الأعمدة ليلا يتهجدون (ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٣٦ ، ٣٨) ، وهذه الصفة أطلقت بصفة عامة على الذين يزدرون الحياة الدنيا ويخصصون أنفسهم للعمل الصالح وحياة الزهد والتأمل ، انظر مثلا ابن سعد ج ٦ ص ٢٥٥ : « فداود الطائى لا يشبه القراء (والحديث هنا عن الزهاد عموماً) عليه قلنسوة سوداء طويلة مما يلبس التجار » . ويستعمل أحرار الفكر أو ذوو النزعة الدنيوية كلمة « قُرّاء » بمعنى سيء ، إذ يطلقونها للدلالة على من يتظاهر بالتقوى رياءاً وسمعة .

واشتق من قرأ فعل « تقرّأ » وتحذف فيه الهمزة ، فيقال « تقرّى » أى تنسك ومال إلى حياة الزهد ، (أمالى القالى ج ٣ ص ٤٧) ، ولما انقطع اللغوى الكبير « أبو عمرو بن الأعلى » ، (أى لما تقرى) ، أحرق ما كان قد جمعه من مواد اللغة ، (الجاحظ فى « أبحاث فى فقه اللغة العربية » [بقلم جولد تسيهر] ج ١ ص ١٣٩) ، وذلك مثلما صنع داود الطائى الذى ذكرناه آنفاً ، فإنه « لما تعبد » أى أصبح عابداً رغب عن كل العلوم ، حتى عن علم الحديث الذى كان نابغة فيه (ابن سعد ج ٦ ص ٢٥٥) .

(٣٦) ابن سعد ج ٦ ص ٢٠٢ ، وانظر أيضاً أبا إسرائيل هذا ، فقد ورد اسمه فى رواية تنهى عن الغلو فى التزين عند الصلاة (ابن سعد ج ٦ ص ٢٣١) .

(٣٧) ابن سعد ج ٦ ص ١١١ .

(٣٨) ابن سعد ج ٦ ص ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٣[1] . ومما هو قوى أيضاً فى الدلالة على هذه النزعة الباعث الدينى لكراهيته للشعر (ابن سعد ج ٦ ص ٥٣) . والمادة الخاصة بمسروق بن الأجدع فى ابن سعد كثيرة الإفادة من ناحية العلم بالطرق التى تأكدت بها نزعة الزهد فى ذلك العصر .

---

(١) من الأحاديث التى أشار إليها المؤلف هذان الحديثان : عن أبى حيان التيمى عن أبيه قال : « ماسمعت الربيع بن خثيم يذكر شيئاً قط من الدنيا إلا أنه قال يوماً كم للتيم مسجد ؟ » ؛ وحدثنا بكر ابن ماعز قال : « جاءت ابنة الربيع بن خثيم فقالت ياأبت ، أذهب ألعب ؟ فقال اذهبي فقولى خيراً ؟ فلما أكثرت عليه قال له بعض القوم اتركها تذهب تلعب . قال لاأحب أن يكتب على اليوم أنى أمرت باللعب » .

(٣٩) انظر تراجم الخلفاء الأولين والصحابة فى طبقات الصوفية ، ونذكر أن « عليًا » ، من بينهم خاصة ، هو النموذج لحياة الزهد ؛ وليس فحسب فى تصوير الأشخاص المطبوعين على هذه الميول ، ولكن أيضا فى الذكريات الشعبية — يراجع خاصة أمالى القالى ج ٢ ص ١٤٩ . وإن تركنا جانبا الأقوال المغرضة ، فإن التحلية بصفات الزهد والورع ليست أمراً نادراً فى التراجم ؛ ويمكننا أن نسوق مثالا لذلك وصف اللحظات الأخيرة للصحابى معاذ بن جبل الذى غزا مع النبى ووكل إليه نشر الإسلام باليمن ، والوباء الذى عصف بسوريا قضى على الكثيرين من أفراد أسرته .

لقد نُسب إليه وهو يجود بنفسه أنه قال : « مرحباً بالموت ، مرحباً زائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، إنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولالغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر » . (تهذيب النووى ص ٥٦١) .

وأصحاب التراجم ، ذوى النزعة إلى الورع والتقوى ، أسبغوا على المجاهدين فى الإسلام ما يكمل شجاعتهم وبطولتهم من صفات التقوى والزهد ، وهذا ما يميز مؤلفات الزهد حتى العصر الحاضر . وفى ذلك يذكر اليافعى ، فى « روض الرياحين » ص ٢٨٥ ، أن نور الدين ملك الشام وصلاح الدين الأيوبى يشغلان أرفع المراتب فى طبقات الأولياء ، كما كان علىٌّ أيضاً .

(٤٠) أسد الغابة ج ٣ ص ٨٨ وما بعدها ؛ انظر عامر بن عبد القيس[1] .

(٤١) انظر ديوان الحطيئة ، الطبعة التى أشرفت عليها ؛ ص ٢١٨ ؛ وإنى أضيف للبيانات التى توجد به الأشعار التى أوردها الجاحظ فى كتاب « الحيوان » ج ٥ ص ١٤٥ ، ج ٦ ص ١٢١ . وهذا الموضوع نفسه عالجه شيخو فى مجلة المشرق م ١١ عام ١٩٠٨ م .

---

(١) يشير إلى عامر بن عبد القيس ، الذى كان زاهداً وأعبد أهل زمانه وأشدهم اجتهاداً ، وقد سعى به إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه بأنه لا يأكل اللحم ولا ينكح النساء وأنه يطعن على الأئمة ولا يشهد الجمعة ؛ فأمره أن يسير إلى الشام ، فسار فقدم على معاوية الذى تبين له أنه سعى به باطلا .

(٤٢) انظر أيضاً بعض البراهين فى مجلة تاريخ الأديان م ٢٨ ص ٣٨١ .

(٤٣) وفى مجلة المشرق ، م ١٢ ص ٦١١ ، مثال لذلك . وانظر أيضاً « مونك — Munk » فى كتابه بالفرنسية « دلالة الحائرين — *Guide des égarés* » ج ٢ ص ٣٠٤ رقم ٢ . وفى « حياة الحيوان » للدميرى ، ج ٢ ص ١٦٥ مادة عقرب ، أن أثواب السياحة مرادفة لأثواب الرهبنة . معارضة بذلك لثياب العصر . ويقال مجازا فى هذا المعنى عن الغراب ، الذى ينظر إليه كأنه طائر الحداد الذى يكتسى فى الخرائب والأطلال ريشاً أسود ، أنه يقوم بالسياحة ـ مجلة الجمعية الآسيوية للبنغال عام ١٩٠٧ م ص ١٧٦ .

(٤٤) مذكرة عن كتابات الحارث المحاسبى أو مؤلف صوفى ، فى أعمال المؤتمر الدولى الثالث لتاريخ الأديان ـ أكسفورد عام ١٩٠٨ ج ١ ص ٢٩٢ وما بعدها .

(٤٥) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٠٨[1] .

(٤٦) ورد عن عبد الله بن مسعود ، وهو أحد الصحابة المشهود لهم بالتقوى ، أنه امتنع عن كل صوم نافلة لأنه كان يقدم الصلاة على الصوم فى المرتبة ، فالصوم يضعف الجسم فيضعف عن الصلاة (ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٠٩) . وقد نهى ابن مسعود ، معضد ورفقاءه عن التعبد فى الجبانات (ابن سعد ج ٦ ص ١١١) .

(٤٧) الطبرى ج ١ ص ٢٩٢٤ ، وأسد الغابة ج ٥ ص ٢٨٦ .

(٤٨) ابن سعد ج ٥ ص ٢٢٥ .

(٤٩) الطبرسى فى كتابه : « مكارم الأخلاق » ص ٦٦[2] .

(٥٠) وتوجد بيانات أوفى فى هذه الناحية فى مقالى الذى استعنت به هنا : «مواد فى تاريخ الصوفية وتطورها » فى مجلة *W. Z. K. M.* عام ١٨٩٩ مجلد ١٣ ص ٣٥ وما بعدها .

(٥١) هذه الموازنة استخدمت فى معنيين ، فضلا عن ذلك الذى ورد فى المتن (معيد النعم للسبكى ص ٢٢٤ ، وكذلك فى اليافعى ص ٣١٥ نقلا عن سهل التسترى) .

---

(١) هذه المرأة التى قالت ما قالت هى الشفاء ابنة عبد الله .

(٢) أتى الطبرسى فى هذا الموضع بأحاديث كثيرة رفع فيها الرسول من قدر اللحم كثيراً لنفعه الجسم نفعاً كبيراً .

ونعثر أيضاً على الصورة التي تُطبّق على المريد : بأن يكون لأستاذه وشيخه كالجثة في يدى الغاسل ، أى يستسلم لإرادة الشيخ استسلاماً تاماً ، مثل عبد الكريم الرازى أحد مريدى الغزالى (طبقات السبكى ج ٤ ص ٢٥٨) .

والرأى الذى يذهب إلى أن التعبير المشابه لهذا ، والذى يوجد فى نُظم جماعة اليسوعيين ، مأخوذ فى الأصل عن جماعات الصوفية قد أقره حديثاً « بونيه موري ــ Bouet-Maury » فى بحثه . « الجماعات الدينية فى الإسلام »[1] الخ فى أعمال المؤتمر الدولى الثالث لتاريخ الأديان ج ٢ ص ٣٤٤ . والأستاذ « ما كدونالد » (فى صفحة ٢١٩ من كتابه الذى سيذكر فيما بعد هامش رقم ٦٣) يؤكد هذا الرأى الذى يذهب إلى أن جماعة اليسوعيين نشأت عن جماعات الطرق الصوفية . على أن احتمال تأثير التصوف الإسلامى فى التصوف المسيحى قد قرره أيضاً حديثاً البارون « كارادى فو » ، وجعله أكثر احتمالاً من حيث وقوعه ، بحجج مستمدة من وقائع حدثت فى تواريخ واحدة (مذهب الإسلام[2] ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨ .

(٥٢) « الإحياء » للغزالى ج ٤ ص ٤٤٥ .

(٥٣) « خلاصة الأثر » للمحبى ج٣ص١٤٨ . وسفيان بن عيينة يقول: « فكرك فى رزق غد يكتب عليك خطيئة » الذهبى فى « تذكرة الحفاظ » ج ٣ ص ٨ .

(٥٤) القشيرى « الرسالة القشيرية فى علم التصوف » (القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ) ص ٢٤٣ ؛ عبد القادر الجيلانى : « الغُنْية »(مكة سنة ١٣١٤ هـ ج ٢ ص ١٥١ ؛ بهاء الدين العاملى : «الكشكول» (بولاق سنة ١٢٨٨ هـ) ج١ ص٩٤ نقلاعن الشبلى .

(٥٥) تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٤ ص ٣٩ .

(٥٦) ومن أقدم الصور القديمة للمثل الأعلى للزهد الصورة التى نجدها فى وصية — موضوعة — للنبى صلى الله عليه وسلم إلى أسامة بن زيد التى وصلت إلينا فى روايتين : فى « اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى ج ٢ ص١٦٦ـ١٦٧ ، والأخرى فى « رسائل إخوان الصفا » ج ١ ق ٢ ص ٩٨ من طبعة بومباى عام ١٣٠٦ هـ .

(٥٧) مجلة تاريخ الأديان م ٤٠ ص ١٧٧ .

---

(١) *les Contréries religieuses dans l'Islamisme,. etc*

(٢) *La doctrine de l' Islam.*

(٥٨) الصوف هو لباس الفقراء كما هو لباس التائبين (عيون الأخبار ص ٣١٧ ، ص ٣٥٢) والمذنبون كانوا أيضاً يلبَسون أردية من الصوف (ابن سعد ج ٨ ص ٣٤٨ ، والأغانى ج ٥ ص ١٨ ، ٢٠) . وهنا نذكر أن أبا موسى الأشعرى قال لابنه : « يا بنى ! لو رأيتنا ونحن مع نبينا صلى الله عليه وسلم إذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لباسنا الصوف » ، (ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ٨٠) ومن هذا ينبغى أن يعرف طابع طريقة الزهد فى الحياة فى صحبة النبي .

(٥٩) انظر نولدكه فى *Z. D. M. G,* م ٤٨ ص ٤٧ .

(٦٠) رباعيات جلال الدين الرومى . والمقتبسات التى وردت هنا أخذت من الترجمة المجرية لرباعيات « حضرة مولانا » (اسطنبول عام ١٣١٢ هـ) طبعة الجريدة الفارسية « اختر — *Akhter* » ، والتى قام بها الأستاذ « اسكندر كِجْلْ » (بودابست عام ١٩٠٧) وأبحـاث المجمع العلمى المجرى ، السلسلة الأولى مجلد ١٩ رقم ١٠ .

(٦١) المرجع نفسه .

(٦٢) « وجودك ذنب لا يقاس به ذنب آخر » (عن سر الأسرار لعبد القادر الجيلانى ج ١ ص ١٠٥) .

(٦٣) لقد قام أخيراً الأستاذ « ما كدونالد » بتحليل نفسى لحالات التصوف فى كتابه : « الموقف الدينى والحياة فى الإسلام — *The religious attitude and Life in Islam* » (شيكاغو عام ١٩٠٩ م) ص ١٥٦ ـ ٢١٩ .

(٦٤) « مثنوى ومعنوى » ترجمة « ا . هـ . هو ينفلد — E. H. Whinfield » (لندن عام ١٨٨٧ م) ص ٥٢ .

(٦٥) ديوانى شمس تبريزى (طبعة نيكلسون — كمبردج سنة ١٨٩٨ م) ص ١٢٤ .

(٦٦) تذكرة الأولياء للعطار (طبعة نيكلسون لندن — ليدن سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ م) ج ٢ ص ٢١٦ .

(٦٧) ديوان حافظ الشيرازى نشر « رُوزنفيج — شفانو » ، فينا عام١٨٥٨ — ٦٤ م ١ ص ٣٢٤ (الغزلية الدالية رقم ١١) .

(٦٩)[1] انظر « أولترامار — Oltramare » فى كتابه « تاريخ الآراء الثيوصوفية فى الهند »[2] ج ١) حوليات متحف « جيميه — Guimet» ، مكتبة الدراسات ، م ٢٣ ص ٢١١ هامش رقم ٢ .

(٧٠) انظر أيضاً شرح الشاذلى فى « روض الرياحين » لليافعى ص ٢٨٩ (درجات مختلفة من النشوة الإلٰهية) .

(٧١) الإحياء للغزالى ج ٤ ص ٣٤٨ ؛ تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٥٦ .

(٧٢) مأخوذة من رباعيات جلال الدين الرومى (عن اسكندر كجل السابق ذكره هامش رقم ٦٠) .

(٧٣) إن فكرة الحب الإلٰهى ، كغاية مثلى للحياة الإسلامية ، قد عرضها من وجهة نظر أهل السنة ، مع قصد جدال الصوفيين المعارضين لها ، الفقيه الحنبلى ابن قيم الجوزية فى بحثه الأخلاق : « كتاب الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى » القاهرة مطبعة التقدم — بلا تاريخ — من ص ١٤١ — ١٤٧ ومن ص ١٦٨ — ١٧٠ .

(٧٤) المجلة الأسيوية [بالفرنسية] سنة ١٨٧٩ ج٢ ص٣٧٧ ومابعدها وص٤٥١ .

(٧٥) ومن أقدم المؤلفات من هذا القبيل كتاب « حقائق التفسير » لأبى عبد الرحمن السلمى النيسابورى المتوفى عام٤١٢ﻫ/١٠٢١ م : « بروكلمان » فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » ج ١ ص ٢٠١ . ويقول مؤرخ سنى أنه « أتى فيه بعصائب وتأويلات الباطنية نسأل الله العافية » (تذكرة الحفاظ للذهبى ج٣ص ٢٤٩) وللسلمى هذا كتاب به أحاديث موضوعة ذات نزعة صوفية (مجلة الأشوريات م ٢٢ ص ٣١٨) ذكر بعنوان « سنن الصوفية » (اللآلىء المصنوعة ج ٢ ص ١٧٨) ، وهذا الكتاب هو معين الأحاديث الصوفية التى أدخلها ضمن الأحاديث .

---

(١) هكذا ليس فى الأصل الحاشية رقم ٦٨ .

(٢) *L'histoire des idées théosophiques dans l'Inde.*

ويوجد تفسير للقرآن مشهور ذو طابع صوفى ، وفى متناول القراء جميعاً ، فى طبعات مختلفة (أولها طبعة بولاق سنة ١٢٨٣ھ فى جزءين) . وهو تفسير محيى الدين ابن عربى المرسى المتوفى عام ٦٣٨ھ/١٢٤٠ بدمشق ، كما يوجد كتاب آخر كثيراً ما يستشهد به فى المؤلفات الإسلامية ويمثل نفس هذه النزعة ، وهو « تأويلات القرآن » لعبد الرازق القاشى أو القاشانى السمرقندى المتوفى عام ٨٨٧ ھ/١٤٨٢ م ، وقد بقيت منه عدة مخطوطات (بروكلمان ج ٢ ص ٢٠٣ رقم ٩) . والتأويل المجازى الذى سقته فى متن كتابى ، عن المدينة الخاطئة والرسل الثلاثة الذين بعثهم الله إليها ، مأخوذ من هذا الكتاب الأخير .

(٧٦) فى البيت رقم ٦٢٦ من القصيدة التائية الشهيرة فى البيئات الصوفية (الديوان طبع بيروت ص ١٢٠) .

(٧٧) دراسات إسلامية (ج ٢ ص ١٤) . ومع ذلك فإنه يوجد حتى فى الأحاديث السنية بيانات آثر فيها النبى بعض الصحابة بتعاليم خاصة أخفاها عن الآخرين . وقد تفرد بهذه الميزة حذيفة بن اليمان الذى يلقب أيضا بصاحب السر أو صاحب سر النبى . (البخارى كتاب الاستئذان رقم ٣٨ ، فضائل الأصحاب رقم ٢٧ .

ومن الطريف أن الفقهاء أوّلوا هذه الرواية وهى : « أو ليس فيكم صاحب سر النبى صلى الله عليه وسلم الذى لا يعلم أحد غيره ؟ » وهى رواية لا يفهم منها سوى شىء واحد : وهو أن حذيفة قد تلقى عن النبى علماً خفياً — أولوها التأويل التالى : « وكان حذيفة صاحب سر رسول الله فى المنافقين يعلمهم وحده » ، تهذيب النووى ص ٢٠٠) ، ويستخلص من هذا أن النبى لم يفض لحذيفة بعلوم دينية خفية . غير أنا فى الواقع نرى المحدثين يوثقونه فيما رواه عن النبى من الأحاديث الأخروية المنبئة عن المستقبل ، كما روى عنه أنه قال : «أخبرنى رسول الله بما كان إلى أن تقوم الساعة»

وفى صحيح مسلم (ج ٥ ص ١٦٥) فى فصل «فضائل عبد الله بن جعفر » نجد أن عبد الله بن جعفر قال : « أردفنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم خلفه فأسر لى (« أسر لى » تقابل الكلمة العبرية « لا خاش ليخيشا » فى سياق مشابه لهذا) حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس » ؛ على أن البخارى لم يقبل هذه الرواية . ومما يلاحظ أن عبدالله بن جعفر هذا لم يكن عمره سوى عشر سنين عند وفاة الرسول .

(٧٨) عناصر فلسفة أفلوطين فى المذهب الفلسفى الصوفى لمحي الدين بن عربى قد بحثها العالم الأسبانى « مجول آسين بلاسيوس »[١] فى بحثه « سيكولوجية محيي الدين ابن عربى » (أعمال المؤتمر الدولى الرابع عشر للمستشرقين ، الجزائر عام ١٩٠٥ ج ٣ ص ٧٩ — ١٥٠ .

(٧٩) الفهرست ص ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٦ . ولبحث هذه المراجع انظر «هوميل Hommel » فى أعمال المؤتمر السابع للمستشرقين » ڤينا عام ١٨٨٧ ، القسم السامى ص ١١٥ وما بعدها ، والطُّغمة العلمية تجمل الأدباء يهتمون بظهور بوذا (الجاحظ فى فى « ثلاث رسائل »)[٢] . نشرفان فلوتن ص ١٣٧ .

(٨٠) الأغانى ٣ ص ٢٤ .

(٨١) أعمال المؤتمر الدولى التاسع للمستشرقين (لندن سنة ١٨٩٣ م) ج ١ ص ١١٤ .

(٨٢) « فى الشعر الفلسفى لأبى العلاء المعرّى » (تقارير أكاديمية ڤينا للفلسفة التاريخية ج ١٠٧ رقم ٦ ڤينا عام ١٨٨٨ م) ص ٣٠ وما بعدها .

(٨٣) الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٤٧ ، روزان ، فى « زابيسكى » ج ٦ ص ٣٣٦ — ٣٤٠ .

(٨٤) مثلا ، الأخبار التى ساقها اليافعى فى كتابه السابق ص ٢٠٨ — ٢١١ ويتصل بنفس هذا النوع قصة « الملك التركى وختنه شيخ النساك » لابن عرب شاه فى كتابه « فاكهة الخلفاء » طبعة فرايتاج ـ بون سنة ١٨٣٢ ج ١ ص ٤٨ ـ ٥٣ .

(٨٥) مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى — القاهرة سنة ١٣١٠ هـ ص ١٥ .

(٨٦) مثنوى (هـ . هو ينفلد) ص ١٨٢ . ويوجد عرض شيِّق لأحد الأقاصيص العجيبة التى تدور حول إبراهيم بن أدهم فى المتحف الأثرى لدلهى : مجلة الجمعية الأسيوية الملكية عام ١٩٠٩ ص ٧٥١ . (وراجع الآن أيضاً نفس المصدر عام ١٩١٠ ص ١٦٧) .

(٨٧) ولتمييزه عن الموت الطبيعى ، الفناء الأكبر ، يسمون هذه الحالة الفناء

---

(١) Miguel Asin Palacios. — (٢) *Tria Opuscula.*

الأصغر . انظر لبحث علاقة فكرة الفناء هذه بالنرڤانا الملاحظة الصائبة للكونت « مولينين — E. v. Mülinen » فى المكتبة التركية م ١١ ص ٧٠[١] .

(٨٨) مثنوى المصدر السابق ص ١٥٩ .

(٨٩) هذه العبارة لإبراهيم بن أدهم : « التأمل هو حج العقل » .

(٩٠) العطار المصدر السابق ص ١٨٤ . وانظر أيضاً « أولترامار » ، المصدر السابق ، ص ١١٦ « أن يعرف الإنسان عقلياً براهما ، هذا رأى سخيف باطل ؛ لأن كل معرفة تفترض وجود ثنائية ، إذ يوجد فى كل معرفة الذات التى تعرف والموضوع الذى يعرف » .

(٩١) إن البيئات الصوفية ، رغبة منها فى تبرير نظمها ونظرياتها منذ العصور الأولى للإسلام ، قد اختلقت الرواية التى تقول إن النبى عندما أعلن للفقراء أنهم سيدخلون الجنة قبل الأغنياء (*Muh. Stud.* ج ٢ ص ٣٨٥ ملحق) سقطوا منجذبين ومزقوا ملابسهم (وهذا التمزيق آية الانجذاب *W. Z. K. M.* م ١٦ ص ١٣٩ رقم ٥) وعندئذ نزل جبريل من السماء وقال لمحمد إن الله تعالى يطالب بحظه من هذه المِزَق ، فحمل واحدة منها وعلقها على عرشه تعالى . وهذا هو نموذج لباس الصوفى (الخرقة) ، ابن تيمية : الرسائل ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٩٢) كتب الشرق المقدسة [بالإنجليزية] م ١٢ ص٨٥ — ٩٥ .

(٩٣) « كريمر — Kremer » فى كتابه : « تخطيطات فى تاريخ الثقافة[٢] » ص ٥٠ وما بعدها . وانظر أيضاً « رامابرازاد » فى « علم النفس وفلسفة التَّتْوا » المترجم من السنسكريتية إلى الإنجليزية (لندن سنة ١٨٩٠) .

(٩٤) انظر فى هذا مقالى « التسبيح فى الإسلام »[٣] ، مجلة تاريخ الأديان عام ١٨٩٠ م ٢١ ص ٢٩٥ ، وما بعدها .

(٩٥) « سنوك هيرجُرْنيه » فى « العرب فى شرق الهند »[٤] ليدن

---

(١) G. Jacob *Türkische Bibliothek, XI. 70.*

(٢) *Kulturgeschichtl. Streifzüge*

(٣) *Le Rosaire dans l'Islam.*

(٤) *Arabië en Oost Indië.*

سنة ١٩٠٧ ص ١٦ : مجلة تاريخ الأديان سنة ١٩٠٨ م ٥٧ ص ٧١ . وعن هذا الفرع من الصوفية انظر الآن البحث الذى قام به فى ليدن الأستاذ « رنكس » وعنوانه « عبد الرؤوف السنكلى » . أبحاث لمعرفة متصوفة سومطره وجاوه ، طبعة عام ١٩٠٩ فى مدينة هيرينڤين .

(٩٦) انظر أيضاً الآن بحث الأستاذ نيكلسون القيم : « أقدم كتاب موجز فى التصوف » ، فى أعمال المؤتمر الدولى الثالث لتاريخ الأديان م ١ ص ٢٩٣ وما بعدها .

(٩٧) (بحث تاريخى فى أصل حركة التصوف ونموها) فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، عام ١٩٠٦ ص ٣٠٣ — ٣٤٨ .

(٩٨) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٣٩ .

(٩٩) إن الصوفى أبا سعيد بن الأعرابى البصرى الذى عاش فى القرن الرابع (توفى عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) عبر عن هذا بقوله : « وإنما كانوا [أى الصوفيون] يقولون جمع ، وصورة الجمع عند كل أحد بخلافها عند الآخر ، وكذلك صورة الفناء فكانوا يتفقون فى الأسماء ويختلفون فى معناها ، لأن ما تحت الاسم غير محصور ، لأنها من المعارف ، وكذلك علم المعرفة غير محصور لا نهاية له ولا لوجوده ولا لذوقه » . (تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٣ ص ٧٠) .

(١٠٠) ارجع فى هذا المبدأ إلى واحد من قدامى الصوفية (هو الحارث المحاسبى المتوفى ببغداد عام ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م) فى طبقات السبكى ج ٢ ص ٤١[1] — والقلوب تلعب أهم دور فى أخلاقيات الزهد الإسلامى ؛ ويتجلى هذا فى عناوين المؤلفات الصوفية . انظر مجلة الدراسات اليهودية م ٤٩ ص ١٥٧ .

(١٠١) انظر ، خاصة ، يعقوب فى « المكتبة التركية » مجلد ٩ « أبحاث لمعرفة طريقة البكطاشية » وحديثاً لنفس المؤلف : البكطاشية فى علاقتها بالظواهر القريبة منها » (ميونيخ سنة ١٩٠٩) « أبحاث المجمع العلمى الأمبراطورى فى باڤاريا ،

---

(١) عن الحارث بن أسد المحاسبى قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أثقل ما يوضع فى ميزان العبد يوم القيامة حسن الخلق » .

السلسلة الأولى م ٢٤ ج ٣ » وخاصة ص ٤٣ فيما يتعلق بالمشابهات الغنوصية .

(١٠٢) « أولترامار » المصدر السابق ج ١ ص ٢١٤ : « من اللحظة التى تتجلى أو تنبعث المعرفة فيها فى نفسى ، حيث أصبح متحداً مع براها لا أكون مكلفاً بعمل أو فريضة ؛ فليس من ڤيدا أى تعدد أو عالم حسى أو سمساراً samsâra » ؛ (المصدر نفسه ص ٣٥٦) : « كل شىء يصبح لديه (إلى اليوجن) سواء ؛ ففى العالم الحسى لاتبقى الأطعمة فى نظره محرمة أو واجب تناولها ، إذ كل العصارات لاتبقى كذلك عنده » ، وفى عالم الأخلاق أيضاً : « تأمُّلُ (اليوجن) يحرره من كل الآثام حتى حينما يعتد الإثم فيشمل يوجانات كثيرة » .

(١٠٣) مثلا عند الغنوصى « إپيفانّس بن كارپوكراتس » . التأمل فى الكائن الأعلى يجعل جميع الأعمال الظاهرة سواء ولا نتيجة لها . وهذا هو الأصل فى رفض كل الأمور الشرعية والنواميس الأخلاقية ، حتى إن الوصايا أو الأوامر العشر تصبح محتقرة . واتحاد الروح بالوحدانية العظمى ترفعه إلى ما فوق الأشكال الدينية المحددة « نياندر — Neander »فى كتابة تطور أهم المذاهب الغنوصية منذ البدء » طبع برلين ١٨٣٨ م ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .

(١٠٤) « ستروماتا *Stromata* »[1] ج ٣ ص ٥ .

(١٠٥) السبكى ، معيد النعم طبعة ميهرمان ص ١٧٨ وما بعدها .

(١٠٦) رباعيات جلال الدين الرومى . وهذه شكوى ترجع دائماً فى المؤلفات الصوفية ذاتها إلى أن كثيراً من العناصر المنحطة تندمج فى سلك التصوف وتسىء استخدام صلتها به لأغراض دنيوية .

(١٠٧) انظر أيضاً مثالا قديماً فى كتاب محمد للأستاذ « شبرنجر Sprenger » ج ٣ ص ١٧٩ هامش (الشبلى) . والملامتية لا ينبغى مع هذا أن نخلطهم بطريقة الملامى المنتشرة فى تركيا ، والتى أمدنا عنها حديثاً « مارتن هارتمان » بمعلومات هامة فى الشرق الإسلامى ج ٣[2] .

---

(١) أى : (متفرقات) .

(٢) *Der Islamische Orient.*

(١٠٨) مثنوى « هوينفلد » ص ٩١ .

(١٠٩) وهو كتاب حلله « رينيه باسيه » ، فى مجموعة مذكرات ونصوص نشرت لتكريم المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين بالجزائر سنة ١٩٠٥ م ص ١ وما بعدها .

(١١٠) « هارتمان » المرجع السالف الذكر ج ١ ص ١٥٦ وما بعدها .

(١١١) « ريتسنشتين » فى كتابه الحكايات العجيبة اليونانية[1] ص ٦٥ وما بعدها .

(١١٢) تذكرة الأولياء للعطار ج ٢ ص ١٧٧ . ويظهر أن ابن تيمية خصم الصوفية يوجه ضد هذا حججه ، وهو يتهم المريد من الصوفية بالزهو والخيلاء إذ يقول « إنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذى يأتى الرسول » أى أنه على اتصال إلهى مباشر — رسائل بن تيمية ج ١ ص ٢٠ .

(١١٣) الشمسى التبريزى ص ١٢٤ .

(١١٤) العطار ج ٢ ص ١٥٩ . ويذكر ابن تيمية (الرسائل ج ١ ص ١٤٨) أن بعض المتصوفة يكتمون حقداً صحيحاً على الأنبياء وخاصة محمد [صلى الله عليه وسلم] لأنه « أظهر الفرق ودعا إليه وعاقب من لم يقل به » .

(١١٥) مثنوى « هوينفلد » ص ٨٣ .

(١١٦) انظر المتن فى كتاب « الظاهرية »[2] (لجولد تسيهر) ص ١٣٢ ، ويعقوب ، « المكتبة التركية » ج ٩ ص ٢٣ .

(١١٧) رباعيات جلال الدين الرومى .

(١١٨) فى رسائل ابن تيمية ج ١ ص ١٤٥ : « القرآن كله شرك وإنما التوحيد فى كلامنا » .

(١١٩) « برون » ، تاريخ الفرس الأدبى ، ج ٢ ص ٢٦٨ .

---

(١) *Hellenistwene Wunderezählungen.*

(٢) *Zâhiriten.*

(١٢٠) طبعة « روزنقيج — شفانو » ج ١ ص ٥٨٥ (الغزلية الدالية رقم ١٠٨) .

(١٢١) عند « اتّيه » ، « تقارير الأكاديمية الباڤارية للفلسفة العلمية »[1] ج ٢ عام ١٨٧٥ ص ١٥٧ .

(١٢٢) « حكم عمر الخيام »[2] . لفردريك روزن (طبعة « شتوتجرت وليبسك » ١٩٠٩) خصوصاً القطع المترجمة ص ١١٨ وما بعدها .

(١٢٣) مثنوى « هوينفلد » ص ٥٣ .

(١٢٤) تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٤ ص ١٥ : « يشوشون علينا أوقاتنا » .

(١٢٥) مجلة الجمعية الأسيوية الملكية عام ١٩٠٦ ص ٨١٩ . وانظر أيضاً الفصول التى بسط فيها هذا التيار من الأفكار فى إحياء الغزالى ج ٣ ص ١٣ وما بعدها . وإن الصوفى محيي الدين بن عربى وجه لمعاصره الأصغر منه الفقيه فخر الدين الرازى رسالة بيّن فيها أن علم هذا الأخير ليس كاملا ؛ لأن العلم الكامل لا يكتسب إلا عن طريق الله مباشرة ، وليس عن طريق الرواية والأساتذة .

والصوفى أبو يزيد البسطامى (المتوفى عام ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) كان يقول لعلماء عصره . أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت » . وقد ذكره الشعرانى فى طبقاته الكبرى واقتبسه حسن العدوى فى شرحه للبردة (القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ) ج ٢ ص ٧٧ . وهذه الرسالة نشرت بطولها فى كشكول العاملى ص ٣٤١ — ٣٤٢ . على أنها فى الكشكول تنقصها عبارة البسطامى . وابن تيمية (الرسائل ج ١ ص ٥٢) يعرض فى صورة جدول شفوى ، ما كان بين ابن عربى والرازى (وواحد من أصحابه) .

(١٢٦) رباعيات جلال الدين الرومى .

(١٢٧) رسالة القشيرى فى التصوف (النهاية) .

(١٢٨) تذكرة الأولياء للعطار ج ٢ ص ٢٧٤ .

---

(١) *Sitzungsberichte der bayerischen Akad. d. Wiss. Phil.*

(٢) *Die Sinnsdrüche' Omars des zeltmachers.*

(١٢٩) هذه الآراء والأفكار توجد أيضاً فى الثيوصوفية الهندية ، ويمكن إرجاعها إلى مصدرها الأول بوسائط عديدة . وإنى هنا أحيل القارىء إلى مقتبسات « أولترامار » فى المصدر السابق من بعض المذاهب التى اتصلت بها ، ص ١٢٠ : « فالأتمان لا يمكن إدراكه بالتعليم أو بفهم الكتب المقدسة والوقوف عليها ، فإن من يصطفيه وحده هو الذى يفهمه إذ « الأتمان » يكشف له عن وجوده » (مستمد من كاتاكايوپانيشاد) ص ١١٥ : « ولذا ينبغى للبراهمى أن يتخلص من كل علم وبحث ، ويظل دائماً كطفل » ؛ ص ٢١٠ : « وهذا العلم ليس ثمرة مجهود عقلى أو جدلى ، فإن هذا لا يحتاج إلى البراهين والاستدلالات كالعلم الدنيوى ، ولكن الكائن الأعلى يتجلى بنوره الذاتى فما هى الحاجة لإثباته والتدليل عليه ؟ .

والفكرة هذه نفسها يعبر عنها هكذا فى الأفلاطونية الحديثة بأن الإنسان يقدر على إدراك العالم العقلى وتصوره بالتأمل الروحى ، وليس عن طريق المنطق والقياس . (أثولوجيا أرسطوطاليس ص ١٦٣ طبعة ديتريصى) .

(١٣٠) انظر Z. D. M. G. مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٢ ص ١١ .

(١٣١) انظر فيما سبق هامش رقم ٣٩ .

(١٣٢) وربما يتصل بها حكم الأوزاعى : « لبس الصوف فى السفر سنة وفى الحضر بدعة » . تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٢٣٢ .

(١٣٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ص ٣٥٥ .

(١٣٤) Z. D. M. G. مجلة المستشرقين الألمانية م ٢٨ ص ٣٢٦ .

(١٣٥) العطار ج ٢ ص ٤٠ .

(١٣٦) مجلة الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٩٠٦ ص ٣٢٣ .

(١٣٧) العطار ج ٢ ص ٤٨ ، ٧٤ .

(١٣٨) وإن شكايات كهذه ليست طبعاً بلا غاية حتى فيما بعد إلى عهد القشيرى . وقد جُمعت سلسلة من هذه المظاهر فى شرح « الفتوحات الإلهية » لأحمد بن محمد الشاذلى الفاسى « على المباحث الأصلية » للكاتب الصوفى السرقسطى الأصل أبو العباس أحمد بن محمد بن البنا التُجيبى (القاهرة عام ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م ج ١ ص ٢١ وما بعدها) .

وفى التصوف المغربى ، لم يُعَبَّر عن الميل إلى العدمية بالنسبة للشريعة بصورة قاطعة كما فى المشرق . والتحذيرات التى وردت فى هذا الكتاب ضد هذا الميل كان لها أثر قوى فى الإسلام فى الغرب . راجع أيضاً النقد المغربى للتصوف الشرقى فى Z. D. M. G. مجلة المستشرقين الألمانية م ٢٨ ص ٣٢٥ وما بعدها .

(١٣٩) لتمييز موقف الغزالى من الفلسفة التى حاربها يمكن أن نذكر كلام أبى بكر بن العربى قاضى إشبيلية (المتوفى عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م) : « شيخنا أبو حامد دخل فى بطن الفلسفة ثم أراد أن يخرج منها فما قدر » . (روى ذلك على القارى فى شرحه للشفاء للقاضى عياض طبعة استنبول عام ١٢٩٩ هـ ص ٥٠٩ .

(١٤٠) والصوفى الأحدث عهداً ، وهو الشعرانى ، اشتغل فى هذه الدائرة الكلامية لتقدير الخلافات التعبدية أو الشعائرية ، وابتدع نظرية خاصة فى العلائق القائمة بينها بها يكون لكل وجهة نظر مخالفة قيمة نسبية . فالشريعة نفسها لها مرتبتان : مرتبة التشديد ، ومرتبة التخفيف ، فالتشديد يتعلق بالمكلفين الأقوياء من حيث الإيمان أو الجسم الذين يطالب الله منهم الانقطاع والزهد ، والتخفيف للضعفاء الذين تمهد لهم نفس الشريعة الرخص والتيسيرات الضرورية فالمدارس الفقهية المختلفة ، وهى تتعارض فيما بينها فيما يتعلق بالحكم نفسه ، تمثل كل منها درجة من هذه الدرجات للشريعة المتساوية فى القيمة والتى ليس الخلاف بينها إلا نسبياً . وبفضل هذه الحجة أو الدليل سمى الشعرانى كتابه الذى وضحه فيه « ميزان الشريعة » : انظر Z. D. M. G. مجلة المستشرقين الألمانية م ٣٨ ص ٦٧٦ .

ونحن نذكر هذه النظرية ، التى يزكيها الشعرانى فى طائفة من مؤلفاته فى إصرار كأنها كشف جليل القدر ، اهتدى إليه لنبين أنها اقترحت قبله بما يزيد عن خمسة قرون ، فقد ذكرها أبو طالب المكى (المتوفى سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م) فى كتابه قوت القلوب ج ٢ ص ٢٠ من طبعة القاهرة عام ١٣١٠ هـ . وأبو طالب هذا يُعدّ شيخاً للشريعة والحقيقة (الدميرى ج ٢ ص ١٢٠ مادة طائر) ، ويعترف الغزالى بما كان لمؤلفاته من فضل كثير عليه . ويمكن إرجاع بذور هذا الخلاف إلى القرن الثانى الهجرى ، فإن المحدث الزاهد عبد الله بن المبارك (المتوفى عام ١٨١ هـ / ٧٩٧ م)

يوفق بين حديثين متناقضين مقرراً أن أحدهما يتجه إلى الخواص والآخر إلى العوام (عن « إتحاف السادات المتقين » ، القاهرة عام ١٣١١ ج ٧ ص ٥٧٢ . (راجع ما كتبه هارتمان عن ابن المبارك فى مجلة الأشوريات م ٢٣ ص ٢٤١) .

(١٤١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٥٤ .

(١٤٢) Z. D. M. G. م ٥٣ ص ٦١٩ ملاحظة رقم ٢ .

(١٤٣) وكثيراً ما يوجد أيضاً عبارات مدح وثناء يمكن أن يقرأ القارىء سلسلة منها . مثلاً ما يوجد فى نقش علبة أقلام محفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، ويقال إنها قُدّمت هدية للغزالى ، لكن هذا مما يشك كثيراً فيه (نشرة المعهد المصرى عام ١٩٠٦ م ص ٥٧ حيث بحث فيها حقيقة الأثر) .

(١٤٤) انظر « مقدمات لكتاب الهداية » طبعة « درمشتاد » عام ١٩٠٤ ص ١٤ ملاحظة ٢ .

(١٤٥) انظر مقدمة كتاب محمد بن تومرت (الجزائر عام ١٩٠٣ م) ص ٥٨ — ٦٠ .

(١٤٦) وقد عيب على أحد معاصرى أحمد بن حنبل العالم الفقيه حرب بن إسماعيل الكرمانى (المتوفى عام ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م) أنه آذى فى كتابه « السُّنة والجماعة » أهل الصلاة الذين ابتعدوا عن وجهة نظره (ياقوت ، الجغرافية ، WB ، ج ٣ ص ٢١٣) .

(١٤٧) المكتبة الجغرافية العربية ، دى غويه ، ج ٣ ص ٣٦٥ — ٣٦٦ .

(١٤٨) مقدمة [جولد تسيهر] لكتاب « ابن تومرت » طبعة الجزائر ١٩٠٣ ص ٥٧ .

(١٤٩) انظر مقالى : « فى تاريخ الحركة الحنبلية فى Z. D. M. G. م ٦٢ ص ٥ وفى مواضع متفرقة أخرى أبو معمر الهذلى (انظر فى ما سبق حاشية رقم ٥٣ فى القسم الثالث) يقول : «من زعم أن الله لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر ولا يرضى ولا يغضب فهو كافر» (وهذه الصفات لا يرى المعتزلة بُدًّا من تأويلها) .

ولـكن ظهرضعفه فى وقت المحنة ، وتسامح فى أمور أنقذته من كثيرمن الاضطهادات حتى كان يقول لقد أصبحنا كفاراً وبهذا صرنا أحرارا (كفرنا وخرجنا) — تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٥٦ .

(١٥٠) انظر Z.D.M.G م ٥٧ ص ٣٩٥ . وقد أعطانا ابن سعد ج ٦ ص ١٩١ عن فقيه الـكوفة المتشدد إبراهيم النخعى المعاصر للحجاج (توفى عام ٩٦هـ/٧١٤م) سلسلة من الأقوال والأحكام عن المرجئة . إنه يطلق العنان لسخطه ضد هذا المذهب ويحذر النـاس من عواقبه الوخيمة ومن الاختلاف إلى أنصاره ، ويسميه (هذا المذهب) رأياً محدثاً أو بدعة ، غير أن كلمة كفر وكافر لا تأتى على لسانه .

هذا ، وبذرة العقلية المتعصبة نجدها تظهرمن جديد فى أواسط القرن الثانى للهجرة لدى سفيان الثورى وطائفة ممن هم على شاكلته ، من المتشددين الذين لايرون الاشتراك فى جنازة مرجئى مهما كان تقياً وموضعاً للثناء فى حياته (ابن سعد ج ٦ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ [١]) . على أن المسلمين يسمونهم كفاراً ومما يدل على روح التسامح فى هذا العصر أن سفيان الثورى ليم على سلوكه هذا كأنه أتى أمراً إدًّا .

(١٥١) وتظهر أيضا آراء أكثر اعتدالا ، مثل الحـكم على إخلاص القرامطة أو أمانتهم (يافوت طبعة « مرجليوث » ج ١ ص ٨٦) .

(١٥٢) آراء أصحاب العقائد فى هذه الناحية جمعت فى المقدمات الـكلامية للسنوسى انظر ص ٩٦ — ١١٢ من طبعة لوسيانى J.D. Luciani

(١٥٣) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٨٠ ، وراجع ص ١٠٣ أيضا[٢]

(١٥٤) ومما يسترعى الانتباه فى الاتجاه العام للسنة التالية للغزالى أن متكلماً شديد التعصب لرأيه كالحنبلى المتحمس تقى الدين بن تيمية Z. D. M. G. م ٦٢ ص ٢٥) يقترب فى هذه المسألة من الغزالى الذى يحاربه أكثر من العقيديين

---

(١) مثلا فى صفحة ٢٥٤ يذكر ابن سعد عن مسعر بن كدام : (... ولم يكن له مأوى إلا منزله والمسجد ، وكان مرجياً ؛ فمات فلم يشهده سفيان الثورى ولا الحسن بن صالح بن حى)

(٢) يقول فى ص ٨٠ : « ... ونسك المتكلم التسرع إلى إكفار أهل المعاصى ، وأن يرمى الناس بالجبر أو بالتعطيل أو بالزندقة » كما يقول فى ص ١٠٣ : « ... فنسك المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلى برمى الناس بالريبة ، ويتزين بإضافة ما يجد فى نفسه إلى خصمه خوفاً من أن يكون قد فطن له ، فهو يستر ذلك برمى الناس به » .

العقليين . وفى تفسيره لسورة الإخلاص (القاهرة عام ١٣٢٣هـ طبعة النعسانى ص ١١٢ — ١١٣) أفرد هذه المسألة باستطراد خاص ينتهى بما ذهب إليه من أن المعتزلة والخوارج والمرجئة ، وكذلك الشيعة المعتدلون لا ينبغى أن يعتبروا كفارا ، لأنهم مستمسكون بالقرآن والسُّنة ، ولا يخطئون إلا فى تأويلهما . فهم لا يطعنون فى وجوب ما أتت به الشريعة من أحكام . ولكن الجهمية يستثنون من ذلك لأنهم يرفضون فى شدة لا هوادة فيها كل أسماء الله وصفاته (نفى الأسماء مع نفى الصفات) ، وكذلك الإسماعيلية خاصة لإنكارهم قيمة ما يُعْبَد الله به من أحكام وشعائر ويمكننا أن نلمح فى هذا الرأى المعتدل للحنبلى المجاهد أو الآراء والنظرات التى تتفق والسُّنة القديمة المتسامحة . وهكذا فى موقفين يتعارض أحدهما مع الآخر بوضوح ، نجد الغزالى وخصمه الشديد ابن تيمية يتشابهان فى رفض التعاريف المدرسية أو المذهبية فى جوهر الإسلام .

حواشى القسم الخامس

الفِرَق

(١) انظر فيما يتعلق بإساءة فهم هـذا الحديث بحثى : « مقالات فى التاريخ الأدبى للمناظرات بين الشيعة وأهل السُّنة[1] » ؛ تقارير جلسات مجمع ڤينا العلمى الإمبراطورى ، قسم الفلسفة والتاريخ — ڤينا سنة ١٨٧٤م ٧٨ ص ٤٤٥ ، ومقالى : « تعداد الفرق الإسلامية » فى مجلة تاريخ الأديان م ٢٦ ص ١٢٩ وما بعدها ، انظر أيضاً مجلة المستشرقين الألمانية م ٦١ ص ٧٣ وما بعدها .

(٢) مجلة المستشرقين الألمانية م٦٢ هامش٢ . وإن التطبيق العملى لهذه الفكرة ينسب إلى الحارث المحاسبى المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ /٨٥٧ م (راجع الرسالة القشيرية ص١٥) ، ومما يلفت النظر أن الحارث ينتمى إلى مدرسة الزهد التى لا تعلق أهمية كبيرة على الدقائق الكلامية . وقد روت بعض المصادر الأخرى كالقزوينى طبعة ڤستنفلد ج٢ ص٢١٥ والسبكى فى طبقات الشافعية ج٢ ص٣٨ ، أن أباه كان رافضياً ، وهذا ما يقرر قاعدة : « لا يتوارث أهل ملتين شيئاً » .

(٣) كتاب البلدان لابن الفقيه الهمدانى طبعة دى غوى ص٤٤ .

(٤) الإسلام فى بلاد المشرق والمغرب[2] ج١ ص٢٨٣ .

(٥) انظر على الأخص كتاب ڤلهوزن : « أحزاب المعارضة الدينية والسياسية فى الإسلام القديم » (انظر الحاشية رقم ٦ من حواشى القسم الثالث) .

(٦) يوجد فى الأغانى ، ج٢٠ ص١٠٥ وما بعدها ، أحد البيانات القديمة عن آراء الخوارج المتعارضة مع آراء البيئات الإسلامية الأخرى .

(٧) كريمر : تاريخ الأفكار السائدة فى الاسلام » ص٣٦٠ .

---

(١) *Beiträge zur Literaturgeschichte der Schi'a und der sunnitischen Polemik* (Sitzungsber. der k. Akad. d. Wiss. Wien Phil. hist.).

(٢) Der Islam im Morgen- und Abendlande.

(٨) كتاب الدلائل فى اللوازم والوسائل لدرويش المحروق طبعة القاهرة سنة ١٣٢٠هـ ص٢٠ ، وتوجد نفس الفكرة فى بعض الحكم الخلقية المأثورة فى عيون الأخبار لابن قتيبة ص٤١٩ .

(٩) ديانة الإسلام بقلم كلين طبعة لندرة سنة ١٩٠٤ ص١٣٢ .

(١٠) انظر مجلة المستشرقين الألمانية م ٤١ ص٣١ وما بعدها .

(١١) انظر مجلة تاريخ الأديان م٥٢ ص٢٣٢ ؛ وفى خطبة من خطب الأباضيين الخاصة بالقرن الثالث الهجرى ، ألقيت فى تاهرت (أعمال المؤتمر الخامس عشر للمستشرقين المنعقد بالجزائر سنة ١٩٠٥ ج٣ ص١٢٦) نجد مثالا عمليا واقعيا فى تفسير الآيتين الرابعة والخامسة من سورة طه : تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمٰوَاتِ العُلَى ، الرَّحْمٰنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوَى » ويعطينا نص الخطبة المطبوع فى أعمال المؤتمر فكرة جلية عن حياة الجماعات الإباضية فى العصر .

(١٢) انظر مجلة المستشرقين الألمانية م٦١ ص٨٦٤ هامش رقم ٥ .

(١٣) كتاب الملل والنحل للشهرستانى ص٩٥ ، ٩٦ (الميمونية) .

(١٤) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى طبعة بولاق سنة ١٢٨٩هـ ج ١ ص٢٦٨ ، (رواية عن الخطيب البغدادى) .

(١٥) انظر فيما يتعلق بالتفصيلات بحث سَخَوْ : الآراء الدينية للإباضيين فى عمان وشرق إفريقية — أبحاث معهد دراسات اللغات الشرقية[1] سنة ١٨٩٨ ج٢ ق٢ ص٤٧ — ٨٢ .

(١٦) وهذا هو نقيض ما يزعمه الدكتور « زويمر » فى كتابه (العالم الإسلامى اليوم » ، طبعة سنة ١٩٠٦ ص١٠٢ ، من أن الإباضية فرقة شيعية الأصل .

(١٧) وجاء فى ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٤ م أنه كان لا يزال فى الأندلس إباضيون فى عصره (كتاب الملل طبعة القاهرة ج ٤ ص ١٧٩ وانظر

---

(١) Religiöse Anschauungen der Ibaditisehen Muhammedaner in oman und Ostafrika (Mitteil. d. Seminars für Orient Spr.).

أيضا ص ١٩١) ، ولا بد أنهم جاءوا من شمالى أفريقية حيث نزلوا بالأندلس وأقاموا بها وقتا قصيراً حينما التقى بهم ابن حزم .

(١٨) هارتمان : مجلة الأشوريات [١] م ١٩ ص ٣٥٥ .

(١٩) أمالى القالى : ج ٣ ص ١٧٣ ، ١٩٨ .

(٢٠) دراسات إسلامية ج ٢ ص ١١٧ . وفى الحق إنا لانعدم أحاديث سنية متحيزة تفصح عن رغبة النبى بالنسبة لمن يخلفه فى رئاسة الأمة الإسلامية بعد موته (انظر أيضا المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٩ هامش رقم ١) . ولكن هذا الإفصاح لا يفصل لنا فى مسألة الخلافة بصورة قاطعة لا لبس فيها ، وليست له صيغة التولية الرسمية كما هو الحال عند الشيعة فى روايتهم عن على . ونجد فى حديث أورده ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٤٦ ، أدلة تؤيد الفكرة القائلة بأن النبى نفسه قد عين عثمان ليكون خليفة من خلفائه . ومن الطريف أن هذا الخبر رواه مولى عثمان كما روى الخبر السابق ، وذلك ما يوضح لنا صفته وقيمته .

(٢١) كتاب الأصول من الجامع الكافى لأبى جعفر محمد الكلينى المتوفى ببغداد سنة ١٣٢٨/٩٣٩م (طبعة بومباى سنة ١٣٠٢ هـ ص ٢٦١) .

(٢٢) فإن برشم : المجلة الآسيوية (بالفرنسية) سنة ١٩٠٧ ج ١ ص ٢٩٧ وما بعدها ، « جريندباوم » : « مجموعة مقالات فى علم اللغات والملاحم [٢] » . طبعة برلين ١٩٠١ . ص ٢٢٦ .

(٢٣) انظر نقد أحد العلويين لهذه الآراء فى ابن سعد ج ٥ ص ٢٣٩ .

(٢٤) فى مجموعة من الأحاديث التى يغلب عليها التجسيم الغليظ . وفيها يوحى الله تعالى لمحمد بالأئمة الاثنا عشر ويعينهم له بالإسم . وجاء فى « كتاب هارون » انظر عنه مجلة « علم العهد القديم [٣] » م ١٣ ص ٣١٦) أن أحد اليهود من قبيلة هارون كان يعرف الأئمة . وهذه الخرافات الشيعية جمعها الكلينى فى كتابه الأصول .

---

(١) *Zeitschr. f. Assyr*

(٢) *Gründbaum, Gesammelte Aufsätze zur Sprach - und Sagen-* Kunde

(٣) *Zeitschr. f. Alttest Wiss.*

ص ٣٤٢ ــ ٣٤٦ ، وإن البراهين المستمدة من أسفار العهد القديم الدالة على صحة النظريات الإمامية (كما صنع أهل السنة تماماً في البرهنة على نبوة محمد بأدلة مستنبطة من التوراة والإنجيل) ، قد جمعها « سيدعلى محمد » أحد فقهاء الشيعة الحديثين في رسالة عنوانها « زاد قليل » ، وظهرت لها طبعة حجرية في المطبعة الاثنا عشرية بلكنو بالهند سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م .

(٢٥) يمكن أن نكون لأنفسنا فكرة عن هذا النوع من التأويل القرآنى ، بالشرح التالى لسورة الشمس « والشمس وضحا (الشمس هى محمد) والقمر إذا تلاها (القمر هو على) ، والنهار إذا جلاها (النهار الحسن والحسين) ، والليل إذا يغشاها (والليل هو الأمويون) » . « وفى اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » للسيوطى (طبعة المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣١٧ ج ١ ص ١٨٤) تأويل كهذا على هيئة أحاديث يزعمون أن النبى قالها لتفسير آيات الكتاب .

(٢٦) ابن سعد ج ٥ ص ٢٣٤ .

(٢٧) المصدر نفسه ج ٦ ص ٢٦١ .

(٢٨) اعتُبر المنصور العباسى فى نظر أحد المشايعين للعلويين حاكما جائرا على الرغم من دعواه فى حقه الشرعى فى الخلافة ، وهذا هو ماقاله فى مواجهته الفقيه الورع محمد ابن عبد الرحمن بن أبى ذئب (تهذيب النووى ص ١١٢) .

(٢٩) انظر فى محن الشيعة رسالة أبى بكر الخوارزمى للجماعة الشيعية بنيسابور فى الرسائل طبعة استنبول سنة ١٢٩٧هـ ص ١٣٠ وما بعدها . وقد ذكر اليعقوبى فى تاريخه طبعة هوتسما ج ٣ ص ٢٤٢ ، الروايات المتواترة عن محن الشيعة .

(٣٠) كنز العمال ج ٦ ص ٨١ حديث رقم ١٢٧١ .

(٣١) تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٤ ص ١١ .

(٣٢) انظر « برون » : « فهرست المخطوطات الفارسية فى مكتبة « جامعة كمبردج » (كمبردج سنة ١٨٩٦) ص ١٢٢ ــ ١٤٢ (وتوجد بهذا الكتاب بيانات عن هذه المخطوطات) . وانظر مجلة فينا لمعرفة الشرق W. Z. K. M. م ١٥ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ فيما يتعلق بثمرة هذه المؤلفات . وقد أثبت «هاويت»[1] فى تقريره

---

(١) R. Haupt, Orientalisch. Literaturbericht, I.

عن المؤلفات الشرقية ج ١ رقم ٣٠٨٠ ، ٣٠٨١ ما جد بعدها من مؤلفات . وقائمة الشهداء عند الشيعة تسمى «مقاتل».

(٣٣) الثعالبي : « يتيمة الدهر » ج ١ ص ٢٢٣ ، وابن خلكان طبعة فستنفلد ج ٩ ص ٥٩ ، حيث يجب أن تقرأ « مآتمنا » بدلا من « مآتمنا » .

(٣٤) مجمع الأمثال للميداني طبعة بولاق ج ١ ص١٧٩ .

(٣٥) « بادشاه حسين » : الحسين في فلسفة التاريخ (بالإنجليزية) طبعة لكنو سنة ١٩٠٥ ص ٣٠ .

(٣٦) المصدر نفسه ص٩ ، ١٨ ، ٣٠ .

(٣٧) الكليني : نفس المصدر ص٤٦٦ . ويعتقد المسلمون أن الملكين الحارسين ينسحبان في حالة أخرى . وهي حينما يصيب الإنسان المُقَدَّر الذى كتبه الله عليه ، فهما في هذه الحالة لا يحاولان ألبتة الدفاع عنه ، إذ يجب عليهما أن يفسحا الطريق لوقوع المقدّر ونفاذه . ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٢ .

(٣٨) انظر عن التقية مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٠ ص ٢١٣ وما بعدها .

(٣٩) تفسير الإمام الحسن العسكري لسورة البقرة ص ١٧ .

(٤٠) الكليني ص ١٠٥ .

(٤١) الكليني ص ١٠٥ .

(٤٢) انظر الكليني ص٣٦٨ وما بعدها ، فصل « دعائم الإسلام » ، وذلك فيما يتعلق بالمذاهب المختلفة عن هذه النقطة وهذا هو السبب في أن الشيعي الصادق « متوالي » ، وهو الاسم الخاص الذى يطلق على الفرع الشامي لفرقة الشيعة .

(٤٣) اللآلىء المصنوعة للسيوطي ج ١ ص ١٨٤ . ونجد في هذا الفصل مجموعة من الأحاديث تنزع نزعة خاصة وضعها بعض الوضاعين المتحزبين لكي يدعموا بها نظريات التشيع .

(٤٤) الأغاني ج ٢٠ ص ١٠٧ .

(٤٥) علي القاري : شرح الفقه الأكبر طبعة القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ ص ١٣٢ .

(٤٦) ولم ترغب الخلافة العباسية في أن تتخلف عن الشيعة في الأخذ بهذه

النظرية ، فكانت ترحب عن طيب خاطر بأن يطلق عليها لقب « ميراث النبوة » . انظر الأغانى ج ١٠ ص ١٢٤ ، ج ١٨ ص ٧٩ ، وانظر أيضاً رحلة ابن جبير الطبعة الثانية لدى غوى ص ٩٢ . ومن هذه التسمية جاءت كلمة (نبوى) التى وصفت بها مرتبة الخلافة العباسية . انظر تاريخ دمشق لابن القلانسى طبعة أمدروز ص ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٩٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت طبعة مرجوليوث ج ٢ ص ٥٤ ؛ ولكن هذه الأسماء والصفات لا تخرج فى دلالتها على أن الخلافة ميراث شرعى للسلطة النبوية على اعتبار أن العباسيين ينتمون إلى آل البيت ، ولا تدل على أنها اختصاص ذاتى وطبيعة موروثة انتقلت إليهم بحكم قرابتهم للنبي وجعلتهم سلطة هادية مرشدة ، كما هو الحال عند الأئمة العلويين والخلفاء الفاطميين .

ونصادف أقوالا للكتاب والشعراء فى مواضع متفرقة من الكتب العربية ، منذ العصر الأموى ، توصف فيها مرتبة الخلافة بأنها « إرث النبى » ؛ وقد قيلت على سبيل التملق والزلفى للخلفاء ، كما جاء فى رسالة لعبد الحميد بن يحيى الكاتب — إذا كانت حقاً مما كتبه — كتبها للخليفة . راجع رسائل البلغاء طبعة القاهرة سنة ١٩٠٨ ج ١ ص ٩٢ ، ولا يمكن أن تفهم كلمة « مواريث نبوته » هنا بمعنى يخرج عن معنى الحق الشرعى .

(٤٧) نقل السهروردى هذه الحكاية عن الإمام جعفر الصادق ؛ انظر الكشكول طبعة بولاق سنة ١٢٨٨ هـ ص ٣٥٧ .

(٤٨) انظر التفصيلات مبسوطة فى مجلة الأشوريات م ٢٢ ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٤٩) ابن سعد ج ٥ ص ٧٤ .

(٥٠) المصدر نفسه ج ١ ق ١ ص ١١٣ . ورواية ابن سعد مبنية على الآية السابعة والستين من سورة المائدة : « واللهُ يعصمكَ منَ النَّاس » . فقد أوّلها المفسرون على أنها العصمة الجثمانية للنبي . وقد عالج الماوردى هذا الموضوع فى الفصل الثامن من كتابه « أعلام النبوة » ، طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ ص ٥٣ — ٥٩ .

(٥١) « مونتيه » تقديس الأولياء المسلمين وعباداتهم فى أفريقية الشمالية » .

(الـكتاب اليوبيلي لجنيف سنة ١٩٠٩) ص ٣٢ ، انظر « آشيل روبير » فى مجلة الروايات الشعبية ، كراسة فبراير ، أعداد ١٢ ، ١٣ .

(٥٢) هؤلاء القوم الذين يعبدون عليا يوجدون مثلا بين الفلاحين التركمان الذين يقطنون مقاطعة قارص (أردغان) ، التى تنازلت عنها تركيا لروسيا بعد الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ ، وقد قام ديڤتسكى Devitzki حديثاً بدراسة لأحوالهم .

(٥٣) « فريدلندر » : « شنع الشيعة كما فى ابن حزم » (نيوهيڤن سنة ١٩٠٠ » ج ٢ ، وفى مجلة الجمعية الأمريكية للمشرقيات م ٢٩ ص ١٠٢ .

وقد دعا الشلمغانى لنظريات شبيهة بهذه ؛ وهو الذى ادعى الألوهية وأعدم ببغداد فى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م . وفى مذهبه المبنى على نظرية الحلول التدريجى للألوهية، نسب الغش لـكل من موسى ومحمد ؛ فموسى اغتصب غدراً من هرون محله الأول فى الرسالة ، كما اغتصب محمد مكان على : راجع ياقوت طبعة مرجوليوث ج١ص٣٠٢ .

(٥٤) مجلة المستشرقين الألمـانية م ٣٨ص٣٩١ ، وابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٦ وج ٥ ص ١٥٨ ؛ وانظر أيضاً « فريدلندر » فى مجلة الأشوريات م ٢٣ ص ٣١٨ هامش رقم ٣ .

(٥٥) « شنع الشيعة » لفريدلندر ج ١ ، أو المجلة الأمريكية للمشرقيات م ٢٨ ص٥٥ ومابعدها .

(٥٦) ديانة الإسلام لـكلين ص ٧٣ ؛ بل إن الفيلسوف ابن سينا قرر أن من المسلم به أن الأنبياء لا يتعرضون بأى حال للخطأ أو النسيان ، راجع كتاب « فلسفة ما وراء الطبيعة لابن سينا[١] » ، ترجمة وتعليق « هورتن » المطبوع بمدينة « هاله » سنة ١٩٠٧ ص٨٨.

(٥٧) تهذيب النووى ص ٦٢٤ ، وقد خص يحيى بن زكريا بأشياء أخرى ، راجع ابن سعد ج ٤ ق٢ ص ٧٦ .

---

(١) M. Horten. Die Metaphysik. Avicennas.

(٥٨) ابن سعد ج ٦ ص ٣٢ .

(٥٩) على القارىء : « شرح الفقه الأكبر » ص ٥٤ . ويوجد فى طبقات الشافعية للسبكى ج ٥ ص ١٢٣ ، بحث فى هذا الحديث . وقد نسب للنبى أنه تساءل فقال : « وإنى لرسول الله وما أدرى ما يفعل بى » . ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٨٩ .

(٦٠) أمالى القالى ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٦١) جعلت الرواية هذا الحديث متعلقاً بصلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة وتعده فتحاً ، مع أنه يتعذر علينا إدراكه على هذا النحو ، وهو ما أحس به المؤرخون المسلمون أنفسهم . فقد قال عمر بن الخطاب : لقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة على صلح وأعطاهم شيئاً ، لو أن نبى الله أمّر علىّ أميراً ؛ فصنع الذى صنع نبى الله ما سمعتُ له ولا أطعتُ » . ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ٧٦ ، ص ٧٤ .

(٦٢) لتوضيح هذه العبارة انظر فيشر فى مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٢ ص ٢٨٠ .

(٦٣) حياة الحيوان للدميرى ج ٢ ص ٢١٦ مادة « غرنيق » .

(٦٤) على القارى : شرح الفقه الأكبر ص ١٣٦ .

(٦٥) تهذيب النووى ص ١١٣ .

(٦٦) بادشاه حسين : « الحسين فى فلسفة التاريخ » ص ٥ .

(٦٧) كشف الغمة عن جميع الأمة طبعة القاهرة سنة ١٢٨١ ج ٢ ص ٦٢ ــ ٧٥ رواية السيوطى .

(٦٨) وفى الحق ، أن صفات النبى التى ذكرها الشعرانى ما هى إلا الصفات التى نصادفها فى الصورة الخيالية التى رسمها الشيعة للنبى ، كما جاءت فى عجالة تتضمن بياناً شعبياً عن العقائد الشيعية ، وكتبها بالتركية عبد الرحيم الخُوِى طبعة استنبول سنة ١٣٢٧ هـ ص ١٠ .

(٦٩) ثلاث رسائل للجاحظ طبعة فان فلوتن ، ليدن سنة ١٩٠٣ ص ١٣٧ ، وفى رسائل الجاحظ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٤ ص ١٢٩ . وقد ذكر الجاحظ النظرية الشيعية التى تزعم بأن الأئمة أرفع قدراً من الأنبياء ، وأن النبى عند الشيعة يعصى ولا يخطىء والإمام لا يعصى ولا يخطىء .

(٧٠) أسد الله الكاظمى : « كشف القناع عن وجوب حجية الإجماع » طبعة بومباى الحجرية ص ٢٠٩ .

(٧١) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسما ج ٢ ص ٥٢٥ ، وانظر ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١٠١ فيما يتعلق بكتاب علىّ الذى أمكنه من التغلغل فى معانى القرآن البعيدة . وفى الأغانى ج ٢٠ ص ٢٠٧ يتهكم الخوارج بادعاء العلويين علم الغيب لمخلوق .

(٧٢) يدعى الشيعة أن لديهم مؤلفات خفية ينسبونها لعلى (انظر الهامش السابق) ؛ ويقولون عنها تارة إنها خلاصة العلوم الدينية التى كانت لكافة الأنبياء ؛ وطورا يزعمون أنها كتابات نبوية رمزية تكشف طلاسمها عن حوادث المستقبل وقد أودعها النبى عليا وانتقلت بعده من جيل إلى جيل فى أعقاب الأئمة الشرعيين ، وكل إمام منهم كان حائزاً فى وقته على علوم العلويين الباطنية . وأكثر ما يستشهدون به منها كتاب الجفر وكتاب الجامعة . وقد سمى بشر بن المعتمر ، أحد قدماء المعتزلة ؛ الشيعة بأنهم قوم قد غرّهم الجفر : لستُ إباضياً غبيًّا ولا — كرافضىّ غرَّه الجفر » الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٩٤)

بل إن كتب الشيعة قد أتت على الوصف الظاهرى لهذه الكتب السرية المزعومة، فكتاب الجامعة وصفته على أنه لفافة طويلة طولها سبعون ذراعاً (قياساً على ذراع النبى) ، انظر الكلينى ص ١٤٦ : ١٤٨ والكاظمى ص ١٦١ . وفى مجلة المستشرقين الألمانية م ٤١ ص ١٢٣ وما بعدها ثبت بمراجع هذا الموضوع . وقد ذكر الكلينى أيضاً أن الأئمة لديهم مصحف فاطمة الذى أودعه النبى فاطمة قبل موته ، وهو قدر المصحف المعروف ثلاث مرات .

ومن ثم أطلقت كلمة الجفر على الكتب الخفية الغامضة التى تبحث فى التنبؤات عموما . وقد تكونت من كلمة جفر الكلمة المغربية « لِنْدجيفار » lendjefar كما جاء فى « دوتيه » : « نص عربى باللهجة الوهرانية » ص ١٣ ، فى مذكرات جمعية دراسة اللغات م ١٣ ص ٣٤٧ .

وإن استعمال كتب الجفر وشرحها لهو موضع اهتمام المشتغلين بعلوم الطلاسم الإسلامية ، انظر مثلا قائمة كايرَوَر kairoer katalog م ٨ ص ٨٣ ، ١٠١ . وكثيراً ما ساهم الصوفى الشهير محيى الدين بن عربى فى الاشتغال بهذه الكتب (المصدر نفسه

ص٥٥٢) . أما عن كتاب الجفر لأبى بكر الدمشقى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م، والمحفوظ فى خزانة سلاطين الترك وكنوزهم ، فانظر « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للمرادى طبعة بولاق سنة ١٣٠١ هـ ج ١ ص ٥١ .

(٧٣) انظر فيما سبق هامش رقم ٢٥ .

(٧٤) مما يتفق اتفاقاً تاماً مع روح التشيع ما قاله الأستاذ « بادشاه حسين » العالم الشيعى الحديث فى نقد حكومة الخلفاء الراشدين ؛ فقد ندّد بها على اعتبار « أنها شكل شبه ديمقراطى للحكومة مبنى على الشعور بالميول العامة للأمة » ، كتابه ص ١٤ .

(٧٥) إن المتكلمين فى الفرق الفرعية فى التشيع قد أكثروا من وضع المؤلفات الجدلية يبرهنون فيها على صحة مذاهبهم ، ولم يكن الغرض منها قاصراً على بحث النواحى المختلفة لمسألة الإمامة ، ولكنها شملت أيضا مسائل اعتقادية وفقهية أخرى توكدت بسببها الخلافات التي تفصل بين هذه الجماعات الشيعية بعضها بعضا

وفى نهاية القرن الثالث الهجرى ، أو فى بداية القرن الرابع ، وضع حسن بن محمد النوبختى أحد كبار المتكلمين الأماميين كتابه : « فرق الشيعة » كما وضع كتاب : « الرد على فرق الشيعة ماخلا الإمامية » . وانظر أيضا كتاب الرجال لأبى العباس أحمد النجاشى طبعة بومباى سنة ١٣١٧ ص ٤٦ .

وقد عاش الجاحظ فى عصر قريب من نشأة هذه الفرق إذ توفى سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩م، وكتب كتابا عن الشيعة اسمه كتاب الرافضة ، ولكن يظهر أنه فقد . وهو قد أشار إليه فى رسالته القصيرة « فى بيان مذاهب الشيعة » (فى مجموعة الرسائل طبعة القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ ص ١٧٨ — ١٨٥ ، وهى أصغر مما يوحى به عنوانها .

(٧٦) الكاظمى ص ٨٠ .

(٧٧) النجاشى ص ٢٣٧

(٧٨) فيما يتعلق بهذه العقيدة انظر حالياً كتاب « شنع الشيعة » كما فى ابن حزم » لفريد لندر ، وهو مؤلف لا يستغنى عنه للوقوف على النظم الداخلية للشيعة وعن انقسامها إلى فرق ، ج ٢ ص ٢٣ — ٣٠ ؛ وانظر أيضاً هامش رقم ٥٣ .

(٧٩) راجع الآن مقالة « فريدلندر » : مجلة الأشوريات م ٢٣ ص ٢٩٦ وما بعدها ، لدراسة عبد الله بن سبأ والمذاهب التى دعا لها الخاصة بطبيعة على . أما عن عقيدة رجعة على فانظر كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ١٣٤ ، وعن عقيدة الرجعة انظر ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٦ وج ٦ ص ١٥٩ .

وحتى فى البيئات الصوفية (وليست الشيعية) قد شاعت تصورات وأفكار تنزع إلى تأليه على . وقد عبّر الصوفيون أحياناً عن فكرة خلود علىّ ورجعته ، روى الشعرانى عن الولى « على وفا » أنه كان « يقول إن علياً بن أبى طالب رضى الله عنه رُفع كما رفع عيسى عليه السلام وسينزل كما ينزل عيسى عليه السلام » ثم أضاف الشعرانى إلى ذلك : « وبذلك قال سيدى على الخواص رضى الله عنه فسمعته يقول « إن نوحاً عليه السلام أبقى من السفينة لوحاً على اسم على بن أبى طالب رضى الله عنه يرفع عليه إلى السماء ، فلم يزل محفوظاً فى صيانة القدرة حتى رفع على بن أبى طالب رضى الله عنه » . « لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار ج ٢ ص ٥٩ .

وفضلا عن ذلك فهذه القصة الصوفية تتصل بالقصة الإسلامية الخاصة ببناء سفينة نوح ، وقد ورد فيها أن الله أمر نوحاً بأن يُعِدّ لبنائها مائة وأربعة وعشرين ألف لوح من الخشب ، بيّن الله تعالى على كل لوح منها اسم نبى من الأنبياء ، ابتداءاً من آدم إلى محمد ، ثم حدث فى النهاية أن السفينة كانت بحاجة إلى أربعة ألواح أخرى لإتمام بنائها ، ولذا أعدها نوح وظهر عليها أسماء الصحابة الأربعة (وهم الخلفاء الراشدون ورابعهم علىّ) . وهكذا تمت السفينة وأصبحت قادرة على احتمال الأمواج وعصفها . والقصة بطولها فى كتاب محمد بن عبد الرحمن الهمدانى ، فى أيام الأسبوع واسمه : « كتاب السَّبعِيّات فى مواعظ البريات » طبعة بولاق عام ١٢٩٢ هـ على هامش شرح الفشنى على الأربعين النووية ص ٨ — ٩ .

(٨٠) فلهوزن : أحزاب المعارضة الدينيــة والسياسية[١] ص ٩٣ . وقد حاول الباحثون أن يرجعوا إلى مصادر أقدم من هذه للوقوف على أصل هذه

(١) Die religiösen Oppositionsparteien.

العقيدة . وقد ذهب پنشز Pinches استناداً على نصوص مسمارية أنه كان عند أهل بابل القدامى اعتقاد برجعة ملكهم القديم سرجون الأول وأنه سيعيد مجد دولتهم القديم . غير أن قراءة هذه النصوص وتخريجها إلى هذا المعنى لم يقره علماء الآثار الأشورية ، راجع أعمال جمعية الآثار المتعلقة بالتوراة م ٧ ص ٧١ .

(٨١) هلجنفلد : تاريخ المبتدعة[1] ص ١٥٨ (رواية أوريچن) .

(٨٢) راجع المقدمة التي كتبها أخيراً «باسيه» Basset لكتاب « فيخارياسون Fekhares Jyasons (الأناجيل الحبشية الموضوعة الأپوكريفيات — طبعة باريس سنة ١٩٠٩ م ١١ ص ٤ — ١٢) .

(٨٣) مجلة الروايات الشعبية سنة ١٩٠٥ ص ٤١٦ .

(٨٤) الآثار الباقية للبيروني مراجعة سَخَوْ ص ١٩٤ ، وانظر عن « بيها فريد » مقال « هوتسما » في مجلة فينا لمعرفة الشرق سنة ١٨٨٩ ص ٣٠ وما بعدها .

(٨٥) مختصر تاريخ الدول لابن العبرى طبعة بيروت ص ٢١٨ ، وراجع أيضاً مجلة الأشوريات م ٢٢ ص ٢٣٧ وما بعدها .

(٨٦) بُوزْوِرْث سميث : « محمد والإسلام » الطبعة الثانية — لندرة سنة ١٨٧٦ ص ٣٢ .

(٨٧) « لاندزدِلْ » Landsdell : « آسيا الوسطى الروسية » ج ١ ص ٥٧٢ .

(٨٨) دراسات إسلامية ج ٢ ص ٣٢٤ .

(٨٩) « كذب الوقاتون » ، وأقوال الأئمة في هذا الموضوع تؤلف فصلا خاصاً هو : « باب كراهية التوقيت » في الكليني ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، وقد أضاف إليه « دلدار على » مواد وزيادات كثيرة في كتابه الذى ألفه في علم الكلام الشيعي واسمه : « مرآة العقول في علم الأصول أو عماد الإسلام في علم الكلام » ج ١ ص ١١٥ وما بعدها ، طبعة لكنو سنة ١٣١٨ — ١٣١٩ هـ . وقد أشار الطوسى إلى أن كتاب « وقت خروج القائم » (رقم ٦١٧ في قائمة كتب

---

(١) Hilgenfeld, Ketzergeschichte.

الشـيعة) هو من تصنيف محمد بن حسن بن جمهور القُمِّى المعروف بأنه من الغلاة وبأنه من الوضاعين للأحاديث .

وقد نشأ عن هـذا أيضاً أن الـكُتَّاب عندما يترجمون لعالم من علماء الـكلام الشيعيين يقولون إنه من المبالغين فى الوقت أى فى تقدير وقت ظهور المهدى ، راجع كتاب الرجال للنجاحى ص ٦٤ ، وقد انتقد ابن خلدون فى مقدمته (طبعة كترمير : هوامش ومقتطفات م ١٧ ص ١٦٧) تقدير محيي الدين بن عربي لوقت ظهور المهدى . وقد أنـكر الحروفيون أيضاً هـذه التقديرات على الرغم من أنه يُنسب إليهم دائماً هذا النوع من القبَّالة (كليمان هيوار : نصوص فارسية خاصـة بفرقة الحروفية — ليدن ولندرة سنة ١٩٠٩ : سلسلة جب التذكارية م ٩ متون ٧٠ وما بعدها) .

وإن تقدير ظهور المهـدى يقترب من التقـديرات القبَّالية التى تعين موعد السـاعة ، وقد استند فيها الوقانون على عـدة آيات من القرآن ؛ كالآية التاسعة والخمسـين من سـورة الأنعـام : « وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الغيب لا يعلمها إلاّ هُو » والآية السابعة والثمانين بعد المـائة من سورة الأعراف : « يسْألونكَ عن السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاها قُلْ عِلمها عِنْدَ رَبى لا يجلّيها لِوَقتها إلا هُو » ، (راجع إنجيل متى ٢٤ ـ ٣٦) . غير أن السُّنة الإسـلامية الصحيحة قد أنـكرت هذه التقديرات وعدتّها مناقضة للقرآن

وتوجد مادة هذا الموضوع الكلامى مبسوطة فى شرح القسطلانى على البخارى طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ : باب الإجارات رقم ١١ ج ٤ ص ١٥٠ ، وباب التفسير رقم ٨٨ ج ٧ ص ٢٢٣ ورقم ٣٣٥ ، ج ٧ ص ٤٥٨ وما بعدها ، وباب الرقاق رقم ٣٩ ج ٩ ص ٣٢٣ .

وقد أكثر الفلـكيون المسلمون من الاشتغال بحسابات النجوم لتقدير نهاية الدولة الإسلامية . وقد وضع الـكندى الفيلسوف بحثاً خاصاً فى هذا الموضوع قام لوت Loth بدراسته فى كتابه « أبحاث شرقية[1] » (أبحاث تذكارية لفليشر — ليبتزج سنة ١٨٧٥ ص ٢٦٣ ـ ٣٠٩ .

(١) Loth Morgenländische Forschungen (Fleischer-Festschrift)

وقد اشتغل الكندى بقبالة الحروف وأسرار الأعداد ، فضلا عن اشتغاله بالفروض الفلكية ، «المصدر نفسه ص ٢٩٧». وقد أشاد بالكتابة العربية لأنها تحتمل أكثر من غيرها من الكتابات ، وتحليل الحروف وتدقيقها (كتاب ألف باء لبلوى ج ١ ص ٩٩) ، كما أن إخوان الصفا (طبعة بومباى ج ٤ ص ٢٢٥) ذهبوا فى رسالتهم إلى أن ظهور صاحب الأمر الذى كانوا يقومون بالدعاية له ، يتوقف موعده على اجتماع النجوم وتوافق الطوالع .

(٩٠) عن التلمود باب سانهدرين ٩٧ ب ، وعن تقدير موعد ظهور المسيح تبعاً للقيمة العددية لكلمتى « هاستير أستير » فى سفر التثنية إصحاح ٣١ عدد ١٨ وفى سفر دانيال إصحاح ١٢ : ١١ — ١٣ . وانظر الآثار الباقية للبيرونى طبعة سخو ص ١٥ : ١٧ ، ومقال شرينر Schreiner فى مجلة المستشرقين الألمانية م٤٢ ص٦٠٠ وراجع مؤلفات هذا الموضوع فى الثبت الذى أورده ، شتينشنيدر Steinschineider فى مجلة المستشرقين م٢٨ ص ٦٢٨ هامش رقم ٢ ، وپوزنانسكى[1] : « متفرقات عن الساعة » ج ٣ فى المجلة الشهرية لتاريخ العلوم اليهودية م ٤٤ سنة ١٩٠١ .

(٩١) إن كلمة « مهدى » فى استعمالها الدينى القديم لم تكن تفيد تلك المعانى الأخروية التى التصقت بها فيما بعد . وقد لقب جرير سيدنا إبراهيم بهذا اللقب (النقائض طبعة بيڤان رقم ١٠٤ بيت ٢٩) :

أبونا أبو إسحق يجمع بيننا   أبٌ كان مهدياً نبيًّا مُطهَّرا

ولما رثى حسان بن ثابت النبى (ديوانه طبعة تونس ص ٢٤) وصفه بأنه « مهدىّ » ، ولم يقصد بهذه الكلمة أن تفيد أى معنى من المعانى المهدوية ، ولكن قصد أن يمدح بها النبى كرجل سار دائماً فى الطريق السوىّ :

ما بال عينك لا تنام كأنما   كُحِلت مآقيها بكحل الأَرْمَدِ
جزعاً على المهدى أصبح ثاوياً   يا خير من وطىء الحصى لا تَبْعُدِ
بأبى وأبى من شهدت وفاته   فى يوم الاثنين النبى المهتدى

---

(١) Poznanski. Miscellen über Sa'adja. (Monatschr. f. Gech. u. Wiss. d. Jndentums).

وازن كلمة المهتدى فى البيت الثالث ، بكلمة المرشد فى مرثية أخرى للنبى ، فى ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ٩٤ :

فابكى المبارك والموفق ذا التقى حامى الحقيقة ذا الرشاد المُرْشَد

ولم تجد البيئات السنية بأساً من إطلاق لقب المهدى على الخلفاء الأقدمين كعلى ابن أبى طالب ، بل نسب للنبى أنه أوضح أقدار خلفائه الذين ولوا شؤون المسلمين بعد وفاته ؛ « عن على قال : قيل يا رسول الله من يؤمر بعدك ؟ قال «إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة ، وإن تؤمروا عمر تجدوه قوياً أميناً لا يخاف فى الله لومة لائم ، وإن تؤمروا علياً . ولا أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهدياً يأخذ بكم الصراط المستقيم » . (أسد الغابة ج ٤ ص ٣١) .

وقد دعا سليمان بن صُرَد ، الآخذ بثأر الحسين ، للحسين بعد موته قائلاً : « اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد المهدى بن المهدى » (الطبرى ج ٢ ص ٥٤٦ طبعة دى غوى) . بل إن الشعراء فى العصر الأموى كانوا يغدقون هذا اللقب على الأمراء الأمويين ، فقد مدح به الفرزدق سليمان بن عبد الملك كما مدح به النبى ؛ ففى البيت رقم ٤٠ ص ٥١ فى النقائض يمدح النبى قائلا :

بقوم أبو العاصى أبوهم توارثوا خلافة مهدىٍّ وخير الخواتم

يعنى النبى صلى الله عليه وسلم أنه خاتم الأنبياء وأنه خير الأنبياء . وفى البيت رقم ٦٠ من نفس القصيدة يمدح سليمان :

وألقيت من كفيك حبل جماعة وطاعة مهدىٍّ شديد النقائم

وكثيراً ما ورد هذا اللفظ فى أشعار جرير (ديوانه طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ) فقال فى عبد الملك ج ١ ص ٥٨ :

الله طوقك الخلافة والهدى والله ليس لما قضى تبديل

وقال فى سليمان ج ٢ ص ٤٠ :

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدى قد وضح السبيل

وقال فى هشام ج ٢ ص ٩٤ :

فقلت لها الخليفة غير شك   هو المهدى والحكم الرشيد

وانظر هذا بلقب إمام الهدى بالحاشية رقم ٣ بالقسم الثالث من هذا الكتاب ومع ذلك فقد خص الأتقياء عمر بن عبدالعزيز ، دون غيره من خلفاء بنى أمية بأنه المهدى الحقيق (ابن سعد ج ٥ ص ٢٤٥) . وفى الحق أنه حدث فيما بعد ، فى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م ، أن أحد الشعراء المداحين وهو ابن التعاويذى مدح الخليفة العباسى الناصر ملقبا إياه بالمهدى ، وغالى فى إطرائه وتمجيده حتى رأى فى خلافته ما يغنى عن انتظار المهدى فى آخر الزمان ، فقال فى البيت الخامس والسادس ص ١٠٣ من ديوانه طبعة مرجوليوث — القاهرة سنة ١٩٠٤ :

أنت الإمام المهدى ليس لنا   إمامُ حقٍّ سواكَ يُنتظر
تبدو لأبصارنا خلافاً لأن   يزعم أن الإمام منتظر

والمسلمون فى الوقت الحاضر يطلقون اسم المهدى على من يدخل فى الإسلام من من أهل الديانات الأخرى ، والترك يسمونهم بالمهتدين . وقد تولى مشيخة الأزهر شيخان فى اسميهما لقب المهدى الذى لا يخرج فى معناه عن مدلوله الحديث ، وهما الشيخ محمد المهدى الحفنى وكان فى الأصل قبطياً اسمه هبة الله ، وتولى المشيخة من ١٨١٢ — ١٨١٥ ، والثانى الشيخ محمد العباسى المهدى وقد تولى مشيخة الأزهر من سنة ١٨٧٠ ألى سنة ١٨٩٠ . وانظر أيضاً مجلة المستشرقين الألمانية ص ٧٠٢ وما بعدها .

(٩٢) عن فكرة المهدية فى الإسلام وما يتعلق بها انظر كتاب « المهدى منذ نشأة الإسلام حتى العصر الحاضر » « لدارمستيتر » — باريس سنة ١٨٨٥ ، ومقال لهيروجرونيه فى المجلة الاستعمارية الدولية سنة ١٨٨٦ ، وفصل العقائد المهدية فى كتاب السيادة العربية لفان فلوتن (أمستردام — الأكاديمية سنة ١٨٩٤) ص ٥٤ وما بعدها ومقال له فى مجلة المستشرقين الألمانية م ٥٢ ص ٢١٨ وما بعدها ، وكتاب العقائد المهدية فى الفرق الإسلامية بقلم بلوشيه باريس سنة ١٩٣٠ ، وكتاب المهدية

فى الإسلام [1] » لفريدلندر (أبحاث تذكارية — فرنسكفورت على المين سنة ١٩٠٣ ص ١١٦ : ١٣٠) .

(٩٣) كثيراً ما ظهرت الحركات المهدوية فى الإسلام المغربى (شمالى أفريقية) ، وعند المغاربة اعتقاد متواتر بأن المهدى لا بد أن يظهر فى الأرض المراكشية (دوتيه : المرابطون طبعة باريس سنة ١٩٠٠ ص ٧٤) . واستمان المغاربة بالأحاديث التى تنحو هذا المنحى (مجلة المستشرقين الألمانية م ٤١ ص ١١٦ وما بعدها) . كما ظهر أيضاً فى المغرب فى عصور مختلفة رجال كان يدعى كل واحد منهم أنه عيسى ابن مريم وكان يتمسك بهذا الاسم لمناهضة السيادة الأجنبية (دوتيه ص ٦٨) . ومع أن بعض هذه الحركات المهدوية ، كتلك التى أدت إلى قيام دولة الموحدين بالمغرب لم تحتفظ بأى أثر تؤثر به فى المستقبل بعد سقوط الأنظمة السياسية التى كانت هذه الحركات ثمرة لها ، فإن الآثار الباقية لهذه الحركات المهدوية لا تزال باقية إلى اليوم فى الفرق الشيعية .

وفى القرون الأخيرة ظهرت بعض الحركات الانشقاقية الدينية ذات الصلة الوثيقة بالفكرة المهدية ، وذلك بين مسلمى الهند ، وقد أثارها رجال ادعى كل واحد منهم أنه المهدى المنتظر ، ولا يزال أتباعهم يؤلفون جماعات وفرقاً مختلفة . وزعم هؤلاء المهديون أن انتظار المسلمين للمهدى قد انتهى بظهورهم ؛ وهذا هو السبب فى تسمية هذه الفرق باسم « غير مهدى » ، أى إنهم قوم توقفوا عن الاعتقاد بظهور المهدى فى المستقبل ، ومنهم فرقة المهدوية التى تحمل على مخالفيها فى الرأى وتبالغ فى بغضهم والتعصب عليهم . وقد أورد « سل » فى كتاب ديانة الإسلام — لندرة سنة ١٨٨٠ ص ٨١ : ٨٣ تفصيلات دقيقة عن هذه الفرق . ولا تزال ذكرى أحد المهديين الهنود الذين عاشوا فى نهاية القرن الخامس عشر عالقة بأذهان أهل مقاطعة كرمان (بلوخستان) .

ويعارض السنيون فى هذا الإقليم (ويسمون النمازى لأنهم يؤدون الصلاة واسمها نماز) فرقة « ذكرى » ، التى ينتمى أغلب أتباعها إلى البدو من سكان البلاد ، وقد وصلوا مذهبهم وشعائرهم الحائدة عن التعاليم السنية الإسلامية بأحد المهديين

---

(١) Friedlander Die Nessiasidee im Islam.

ويدعى الشيخ محمد الجونبورى الذى أخذ بعد نفيه من بلاد الهند فى التجوال من مكان إلى آخر ، وتوفى سنة ١٥٠٥ م فى تيل هلمند Tale Helmend (مجلة العالم الإسلامى م ٥ ص ١٤٢) .

وهم يشيدون دائرة من الأحجار (انظر أيضاً هركلوتس . قانون الإسلام ص ٢٥٩) فى ليلة القدر التى يقدمها أهل السنة ، ويؤدون فى داخلها مناسكهم الزائفة ؛ ولذا يطلق على هذه الفرقة أيضاً اسم « دائرة والى » ، أى أهل الدائرة . وإن الأستاذ هوروفتز بجامعة عليكرة ، الذى أدين له بهذه البيانات الأخيرة ، يعد للطبع بحثاً خاصاً عن فرقة دائرة والى .

(٩٤) هارتمان : الشرق الإسلامى ج ٣ ص ١٥٢ .

(٩٥) كما فى تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ج ١ ص ٤٣١ هامش رقم ٢٥ . وهناك نقد للأحاديث الخاصة بظهور المهدي فى مقدمة ابن خلدون طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ ص ٢٦١ . وقد جمع بعض علماء الكلام من أهل السنة الأحاديث السنية الخاصة بالمهدى ، مثل الفقيه المكى شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٣ هـ/سنة ١٥٦٥ م الذى صنف فى هذا الموضوع كتاباً خاصاً ذكره بروكلمان ج ٢ ص ٣٨٨ هامش رقم ٦ ، وأشار إليه الهيثمى نفسه فى إحدى فتاويه الحديثية طبعة القاهرة سنة ١٣٠٧ ص ٢٧ — ٣٢ ، وقد لخص فيه النقول السنية عن عقيدة المهدى وعن الحوادث التى سوف تصحب ظهوره ، كما بحث فى مدعى المهدية من الدجالين والمشعوذين ، واسم كتابه : القول المختصر فى علامات المهدى المنتظر » . وكان الباعث الذى حمله على إصدار هذه الفتوى أنه « سئل عن طائفة يعتقدون فى رجل مات منذ أربعين سنة أنه المهدى الموعود بظهوره آخر الزمان ، وأن من أنكر كونه المهدى المذكور فقد كفر فما يترتب عليهم ؟ » .

ومن المحتمل أن هذه العقيدة التى سئل فيها الهيثمى تتعلق بأحد مدعى المهدية فى القرن العاشر الهجرى ، وقد ذكرنا شيئاً عنهم فى الحاشية رقم ٩٣ وقد جمع ابن حجر فى كتابه « الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة » طبعة القاهرة سنة ١٣١٢ هـ ص ٩٧ — ١٠٠ قدراً آخر من الأحاديث السنية الخاصة بعقيدة المهدى ، وكان قد ألقاها كخطبة فى مكة ، قصد بها دحض العقائد الشيعية .

(٩٦) يطعن الاثنا عشرية فى هذا النقد زاعمين أن متن الحديث الدال على اسم المهدى قد صُحِّف ؛ فبدلا من عبارة « يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى » ، يقولون إن الصواب فيه : واسم أبيه اسم ابنى » ، أى إن اسم أبى المهدى هو الحسن ، والحسن هو اسم حفيد النبى ، ولا يتشككون فى أن كلمة « ابن » تفيد أيضاً معنى الحفيد . راجع مقدمة شرح المنينى على قصيدة بهاء الدين العاملى التى نظمها فى مدح صاحب الزمان ، أى المهدى المنتظر ، وهى مطبوعة فى ذيل الكشكول ص ٣٩٥ .

(٩٧) راجع أيضاً كتابى : « أبحاث فى علم اللغة العربية[1] » ج ٢ ص ٦٢ من المقدمة وما بعدها .

(٩٨) راجت العقيدة بأن بعض الصفوة من الناس هم على اتصال شخصى بالمهدى الخفى ، ونجد أمثلة لها فى الطوسى : قائمة كتب الشيعة ص ٣٥٣ وكشف القناع للكاظمى ص ٢٣٠ — ٢٣١ . وللصوفى المصرى عبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ هـ/١٥٦٥ م تخريفات عديدة تدور حول اجتماعات الصوفيين ؛ فيحكى فى تراجمهم أن زميله الأكبر منه سنًّا ، وهو الشيخ حسن العراقى المتوفى حوالى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٢ م ، قد أفضى إليه أنه فى حداثته وهو مقيم بدمشق قد قرى المهدى أسبوعاً كاملا وأخذ عنه أساليب الذكر والزهادة ، وأنه يرجع الفضل فى طول عمره إلى المهدى ، فقد كان سن العراقى عند ما تحدث بهذا للشعرانى سبعا وعشرين ومائة سنة ! وقد خرج سائحاً فذهب إلى أرض الهند والصين ثم رجع إلى مصر بعد خمسين سنة سياحة ، ولما أراد دخول مصر منعوه بسبب غيرة الصوفيين الآخرين وحسدهم ، فقد وجدوا فيه مخاطراً جريئاً (لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار — القاهرة سنة ١٢٩٩ ج ٢ ص ٩١) .

وتوجد أيضاً أقاصيص أخرى عن الاتصال كتابة بالإمام الخفى ؛ فإن والد الفقيه الشيعى الشهير أبى جعفر محمد بن على بن بابويا القُمى المتوفى سنة ٣٥١ هـ/٩٩١ م أرسل مع رجل يدعى على بن جعفر بن الأسود طلباً مكتوباً إلى « سيد الزمان » ، إذ أنه لم يُعقب فسأله أن يتشفع له عند الله تعالى ليرفع عنه هذه المحنة ، فتسلم بعد قليل من

(١) *Abhandlungen zur arab. Philol.*

المهدى براءة مكتوبة تُبشر له فيها بولدين ، كان أكبرها أبو جعفر الذى نخر طيلة حياته بأنه مدين بوجوده لبشرى « صاحب الأمر » (كتاب الرجال للنجاشى ص ١٨٤) ، وانظر أيضاً نفس الكتاب ص ٢٥١ فى ترجمة أحد علماء التفسير الذى راسل الإمام الخفى لاستجلاء بعض المسائل فى أبواب الشريعة .

(٩٩) وفى الكشكول ص ٨٧ — ٨٩ قصيدة من هذا النوع ، وهى وأمثالها مما نظمه بهاء الدين العاملى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م وهو أحد علماء الحاشية فى بلاط الشاه عباس ، وشرح القصيدة أحمد المنينى (وليس محمد كما فى بركلمان ج ١ ص ٤١٥) المتوفى سنة ١١٠٨ هـ/١٦٩٦ م (وترجمته فى سلك الدرر للمرادى ج ١ ص ١٣٣ — ١٤٥) والشرح فى ذيل الكشكول طبعة بولاق ص ٣٩٤ — ٤٣٥ ، وانظر أيضاً المجلة الأفريقية سنة ١٩٠٦ ص ٢٤٣ .

(١٠٠) مجلة العالم الإسلامى ج ٦ ص ٥٣٥ ، وفى ص ٦٨١ منها ترجمة فتوى علماء النجف ، وقد جاء فيها : « ينبغى بذل الجهود لتثبيت دعائم الدستور بالجهاد والاستمساك بتعاليم إمام العصر ، كانت حياتنا فداءاً له ! وإن أقل مخالفة أو تقصير فى إنجاز أوامره توازى التخلى عن جلالته أو العمل على مناهضته » . والكلمة الأخيرة لا تشير إلى النبى محمد . كما بيّن ذلك المترجم ، ولكنها تشير إلى إمام العصر الذى ورد ذكره فى العبارة السابقة ، أى إنه المهدى أو الإمام الخفى . وكذلك ادعى الرجعيون المناهضون للدستور ، مستندين إلى إحدى الوثائق التى تحبذ إلغاء الدستور ، أن عمل الشاه فى إقدامه على إلغائه « قد أوحى الله به كما أوحى به إمام العصر » (مجلة العالم الإسلامى ج ٧ ص ١٥١) .

(١٠١) وهذا ما سبق أن لاحظه المقدسى طبعة دى غوى ص ٢٣٨ .

(١٠٢) مجلة المستشرقين الألمانية م ٥٣ ص ٣٨١ .

(١٠٣) محمد باقر داماد : « الرواشح السماوية فى شرح الأحاديث الإمامية » طبعة بومباى سنة ١٣١١ هـ ص ١٣٣ .

(١٠٤) الكاظمى ص ٩٩ . وقد قال المستنصر الخليفة الفاطمى فى قصيدة صغيرة

تنسب إليه أن ديانته هي التوحيد والعدل ، « تاريخ دمشق » لابن القلانسي طبعة أمدروز ص ٩٥ .

(١٠٥) يكفي لإثبات هذا أن نشير إلى بعض المؤلفات الكلامية عند الشيعة التي أصبحت في متناول الأيدي بعد طبعها ، ويظهر فيها بجلاء منهاج البحث الشيعي في المسائل الكلامية ، وكذا في المسائل الخاصة بالإمامة . وقد وضع نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ/١٢٧٣ م في كتابه « تجريد العقائد » (المطبوع في بومباي سنة ١٣٠١ هـ — والفقرات في صحيفة ٣٩٩ وما بعدها ، ومعه شرح على بن الكُشْجي المتوفى سنة ٨٧٩ هـ/١٤٧٤ م = بروكلمان ج ١ ص ٥٠٩) بياناً موجزاً عن هذا المذهب .

كما أوضح الطوسي في كلمات موجزة مسألة الإمامة كما يراها الشيعة ، مقابلاً بينها وبين وجهة نظر أهل السنة ، وذلك في شرحه لكتاب المحصل لفخر الدين الرازي (القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ : تلخيص المحصل — بروكلمان ج ١ ص ٥٠٧ هامش رقم ٢٢) ص ١٧٦ وما بعدها وراجع أيضاً كتاب « الألفين الفارق بين الصدق والمَيْن » لحسن بن يوسف المطهَّر الحلي المتوفى سنة ٧٢٦ هـ/١٣٢٦ م ، وهو يشتمل على ألف برهان يؤيد صحة العقائد الشيعية في الإمامة وألف برهان آخر لدحض اعتراضات المخالفين . ومطبوع ببومباي سنة ١٨٩٨ .

وللحلي أيضاً كتاب « الباب الحادي عشر » الذي جعله مكملاً لكتاب « مصباح المتهجد » (بروكلمان ج ١ ص ٤٠٥) لأبي جعفر الطوسي ، والذي يشتمل على عشرة فصول تبحث فحسب في موضوع العبادات ، وقد طبع في مطبعة « نول كشْوَرْ » سنة ١٣١٥ هـ/١٨٩٨ م ومعه شرح للمقداد بن عبد الله الحلي (بركلمان ج ٢ ص ١٩٩) .

أما في المؤلفات الحديثة ، فإني أشير على الأخص إلى كتاب دلدار علي : « مرآة العقول في علم الأصول » ، وهو في مجلدين : الأول يبحث في التوحيد والثاني في العدل . والكتاب يشتمل على مباحث عظيمة القدر في العقائد الشيعية ، وهو مطبوع في مطبعة عماد الإسلام بلكنو سنة ١٣١٩ هـ .

(١٠٦) إن كتاب الانتصار للعالم الشيعى « على المرتضى علم الهدى » المتوفى ببغداد سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م قد عالج هذه الفروق معالجة دقيقة . وهذا الكتاب الذى طبع طبعة حجر فى بومباى سنة ١٣١٥ هـ يستعرض الفروق التعبدية والشرعية بين الشيعة ومذاهب أهل السُّنة فى كافة مسائل الفقه ، وهو أحسن كتاب يعين على تفهمها . ويوجد فى المؤلفات الإفرنجية كتاب يبحث فى الفقه الشيعى بقلم كرى Querry واسمه « الشريعة الإسلامية » فى ثلاث مجلدات مطبوع بباريس سنة ١٨٧١ م .

(١٠٧) راجع أيضاً نولدكه : « بحوث تذكارية » ص ٣٢٣ .

(١٠٨) نحيل القارىء ، لكى يقف على هذه المسألة ، لعرض جلىّ لها فى ترجمة عمارة اليمنى طبعة ديرينبورج (باريس سنة ١٨٩٧) ص ١٢٦ . وكثيراً ما كان المسح على الخفين موضع مجادلات بين أهل السُّنة والشيعة ، وقد ألف فيه أبو يحيى الجرجانى (الطوسى : قائمة كتب الشيعة ص ٢٨) وجعل عنوان بحثه : « مناقشة بين شيعى ومرجىء (سنى) فى المسح على الخفين وتناول سمك الجِرِّى ومسائل أخرى مختلف عليها » .

وإن سمك الجِرِّى المذكور هنا واسمه أيضاً أنقليس وهو نوع من السمك الثعبانى (انظر لو Low فى نولدكه : « بحوث تذكارية » ص ٥٥٢) ، قد نهت الروايات الشيعية التى ترجع إلى علىّ عن تناوله نهياً باتاً . وفى كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١١١ والكلينى ص ٢١٧ بيانات شيقة فى هذا الموضوع . ويعتقد العامة أن الجرى كغيره من أنوع الحيوان أمة من الآدميين قد مُسخت (الجاحظ ج ٦ ص ٢٤) . ولتحديد هذا النوع من السمك بالنسبة للأنواع الحديثة ، انظر « لو » ونولدكه فى مجلة الأشوريات م ٢٢ ص ٨٥ : ٨٦ .

(١٠٩) « برون » : « ترجمة مختصرة لتاريخ طبرستان لابن اسفنديار » — لندرة سنة ١٩٠٥ (مجموعة جب التذكارية ج ٢) ص ١٧٥ ، وبهذا التعديل لصيغة الأذان أعلن احتلال الشيعة لإقليم سبق أن حكمه أهل السُّنة (راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٧٠ وما بعدها) . وهكذا أعلن القائد جوهر انتصار الفاطميين

فى مسجدى ابن طولون وعمرو فى عاصمة مصر (« جوتيل » — فى مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية م ٢٧ ص ٢٢٠ هامش رقم ٣) . وفى بغداد أضاف الثائر « بساسيرى » الصيغة الشيعية للأذان لكى يعلن سيادة الخلفاء الفاطميين على العراق (تاريخ دمشق لابن القلانسى طبعة أمدروز ص ٨٨) .

وهناك مثال آخر يتعلق بجنوبى بلاد العرب فى كتاب « العقود اللؤلؤية » للخزرجى ترجمة ردهوس ج ١ ص ١٨٢ (لندرة سنة ١٩٠٦ مجموعة جب التذكارية م ٣) . كما حدث نقيض هذا عندما خرجت هذه البلاد عن طاعة الفاطميين وعادت إلى حكم العباسيين ؛ ففى دمشق وفى جهات أخرى من الشام حُذفت هذه العبارات من الأذان (الفارقى فى أمدروز ص ١٠٩ وابن القلانسى ص ٣٠١) ، بل إن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى فى نوبة من نوبات خبله أمر بإعادة الأذان السنى وسائر الشعائر السنية مثل قراءة فضائل الصحابة وإطلاق صلاة التراويح والقول بمذهب مالك إلى غير ذلك (النجوم الزاهرة لأبى المحاسن طبعة پوپر ص ٥٩٩) .

وعندما خضعت إفريقية الشمالية لنفوذ الشيعة فى سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م أمر الحاكم الجديد بقطع لسان المؤذن الورع « عروس » ، ثم قتله بعد أن أسرف فى تعذيبه لأن بعض الناس شهدوا عليه بأنه لم يضف فى أذانه عبارة « حى على خير العمل » التى يحتمها الشيعة . (البيان المُغرب طبعة دوزى ج ١ ص ١٨٦) ، وراجع أوامر الفاتحين الشيعيين التى أمروا بها فى هذه البلاد بعد سقوط دولة الأغالبة (نفس المصدر ج ١ ص ١٤٨ ، ٢٣١) .

(١١٠) تظهر لنا جلياً تفاهة هذه الفروق التعبدية إذا لاحظنا من هذه الوجهة الصيغ القديمة المتباينة للعقائد عند فقهاء أهل السُّنة . وقد ترجم مكدونالد مجموعة من هذه العقائد إلى الإنجليزية فى كتابه : « تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية فى الإسلام » (نيويورك سنة ١٩٠٣) ص ٢٩٣ وما بعدها .

ومن المصنفات القديمة فى العقائد كتاب أبى جعفر أحمد الطحاوى المتوفى سنة ٣٣١ هـ / ٩٣٣ م (المطبوع فى قازان بشرح سراج الدين عمر الهندى المتوفى

سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧١ م) ، ويقدره أهل السُّنة تقديراً عظيما . و « عقائد » الطحاوى تبين النقط الرئيسية التى اختلف الشيعة وأهل السنة بشأنها ، ويحدد المؤلف معناها من وجهة النظر السنية . وفى العبادات ذكر المؤلف اختلافاً واحداً وهو فيما إذا كان مباحاً المسح على الخفين فى الوضوء فى حالات معينة يتعذر فيها غسل القدمين ، والشيعة لا يجيزون المسح .

وفى كتاب الفقه الأكبر المنسوب لأبى حنيفة حضّ للمسلم على توقير الصحابة وعدم تكفير المسلم العاصى بسبب معاصيه ، أما العبادات فلم يذكر شيئاً عنها سوى هذه العبارة : « المسح على الخفين سُنة ، والتراويح فى شهر رمضان سنة ، والصلاة خلف كل بر وفاجر من المؤمنين جائزة » . وهناك وصية أخرى منسوبة أيضاً لأبى حنيفة لا تذكر فى موضوع العبادات سوى « المسح على الخفين » فعن أبى حنيفة : « نقر بأن المسح على الخفين جائز ومن أنكر هذا فإنه يخشى عليه الكفر » .

وروى الغزالى فى هذا المعنى كلاماً عن الزاهد المصرى ذى النون · اختص أهل السنة بثلاث : المسح على الخفين ، وصلاة الجماعة ، وحب السلف . (كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد طبعة القاهرة ، دون تاريخ — ص ٢٢١) . ولا ندرى كيف أضفى أهل السنة على هذا الموضوع التافه وهو المسح على الخفين كل هذه القيمة ، وأحلوه هذه المكانة حتى وضعوه تقريباً على قدم المساواة مع القواعد الإيمانية الرئيسية .

وقد جاء فى ابن سعد ج ٦ ص ١٩٢ ، « عن مغيرة عن إبراهيم قال : من رغب عن المسح فقد رغب عن السُّنة ، ولا أعلم ذلك إلا من الشيطان ، قال فضيل يعنى تركه المسح » . وإن فى اهتمام المسلمين بموضوع المسح إلى هذا الحدلما يبين لنا لماذا زخرت كتب الطبقات ورواياتها بالتفصيلات الوافية المستفيضة عنه ؟ ففى ابن سعد ج ٦ ص ٣٤ ، ص ٧٥ سوابق تشهد بإباحة المسح ، وراجع أيضاً على الأخص الصفحات ٨٣ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٨ من الجزء السادس . وفى الروايات الأخيرة أن علياً توضأ ومسح على جوربيه ونعليه ، وهى روايات يمكن الاستعانة بها فى التدليل على تسامح أهل السنة لأنها أُثرت عن علىّ نفسه ، وصدر عنه الفعل الذى يستنكره الشيعة .

(١١١) راجع « مقالاتى فى التاريخ الأدبى للشيعة » ص ٤٩ .

(١١٢) عن هذا النوع من الزواج انظر كتاب تاريخ الزواج البشرى لوستر مارك ، الفصل الثالث والعشرين ص ٥١٧ وما بعدها ، الطبعة الثانية لندرة سنة ١٨٩٤ .

(١١٣) تيودور جومبرتس « مفكرو الإغريق » ج ٢ / ٤١ .

(١١٤) روبرتسون سميث : « القرابة والزواج عند عرب الجاهلية » الطبعة الثانية ص ٨٣ وما بعدها . و ڤِلْهَوْزِن فى « أخبار جمعية العلوم[1] » جيتنجن سنة ١٨٦٣ ص ٤٩٤ وما بعدها ، ومعاوية للأب لامانس ص ٤٠٩ (مجموعة بيروت ج ٣ ص ٢٧٣) . وفى كتاب حكومة الأم عند عرب الجاهلية لويلكن[2] (أمستردام سنة ١٨٨٤ ص ١٠ وما بعدها) بيانات عن نسخ زواج المتعة ؛ وانظر أيضاً عن زواج المتعة كتاب حوليات الإسلام للأمير كايتانى ص ٨٩٤ وما بعدها .

(١١٥) أبو العباس الجرجانى : « المنتخب من كنايات الأدباء » طبعة القاهرة سنة ١٩٠٨ ص ١٠٨ .

(١١٦) انظر فيما يتعلق بهذا الزواج فى بلاد فارس ، كتاب برون : « عام بين الفرس » ص ٤٦٣ . وقد أورد الأصفهانى فى كتابه « محاضرات الأدباء » طبعة القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ ج ٢ ص ١٤٠ ملاحظة دقيقة للجاحظ تتعلق بتحلل فريق من الشيعة من قيود الرابطة الزوجية . قال الجاحظ « إن جماعة من الرافضة يقولون بالوقاية ، إذا اعتلت امرأة أحدهم استعار امرأة غيره ، بشريطة أن لا يتعرض للفرج بل لما دونه » .

(١١٧) بعد أن عدد القرآن درجات القرابة المانعة من الزواج فى عدة آيات من سورة النساء أباح ما يلى فى الآية الرابعة والعشرين : « وأُحِلَّ لكم ما وراءَ ذلِكم أنْ تَبْتَغوا بأمْوالِكم مُحْصِنينَ غَيرَ مُسافِحِينَ فما اسْتَمْتَعْتم به مِنْهُنَّ فآتوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

---

(١) Wellhausen. *Nachrichten Ges. a. Wiss.*

(٢) Wilken, *Het Matriarchaat bei de oude Arabieren.*

فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُم فِيما تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً » ، وهذه الآية تعززها مجموعة من الأحاديث تحلل المتعة . وذكر « الحازمى » فى كتابه : « الاعتبار فى بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار » (طبعة حيدر أباد سنة ١٣١٩ هـ) ص ١٧٩ أن هذه الآية كانت تقرأ . فما استمتعتم به منهن « إلى أجل مسمى » ، وذلك فى رواية تتصل فى إسنادها على الأخص إلى ابن عباس ، ذكرها فى إحدى فتاواه ، وتتخذ هذه العبارة سنداً لإباحة المتعة . وفى كتاب الانتصار للمرتضى ص ٤٢ بحث موجز عن الخلاف المذهبى فى موضوع المتعة عالجه المؤلف من وجهة النظر الشيعية .

(١١٨) راجع وجهة النظر الشيعية فى كتاب « الشرع الإسلامى الشيعى : الزواج والطلاق » . بحث مطبوع بلوزان سنة ١٩٠٤ ص ٧٩ وما بعدها .

(١١٩) الهاشميات للكميت طبعة هوروفتز ق ٦ ب ٩ :

ويومَ الدَّوحِ دَوْحِ غَدِيرِ خُمٍّ　　أبانَ لهُ الولايةَ لو أُطيعا

(١٢٠) لدينا الآن بحث عن أشهر هذه المعابد وأهمها وهو كتاب : « قداسة الحسين فى كربلاء » لأرنولد نولدكه[1] (برلين سنة ١٩٠٩ المكتبة التركية م ١١) .

(١٢١) لندع جانباً البيانات الخاطئة التى ظهرت قديماً ، ولنقتصر على مثالين حديثين جداً لنثبت سعة انتشاره وتشبث الأذهان به : يقول درنبورج فى ص ٧٦ من بحثه : « علم الأديان والإسلام » (باريس سنة ١٨٨٦) « إن الشيعة تنكر السنة » . وكتب السير ردهوس فى هامشه رقم ٤١٧ على كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجى ص ٧١ : « إن الشيعة وسائر الفرق الخارجة على مذهب أهل السنة تهتم اهتماماً يسيراً بالحديث أو لا تأبه به إطلاقاً » .

بل إن مما يسترعى الانتباه ويستوجب الدهشة أن مسلماً من المشتغلين بالقانون وهو الدكتور رياض غالى عرض فى ٢٥ — ٢٧ من « رسالته فى الحديث كمصدر من مصادر الشريعة الإسلامية » (باريس ١٩٠٩) ، للفرق بين الشيعة وأهل السنة من هذه الوجهة الخاطئة .

---

(١) Arnold Nöldeke. Das Heiligtum al-Husaïns zu Kerbela.

(١٢٢) بدائع البدائه (طبعة القاهرة سنة ١٣١٦ ﻫ) ج ١ ص ١٧٦ على هامش معاهد التنصيص .

(١٢٣) روى عن عبيد الله بن موسى المتوفى بالكوفة فى عهد المأمون سنة ٢١٣ ﻫ / ٨٢٨ م أحاديث فى التشيع منكرة (ابن سعد ج ٦ ص ٢٧٩) ، كما اتهم بالتشيع ورواية أحاديثه معاصره خالد بن مخلد (نفس المصدر ص ٢٨٣) .

(١٢٤) إن المسألة الدقيقة ، وهى قيمة الأحكام التى تتضمنها الأحاديث الصحيحة بالنسبة لغيرها مما يستنبط بطريقة الرأى والقياس ، قد انقسم فقهاء الشيعة أنفسهم بصددها إلى فريقين : فريق الأخباريين الذين يستنبطون أحكام الفقه والشريعة من الأخبار وحدها أى من الأحاديث الموثوق بصحتها وينكرون مناهج النظر العقلى ، وفريق الأصوليين الذين يعدون القياس من أصول الفقه ويقرون الرأى الشخصى ومناهج البحث الشبيهة به ، وينتمى مذهب التشيع السائد فى بلاد الفرس إلى هذا الفريق . وقد حدث بين أهل السنة ما يشبه هذه المجادلة والانقسام فى الرأى ؛ راجع الشهرستانى فى ص ١٣١ فى كلامه على الأخبارية والكلامية وتضاربهم بالسيف وتنابذهم بالتكفير .

(١٢٥) يظهر أن التشيع لم يدخل أرض قمّ الفارسية إلا على أيدى المهاجرين من العرب (معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ١٧٦) .

(١٢٦) الطبرى ج ١ ص ٣٠٨١ .

(١٢٧) كارّاده فو : « الإسلام : العبقرية السامية والعبقرية الآرية فى الإسلام » (باريس سنة ١٨٩٨) ص ١٤٢ .

(١٢٨) عاب المُناظر : « شُهفور بن طاهر الأسفرايني » المتوفى سنة ١٠٧٨ على الإمامية إهمالهم للشعائر الدينية ، ولا شك أنه كان مسرفاً فى نقده ؛ أنظر الفقرات التى اقتبسها فريد لندر فى كتابه « شنَع الشيعة » ج ٢ ص ٦١ .

(١٢٩) انظر كتابى عن الظاهرية ص ٦١ وما بعدها ، ومجلة المستشرقين الألمانية م ٥٣ ص ٣٨٢ ، وانظر أيضاً « كِرى » ج ١ ص ٤٤ فى فصل « الكائنات النجسة

والمواد النجسة » . وجاء فى الحاشية رقم ١٠ : « الـكفرة هم المنشقون من الزنادقة ومن أعداء الإمام على» .

(١٣٠) بولاك : « فارس : البلاد وأهلها »[1] (ليبزج سنة ١٨٦٥) ج ١ ص ١٢٨ .

(١٣١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٥ ، وانظر أيضاً ص ٣٥٦ .

(١٣٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٧١ .

(١٣٣) برون : « عام بين الفرس » ص ٣٧١ .

(١٣٤) رينان : « بعثة إلى فينيقيا » (باريس سنة ١٨٦٤) ص ٦٣٣ ، وانظر أيضاً مقال لامانس : « على الحدود الشمالية لأرض الميعاد » (فى مجلة الدراسات — باريس سنة ١٨٩٩ فبراير ومارس) وفى ص ٥ وما بعدها فى طبعة للمقال على حدة . ومن الخطأ أن نعد المتوالية من غلاة الشيعة كالنصيرية ، فهم إماميون عاديون ، ويذهب فقهاؤهم أحياناً إلى فارس لإكمال دراستهم بها .

(١٣٥) « شرق الأردن » — لندرة سنة ١٨٨١ ص ٣٠٦ . وقد روى « لورتيه Lortet عنهم هذه العادة نفسها فى كتابه : « سوريا اليوم » (باريس سنة ١٨٨٤) ص ١١٥ . ولـكنه عللها تعليلا سخيفاً بقوله : « نرى فى هذه الدقائق الدالة على التعصب بقايا أساليب الديانة اليهودية القديمة وأحكامها » :

أما عن المؤلفات الموضوعة قبل القرن الماضى ، فيمكننا أن نحيل القارىء إلى كتاب ڤولنى : « رحلة فى سوريا ومصر » (باريس سنة ١٧٨٨م) حيث لاحظ هذه الصفة فى أخلاق الشيعة المتوالية عندما ساح فى بلاد الشام فى سنة ١٧٨٣ إلى سنة ١٧٨٥ ، فـكتب عنهم فى ص ٧٩ من كتابه : « إنهم يعتقدون بأن النجاسة تلحقهم من ملامسة الأجانب وهم يخالفون التقاليد المألوفة فى الشرق لأنهم لا يشربون ولا يأكلون من إناء تناول منه من لم يكن من فرقتهم ، كما لا يؤاكلونه على مائدة واحدة » .

وجاء فى مشاهدات أخرى لغير ڤولنى من السائحين بيانات شبيهة بهذه عن « النخاولة » الشيعيين (وصحتها النواخلة أى زارعو النخيل) ، وهم من الشيعة الذين

---

(١) J. E. Polak, Persien, Das Land und seine Rewohner

هاجروا من إقليم المدينة وينسبون أنفسهم للأنصار ، وقد كتب عنهم حاجى خان و « ويلفريدسپارى » فى حجتهما الشهيرة التى دوناها فى كتابهما : « مع الحجاج إلى مكة » (سنة ١٩٠٢ ص٢٣٣) : « إنهم يعدون كلا من اليهود والنصارى أنجاساً . ويدققون فى هذه المسألة كالفرس الذين اقتدوا بتقاليدهم فى شعائر الطهارة » .

(١٣٦) تجد تفصيلات أوفى فى مقالى : « الإسلام والپارسية » (أعمال المؤتمر الدولى الأول لتاريخ الأديان ج ١ ص ١١٩ — ١٤٧ (باريس سنة ١٩٠١) .

(١٣٧) نقلا عن مينان Menant فى مجلة العالم الإسلامى ج ٣ ص ٢١٩ .

(١٣٧) الانتصار للمرتضى ص ١٥٥ ، ١٥٧ . وقد عالج هذه المسألة فى التشريع الشيعى الشيخ المشهور عند الإمامية باسم « الشيخ المفيد » وذلك فى رسالة ذكرها بروكلمان فى كتابه ج١ ص ١٨٨ وقد أخطأ فى ترجمة عنوانها « بخصوص الضحية المذبوحة » وهى تبحث فى ذبح الحيوان غير المصحوب بتلاوة دينية خاصة .

وقد كتب أيضاً بهاء الدين العاملى بحثاً خاصاً فى « حظر تناول لحم الحيوان الذى يذبحه أهل الكتاب » (مخطوط ببرلين — پيترمان Petermann ص ٣٤٧) ؛ وكما حدثت مناقشة فى هذا الموضوع فى بلاط الشاه عباس الصفوى بين فقهاء الشيعة والشيخ خِضْر المارديني الذى أرسله السلطان أحمد سلطان تركيا لعقد معاهدة مع شاه الفرس وسببها ما قاله الشيخ خضر للشاه : « أهل السُّنة يعترضون عليكم بكونكم تحرمون طعام اليهود والنصارى مع كونه مخالفاً للنص ، قال تعالى : وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » . (خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ج٢ ص ١٣٠) والشيعة يحرمون ذبائح من خالفهم من المسلمين لأنهم يعدونهم كفاراً (مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ج ١ ص٢٨٨) .

(١٣٩) أباح عمر بن عبدالعزيز ذبائح السامريين (ابن سعد ج٥ ص٢٦٠) غير أن هذا لم يأخذ به فى كافة البلاد الإسلامية ؛ وانظر فيما يتعلق بالصابئة مجلة المستشرقين الألمانية م ٣٢ ص٣٩٢ . وقد حاول فقهاء أهل السُّنة أن يحرموا ذبائح أهل الكتاب وذلك فى العصور الإسلامية التى تطورت خلالها هذه القاعدة الدينية المتشددة ، ولكنهم عورضوا بالآية الخامسة من سورة المائدة : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم »

وهى قاطعة فى هذه المسألة . انظر أيضاً « شتينشنيدر » : « الأدب الجدلى والتقريظى فى اللغة العربية[1] » ص ١٥١ .

(١٤٠) يبدو أن ما طرأ على هذه الإباحة من تطور فى العصور التالية قد شجع الفقهاء على تقييد هذه الإباحة حتى فى مذهب أهل السنة ؛ انظر كتاب « يونيبول » : « موجز فى الشريعة الإسلامية » ص ٢٢١ ، وعن الزواج بالكتابيات انظر « حوليات الإسلام » لكايتانى ص ٧٨٧ .

(١٤١) راجع كتاب معاوية للأب لامانس ص ٢٩٣ (مجموعة بيروت ج ٣ ص ١٥٧) .

(١٤٢) الانتصار للمرتضى ص ٤٥ . ومن العدل أن نزيد على ما كتبناه أن فقه الشيعة لايمنع التزوج بالكتابيات من اليهود أو النصارى إذا كان نكاحاً دائماً ، كما يبيح المتعة (ص ١٩١) التى يعدها أقل شأناً .

(١٤٣) تفسير سورة البقرة للإمام العسكرى ص ٢١٥

(١٤٤) البلاذرى طبعة دى غوى ص ١٢٩

(١٤٥) الكلينى ص ٥٦٨ . وقد روى عن الإمام جعفر الصادق بأنه قال إن رضاع الولد من يهودية أو مسيحية أفضل من أن يكله أبوه إلى مرضعة من النصيبية (أعداء على) ؛ (كتاب الرجال للنجاجى ص ٢٢٩) .

(١٤٦) الكلينى ص ٣٩ .

(١٤٧) شتروتمان . « الدولة الزيدية[2] » (شتراسبورج سنة ١٩١٢) .

(١٤٨) مجلة الأشوريات (سنة ١٩٠٨) م ٢٢ ص ٣١٧ وما بعدها .

(١٤٩) مما يسترعى النظر خاصة مذهب أحمد بن الكيّال ؛ راجع الشهرستانى طبعة كيورتن ص ١٣٨ .

(١٥٠) ومع ذلك يلاحظ أنه فى أحد البيانات القديمة عن ظهور الإمام وأشراط خروجه ؛ قيل إن من آياته أن تحل الخمر للمسلمين (الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٧٥) .

---

(١) Steinschneider, Polemische und apologetische Literatur in arabischer Sprache.

(٢) Strothmann, Das Staatrecht der Zaiditen.

(١٥١) وفى كتاب «شبيه البلخى» طبعة هيوارج ٤ ص ٨ صورة كريهة من هذا النوع

(١٥٢) دى غوى : « مذكرة فى قرامطة البحرين والفاطميين » (الطبعة الثانية ، ليدن سنة ١٨٨٠) ، وعلى الأخص ص ١٥٨ ـ ١٧٠ .

(١٥١) هُوَينفيلد : مثنوى ص ١٦٩ .

(١٥٤) التنبيه والإشراف للمسعودى طبعة دى غوى ص ٣٩٥ .

(١٥٥) عن مذهب البكطاشية والمؤلفات الخاصة به انظر مانشره هيوار والدكتور رضا توفيق فى مجموعة « جب » التذكارية م ٩ (سنة ١٩٠٩) ، وكتاب يعقوب « البكطاشية من حيث علاقتها بالظواهر القريبة منها [1] » (ميونيخ سنة ١٩٠٩) .

(١٥٦) عدد الغزالى فى اعترافاته فى كتابه « المنقذ من الضلال » الكتب الجدلية التى صنفها للرد عليهم ، ومنها كتاب المستظهرى الذى يحمل اسم الخليفة المُهدى إليه الكتاب . غير أن أطرف هذه المؤلفات وأبدعها من حيث شكلها وعمق فكرتها ، رسالة القسطاس المستقيم ، وهى حوار جدلى بين الغزالى وأحد الإسماعيلية وقد طبعت بالقاهرة (طبعة القبانى سنة ١١١٨ هـ / ١٩٠٠ م) .

(١٥٧) راجع مذكرة دى غوى فى قرامطة البحرين ص ١٧٩ .

(١٥٨) فيما يتعلق بموقف الحشاشين فى حركات الإسماعيلية ، انظر مقال « ستانسلاس جويار » : « زعيم كبير من زعماء الحشاشين فى عهد صلاح الدين الأيوبى » فى المجلة الأسيوية (الفرنسية) سنة ١٨٧٧ ج ١ ص ٣٢٤ وما بعدها . وانظر أيضا رحلة ابن جبير الطبعة الثانية ص ٢٥٢ .

(١٥٩) انظر مقالى : « لا مِساس » فى المجلة الأفريقية سنة ١٩٠٨ ص ٢٥ .

(١٦٠) يبلغ تقريباً تسعة آلاف نسمة . وفى مقال لامانس : «فى بلاد النصيرية» (فى مجلة الشرق المسيحى سنة ١٩٠٠) أو فى ص ٥٤ من طبعة له على حدة ، بيان بمواطن إقامتهم بالشام ، وبالمقال ثبت واف بالمراجع .

(١٦١) راجع كتاب « أبنهايم » : « من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسى » (برلين سنة ١٨٩٩) ج ١ ص ١٣٣ ، وفى هذا الكتاب لمحة إلى فروع الإسماعيلية ،

---

(١) G. Jacob, Die Bektaschijje im Verhältnis zu verwandten Erscheinungen.

ومع ذلك «فالخوجات» لايتمسكون بالنظرية السبعية فى مذهب الإمامة عند الإسماعيلية - وفى مجلة العالم الإسلامى م ٨ ص ٤٩١ بيان عن محاولة التقريب بين الفريقين فيصبحون خوجة إثناعشرية .

(١٦١) مجلة العالم الإسلامى م ٢ ص ٣٧٣ .

(١٦٢) انظر مقال « لوشاتلييه » Le Chatelier فى مجلة العالم الإسلامى ج ١ ص ٤٨ ـ ٨٥ ، وقد شرح « جويار » فى كتابه « زعيم كبير من زعماء الحشاشين » مركز أغا خان ومكانته وتاريخ حياته السابق للفترة التى تكلمنا عنها (فى فارس ومقره بكهك Kehk) ص ٣٧٨ وما بعدها .

(١٦٤) راجع هارتمان فى نشرات معهد اللغات الشرقية ببرلين [1] م ١١ القسم الثانى ص ٢٥ ، ونصادف أيضا اسم قرينة أغا خان بين الأشخاص المشجعين للحركة النسوية وثقافة المرأة بالهند ، (مجلة العالم الإسلامى م ٧ ص ٤٨١) .

(١٦٥) مجلة العالم الإسلامى م ٤ ص ٨٥٢ .

(١٦٦) مترجمة فى مجلة العالم الإسلامى م ٦ ص ٥٤٨ ، ٥٦١ .

(١٦٧) الأغانى ج ١٤ ص ١٦١ .

(١٦٨) دراسات إسلامية ج ١ ص ٦٠٠ .

(١٦٩) القزوينى طبعة قستنفلد ج ١ ص ٣٩٠ .

(١٧٠) « هارناك » : « بعوث المسيحية وانتشارها » ص ٤٢٩ .

(١٧١) سليمان الأطنى . «الباكورة السليمانية» (بيروت سنة ١٨٦١) ص ١٠ ، و« تاريخ النصيرية ودياناتهم » « لدوسو» Dussaud (باريس سنة ١٩٠٠) ص ١٦٤

(١٧٢) فى كتاب « دوسو» السالف الذكر نبذة فى المراجع ، وانظر أيضا « سجلات فى علم الأديان » سنة ١٩٠٠ ص ٨٥ وما بعدها .

(١٧٣) « سجلات فى علم الأديان » ١٩٠٠ ص ٩٠ .

---

(١) M. Hartmann, Mitteilungen des Seminars f. orient. Spr zu Berlin.

حواشى القسم السادس

الحركات الدينية الأخيرة

(١) وستر مارك : «أصل الآراء الخلقية وتطورها» ج ١ (لندرة سنة ١٩٠٧) ص ١٦١ . وفى ص ٥١٩ وما بعدها من الجزء الثانى من هذا الكتاب أمثلة تتعلق بهذا الموضوع استمدها المؤلف من بيئات الأقوام البدائيين من وجهة تقاليدهم فى عبادة الموتى .

(٢) لا يزال هذا الشعور فى الوقت الحاضر غالباً على العرب الذين لم يمسهم أثر العوامل التاريخية فى التطور الإسلامى . وفى عدة جهات من مواطن إقامتهم ، يعبرون بالكلمة العامية « سِلْف » أى عادة الأجداد عن فكرة السُّنة بهذا المعنى ، انظر « لاندبرج » : دراسات فى لهجات بلاد العرب الجنوبية ج ٢ (ليدن سنة ١٩٠٩) ص ٧٤٣ .

(٣) انظر دراسات إسلامية ج ١ ص٩ : ١٢ .

(٤) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص٣٧ ، ج ٨ ص ٢٩ . وقد وصف القرآن تعاليم الإسلام بأنها ذكر محدث : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » (سورة الأنبياء :٢) ،« وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ » (سورة الشعراء : ٥٠) . ومع ذلك فقد فهم المفسرون من كلمتى « ذكر محدث » بأنه ذكر ينزل سورة بعد سورة وآية بعد آية .

(٥) غاب عنى للأسف المصدر الذى اقتبست منه هذه العبارة .

(٦) انظر « مكدونالد » : « التربية الخلقية للناشئة من المسلمين » (المجلة الدولية للأخلاق — فيلادلفيا سنة ١٩٠٥ ص ٢٩٠) .

(٧) يجب أن تستند عبارات المجاملة فى الحياة الاجتماعية إلى أحاديث صحيحة حتى تقرها السنة المتشددة ، عن عطاء ابن السائب أن أبا عبد الرحمن السلمى كان إذا

قيل له : كيف أنت ؟ قال بخير ، أحمد الله . قال عطاء : فذكرتُ ذلك لأبى البخترى فقال : أنّى أخذها ؟ (ابن سعد ج ٦ ص ١٢١) . وهذا هو السبب فى أن السنة حظرت على المسلم التفوه ببعض عبارات التحية التى ليست فى ذاتها بالطيبة ولا بالرديئة ، انظر مجلة المستشرقين الألمانية م ٣٨ ص ٣١٠ ، وقوت القلوب لأبى طالب المكى (طبعة القاهرة سنة ١٣١٠) ج ١ ص ١٦٣ ؛ وانظر أيضاً مجلة العالم الإسلامى م ٣ ص ١٣٠ .

(٨) انظر المراجع المذكورة فى كتاب « بيت الصديق » لمحمد توفيق البكرى (القاهرة سنة ١٣٢٣ ص ٤٠٤ وما بعدها) .

(٩) مجلة فينا لمعرفة الشرق م ١٥ ص ٣٣ وما بعدها .

(١٠) الزُرقانى على الموطأ طبعة القاهرة ج ١ ص ٣٦٠ .

(١١) مجلة العالم الإسلامى م ٣ ص ٦٠ .

(١٢) من بين البواعث التى حملت المراكشيين على خلع سلطانهم عبد العزيز ما اقترفه من أعمال مخالفة للإسلام ، ذكروا منها أمره بتأسيس بنك ينتج فوائد مالية ، وهذه كبيرة من الكبائر ، مجلة العالم الإسلامى م ٥ ص ٢٤٨ . وعن الهواجس الدينية التى تثيرها هذه المسألة عند مسلمى الهند فى الوقت الحاضر ، انظر بحثاً حديثاً « لهارتمان » فى نشرات معهد اللغات الشرقية م ١٢ القسم الثانى ص ١٠١ ، وراجع أيضاً كتاب ابن على فكَر : « الربا فى الشريعة الإسلامية » (ليون سنة ١٩٠٨) وعلى الأخص ١١٩ ، ١٢٨ . وفى كتاب يوينبول « موجز فى الشريعة الإسلامية » ص ٢٧٠ وما بعدها بيان بالأحكام الخاصة بالربا فى الإسلام ، وفى صحيفة ٤٥٨ ثبت بالمراجع .

(١٣) فى خطاب العرش ، الذى افتتح به سلطان تركيا الانعقاد الجديد للبرلمان فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٠٩ ، بدأ بالإشارة « إلى النظام النيابى الذى أمر به الشرع » .

(١٤) يذهب العلماء المسلمون فى الوقت الحاضر إلى أنه من البديهيات اعتبار النهضة الإسلامية الحديثة كعودة للحالة القديمة التى أقرها النبى وأوصى بها (الدكتور رياض

غالى : « فى الحديث كمصدر من مصادر الشريعة الإسلامية ص ٥) وقد حملت هذه الفكرة فى السنين الأخيرة ، كثيراً من فقهاء المسلمين على وضع المؤلفات التقريظية العديدة للدفاع عن الإسلام .

(١٥) الديانات القومية والديانات العالمية ص ٥٤ (بالإنجليزية) .

(١٦) دراسات إسلامية ج ٢ ص ٢٧٧ وما بعدها ، وكتاب المرابطين لدوتيه (باريس سنة ١٩٠٠ ، ومستخرج من مجلة تاريخ الأديان م ٤٠ ، ٤١) وانظر أيضاً مذكرتى فى « تقدم العلوم الإسلامية فى السنوات الثلاثين الأخيرة » (الحوليات البروسية سنة ١٩٠٥ م ١٢١ ص ٢٩٢ : ٢٩٨ — مؤتمر العلوم والفنون ــ المعرض الدولى سانت لويس سنة ١٩٠٤ ج ٢ ص ٥٠٨ : ٥١٥) .

(١٧) « يوليوس يوتنج » : يوميات رحلة فى داخل بلاد العرب » ج ١ (لندن ١٨٩٦) ص ١٥٧ وما بعدها ، وفى كتاب يونبيول « موجز فى الشريعة الإسلامية » ص ٢٨ هامش رقم ٢ ثبت أوفى بالمراجع عن الوهابيين .

وإن معارضة الوهابيين لكافة التجديدات التى ليس لها أساس فى سنن الإسلام القديمة ، قدأدت أحياناً إلى إساءة فهم المذهب الوهابى . لقد اعتقد البعض أن الوهابيين يعتمدون على القرآن وحده فى إحياء الإسلام القديم ، فمثلا قيل هذا فى كتاب يصف نزعات الوهابيين وصفاً بارعا . وهو كتاب « شارل ديدييه » « إقامة مع شريف مكة العظيم[1] » ص ٢٢٢ ــ ٢٥٦ من ترجمته الألمانية المطبوعة بليبزج سنة ١٨٦٢ . وارتكب البارون « نولد Nolde » هذا الخطأ نفسه فى كتابه : « رحلة فى داخل بلاد العرب وكردستان وأرمينية[2] » . (برنزويك سنة ١٨٩٥) عندما قال عن الوهابيين « إنهم ينكرون الحديث ، ومن ثم ينكرون السُّنة » . والعكس هو الصحيح.

(١٨) رحلة ابن جبير الطبعة الثانية طبعة تريت ودى غوى ص ١٩٠ .

(١٩) فتزشتين Wetzstein[3] : تقرير عن رحلة حوران (برلين سنة ١٨٦٠) ص ١٥٠ .

---

(١) Ch. Didier, Ein Aufenthalt bei dem Gross-Scherif von Mekka.

(٢) Ed. Nolde, Reize nach Innerarabien, Kurdistan und Armenien

(٣) Wetzstein, Reisebericht über Hauran und die Trachonen.

(٢٠) انتقد الفقيه السنى الغيور محمد العبدرى المعروف بابن الحاج والمتوفى سنة ٧٣٧ هـ / ٧ — ١٣٣٦ م تلك الظاهرة التى تعد مقاومة البدع التى تغلغت فى تقاليد الناس وعاداتهم ثورة على السُّنة ، وقد اعتمد فى نقده على أمثلة استخلصها من أبواب العبادات راجع كتابه مدخل الشرع الشريف طبعة الإسكندرية سنة ١٢٩٣ ج ١ ص ٥٤ ، ص ٢٤٩ ، ج ٢ ص ٧٥ ·

(٢١) انظر أيضاً مجلة الأشوريات م ٢٢ ص ٣٣٧ ·

(٢٢) « منشورات بهاء الله[1] » طبعة روزن (مجمع بطرسبورج سنة ١٩٠٨) ج ١ ص ١١٢ .

(٢٣) منشورات بهاء الله ج ١ ص ١٩ ، ٩٤ .

(٢٤) مجلة الجمعية الأسيوية الملكية بانجلترة سنة ١٨٩٢ ص ٣٢٦ — ٣٣٥ .

(٢٥) منشورات بهاء الله ص ٧١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، وعلى الأخص الفصل الرابع والثلاثين بأكمله ، إذ أنه جدل موجه إلى أهل البيان .

(٢٦) تومانسكى (مذكرات المجمع الإمبراطورى بسنت بطرسبورح سنة ١٨٩٩ السلسلة الثامنة م ٣ رقم ٦) .

(٢٧) منشورات ١٨ ، ٢٠ ، ٩٤ ، ٩٣ .

(٢٨) الكتاب الأقدس ٢١٢ ، ٢٧٦ ، ٤٦٨ .

(٢٩) الآنسة إئل روزنبرج « البهائية وتعاليمها الخلقية والاجتماعية » (فى أعمال المؤتمر الدولى الثالث لتاريخ الأديان أوكسفورد سنة ١٩٠٨ ج ١ ص ٣٢٤) .

(٣٠) الكتاب الأقدس ١٦٤ ، ٣٨٥ .

(٣١) منشورات ٥٤ ·

(٣٢) الكتاب الأقدس ١٤٥ ، ١٥٥ وما بعدها ، ٢٣٤ ، ١٧٩ ، ٢٥٢ ، ٣٧١ ، ٣٨٦ ·

(٣٣) الآنسة « روزنبرج » ص ٢٢٣ .

---

(١) Sendschreiben des Beha Allah.

(٣٤) « هيوليت دريفوس » . مجموعةهارتويج ديرنبورج (باريس سنة ١٩٠٩) ص ٤٢١ .

(٣٥) الـكتاب الأقدس ٢٨٤ — ٢٩٢ .

(٣٦) راجع البيانات الخاصة بهذه النقطة فى مجلة العـالم الإسلامى م ٩ ص ٣٣٩ — ٣٤١ .

(٣٧) نجد فى كتاب : « الأحوال فى فارس الحاضرة كما هى مبينة فى يوميات رحلة إبراهيم بك[1] » ، الذى ترجمه ولتر شولتز (سنة ١٩٠٣) ، وهو كتاب معادى للبابية ، صوراً لبهاء الله وعباس أفندى وصورة لقبر الأول فى عكا ؛ كما نجد صورة « لصبح الأزل » فى كتاب « برون » : التاريخ الجديد للباب (كمبردج سنة ١٨٩٣) .

(٣٨) كتب « أوسكارمان » فى صحيفة الآداب الشرقية سنة ١٩٠٩ ص ٣٦ وما بعدها مقالا عن كتابه ونبذة فى محتوياته .

(٣٩) « مؤسسة بهائية » : مشرق الأذكار الأشقبادية (مجموعة هارتويج ديرنبورج ص ٤١٥ وما بعدها) .

(٤٠) فى مجموعة « العالم الإسلامى اليوم » (بالإنجليزية) ص ١٢٩ .

(٤١) كتبت الآنسة جان ماسون » فى عدد يناير سنة ١٩٠٩ من مجلة المجلات الأمريكية عن تقدم البهائية وسعة انتشارها ، وطالبت بأن يطلق عليها « الديانة النهائية » . ويمكننى الآن أن أحيل القارىء إلى البحث الموسوعى عن البابية وتاريخها للأستاذ «برون » فى دائرة معارف الدين والأخلاق لهيستنجز م٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٨ ، وقدظهر بعد كتابة هذا الفصل . وفى هذا البحث بيان بالإنتاج الأدبى للبهائيين الغربيين . ونضيف لهذه المراجع : كتاب «هيوليت دريفوس» : « بحث فى البهائية ؛ تاريخها وقيمتها الاجتماعية » (باريس سنة ١٩٠٩) الناشر لرو » ؛ وكتاب «هرمان رويمر» :

---

(١) Walter schulz, Zustände im heutigen Persien, wie sie das Reisebuch Ibrahim Beys enthüllt.

« البابية والبهائية أحدث فرقة فى الإسلام » (بوتسام سنة ١٩١٢)[1] .

(٤٢) نشرت أحاديث وخطب عبد البهاء فى الولايات المتحدة فى «نجم الغرب» (بالإنجليزية) ج ٣ رقم ١٢ (سان فرنسيسكو) وكذا أحاديث الحكمة لعبد البهاء عباس أفندى فى شيكاغو من ٣٠ أبريل إلى ٥ مايو سنة ١٩١٢ ، حيث نشرت بها خطبة « التكريس » .

(٤٣) راجع أيضاً البحث المخطوط الذى أشار إليه « برون » فى مجلة الجمعية الملكية الأسيوية سنة ١٨٩٢ ص ٧٠١ .

(٤٤) انظر رحلة ابن بطوطة طبعة باريس ج ٤ ص ٢٩ . ويقول فى ص ٢٢٣ عن إمارات الهند بأن غالبية أهلها من الكفار تحت الذمة ، فهم واليهود والنصارى يدفعون الجزية . وفى القرن الرابع عشر سمح أحد أمراء الهند المسلمين للصينيين بأن يشيدوا لهم معبداً (باجودا) فى الأرض الإسلامية مقابل جزية يدفعونها (ابن بطوطة ج ٤ ص ٢) .

(٤٥) نشر « وستكوت Westscott» فى سنة ١٩٠٨ كتاباً عن « المبادلات بين عقائد الهندوكية والإسلام » ، ولكن هذا الكتاب للأسف فى متناول يدى .

(٤٦) مثل أثر نظام الطبقات الذى بحثه كوهلر فى « مجلة علم الأديان المقارنة[2] » سنة ١٨٩١ م ١٠ ص ٨٣ وما بعدها ؛ وفى دراسات إسلامية ج ٢ ص ٣٣٣ بيان بحظر زواج الأرامل ، ومع ذلك فالتقليد الأخير قد أثبت المقدسى وجوده خارج بلاد الهند فى إقليم جورجان (المقدسى طبعة دى غوى ص ٣٧٠) وراجع أيضاً هذه الظواهر فى كتاب « جون كاميل أومان » : « متصوفة الهند وزهادها وأولياؤها » (لندرة سنة ١٩٠٥) ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٤٧) انظر « بلوخ » فى مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٢ ص ٦٥٤ هامش ٢ .

(٤٨) « هيرجرونيه » : « الأتجهريون *De Atjèhers* (مجلدان ، باتاڤيا وليدن سنة ١٨٩٣ ، ٩٤) وترجمها « سليڤان » إلى الإنجليزية (مجلدان ، ليدن

---

(١) Hermann Roemer, Die Babi-Behai, die Jüngste Muhammeda-nische Sekte.

(٢) *Zeitschr. für Vergl. Rechtswissenschaft.*

سنة ١٩٠٦) . ولهيرجرونيه كتاب آخر : « بلاد جاوة وسكانها[١] » (بالهولندية كالكتاب السابق) طبع فى باتاڤيا سنة ١٩٠٣ وكتاب ويلكنسون : « أوراق عن رعايا الملايو ؛ حياتهم وعاداتهم » (كاولا سومپور سنة ١٩٠٨) . وانظر أيضاً مجلة العالم الإسلامى م ٧ ص ٤٥ وما بعدها ، ص ٩٤ ، ص ١٨٠ : ١٩٧ .

(٤٩) « توماس أرنولد » « بقايا الهندوكية بين مسلمى الهند » (أعمال المؤتمر الدولى الثالث لتاريخ الأديان ج ١ ص ٣١٤ وما بعدها .

(٥٠) فى كتاب هوبر جانْسِن : « انتشار الإسلام[٢] » (فريدريسكهاڤن سنة ١٨٩٧) ص ٢٥ ـ ٣٠ توجد المراجع الخاصة بهذه الحركات المعقدة ، كما توجد به بيانات عن مدى انتشارها وإحصاء آثارها ونتائجها .

(٥١) إن ترجمة كتاب تقوية الإيمان والتعليق عليه هى فى ص ٣١٠ ـ ٣٧٢ من مجلة الجمعية الملكية الأسيوية م ١٣ (سنة ١٨٥٢) . وانظر حالياً مادة أحمد البدوى المكتوبة بعناية فائقة فى دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص٢٠١ عمود ب (من النسخة الألمانية) .

(٥٢) « أومان » : « متصوفة الهند وزهادها وأولياؤها » ص١٢٦ .

(٥٣) مجلة الجمعية الملكية الأسيوية سنة ١٩٠٧ ص ٣٢٥ ، ٤٨٥ ، وكتاب « جريرسون » ص ٥٠١ ــ ٥٠٣ ، ٥٢٨ .

(٥٤) اعتبر « أومان » مذهب « كبير » متأثراً بالإسلام .

(٥٥) بحث أومان هذه الفكرة فى كتابه ص ١٣٢ ، أما « بلومفيلد » فى ص ١٠ من كتابه « ديانة الڤيدا ، ديانة الهند القديمة » (بالإنجليزية) (المحاضرات الأمريكية فى تاريخ الأديان ، السلسلة السابعة سنة ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧) ، فيصف هذا النظام الدينى بهذه الكلمات « امتزج الإسلام بالهندوكية فى ديانة السيخ المُهَجَّنة » . غير أن « بريديل كيث » ناقضه فى مجلة الجمعية الملكية الأسيوية

---

(١) *Het Gayoland en zeine bewoners*

(٢) Hubert Jansen, *Verbreitung des Islams.*

سنة ١٩٠٨ ص ٨٨٤) راجع أيضاً الآن مجلة العالم الإسلامى م ٤ ص ٦٨١ ومابعدها ، م ٩ ص ٣٦١ — ٤١١ ، وكتاب « انطوان كاباتون » : « سيخ الهند والسيخية » (بالفرنسية) ، وكتاب « ڤنسون » : «ديانه السيخ » (بالفرنسية) .

(٥٦) « موكايف » فى أعمال المؤتمر الدولى الرابع عشر للمستشرقين (الجزائر سنة ١٩٠٥) ج ١ ص ١٣٧ — ١٦٣ .

(٥٧) « أومان) ص١٣٣ .

(٥٨) دائرةالمعارفالإسلامية (النسخة الألمانية) ج ١ ص٨٩ عمود ب . وينبغى أن لا نفهم من عبارة تائبى لبنان (المصدر نفسه سطر ٣٨) أنهم الدروز ، ولكنهم زهاد من المسلمين آثروا جبال لبنان بالإقامة بين ربوعها (ياقوت ج ٤ ص ٣٤٨) . وإن المنطقة الجبلية على الأخص وهى إقليم أنطاكية ومصيصة التى تسمى باللُكَّام (= أمانوس : انظر كتاب معاوية للامانس ج ١ ص ١٥) هى التى اشتهرت كمنتجع لكبار الأولياء ، « عن أبى عبد الله السكندرى قال : كنت بجبال لُكَّام أسيح راجياً رؤية الرجال أو النساء من القوم الصالحين » . روض الرياحين لليافعى ص ٤٩ ، ٥٤ ، ١٥٦ . والشام هى أرض الأولياء والتائبين ، انظر مجلة المستشرقين الألمانية م ٢٨ ص ٢٩٥ .

(٥٩) انظر « بلوخ » فى مجلة المستشرقين الألمانية م ٦٣ ص ١٠١ .

(٦٠) مجلة تاريخ الأديان م ٥١ ص١٥٣ وما بعدها .

(٦١) وضّح هذه الحركة الأخيرة « ڤامبرى » فى مقاله . « جهود التتر فى الثقافة » فى المجلة الألمانية[١] سنة ١٩٠٧م ٣٣ ص٧٢ — ٩١ . وفيما يتعلق بالتقدم المطرد فى التعليم فى هذه البقاع انظر مقال « مُلاّ أمينوف » : « تقدم التعليم عند مسلمى الروس » فى مجلة العالم الإسلامى م ٩ ص٢٤٧ — ٢٦٣ ، ٢٩٥ .

(٦٢) الأصول من الجامع الكافى للكايبى ص ٣٥٠ .

---

(١) H. Vambéry, Die Kulturbestrebungen der Tataren (Deutsche Rundschau).

(٦٣) انظر هارتمان فى نشرات معهد اللغات الشرقية ببرلين السنة الحادية عشرة القسم الثانى ص ٢٥ .

(٦٤) إن البحث المفصل لهذه الحركة واتجاهاتها ، بقلم واحد ممن كان له أثر فعال فيها ، قد أورده هو تسما فى مجلة العالم الإسلامى ج ١ (سنة ١٩٠٧) عدد فبراير تحت عنوان : « الحركة الدينية للأحمدية فى الهند الإنجليزية » .

(٦٥) ينبغى أن نذكر هنا حركة الانشقاق الدينى « تشايهرنيه «Tchaïherinye» التى أثارها فيما بين سنتى ١٨٦٠ ، ١٨٧٠ « ما هوالونج «Ma-hua-long» الذى ادعى النبوة واتصل بثورة المسلمين الصينيين فى مقاطعتهم (قانصوه) . وهذه الفرقة لا تزال باقية منذ ذلك الوقت .

غير أن المعلومات التى لدينا عن هـذه الفرقة الصينية وتاريخها السابق وطبيعتها واتجاهاتها (« سين كياو » ومعناها الدين الجديد وتقابلها « لاو كياو » أى الدين القديم) لا تزال ناقصة وغامضة حتى أنه لا يتيسر لنا أن نعرض فى هذا الكتاب بياناً وافياً عنها . وقد وجهت بعثة « أولون Ollone » الفرنسية أخيراً جهودها لتقصّى أخبارها انظر مجلة العالم الإسلامى م ٥ ص ٩٣ ، ٤٥٩ ، وعلى الأخص م ٩ ص ٥٣٨ ، ٥٦١ وما بعدها . وعن الحركات الدينية القديمة فى الإسلام الصينى انظر بحث دى جروت: « عن حركة الوهابيين فى قانصوه[1] » سنة ١٧٨١ — ١٧٨٩ محاضرات المجمع العلمى فى أمستردام سنة ١٩٠٣ ص ١٣٠ — ١٣٣ .

(٦٦) ومن المحاولات العقيمة التى من هذا القبيل الحادثة التالية الجديرة بالذكر : « أرادت حكومة إقليم فارس فى القرن الرابع عشر إدخال التشيع كمعتقد رسمى غير أن المقاومة العنيدة وحدها التى أبداها قاضى قضاة شيراز : مجد الدين أبو إبراهيم البـالى (المتوفى سنة ٧٣٦/١٣٥٥م بشيراز بالغاً من العمر أربعاً وتسعين سنة) قضت على هذا المشروع قضاءاً تاماً ، وقد تعرض من أجل هذا إلى محن شديدة .

وقد عين مُجد الدين هذا قاضياً للقضاة منذ بلوغه الخامسة عشرة ، ثم عزل من منصبه وشيكا ، وخلفه البيضاوى الذى اشتهر باشتغاله بالتفسير وعلم الكلام ، ثم أعيد

---

(١) J. J. de Groot, Over de Wahabietenbewegung in Kansoeh Verslagen en Mededeelingen, Akad. d. Wetensch., Letterkunde iV).

لوظيفته بعد انقضاء ستة أشهر لـكى يتركها من جديد بعد قليل للبيضاوى . وقدخلع مجد الدين مرة أخرى ، ولـكنه ظل متقلداً منصبه بلا انقطاع حتى وفاته (طبقات الشافعية للسبكى ج ٦ ص ٨٣ حيث الإشارة إلى أنه شغل وظيفته خمسة وسبعين عاماً ينبغى أن ترجع إلى خطأ الناسخ) .

(٦٧) انظر عنه مجلة المشرق م ١١ ص ٢٧٥ حيث اعتبرت سنة ١١٧٠ هـ — ١٧٥٦ م سنة وفاته ، وليس بمجلة المشرق إشارة لـكتاب السويدى المذكور هنا .

(٦٨) كتاب الحجج القطعية لاتفاق الفرق الإسلامية (القاهرة طبعة الخانجى سنة ١٣٢٣ هـ) .

(٦٩) مجلة العالم الإسلامى م ١ ص ١١٦ ، م ٢ ص ٣٨٩ وما بعدها .

(٧٠) مجلة العالم الإسلامى ج ١ ص ١٦٠ ، ج ٢ ص ٥٣٤ .

(٧١) مجلة العالم الإسلامى م ٩ ص ٣١١ (أكتوبر سنة ١٩٠٩) .

* * *

استدراكات هامة

فى ص ٦٧ س ١٦ ، لم يورد النص الأصلى لعبارة سفيان الثورى ، وهى كما فى كتاب جامع بيان العلم وفضله : « إنما العلم عندنا الرخصة من ثقة ، فأما التشديد فيحسنه كل أحد » .

فى ص ٧٢ س ٢٢ ، لم يورد نص الحديث وصحته كما فى أسد الغابة : « ستشرب الخمر أمتى يسمونها بغير اسمها ، يكون عونهم على شربها أمراؤهم » .

فى ص ٧٥ س ٩ ، لم يورد نص البيت ، وهو كما فى النقائض طبعة بيفان :

ولا خير فى مال عليه أَلِيَّةٌ ولا فى يمينٍ غيرُ ذات مخارم

[أَلِيّة يعنى يميناً ، ومخارم جمع مَخرِم ، وهو طريق يمضى فيه التحليل ؛ والمعنى : لاتحلف يميناً ليس لك فيها مخرج ولا خير]

فى ص ٩٣ س ٧ ، لم يورد نص الحديث وصحته كما فى مسند أحمد : « من ترك الجمعة ثلاث مرار من غير عذر طبع الله على قلبه » . وأورده ابن القيم فى رواية أخرى فى كتابه « الصلاة وأحكام تاركها » . وهو : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه » .

فى ص ٩٣ س ١٠ ، نص الحديث كما أخرجه الترمذى هو : « اللهم ألهِمْنى رشدى ، وأعِذْنى من شر نفسى » .

فى ص ٩٤ س ٤ ، معنى الكلمة الأفرنجية chronologie ، فى سياقها هذا ، هو : الترتيب الزمنى .

فى ص ٩٦ س ٧ ، الترجمة ابتداءاً من كلمة « لهذا » هى هكذا : « قد نُسب للنبى وعلىّ أحاديث وروايات ، ندّدا فيها تنديداً صريحاً ، بما سوف يبذله القدرية من جهود لتأييد مزاعمهم وتبريرها ، بطريق الجدل والمناظرة ، وأذاقوها فيها كل صنوف الإساءة والسخرية » .

فى ص ٩٨ س ٢ . نص أبيات شاعر الأمويين هو :

الله أعطاكم من علمه بكم حكما ، وما بعد حكم الله تعقيب
أنت الخليفة للرحمن يعرفه أهل الزبور، وفى التوراة مكتوب

النص الأصلى للاستشهاد الذى أورده « جولد تسيهر » فى ص ٩٨ س ٧ ، هو بيت من الشعر ورد فى الأغانى وهو :

وإن أمير المؤمنين وجرحه لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

ص ١٠٥ س ٨ ، بيان فكرة « الوجوب » عند المعتزلة هى : « بما أن الله تعالى خلق الإنسان ، قَصْد أن ينيله السعادة ، وجب عليه أن يبعث له بالرسل لإرشاده إلا الطريق السوى وتعريفه بالوسائل والأسباب » .

ترجمة سطر ١٣ — ١٥ فى ص ١١٠ ، هى : ظلت عاملا قويا فى بذر بذور الشقاق فيما بينهم ، وقويت صفوفهم بانحياز المتكلمين الذين اشتدت وساوسهم ، إلى جانبهم، كما انحاز لهم السنيون متبعو التقاليد القديمة .

إن نص كلام الأشعرى فى ص ١١٨ ابتداء من السطر الثالث والسطور التالية ، يختلف فى بعض المواضع عما استشهد به « جولد تسيهر » . وقد نقله عن كتاب الإبانة عن أصول الديانة طبعة حيدر أباد سنة ١٣٢١ هـ ، ص ٤١ ، وعبارة الأشعرى بنصّها هى :

إن كلام الله فى اللوح المحفوظ . . . الله عز وجل قال : « بل هو قرآنٌ مجيدٌ فى لوْحٍ محفوظ » . فالقرآن فى اللوح المحفوظ ، وهو فى صدور الذين أوتوا العلم ، قال الله عز وجل : « بلْ هُوَ آياتٌ بيِّناتٌ فى صُدُورِ الذين أوتُوا العِلْمَ » . وهو متلو بالألسنة ، قال الله تعالى : « لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ » .

والقرآن مكتوب فى مصاحفنا فى الحقيقة ، محفوظ فى صدورنا فى الحقيقة ، متلو بألسنتنا فى الحقيقة ، مسموع لنا فى الحقيقة ، كما قال عزّ وجل : « وإنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشرِكينَ اسْتجارَكَ فأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كلاَمَ اللهِ » (التوبة : ٦) . . .
وكلام الله عز وجل لا يقال يُلفظ به ، وإنما يقال : يُقرأ ويُتلى ويُكتب ويحفظ .

وإنما قال قوم : « لَفْظُنا بالقرآن » ، ليثبتوا أنه مخلوق ويزيّنوا بدعتهم . . .
ولا يجوز أن يقال إن شيئا من القرآن مخلوق ؛ لأن القرآن بكماله غير مخلوق » ،

فى ص ١٢٥ س ٢٣ ، الحديث مترجم ، ونصه كما ورد فى الموطأ : « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » .

الحديث فى ص ١٢٦ س ١٢ مترجم ، ونصه كما أخرجه البخارى عن أبى هريرة : « يقال لجهنم هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها (أى على جهنم) ، فتقول : قطٍ قطٍ (أى كفى كفى) .

هذا المبدأ فى ص ١٢٨ س ٣ مترجم ، ونصه كما ورد فى المواقف للإيجى والجرجانى هو : « إن الدلائل النقلية لا تفيد اليقين » .

أبيات محيي الدين بن عربى فى ص ١٧٠ س ١٦ ، ينقصها مطلعها ، وهو :
لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى   إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى

* * *



الفهرس

صفحة

المقدمة ... ٣
مقدمة المؤلف ... ٧
القسم الأول : محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام ... ٩
القسم الثانى : تطور الفقه ... ٤٣
القسم الثالث : نمو العقيدة وتطورها ... ٧٧
القسم الرابع : الزهد والتصوف ... ١٣٤
القسم الخامس : الفرق ... ١٨٧
القسم السادس : الحركات الدينية الأخيرة ... ٢٥٠
حواشى القسم الأول ... ٢٩٧
حواشى القسم الثانى ... ٣٠٩
حواشى القسم الثالث ... ٣٢٧
حواشى القسم الرابع ... ٣٣٩
حواشى القسم الخامس ... ٣٦٣
حواشى القسم السادس ... ٣٩٥
استدراكات هامة ... ٤٠٥